نائل الطوخي

الخروج من البلاعة

رواية

الخروج من البلاغة

نائل الطوخي

الخروج من البلاعة

رواية

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © نائل الطوخي ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

الطوخي، نائل.
الخروج من البلاعة: رواية / نائل الطوخي – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٨.
٤٥٦ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467774
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٤٩٧ / ٢٠١٧

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: سيمون سمير

مقدمة

إن حياة الإنسان مثل بحر كبير، أو غابة كبيرة، أو مدينة كبيرة.

مدينة كبيرة تحيط بنا؛ من تحت المدينة ومن فوق المدينة ومن الجانبين المدينة، ولا نراها، لأننا نمشي فيها بهدف محدد، الوصول من النقطة أ إلى النقطة ب، وكذلك حياتنا لا نراها، للسبب نفسه. لا يعني هذا أن من يرون حياتهم غير موجودين، فبعد الوصول إلى النقطة ب، وقبل اتخاذ قرار الوصول إلى النقطة ج، سيتبقى للإنسان وقت فراغ، يشغله بأن يتذكر حياته أو يفسرها، أي أن يرى مدينته.

العقل البشري، في وقت فراغه، يعمل مثل المحرر الصحفي، كل دوره هو إخراج قصص متماسكة وذات معنى، وعدوته الأبرز هي المعلومة.

المعلومة عدوة وليست عدوة، فمن ناحية، أدرك الإنسان من قديم الأزل أهمية المعلومة، أدرك أنها حجر الزاوية في عملية تذكر حياته وتفسيرها، أدرك أن ليس بإمكانه تحديها ولا مقارعتها بالسيف، ولهذا فالشخص المشغول بالتفسير والتذكر، مثله مثل المحرر الصحفي،

يرقص حول المعلومة وأمامها وخلفها، ينشل قطعة من جيبها مرة، ينصب نصباية عليها مرة، يغرس خنجرًا لا يُرى في خصرها مرة، يحبها مرة ويتحاشاها مرة، ليكمل سيطرته عليها في النهاية، من دون أن يعلن أبدًا أنه نجح في السيطرة عليها. بالعكس، لا بد من إعلان الولاء لسيدة العالم: أنا وصلت إلى ما وصلت إليه بفضل توجيهات سيدتي وملكتي المعلومة، وما كان لي أن أصل لولا توجيهاتها.

المعلومة، رغمًا عن كونها متناهية الصغر، أو لأنها كذلك (فتاريخ الإنسان يخبرنا أنه نجح دائمًا في السيطرة على الأشياء الكبيرة وفشل مع الأشياء الصغيرة)، هي العنصر الأهم في القصة البشرية، وهي تعمل بالضبط مثل الجرثومة، صغيرة وغير عاقلة ولكن بيديها قلب مستقبل أمم، أما الفارق فهو أن الإنسان استطاع الاحتيال على المعلومات ولم يستطع الاحتيال على الجراثيم. وفارق آخر يتعلق بالقدرة المادية أمام هالة المجد، فالمعلومة تقدَّم لها دائمًا طقوس الولاء، بينما لا يُعنى أحد بتمجيد الجرثومة. الجرثومة تافهة وبلا قيمة ومحرومة من الخلود، ولكن لا شيء يضاهي قدرتها على تحويل المسارات الإنسانية.

لنبدأ من ليلة في أكتوبر ٢٠١٠، ليلة لم يكن فيها الجو باردًا، كنا في أوائل الخريف، أخذت حورية دشًا ثم ذهبت لتقف في البلكونة بتي شيرت على اللحم، ونتج عن ذلك أنها عندما ذهبت إلى النوم شعرت بخروشة في حنجرتها، وفكرت أن هذه الخروشة قد تكون مقدمة لكحة، والكحة قد تكون مقدمة لدور برد طويل، وفكرت أنها لو أخذت بردًا في وقت لا يأتي فيه البرد عادة، فهذا قد يُضحك

زملاءها، ولهذا قررت قمع الكحة. حبستها في زورها ومضت تتقلب على السرير وتحاول التفكير في أشياء مختلفة لتصرف انتباهها عن الكحة المتأهبة للانقضاض، ولكن وهي تحاول التفكير في أشياء أخرى كانت تفكر أيضًا أنها تحاول التفكير في أشياء أخرى، وبالتالي امتلأ عقلها كله بصورة الكحة الموشكة على المجيء واحتلال الجسد والسيطرة عليه ثم الخروج منه لتحتل أجسادًا أخرى، محمود مثلًا، وارتعش جسمها من الخوف وانطلقت الكحة.

في اليوم التالي ذهبت حورية إلى المدرسة، تعطس وتكح وتخرج مناديل طول الوقت لتمسح بها أنفها السائل. لبست كل ما عندها وأصبحت شبيهة بالكرنبة. وما إن دخلت الستاف وجلست بين زملائها وزميلاتها، وشخص غريب يجلس مع زميلة، حتى فلتت منها سلسلة عطسات متتالية، وضحك المدرسون، وهتف الشخص الغريب بحسم عند العطسة الخامسة، بس بقى، بنبرة سلطوية ولا تقبل التشكيك، والغريب أن حورية توقفت فعلًا عن العطس بعد سماع أمره. وضحك المدرسون أكثر، وضحك الشخص الغريب، وبعد خمس دقائق جاء ليسلم عليها ويقول لها، مس حورية مش كدا؟ وتصافحا باليد ودعته للجلوس.

انتهى البرد كما جاء، وعليه فلم تعد قصته تستحق التسجيل، ما لم ينته هو الإنسان الذي جاء ليتعرف على حورية، هذا استمر معها إلى الأبد كعجينة التصقت بجسمها ورفضت أن تغادره، لأنه ببساطة طلب منها أن تعطي درسًا خصوصيًا لابنه، ما سينتج عنه مزيد من اللقاءات بالتبعية، وسيتواصل هذا في سنواتها الثلاث الجحيمية التي جئنا لنحكي عنها هنا.

كانت حورية ترى حياتها، وتعرف جيدًا أنها مثل غابة كبيرة أو مدينة كبيرة، لأن أحداث الحياة تمضي بنا، هكذا تقول، بعضها له علاقة ببعضه، وبعضها لا علاقة له ببعضه، مثل بيوت المدينة، فما أسهل أن أرى رابطًا بين بيتين متجاورين، ولكن سرعان ما أخرج من الشارع، وأكتشف أن هناك بيتين آخرين متشابهين، ولكنهما يختلفان عن الأولين، ثم أرى بيتًا ثالثًا يشبه الأولين ولا يشبه الثانيين، ثم طرازًا معماريًّا ثالثًا، ثم رابعًا، ثم شوارع، ثم بشرًا سائرين وتكاتك وميكروباصات وأوتوبيسات نقل عام، ولكل واحد قصة، وكل قصة تختلف تمامًا عن الأخرى، وتتشابه مع بعضها، وذلك لأن قصص البشر تظل مضمرة في دواخلهم، وأحيانًا فيما هو أعقد من دواخلهم، أي في الأجزاء التي لا يعونها هم أنفسهم، وبالتالي فلن تُحكى أبدًا. ومن هنا كان لا بد أن يكون الله موجودًا، أي ذلك العقل الواعي الذي يرى كل شيء ويعرف كل شيء وسيحكي القصة كلها يومًا ما.

ولكن المدينة تنشط في أجزاء معينة أكثر من غيرها، تتجلى أكثر فيها مدينيتها، ثم تتفرق وتتباعد في الأجزاء الأخرى. ومن هنا كان لا بد أن يكون الكارت بوستال موجودًا، أي تلك الورقة التي تخبرنا بأكثر قطعة من المدينة تجلت فيها مدينيتها، ومثل المدينة، فإن حياتنا تنشط في سنوات معينة، نميل لأن نرى فيها حقيقة ما نحن عليه، في سعينا الدؤوب لحكي قصة حياتنا.

قديمًا، منذ أيام هيجل، اخترعت البشرية مفهوم الجدل. وشكّل الجدل أذكى إجابة - حتى الآن - فسر بها الإنسان أحداث حياته، في الجدل تنساب الأشياء في بعضها، ذهابًا وعودة بلا انقطاع، ولكن

المفهوم اخترع منذ ما قبل هيجل أيضًا، بدليل كلمة «الجدال»، والذي هو النقاش، والذي هو لعبة بينج بونج ثقافية، تبرز الحجة فيه ردًّا على حجة، وردًّا على الأخيرة تبرز حجة ثالثة، وكل الأشياء مرتبطة ببعضها بلا انقطاع، وكلها مختلفة عن بعضها. الجدال مثل الجديلة أيضًا، هذا ما عرفته العرب. الأشياء مضفورة في بعضها. ومن هنا كانت حياة الإنسان تشبه الغابة أيضًا، غابات الشعر أو غابات النباتات.

من هنا، تضيف حورية، هل أنسب الفضل للجرثومة أم لكمال أم لنفسي أم للحياة؟ ولا تجيب أبدًا.

الفصل الأول

زيارة الجرثومة

«أخاف أن أؤذيكِ، فدعينا ننفصل بهدوء»
كمال

١

في خريف وشتاء ٢٠٠٩، قررت حورية التعامل بجدية أكبر مع نفسها وفلوسها، ذهبت إلى البنك ووجدت المتبقي فيه خمسين ألف جنيه، وسألت نفسها، وماذا إذا خلصت الفلوس؟ ماذا سيتبقى لها، مرتب المدرسة؟ ماذا سيتبقى لمحمود؟ وقررت أن تعطي دروسًا خصوصية.

في ٢٠٠٩ أعطت دروسًا خصوصية، قالت كل زملائي يعطون دروسًا، وأنا لا أريد العمل في شيء آخر، وليست لي عائلة غنية، وإرث أبي لن يقدم شيئًا وإرث زوجي أعيش فيه، وكانت تقصد شقة السيدة، لأتشطر قليلًا، وجاء الطلبة إلى بيتها، وجلست على المنهج وقلبته يمينًا وشمالًا وفصصته ثم حفَّظت العيال الكسور والخطوط

المتقاطعة والخطوط المتوازية والمثلث والمربع. وكانت تطلب من محمود أن يدخل غرفته عندما يزورونها في بيتها. الأطفال لا يفهمون في الحالات الإنسانية. الأطفال عنصريون بالفطرة. كانت تخشى منه على صورتها وتخشى عليه من غباء الآخرين. كانت تغطيه بالبطانية وتبوسه وتضعه جنب الحائط وتقفل عليه الباب وتذهب لتدرس تلاميذ الابتدائي. لم يكن ليتحمل قسوة العالم، حافظت عليه من هذا.

بيت حورية لم يكن يحتمل صخبًا كبيرًا، منذ مات زوجها وهي تعيش في هدوء. تملأ الكآبة غرفاته وتفيض عن حافته، وبعد أن زارها الطلبة تبدل الحال بعض الشيء، تخلخلت الكآبة وبدأت تنسحب، ومعها ينسحب هدوء حورية النفسي. وفي سبتمبر ٢٠١٠، مع بداية الخريف، قالت إنها لم تعد تحتاج الطلبة في بيتها، قالت لأرضى بما قسمه الله وخلاص. وقررت من أيامها الأولى أنها لن تعود لتعطي دروسًا.

وأمر آخر لم تنسه أبدًا، في العام السابق اجتمع بها مدرسو الرياضيات، قالوا لها كفى، استحملناك كثيرًا. تأخذين التلاميذ منا ولا تعتقين أحدًا، حتى مدرس أول رياضيات، مستر مدحت، غادره طلبته وجاءوا عندك. وأنت من عندك لتصرفي عليه؟ عندك ابن واحد، ونحن عندنا أبناء وأسر وطلبات لا تعرفين عنها شيئًا. بطلي جشع يا حورية. ونظرت إليهم، إلى أباطرة الدروس الذين يكلمونها، وقالت لهم أنا آسفة، وبكت. ونزلت السلم دامعة، وتعثرت وهي نازلة على السلم، ونظر إليها تلاميذ كانوا يجلسون على الدرابزين وضحكوا، والتفتت إليهم وقالت أنا آسفة، ومضت في طريقها.

كانت هند تراقب الموقف. لحقتها حتى الحوش وقالت لها ماتعتذريش، انتي بتعتذري لمين وازاي؟ دول ولاد كلب. وفكرت حورية في هند، مدرسة الرسم ذات الشعر البرتقالي التي لا تعطي دروسًا، والتي بسبب هذا تمشي رافعة رأسها أمام التخين. وخرجتا من المدرسة معًا وقالت، ياريتني كنت زيك يا هند.

ولكن عندما جاءها الرجل وقال لها بس بقى، وتوقفت عن العطس بسببه، وعرض عليها أن تعطي درسًا لابنه، لم تملك المقاومة.

٢

تسارعت أحداث حياة حورية بشكل خاص في الفصل الدراسي الأول من عام ٢٠١٠-٢٠١١، إذا كانت الحياة مثل بحر كبير، فما قبل هذا الفصل الدراسي كان قاع البحر، وما بعده هو سطحه، وعلى طول سباحة حورية على السطح كانت تكتشف العمق أيضًا. في هذا العام تعرفت على كمال وأحبته، وفي هذه الفترة ملأت تلفونها بالأغاني وانتقلت من الراديو إلى التراكات المحفوظة في الذاكرة الرقمية.

كان ولي أمر طالب في المدرسة، دكتور أسنان، أتى ليسأل عن مستوى ابنه، ورآها بين المدرسين. وعندما أوشكت زيارته على الانتهاء قال لها بس بقى، وجاء وجلس معها وقالت إنها لا تدرس ابنه ولكنها تعرفه جيدًا. شكله ذكي والمدرسون يتكلمون عنه جيدًا ولكنها سمعته مرة يقول لفظًا قبيحًا، خذ بالك يا أستاذ كمال. قال

إن هذا لا يهمه. هو طفل في نهاية الأمر، ولكن المهم بالنسبة إليه أن يكون متفوقًا. لا يريده متفوقًا بليدًا، يريده يعرف كيف يتصرف في الدنيا وله أصدقاء، ولكن في المقابل، على الولد أن يحب الرياضيات، أن يحبها بمعنى أن تصبح جزءًا من متعته، مثل اللعب على الكمبيوتر، أن يرى فيها هدفًا لحياته، وعرضت حورية أن تعطيه درسًا وحده يومي الأحد والثلاثاء من كل أسبوع مثلًا، فقال لها ماشي، وقالت ضاحكة، لعلمك أنا كنت مقررة مش هادِّي دروس خصوصية، بس هاعملك استثناء عشان خاطر الولد. ضحك كمال وبدا وجهه جميلًا وهو يضحك، كان بذقن خفيفة ورأس أصلع، وأحبت حورية هذا.

عن طريق أغنية اسمها «نبتدي منين الحكاية»، اكتشفت حورية الذاكرة الرقمية. طول عمرها، كانت السماعات جزءًا من أعضاء جسمها، تخرجها وتضعها في أذنها وتمشي إلى أي مكان يعن لها. قلبت بين محطات الراديو بحثًا عن أغنية تحبها، وعندما أعلنت المذيعة عن أغنية «نبتدي منين الحكاية»، قالت وماله. نسمع قليلًا. بدأت الأغنية بحيرة المغني في العثور على بداية لحكايته، وفكرته عن وجود بدايات متعددة لها. سمعتها وانبسطت وهي في الطريق إلى بيت كمال بالمنيل لتعطي ابنه الدرس الأول، وكان عبد الحليم يواصل الغناء عن مشواره الطويل الذي مشاه وعاشه، ويقدم الآن خلاصته للمستمعين. وعندما طلعت وسلمت على كمال وهيثم، داست بالغلط على جيب بنطلونها فانطلق الراديو وضحك كمال. قالت إنها معتادة على تشغيل الراديو في الموبايل، على تشغيل

الأغاني عمومًا، وحكت له عن هذه الأغنية، فقال لها إنها عنده على كمبيوتره، وأرسل إليها الأغنية على تلفونها. ومضت تسمعها وتعيد تشغيلها طول الوقت.

كان الوقت خريفًا، وفي تلك الأيام رأت في الحلم الخريف شابًّا رقيقًا يرتدي هاي كول ويتمشى معها في المنيل، ويوقفها تحت الندعة الخفيفة ويرقص على الكوبري أمام النيل، وتقول له، يا خريف، هنبرد يا خريف. فيبوسها على رقبتها ويشير إلى السماء ويقول لها، حلو القمر حلو؟ وكان يقولها بنبرة عبد الحليم وهو يغنيها، فقط بلا موسيقى، وردت بأن دندنت الجملة الموسيقية التالية. كانت الأغنية عنوانًا لتلك المرحلة من حياتها. عنوانًا لبداية معرفتها بكمال.

في الأول كانت تجلس مع هيثم وفور ما ينتهي الدرس تغادر. بعدها بدأ الأب يرسل لها أغاني إلى تلفونها عن طريق البلوتوث، ويتكلمان عن الأغاني التي يحبانها، مع الشاي والبقسماط. لم يكن عندها كمبيوتر. كان هو من حكى لها عن الإنترنت واليوتيوب والفيسبوك، قالت له إنها تعرف الفيسبوك وتكرهه هكذا لله في لله. وإن الكمبيوتر بالنسبة إليها شيء مهم فقط لأنه يمثل حافظة لكل هذا العدد من الأغاني في مكان واحد، خاصة أنها تتحايل على صاحباتها ليرسلن لها أغاني على تلفونها. وقال لها، من غير ما تتحايلي، احنا قدامك اهو في الخدمة، وابتسم.

فيما بعد بدأت فقرة الذكريات مع كمال. حكت له عن زوجها وحكى لها عن زوجته، وحكيه كان يدعم حكيها والعكس. كان

يحب زوجته ويتذكرها، وكان يعلق صورة كبيرة لها في الأنتريه حيث يجلسان. أما هي فلم تملك الكثير لتحكيه عن زوجها. صبحي كان طيب زيادة عن اللزوم، وكان ممكن يؤذي اللي حواليه ويؤذي نفسه علشان طيبته. يعتدل كمال ويتوجه إليها، اسمحيلي يا مدام حورية، مفيش حد ممكن يؤذي اللي حواليه عشان طيبته، قالت لأ فيه. ولم تكن تفكر في صبحي، وإنما في ابنها.

بدأ مستوى الولد يتحسن فعلًا في الرياضيات، ما يعني أن حورية ركزت في عملها ووعت جيدًا طبيعة مهمتها. ولكن المهمة انشقت على نفسها إلى مهمتين، من ناحية كان هناك الولد والرياضيات، ومن ناحية أخرى كمال. أحبت كمال أو أنها رغبت في الزواج به، رغبت في الزواج بإنسان طيب يهتم بها ويرعاها ويربي معها ابنها، وفوق هذا يشبهها، أرمل عنده ابن واحد، وهذا وحده كفيل بأن يتفاهما، هكذا كانت تقول لنفسها.

بعد موت زوجها أحست حورية كأنها عبء على العالم. الحمولة ثقيلة، وزوجها لم يترك لها ميراثًا إلا شقة تسكن فيها وأهلًا في بلد بعيدة، ولازمها شعور أنها عبء حتى فقدت ثقتها في نفسها تمامًا. انعزلت بين مدرستها وطلبتها وابنها حتى بدأ شعر عانتها يطول وبدأت في تضفيره بأصابعها كلما جلست على الكبانيه. مع كمال فقط بدأت تتذكر أنها أنثى، بدأت تحب الجلوس مع رجل غريب والضحك معه وأكل البقسماط. وتخلت عن صورة المعلمة الطيوبة والمسكينة التي كانتها وفكرت في نفسها كواحدة ست، وضحكت مع نفسها ولم تجد في نفسها القدرة على مصارحة أحد بهذا، ولا حتى الرجل

الذي أيقظ الست بداخلها. وكانت أيضًا تحسب حساب إجازة نصف العام. ستعود مرة أخرى للجلوس في بيتها والدخول في حوارات من طرف واحد مع محمود. مش مهم، لكل حادث حديث، هكذا كانت ترد على نفسها.

كان كمال هو من صارحها، بعد شهر من تعارفهما ومن الحديث معًا عن الزوجين السابقَين، أنه يرتاح إليها، ولم تجب. أخذت يومين حتى تقول له إنها، لو لم تكن ترتاح إليه، لما كانت لتجلس معه. وطبطب على كتفها، وحاولت أن تتذكر متى كانت آخر مرة شعرت بكل هذه السعادة عندما يطبطب أحدهم على كتفها، ولم تتذكر. كان هذا من زمان جدًّا، ربما كان أبوها، ربما كان عم ناجي، ربما كانت أمها.

في المرة التالية زارته مبكرًا ساعتين. قالت إن وضع البيت غير مريح. تراب في كل مكان، شرابات على السفرة وطفية سجاير في أكواب الشاي، هل هذا معقول؟ بدأت العمل بنشاط في ترويق البيت. طلبت منه البقاء بعيدًا، في مكتبه مثلًا، وهي ستعمل كل الشغل. وكل مرحلة كانت تتطلب مرحلة أخرى، بعد الترويق أتى تلميع الطاولات، وبعد التلميع أتى كنس الأرضية، وبعد الكنس أتى المسح، وهكذا حتى دخلت عليه المكتب ووجدته نائمًا على الكنبة، يغطي وجهه بمخدة ورجلاه مسنودتان على ذراع الكنبة. طبطبت على صدره لتصحيه، واستغل إصبعها السبابة الفرصة حتى يلمس حلمته. طلبت منه أن يخرج الهدوم التي تحتاج إلى الغسيل، وأعطاها الغسيل وذهبت وشغلت الغسالة بحلمتين واقفتين. وقبل

أن تغادر البيت ربت على كتفها بخفة. امتدت كفه اليمنى لتلتف حول عنقها، ملامسة كتفها اليمنى، فيما يشبه الحضن ولكن بادعاء الطبطبة.

توالت عليها رعشات اللذة الخاطفة وهي تستعيد هذا في رجوعها، ولكنها عندما عادت إلى البيت، ووجدت محمود جالسًا يشاهد الكرتون، وينظر إليها بعينين ساكتتين. طبطبت على رأسه وقاست نسب الكآبة في البيت ووجدت أنها لم تتغير. عملت آيس كريم في المكنة وجلسا ليأكلاه في البلكونة.

ـ بتحب الآيس كريم يا محمود؟

ـ أيوه.

ـ بتحب مامي أكتر ولا الآيس كريم يا محمود؟

ـ الاتنين يا مامي.

ـ بتحب مامي زي الآيس كريم؟

ولم يجب محمود. وأكلا ملعقة ملعقة، ثم دخل لينام. وطلبت منه أن يبقى معها قليلًا ولكنه لم يسمعها.

٣

متى كانت آخر مرة حضنها فيها أحدهم؟ لم تذكر حورية غير صبحي، وتذكرت أباها أيضًا وهي على السرير في الطريق إلى النوم. رحلة قطعتها من شارع البحر الأعظم بالمنيل، حيث يسكن أبوها

مع زوجته، إلى السيدة زينب. تمشت مع أبيها على النيل وأكلا ذرة، ومنه اتجها إلى القصر العيني، ثم إلى السيدة. كانت على وشك الزواج، مخطوبة وفرحها بعد شهر. كانت تريد أن تفرجه على شقة السيدة زينب. كان مستاء من المنطقة بالطبع ولكنه لم يعبر لها عن هذا. صعد إلى الشقة وكانت له ملاحظة واحدة أو اثنتان حول التوضيب والنقاشة. وبعد جولة استمرت عشر دقائق في الشقة سألها عن غرفة النوم فأشارت إليها، سألها عن غرفة صغيرة في الشقة فقالت له إنها للبيبي عندما يأتي. فجأة أفاق الأب. ابنته ستتزوج، كتكوتته ستتقلب على السرير وستصرخ من اللذة ثم ستحبل وتلد. ارتبك قليلًا ثم حضنها. عادا من الطريق نفسه، القصر العيني ثم النيل ثم البحر الأعظم. لم يتكلما وهما عائدان. كان الأب يشعر أن معه امرأة الآن. ولم يكن عقله قد تدرب بعد على الكلام مع بنته كامرأة. كان مرتبكًا إزاءها وكانت أول مرة تحسه مرتبكًا إزاءها. وهما يصعدان إلى البيت قال لها، أهم حاجة تبقي مبسوطة يا حورية. وانتبهت لتخليه عن اسم الدلع الذي سماها به منذ ولدت، حرنكش.

الآن وحورية تروح في النوم تتذكر هذه الجولة، تتذكر جولات أخرى من المشي قامت بها مع أبيها.

علمها الأب المشي في القاهرة. كانا يسيران، البنت والأب، حرنكش والمقدم إسماعيل، على طول الطريق من المنيل إلى الجيزة، من روكسي إلى وسط البلد، من أول فيصل إلى آخر فيصل، من مقياس الروضة إلى الزمالك، لا يلتفت إليها ولا هي تلتفت إليه، تتوه في

الزحام ويتوه في الزحام ولا يسألان عن بعضهما، بعد نصف ساعة مثلًا يتوقفان ليشربا عصير قصب ويريا بعضهما. كان يقول لها، لن تعيشي في القاهرة ما لم تعرفي كيف تمشين بها.

أصبحت حورية أحسن مشاءة في القاهرة. تمشي ولا تلفت النظر لوجودها، في أذنها السماعات وتخوض بحار الرجال والنساء، تنتهز الفرصة لتتسلل بين الزحمة لتصل إلى أقصى نقطة براح أمامها، تحسب نصف ساعة تمشيها من دون أن تتوقف قدماها، ولو للحظة، تحسب ساعتين ثلاثًا، تحسب أربعًا وعشرين ساعة. ملايين البشر تخطتهم حورية في طريقها. لم يلحظها أحد، لا كأنثى ولا كأي شيء. لم يحدث لها أبدًا ما يحدث للجميع، أن تفسح الطريق لفلان في الوقت الذي يفسح فلان فيه الطريق لها فيتعطلان معًا، وإنما تمشي كطلقة واثقة بنفسها. لم تثق حورية بنفسها إلا وهي تمشي. أحذية كثيرة تمزقت من فرط المشي، وبنطلونات بليت، إلى أن انتهت حورية هنا. أرملة تسكن وحيدة مع ابنها في السيدة، تأكل وتشاهد التلفزيون.

فكرت حورية وهي تكاد تروح في النوم أن تحكي لكمال غدًا عن هذا، أن شقة أبيها كانت في المنيل، وأنها تمشي إليه الآن من السيدة إلى المنيل، بالضبط كما مشت مع أبيها مرات عديدة من قبل. ستقول له إنه يذكرها بأبيها، ستقول له إن حضنه ذكرها بحضن أبيها، ولكن جسمها ارتعش مع حضنه ولم يرتعش مع حضن أبيها، ستقول له إن الشتاء قادم وإنهما سيحتاجان إلى أن يحضنا بعض كثيرًا، ستقول له كل هذا، وراحت في النوم أثناء ما كانت ستقول له كل هذا.

٤

زارها كمال في شقة السيدة أيضًا. عادت من المدرسة يومًا وعاد محمود من مدرسته وهو يفرفر من الحمى. مضى الولد يعطس ويكح وتسيل البرابير من أنفه. وضعته على السرير وغطته ومضى يرتعش وهو على السرير. قال لها كلامًا غير مترابط، ميزت من بينه أنه زهق من حياته، وأنه يعرف أنها تعبانة بسببه وأنه يعتذر، وكلامًا دراميًّا آخر، وحضنت رأسه بين ذراعيها ومضت تلعب له في شعره. قالت له، أبدًا يا حبيبي، وقالت له، إوعى تقول كدا تاني، وقالت له، إنت أحلى حاجة في حياتي. ولكن كلماته لمستها، وسألت نفسها، ماذا لو كان كلامه صح؟ والولد كان يهذي تحت تأثير البرد أو تحت تأثير الضغط النفسي. لم تكن هذه أول مرة، ولكنها لأول مرة تقرر أن تلجأ إلى كمال. كلمته وقالت له إن الولد حالته تعبانة جدًّا وإنها محتاسة. لم تكن محتاسة إلى هذا الحد، لديها أرقام بدل الدكتور ثلاثة، ولكنها احتاجت إلى أن تكلم كمال، احتاجت إلى أن تثبت لنفسها أنها ليست وحيدة في العالم. وجاء كمال بصحبة دكتور أطفال. عرفها عليه، عاطف أخويا. فحص عاطف حالة الولد ووصف له بعض الأدوية وقال إن الأمر لا يستدعي القلق مطلقًا، وانصرف كمال مع أخيه. وظلت هي سهرانة مع الولد. سهرت حتى الرابعة صباحًا، وبجانبها الولد يكح بلا انقطاع، وعندما سمعت أذان الفجر قادمًا من السيدة زينب، دعت الله له. بعد ساعتين أطلق محمود سلاسل قصيرة من الكحة انقطعت بعدها، ونام ونامت، وعندما صحيا في السابعة كان كل شيء قد أصبح جيدًا.

حفظت حورية الجميل لكمال ولعاطف وللسيدة زينب. في اليوم التالي كلمت الولد عن أنكل كمال اللي جا امبارح. وسألته عن رأيه لو ذهبا لزيارته. ألبسته جيدًا وأخذا تاكسي إلى المنيل.

في المنيل شغل كمال التلفزيون ومضيا يقلبان المحطات، وقاد هيثم ابنه ابنها محمود إلى غرفته ليلعبا. كان هيثم يكبره بست سنوات تقريبًا، كان في الصف الأول الإعدادي وما زال محمود في الصف الأول الابتدائي، وكان هذا مجالًا له ليتأستذ عليه، أو ليؤذي الطفل الغريب الذي وجده أمامه. فتح جهاز الكمبيوتر الخاص به ومضى يفرجه على فيلم سكس لديه، الله أعلم من أين حصل عليه، ومحمود، الآتي من عالم آخر تمامًا، خاف، خاف من العري ومنظر القضيب والكس المشعر ومن صراخ المرأة، وخاف من النظرات القاسية. خاف وغطى عينيه بكفيه، ومضى هيثم يحاول نزع يدي الطفل من على عينيه بالعافية، ومحمود يصرخ.

قبلها بدقائق كانت حورية في الصالة تشكو لكمال من ابنها، كانت تقول إن ابنها لا يتحمل قسوة العالم، ولا تعرف كيف سيتعامل مع زملائه في المدرسة، ونحن ما زلنا في أول العام الدراسي، وكانت تحكي أن مدرسته استدعتها لإخبارها أن طفلها لديه مشاكل في الاستيعاب، وهي لا تعرف كيف ستتصرف، ولكن عندما سمعا صرخات محمود، ركضا إلى الغرفة وفتحاها ووجدا هيثم ملقى على الأرض ومحمود يضربه برجله. كان هيثم يحاول الفلفصة ولا يترك له محمود متنفسًا. أمسكاه بقوة وأخرجاه إلى الصالة. جلس محمود صامتًا لدقيقة ثم انفجر بالبكاء.

دخل كمال الغرفة ليدهن جروح ابنه بالميكروكروم، وحورية ظلت تحضن ابنها لتهدئه، في نص هدومها، خجلانة من طفلها وخجلانة من نفسها وتشعر كأن شيئًا تحطم بلا رجعة.

ولكن في الوقت نفسه، بجانب الشعور بالخجل، كان هناك فخر أيضًا، كانت فخورة بابنها، ابنها القادر على رد الإساءة والذي ظهرت قوته في مشهد بليغ، وأثبت أنه ليس عصفورًا رقيقًا كما تخيلت. كانت تطبطب على الولد لتهدئه ولتدعمه. وفي قلبها، كانت تعرف أن من بجانبها الآن طفل عظيم، على أقل القليل، ليس مشينًا إلى هذه الدرجة.

لم تعرف حورية وقتها ما الذي حدث في الغرفة المقفلة. لم تعرف إلا أن ابنها صرخ، وأنه تعرض لتجربة قوية، وسيحتاج الأمر يومين حتى يحكي لها ابنها بكلمات متقطعة عما رآه، ستلملمها وتفهم منها المشهد الذي دار بالداخل، أما الآن فقد اكتفت بمعرفة أن ابنها لن تقتله التجارب القوية، وأنه سيدافع بأظافره وأنيابه عن نفسه وقت اللزوم.

عندما خرج كمال اعتذرت له بشدة. اعتذرت بجانب طفلها الذي يبكي، وكان كمال متفهمًا، قال لها إنه يعرف أن الولد غير طبيعي، وجرحتها «غير طبيعي» هذه ولم تصرح، وقال إنه يثق أن محمود سيصبح أحسن مع الوقت، ولكن الآن الوضع صعب، والحمد لله إن شيئًا خطيرًا لم يحدث.

أنا معنديش غير الولد دا في حياتي. مش ابنِك لوحده اللي عنده مشاكل، كمان هيثم عنده. طالع فيها ومعندوش مشكلة يضايق اللي

حواليه، بس انا معنديش غيره، في كل الأحوال لازم الولدين يتطبعوا على بعض. أصلًا مش هينفع غير كدا.

قال كمال «الولدين»، لم يقل «الأولاد». لماذا لازم يتطبعوا على بعض، ما الضرورة الحيوية في أن يتطبعا على بعض، ولماذا مش هينفع غير كدا؟ سألت حورية نفسها وهي على فراش النوم في بيتها، بعد أن نام الولد وهدأت نبضات القلب وذابت الكهرباء في الجو. ما الذي يمكن أن تعنيه هذه العبارات غير تلميح بزواج قادم بينهما، زواج بديهي لدرجة أنه لا يستحق أن يكون محلًا لجدل من أي نوع؟ فكرت أن تتصل به لتسأله، ولكن تلفونها لم يكن مشحونًا. نسيت أن تشحنه. قامت وأشعلت النور ولبست لتنزل لشراء كارت شحن، ولكن بعد أن لفت الطرحة على رأسها سألت نفسها عن الهبل الذي تفعله. وعادت من فورها واستأنفت محاولة النوم، متلذذة باستحلاب الكلام في عقلها.

٥

لم تر هيثم يومي الاثنين والثلاثاء في المدرسة. بعد ظهر الثلاثاء كلمت كمال وأخبرته بهذا فقال لها إنه تعبان شوية. ركضت من فورها إلى المنيل. هناك أخبرها كمال أن هيثم يرفض الخروج من غرفته. الولد المتعجرف يخاصم العالم، في ستين داهية، قالها الأب بقرف. وما أكلش؟ عنه ما أكل. قالت حورية إن هذا لا ينفع. لا بد

أن يأكل. خبطت عليه وعندما لم يرد فتحت الباب بالعافية وقالت له إن العالم فيه كل شيء. فيه ناس أحسن من ناس وناس أقل من ناس. وإنه لو يريد منها أن تعتذر عما فعله محمود فستعتذر، حقك عليًا أنا يا سيدي. لم يرد هيثم. لم يرد على أي من كلامها. فقط في النهاية سألها، هو ابنك متخلف؟ صمتت ثم قالت له، أولًا، افرض، هو الدنيا مش فيها كدا وكدا؟ وكانت تريد إكمال جملتها لولا أن هيثم قام من فوره من على سريره، وخرج إلى باباه وقال له إن كلامه طلع صح، زي ما قلت لك. وكان يقولها بنبرة المنتصر.

كيف يتطبع الولدان على بعض إذن؟ بدا لحورية لأيام طويلة أن هذا شيء صعب جدًّا، بدا لها أن الجميع سيخسرون من وراء هذا. روَّحت يومها إلى البيت ولم تتصل بكمال وشخطت في محمود لسبب تافه. كانت تشعر بإهانة بالغة، بإهانة وانكسار. أغلقت تلفونها لأسبوع، راحت إلى المدرسة وروَّحت منها إلى البيت، وزارها كمال يوم الثلاثاء في الستاف وعاملته ببرود ورسمية، ودمرت بنفسها أحلامها الحلوة القصيرة.

٦

انهارت مقاومة حورية بعد أسبوع. بعد أن خف الجرح وبدأ القلق يأكلها لأن كمال لم يعاود الاتصال هو الآخر بعد أن كانت شبه طردته من المدرسة، كانت يائسة، تشعر أن المطلوب منها أكبر

من طاقتها وتشعر أنها تعاقب على أمر لا ذنب لها فيه وتشعر بغضب على العالم وبانكسار أمام الجميع. ذهبت إلى المدرسة يوم الخميس غاضبة على قدرها وعلى جميع من حولها، لا تكلم أحدًا ولا تدع أحدًا يكلمها. وعندما رن جرس الفسحة وانفجر التلاميذ من الفصول سارت حورية بينهم وهي غير واعية بنفسها، تنظر إلى الأمام بلا عينين، حتى قابلها مستر مدحت وقال لها إن الناظرة كلفتها بعدد إضافي من الحصص لأولى أول.

في هذا اليوم علا صوتها لأول مرة في الستاف، قالت إنها لن تقبل حصصًا زيادة، وذهبت إلى الناظرة وشخطت فيها وقالت لها إن كل واحد يريد أن يروح إلى بيته ولا أحد يفكر في الغلبانة التي لها ابن ترعاه، وأخذت تبكي وقالت وهي تنهنه إنهم شوية شراميط، وكانت أول مرة تستخدم فيها هذا اللفظ، وفزعت الناظرة من اللفظ ولكنها تمالكت نفسها وقالت ببرود إن الناس تتكلم عن علاقة بينها وبين ولي أمر أحد الطلاب، وإن هذا عيب جدًا. ولتفعل هي ما تفعله في نفسها، ولكن سمعة المدرسة لا تفريط فيها.

سهَّمت حورية ولم ترد. وواصلت البكاء في التاكسي وهي راجعة. ومد أحد المارة في الشارع يده في صدرها ولم تشعر ولكنها عند باب البيت كاد أن يغمى عليها لولا أن لحقها رجلان. هكذا مر يوم الخميس عليها. ومر الجمعة، وفي صباح السبت كلمها كمال وقال لها إنه يعتذر لو كان تسبب لها في أي شيء سيئ، وإنه لا يستطيع الحياة من غيرها، وفجأة انتهى كل الألم وأضيئت أنوار العالم مرة ثانية.

نبضات قلبها كانت مرتفعة ولم تستطع التأجيل؛ كانت تقول له إنها تعبانة ولا تعرف ما المفروض أن تفعله، وقال إنه قلقان عليها لأنها كانت تبكي وهي تتكلم، وقال لها إنه يريد أن يزورها، فقالت لا، أنا هاجيلك. لم يكن هيثم في البيت وإنما عند عمه في الدقي، وقالت في نفسها الحمد لله. شغل كمال التلفزيون وأخذ يطبطب عليها وهي تقول له أرجوك بلاش، ويستمر في الطبطبة، وهي انهارت مقاومتها تمامًا وأخذت تبوسه وهي تضحك. كانت خجلانة من عدم اعتنائها بجسمها، شعر رجليها طويل وعانتها غابة، ولكنه كان شديد الرقة معها. كان خجولًا وطفوليًا وهي أدارت هذا الشيء الذي بينهما، لم يصلا إلى قرار بخصوص علاقتهما، كانا همّا الاثنان خائفين، وكانا فرحين بنفسهما أيضًا.

في تلك الليلة اكتشفت حورية شيئًا في كمال، أنه يتكلم في الظلام كما يتكلم في النور. كان يتكلم بصوت عالٍ والنور مطفأ، وهما على السرير عاريان في حضن بعض، ووضعت إصبعًا على فمها فخفض صوته ثم عاد وعلاه مرة أخرى. ثم قال إن مراته الله يرحمها سبق أن اشتكت من الشيء نفسه. سألته عنها فتكلم قليلًا ثم قام وأشعل سيجارة وعاد وتغطى وقال لها إنها، أي حورية، حاجة حلوة ظهرت في حياته. وعندما سألته يعني إيه حاجة حلوة، قال لها يعني حاجة حلوة. وكانت أول مرة تسمع هذا التركيب، وفرحت. ثم أتى الحزن: قال إن امرأته ماتت من عشر سنوات فقط، وإنه كان يحبها فعلًا، وإنه خائف، وهناك مشاكل بين الولدين، وكان يضع وجهه على فخذيها وشعرت حورية بدمعة تتخلل الشعر الكثيف وتستقر على شفرتي

كسها وتبللهما، وأحاطت رأسه بكفيها، وشغلت له أغنية لأنغام، وراح الحزن وعاد الفرح.

روحت حورية بيتها وهي ترقص تقريبًا، تسمع أنغام بالسماعات التي في أذنيها وترقص عليها، وعند جامع السيدة أبطأت من خطواتها ومضت تدعي وهي ماشية، يا رب خليني معاه، ما تريده سيحدث ولا راد لحكمك ولا لقضائك، ولكن خلي بكرة لبكرة، وخليني معه الآن يا رب.

٧

هل كنت أمًّا أنانية؟

أقول هذا لأني في ذلك الوقت لم أكن مشغولة سوى بسؤال واحد، سأتزوج كمال أم لن أتزوجه؟ يبدو لي الآن، الله يسامحني، أنني قليلًا ما فكرت في محمود، وعندما استدعتني إدارة مدرسته وكررت شكواها من بطء الولد في الاستيعاب قلت لهم لنؤجل القرار قليلًا حتى امتحانات نصف السنة ولنأخذ قرارًا بناء على درجاته. لم أكن أريد إلا مهلة، لأصل إلى قرار فيما يخص كمال، ولأستحلب أيضًا حلاوة الحب، الله يسامحني.

لا أذكر متى عملت سكس لأول مرة مع كمال. ربما كان قبل هذا أو بعد هذا. كل ما أذكره أنني رأيت لأول مرة وحمة كبيرة أسفل ظهره، وحمة سوداء مشعرة بحجم الشلن، وضحكت يومها

ومضيت أحاول نزع شعراتها وهو بدا غاضبًا. ضحكت من غضبه وفعصت في خدوده كأنه طفل صغير، وهو استجاب وبدأ يضحك. حدث هذا بعد المشكلة بين محمود وهيثم، لأنني بعد أن عملنا سكس ونحن على السرير سألته لماذا قال إن الولدين لازم يتطبعوا على بعض. ولم يتذكر هذا، ثم قال إنه ربما قصد في الزيارات القادمة، عندما يزورني أو أزوره، سيكون أفضل، فقط أفضل، للولدين أن يصبحا أصدقاء. وأنا نرفزني هذا الرد جدًّا، كنت حمقاء أو الله أعلم، لأنه قال بعد هذا إنه أراد مفاتحتي في الزواج، ولكنه يخاف، بأمانة شديدة، وكان مديرًا وجهه، يخاف من ابني. وأنا شعرت بنفسي صغيرة جدًّا، صعبت عليَّ نفسي، إلى أن رأيت الملاءة ابتلت بنقطة ماء، وأدار وجهه لي ورأيته يدمع، فأخذته في حضني وطبطبت عليه، ورأيت الوحمة أسفل ظهره وضحكنا. قلت له إنني أريد أن أسمعه شيئًا ما. وفتحت الموبايل وشغلت له أغنية لأنغام، ونظر لي بحب.

يومها روحت فرحانة؛ هناك من يحبني في العالم. كانت الدنيا تمطر. رأيت حبات المطر تستقر فوق سور مجرى العيون، فوق بالأعلى، وتتكوم في برك صغيرة أسفل الشجر القديم، ذي الألف جذع، على كورنيش جاردن سيتي، وكانت الناس تجري والسيارات متعطلة في طوابير طويلة في الشارع، والأنصاف العليا من أوتوبيسات الهيئة مغسولة والأنصاف السفلى شديدة الاتساخ، وأنا أسير رايقة وأضع يديَّ في جيوبي، كنت أدندن، خلي بكرة لبكرة.

وكانت البهجة سائدة في الجو، ولم أستطع رؤية آخرها، كانت تطير فوقي بأجنحة عملاقة، وما إن دققت فيها حتى تضاءل حجمها وبدأت تسير بمحاذاتي في الشارع كتفًا لكتف، ووضعت يدي في يدها كأننا متحابتان، وعندما وصلنا إلى الشقة فتحت لها الباب وقلت لها اتفضلي اتفضلي، وضحكتُ ودخلتُ برفقة البهجة إلى البيت.

لماذا أقول إني أنانية؟ في تلك الأيام كنت أروح البيت مبسوطة، ولكن عندما أدخل من الباب أجد محمود يتفرج على التلفزيون، فأقلق، سأتزوج كمال، لن أتزوج كمال، ضبطت نفسي أسأل نفسي وأنا أقطف ورق الملوخية. الأكيد أنني لم أكن أمًّا مثالية.

٨

رفع هيثم إصبعه وأجاب مدرس الرياضيات إجابة صحيحة، إجابة صحيحة تمامًا، إجابة لفرط صحتها شككت المدرس في الولد، لأنه لم يكن قد شرح المسألة بعد لطلبته. عادة ما يفرح المدرسون بتلاميذهم النجباء، ولكن هذه المرة قرر المدرس أن يسأل هيثم من أين وصل إلى حل المسألة. ارتبك الولد ثم قال إن أباه هو من علمه إياه. لم يصدقه المدرس. نظر إليه بابتسامة وقال، بابا ولا مس حورية؟ لم يرد الولد وظل واقفًا ينظر بخيابة إلى المدرس، كرر المدرس سؤاله فرد أنها مس حورية.

المدرس كان مدرس أول رياضيات في المدرسة، وكان يعرف

بالطبع أن حورية تدرّس هيثم، تلميذه الذي في فصله، كل المدرسة تعرف هذا، ولكنه احتاج دليلًا وفره له الطفل الآن. ذهب المدرس إلى الناظرة واشتكى لها. قال لها إن هذا غير معقول. حورية تبدو غلبانة لكن وراء هذا القناع هناك أشياء مرعبة. حورية تعطي دروسًا للجميع في جميع الفصول ولا تعتق أحدًا ولا تسأل في أحد، ثم إن كل الناس يلاحظون علاقتها بولي أمر أحد الطلاب، وهذا شيء مقرف جدًّا، وإن سمعة المدرسة أهم من أي شيء بصراحة. الناظرة سألته، وعاوزني أعمل إيه يعني؟ قال لها أن تعطيها حصصًا زيادة، هي تعيش وحدها بلا زوج وتحتاج إلى من يلمُّها قليلًا في الشغل. وافقت الناظرة وانفجرت حورية من الغضب. وكان هذا أول يوم نطقت فيه بكلمة «شراميط». على العموم، كانت حورية معتادة على الوقوف أمام المرآة والنطق بجميع الألفاظ القبيحة التي تسمعها في الشارع. فقط في هذا اليوم نجحت في استدعاء مخزونها إلى العلن، أمام الآخرين.

الجميع في المدرسة يعرفون، الجميع في المدرسة يلاحظون، وحورية تعرف هذا حتى قبل أن تقولها لها الناظرة بصراحة، لم تكن تجد في نفسها القدرة على أن ترفع عينيها في عيني زملائها، كانت كالعصفور المبلول في وسط الستاف، ولا صديقة لها إلا هند ذات الشعر البرتقالي التي تدرِّس الرسم.

في يوم الخميس روحت حورية من المدرسة بنفس منكسرة، كلمها كمال السبت وسمحت لنفسها لأول مرة بأن تنام معه، عادت يوم الأحد إلى المدرسة بعينين قويتين. الحب رفع رأسها.

٩

استغرق الأمر أسابيع قليلة أخرى حتى تحكي حورية لكمال عن زوجها الأول، وتضيف تفاصيل أكثر لقصتها، وقتها كان بدا واضحًا أنهما مع بعض. وقتها اعتبرت كمال خطيبها، لم تقل أبدًا إنها في علاقة، قالت لنفسها إنها مخطوبة وإنها ستتزوج قريبًا. حماها هذا الوعي من أشياء كثيرة، وجرأها أيضًا على أن تحكي له.

لم تنبسط أبدًا مع زوجها الأول، صبحي. فور أن تزوجته عرفت أن بختها سيميل بسببه، إن لم يكن مال إلى الأبد، نحن نحس بهذه الأشياء. ولكنها ظلت تحمد الله على أي حال.

رآها صبحي في خطوبة صاحبتها، وسأل عنها، ثم دبرت صاحبتها خروجة لهما مع خطيبها، ومضى الأربعة يتمشون في ساحة القلعة. قال إنه رآها قبل هذا مع صاحبتها هذه وتكلم معها، وحاول أن يذكّرها ولم تتذكر، كان يعمل في شركة اتصالات، ويملك شقة في السيدة يعيش فيها مع أمه المريضة، وهي بدأت تستجيب، كان يخالجها شعور أنها كبرت في السن، كانت تبلغ ثلاثين عامًا ولم تتزوج بعد، وتعمل بخمسميت جنيه في الشهر. استجابت وخرجا مع بعض أكثر من مرة، وقالت له، أنا لن أعيش مع أمك، خذ لنا شقة جديدة، وكان صعبًا عليه أن يترك أمه، ولكنه وافقها وبحث عن شقة في المنيل، وفي اليوم الذي كان يفترض فيه أن يوقع عقد الشقة ماتت أمه، صدفة عبقرية، كما تقول. وضب صبحي شقة السيدة جيدًا وفرشاها معًا وانتظرا قليلًا حتى تبرد جثة المرحومة ثم تزوجا.

ولكن صبحي كان غيورًا، طلب منها ارتداء الحجاب، وارتدته، وطلب منها التوقف عن العمل، وتوقفت، ثم بدأ يهينها لأنها لم تنجب، وانكسرت نفسها بسبب هذا، وضربها مرتين أيضًا، وكتمت في نفسها ولم تشكُ لأبيها. في هذا الوقت كانت تأخذ في التشكل كامرأة ضعيفة، في الحقيقة ليس في هذا الوقت بالضبط، ربما قبل الزواج بشهرين، عندما اعترفت له أنها ليست بنتًا وأن ثمة علاقة قديمة راحت لحالها، كان صبحي متفهمًا وقتها، وكانت هي منهارة وتشعر بذنب جبار يخنقها ولا يدعها تتنفس. ولم تنسَ أبدًا أنه عمل معها معروفًا بالزواج منها، وهو أيضًا لم ينسَ هذا. بدأ يلمح لها بعدم ثقته فيها، وطلب منها القعاد في البيت. واستجابت لأن نفسها كانت انكسرت. وحتى عندما تأخر حملها ولمح لها كأنه يمزح برغبته في الزواج بأخرى لم تعترض، ولم تعترض حتى عندما سمعته يتكلم في التلفون بعد منتصف الليل بصوت خافت. لم تجد في نفسها القوة لتعترض. ولكنها حملت في محمود.

حدث هذا بعد الزواج بأربع سنوات. بعد أن كانت تأكدت أن حياتها معه انتهت خلاص، وأنها ستعود لأبيها تبكي حظها، تحولت إلى ملكة. فجأة أصبح يطبطب على بطنها وينزل في الثانية فجرًا ليشتري لها لبنًا. وعندما ولد محمود، ولأسابيع قليلة، عاملها برقة لامتناهية، كان يقول لها أنتِ أميرتي وأنتِ فراشتي. وهي كانت سعيدة ولكنها احتفظت في قلبها بركن للحذر. كان وجوده يوترها. عرفت هذا منذ الأيام الأولى لزواجهما.

وبعدين كل حاجة باظت، مش متأكدة إيه اللي حصل، بس ابتدا

يتجنن وبقى يقول لي أنا ايش ضمني إن الولد دا ابني أنا. أنا معنديش تفسير غير إنه اتجنن. هو كان فيه واحدة بتتدلع عليه من الأول، وانا قلت يمكن هو بيقول لي كدا علشان عاوز يتجوزها، عاوز يقنع نفسه إني مش كويسة عشان ضميره يبقى مستريح، بس هو باين إن الموضوع دا كان شاغله فعلًا. بدليل إنه موَّت نفسه ف الآخر. لو كان بس موضوع البنت دي مكانش موَّت نفسه، كان راح اتجوزها وِخِلِص، مش كدا؟ وابتسمت لكمال وهي تحكي، ابتسامة ملائكية مثلها.

سافرت حورية مع أبيها وابنها إلى البلد في أسوان، ولم يسافر صبحي، كان عنده شغل كثير ولم يأخذ إجازة. وعادت من البلد تحمل ابنها الذي يبلغ شهورًا وفوجئا لمرأى صبحي ملقى على الأرض وبجانبه علبة مهدئات فارغة. التقرير قال إن الوفاة حدثت من يوم ونصف. وهي حزنت عليه. حتى لو لم تحبه لكنه في النهاية رجل وهي امرأة تملك طفلًا. أخافتها المسؤولية، ثم سرعان ما أدركت أن هذا أفضل وضع. صحيح أنها لا تملك زوجًا الآن، ولكنها تملك شقة، شقة خالصة لها ولابنها. في مكان ما من عقلها أيضًا، اعترفت أنها أحست بالراحة عندما رأته راقدًا على السجادة.

ولكن لسنوات طويلة بدا أن الشيء الذي انكسر في حورية انكسر فيها إلى الأبد. فقدت ضحكتها، فقدت البنت النوبية السمراء ذات الغمازتين التي كانت فيها، وتحولت إلى «مدام حورية»، امرأة بحجاب باهت تركب المترو بكل قرفه كل يوم لأنها تكسل عن المشي لربع ساعة، مسافة محطة من السيدة زينب إلى سعد زغلول. فقدت حورية كل ألقها منذ تزوجت صبحي، ولهذا بالتحديد، فبعد أن حكت

الحكاية كلها لكمال صمتت لدقائق. وهو احتضن كفها وأخذ يطبطب عليها ويقول لها، ماتزعليش. وهي أطرقت بعض الوقت ثم رفعت رأسها وقالت بابتسامة، خلاص، حرنكش مش زعلانة. قال لها حرنكش؟ فقالت، أيوه، أنا حرنكش، وهزت كتفيها بمياصة.

سرَّبت له اسم دلعها القديم، اسم طفولتها، اسم البنوتة التي كانتها يومًا، ومضت تلعب في ذقنه. كان كمال يعيدها إلى نفسها ببساطة.

١٠

أنا فيه عشر سنوات في حياتي باتخيلهم على هيئة بلاعة، من ٢٠٠٠ إلى ٢٠١٠، قالت حورية.

منذ تزوجت صبحي، عام ٢٠٠٠، وحظها يسوء بلا جدال. كسر هذا ظهرها وأخافها منه ومن العالم.

عزمها مرة على الغداء بالخارج. جلسا بالمطعم وطلبا فراخًا ومكرونة. أتى الطلب وبدأ يأكل الفراخ بيديه. نظرت إلى رواد المطعم ثم إليه وقالت، بالشوكة والسكينة يا صبحي من فضلك. لم يتوقف للحظة. فقط نظر إليها وقال، كله بالشوكة والسكينة ما عدا الفراخ، وقضم قرقوشة الدبوس وقال لها، دي مثلًا تتاكل ازاي بالشوكة والسكينة؟ وماتت من الكسوف من الرجل الذي معها، ثم حاولت الأكل بالشوكة والسكينة وفشلت، فنظر إليها بانتصار. واحمر وجهها وكادت دمعة تفلت منها.

عندما بدأت في تعلم الطبخ كانت مشكلتها الأساسية مع المقادير، لم تعرف كم ملعقة ملح يحتاجها الأرز ولا كم مقدار الصلصة الذي تحتاجه صينية البطاطس. وكانت تتصل بزوجة أبيها لتسألها، وبعد أن تخبرها تعاود الاتصال بها مرة أخرى لتتأكد. لم تستطع أبدًا تقدير الأشياء بالنظر، ولا حتى بالتذوق. وبدأت تعد كشكولًا فيه كل وصفات الدنيا التي تعلمتها، وأهم شيء المقادير الدقيقة. في هذه الفترة فقدت الثقة في حواسها ووضعت كل ثقتها ورجاءها في الكشكول. حتى عندما يأكل صبحي ويقول لها إن الأكل عادب شوية أو حادق شوية، كانت تقوم من فورها إلى الكشكول وتتأكد من المقادير، وعندما تجد أنها وضعت المقادير المكتوبة تسترد رباطة جأشها، وتتمكن حينها من الرد عليه، تقول إن الأكل غير عادب ولا حادق، الأكل مظبوط، وتشير إلى الكشكول كأنها تستشهد به، الحقيقة هناك يا حرنكش.

كانت الحكمة المستفادة من السنوات العشر بالنسبة إلى حورية هي أنها أرتها ماذا يفعله الزواج بلا حب. الزواج بلا حب، ولو حتى بعد رحيل الزوج، يحولنا إلى هياكل عظمية، أشباح تمشي محتمية بالحيطة، تصرخ خوفًا في كل لحظة، وترى في أية قطة مارة وحشًا لا يرحم. وعكسه الحب، الحب يرفع رؤوسنا عاليًا.

انتقلت إلى بيت أبيها في المنيل بعد موت زوجها، لتشهد هناك احتضار أبيها وموته بدوره. ولكن أيضًا لتسمع أول قصيدة تُكتب عنها هناك. صحا أبوها، تمشى في البيت بالبيجامة، ثم جلس بجانبها ليحل الكلمات المتقاطعة، وبدون أية مناسبة رفع رأسه وقال لها، بكرة الدنيا

هتحلو، والعصافير هاتطير في الجو. سألته عن معنى الكلام فابتسم بغموض، باقولك بكرة الدنيا هتحلو والعصافير هاتطير في الجو. بعد ساعة من المحايلة اعترف لها أنه يكتب قصيدة لها الآن تبدأ بالبيت الذي تلاه توًا، قصيدة تخاطب كل أبياتها حرنكش الصغيرة. في عز ما كانت حورية أرملة محتاسة بابن وحيد، انشغل الأب بكتابة قصيدة للطفلة البريئة التي كانتها. ظهرت القصيدة من اللامكان لتبدل الأحوال. تلا عليها مقطعًا من القصيدة وضحكا بشدة لسماعه. بعد يومين طلبت منه نسخة من القصيدة لتقرأها، قام ليبحث في أوراقه عنها ولم يجدها. قلبا البيت معًا ولم يجداها. وكانا أثناء هذا يضحكان بعنف. كانت هناك لحظات سعادة مثل هذه في قلب البلاعة.

ولكن كان هناك بالأصل الحزن المقيم. كان الناس يهمسون من حولها، أصل ظروفها صعبة، أصل حظها وحش، ويطبطبون عليها ويحسسون عليها ولا يجرحونها، كأنها فازة. وهذا بالتحديد ما أخافها منهم، تعاملهم معها كفازة.

كانت في عز أزمة اكتئابية، عندما خرجت في مشوار بالليل، وعندما عادت وجدت الأنوار مطفأة. فتحت النور ففوجئت بأبيها وزوجته وعميها وابنها يخرجون من الحجرات، مع تورتة كبيرة في الصالة عليها اسمها، والجميع يغنون لها هابي بيرث داي تو يو. وشهقت حورية شهقة خوف، شديدة القصر وشديدة الخفوت، ولكنها كانت كافية لأن تنطفئ قليلًا ابتسامات الناس المستعدة للمفاجأة السعيدة. ولقط محمود هذا وبكى، فبكت حورية في إثره. بكت في عيد ميلادها، فقط لأنها كانت خائفة من الناس.

بعدها بشهور مات أبوها، فتركت الشقة لزوجة أبيها وعادت مرة أخرى إلى السيدة، حيث بدأت التفكير في يتمها الذي أصبح مطلقًا الآن مع موت أبيها. كانت تكمل السقوط في بلاعة اليتم وتأخذ في النزول والنزول، وتحت، في الأعماق، تجلس الأشياء المرعبة لتتلقفها، لا عزاء في هذا العالم، في العالم الذي تحت بالأساس، ولكن أيضًا في العالم الذي فوق، فالمواسير تربط بين الاثنين، تسحب من هذا لتصب في ذاك.

انقطعت عن المدرسة سنتين كاملتين واكتفت بمعاش أبيها، باعت لزوجة أبيها نصيبها في الشقة وأخذت مئة ألف جنيه. وضعتها في البنك ثم عادت إلى بيتها في السيدة ونامت. لسنتين كاملتين نامت، لم تخرج إلا للضرورة القصوى، توصل محمود إلى مدرسته وتعود لتشاهد التلفزيون وتطبخ ولا شيء آخر. كانت في قلب البلاعة. ولكن الطريق مفتوح دائمًا للخروج، لأن الماسورة كما تُنزل الناس إلى تحت فهي تصعد بهم إلى فوق، إذا أرادوا. صحت يومًا مشرقة المزاج بشكل مفاجئ، وهتفت من أعماق قلبها بكرة الدنيا هتحلو، ولبست وخرجت وقضت أسبوعين في الشوارع لتقدم أوراقها في المدارس من حولها. حتى وقع حظها في «مدرسة الأفكار». وعادت للتدريس فيما بدا وكأنه ببركة قصيدة الأب. أطلت قليلًا على النور الظاهر خارج البلاعة، صعدت خطوة، وقابلها كمال وهي صاعدة وأعطاها دفعة جديدة وقوية إلى الخارج.

حورية هذه، الخائفة من العالم ومن ظلها، قالت وهي نائمة في حضن كمال إنها تحب أن تتقلب على السرير أثناء السكس، أثناء ما يكون بتاعه

مزروعًا فيها. نظرت إلى تحت وقالت بصوت منخفض، مع أنفاس سريعة من فرط الإثارة، باحب أفكر ان زبرك مسمار قلاووظ بيلف فيا، بحيث يبقى متثبت جامد كدا. نطقت كلمة «زبرك» بكل حروفها، بوضوح تام، بعد أن كانت درَّبت نفسها على النطق بها مرات عدة أمام مرآة الحمَّام في بيتها، وفور نطقتها أحست بمسحة من الخجل دفعتها للخبط على صدره العاري بقبضتها الصغيرة والزعيق بطفولية، يووه بقى.

الحب يرفع رؤوسنا عاليًا، يعلمنا عدم الخجل من أنفسنا ويصعد بنا خطوات إلى فوق.

١١

- بتحب عمو كمال يا محمود؟

قال الولد:

- أيوه.

وأخذ يركب قطعة الميكانو.

- هاتحب ييجي يقعد معانا في البيت؟

- أيوه.

ونجح في تركيب رافعة الونش.

- وهاتحب أنهي أكتر، ييجي يقعد معانا هنا في البيت ولا نروح نقعد معاه في بيته؟

فقد الولد اهتمامه بها.

محاولات كثيرة قامت بها حورية لجذب انتباه ابنها للتغير الهائل الموشك على الحدوث في عالمه. ولكنه لم ينتبه، حتى وهدايا كمال تنهال عليه، وآخرها كمبيوتر ضخم، ديسكتوب، محمل بعدد لانهائي من الأغاني والألعاب. استسلم الولد لغواية الكمبيوتر، تعلم تشغيله بسرعة. وتعلم الدخول على الإنترنت أيضًا. أحب عمو كمال وعرف أن مجيئه مرتبط بهدايا أكثر، ولكن الكلام عن الزواج الموشك لم يشد انتباهه. مرة واحدة فقط التفت إلى أمه وسألها:

ـ هو هيثم هييجي هنا؟

كان كمال موجودًا، فحاول تلطيف الجو، سأله، مش هاتحب تلعب مع هيثم يا حودة؟ وخرجت كلمة «حودة» ضعيفة ومتصابية، فلم يرد الولد، فقط ضغط بقوة على زرار الكيبورد ليبدأ لعبة جديدة، وفي ثلاث دقائق فقد اهتمامه بها وغادر الصالة إلى غرفة النوم.

كعادتها في مواقف مثل هذا، مواقف يفضحها فيها ابنها أمام الأغراب، كانت تصرخ، صورتنا قدام الناس يا بني آدم! الحق أنها لم تنطق بهذا كثيرًا، ربما مرتين أو ثلاث مرات في حياتها. أما الآن، وبعد أن علمها الحب رفع رأسها عاليًا، فقد غادرت الصالة هي الأخرى إلى غرفة محمود. جلست على طرف سريره وقالت له كل شيء بصراحة وبقسوة ومرة واحدة، بابي مات، وماينفعش مامي تبقى لوحدها، علشان مامي لازم يبقى فيه بابي، وبعدين انت مش عاوز بيبي جديد تلعب معاه؟ ممكن يبقى فيه بيبي جديد. والولد ظل ينظر إلى مامته طول كلامها ولا يعقب، حتى انتهت فقال لأ، وشد البطانية عليه حتى منتصف وجهه وأغمض عينيه.

خرجت حورية من الغرفة ولحقت بكمال في الصالة. قالت له إن الولد دماغه ناشفة، وإنها فاقدة الثقة في أي شيء، وبصراحة، تعتقد أن الأفضل هو أن يبقى الوضع على ما هو عليه، كل واحد في بيته، وماعرفش، يمكن يكون أحسن ليا وليك وللولاد اننا نرجع زي الأول، بنتقابل ف حاجات ليها علاقة بالشغل وبس، وكانت تقول كلامًا كئيبًا مثل هذا عندما خرج محمود من غرفته وقال إنه يحب أن ينادي عمو كمال بـ«بابا كمال»، ويحب أن يسكن في المنيل، وإن هيثم واحشه جدًا، ونظر إليه كمال وحورية غير مصدقين، ولم يلاحظا عينيه المحمرتين.

١٢

لم تكن حورية متدينة، لم تلتزم أبدًا بالصلاة ولا بالصوم، ولم تحفظ من القرآن إلا أقل القليل، وربما نسيته أيضًا، ولكنها كانت مؤمنة بالله. وعصمها هذا من الوقوع في اكتئابات كثيرة من قبل وحافظ على بعض التوازن النفسي بداخلها. كانت مؤمنة بمعنى أنها كانت تؤمن بوجود الله، وتؤمن بمعنى تؤمن.

ذات مرة، وهي طفلة، وهي حرنكش، كانت أمها تقود بها السيارة في طريق ما لا تذكره، وبينما هما في السيارة سمعتا صرخة ضعيفة. توقفت الأم ونزلت حرنكش ووجدت جثة قطة على الطريق. بكت البنت وصممت على العودة وأخذ الجثة معهما إلى البيت. في

البيت ظلت تطبطب على القطة وتدعو الله لها حتى عادت تلك إلى الحياة. كانت تدعو بحرقة قلب، كانت تؤمن بأن دعاءها سيجلب الحياة للقطة، وقد جلب. هذا ما ظلت تذكره حورية وتحكيه حتى الآن. كانت تعرف أن الإيمان بالله يحقق المعجزات، والتصديق فيه يمشِّي المرء على الماء.

عودة لتدينها، مع أنها لم تكن متدينة إطلاقًا، لا تصلي وتكسل عن الصوم أحيانًا بحجة البيريود، حتى لو لم تكن هناك بيريود، إلا أن هناك أشياء ظلت تحافظ عليها، لم تشرب الخمر أبدًا مثلًا، وهذا طبيعي لأنها لم تتواجد في بيئة محبة للخمر، ولم تلمس رجلًا خارج الزواج، سوى مرة واحدة وحيدة قبل زواجها من صبحي بسنوات، وآذاها هذا بشدة وقتها. والآن جاء كمال ليهدم كل سنين التحفظ، وجدت نفسها تنجرف للسكس بدون تفكير، تهتم بإزالة شعر جسمها وتشتري كريمات ومعطرات، وتنسحب وتبتعد وتغرق ولا تحسب حسابًا ولا تعود. وكان ضميرها يشخط فيها ولم تكن تحتمل. بعد أن عملت معه سكس لأول مرة ذهبت إلى جامع السيدة، استغفرت ربها على ما فعلته واستغفرت ربها أنها فعلته هكذا، بسلاسة وبلا تردد وكأنها ولدت لتفعله. ودعت الله أن تتزوجه، من أجل هذا، ومن أجل حبها له.

لم تتخلص حورية من شعورها بالذنب. كانت تنام وتحلم به وتصحو لتستغفر الله، وكانت تعمل معه واحدًا وتستغفر الله. وكانت تريد أن تتزوج الآن، على الفور، عسى الله أن يمحو أخطاءنا السابقة. وعندما أخبرها ابنها ألا مانع لديه في زواجها، أخذته في حضنها

طويلًا، في مقابل كمال الذي طبطب فقط على رأسه. كمال كان فرحًا لأنه اعتبر هذا إذنًا بالزواج، وهي كانت فرحة للسبب نفسه، ولكن أيضًا لأن هذا معناه أنها ستغسل نفسها من أخطائها. نظرت إلى ابنها بفرحة وقالت له:

ـ صحيح يا محمود، يعني مش زعلان؟

وهو قال:

ـ لأ.

ـ لأ إيه يا محمود؟

ـ لأ محمود مش زعلان.

ـ طيب تعال ننزل نروح السينما.

نزل ثلاثتهم، وعلى باب العمارة سأل كمال إن كان يمكن أن يأخذ معه هيثم. ولم تملك حورية الرفض. ركبوا العربية ومروا على الدقي حيث يبيت هيثم مع عمه، وانتظروا حتى نزل هيثم ثم اتجه الأربعة إلى وسط البلد. وفي الطريق أشارت إلى نمر سيارة توقفت بجانبهم في الزحمة وقالت له بص كدا. وكانت نمر السيارة عبارة عن حرفين، حب، وابتسم كمال ابتسامة خفية ولكنها لاحظتها جيدًا.

كانت الساعة سبعة عندما دخلوا السينما. فات عليهم أول الفيلم، ولكنهم استطاعوا متابعته بسهولة، كان الفيلم يحكي عن بنت تصاحب شابًّا إسلاميًّا ثم تصاحب شابًّا شيوعيًّا ثم شابًّا هلّاسًا، ويخيب الثلاثة أملها بشكل كوميدي، وضحك الأربعة، ولكن محمود ضحك أكثر من الجميع، ثم أكلوا آيس كريم في جروبي وعادت حورية مع محمود في التاكسي. وكان محمود سعيدًا وهو عائد مع أمه، لدرجة أنه التفت

من تلقاء نفسه إلى أمه في التاكسي وقال لها إن هيثم إز نايس بوي. وباسته هي وقالت إن البوسة من أجل الكلام بالإنجليزي، ولكنها كانت بوسة لإحساسها أن العقبات كلها ذُللت أخيرًا.

كان يوم السبت، وغدًا يبدأ أسبوع جديد في المدرسة. عادا إلى البيت ودخل محمود ليغير هدومه ودخلت هي إلى الحمَّام، جلست على الكبانيه ومضت تقص شعر عانتها بمقص صغير. ووقفت أمام المرآة المعلقة على الحوض وخلعت الحجاب، وابتسمت لنفسها وأعجبها شكلها هكذا، وعاودت الجلوس على الكبانيه ومضت تضفر شعر رأسها في ضفيرتين كأنها بنوتة، وقررت ألا تعاود لبس الحجاب مرة أخرى.

١٣

كانت حورية مؤمنة، مؤمنة من قلبها. لذلك فأول شيء فعلته في الصباح هو أنها صلت ركعتين شكرًا، ووصلت محمود إلى المدرسة ثم ركبت إلى مدرستها. تابعتها نظرات المدرسات بشعرها العاري، وتابعتها نظرات الطلبة عندما دخلت حصتها في العاشرة، ولم تبالِ. خرجت من الفصل لتجد هند أمامها. حكت لهند كل شيء. كانت تتخلص من عبء ثقيل. قالت لها إن هناك فعلًا شخصًا في حياتها. وإن هذا الشخص هو فعلًا أبو أحد الطلبة. هيثم اللي في أولى إعدادي. انتي عارفاه.

أنا كنت متضايقة أوي يا هند، أنا مش هاخبي عليكي. كان فيه حاجات بتحصل بيني وبين كمال فعلًا، انتي تلاقيكي كنتي عارفة، والناظرة مرة لمَّحت لي حاجة عن دا، بس احنا خلاص قررنا نتجوز. أنا عاوزة حد ياخد باله من محمود. أنا جوزي الله يرحمه سابلي شيلة تقيلة أوي.

طبطبت عليها هند. سألتها متى ستروِّح فقالت إنها تستطيع أن تروِّح الآن. قالت هند، طب ما تيجي أوصلك البيت. انتي يا بنتي مش ساكنة هنا في القصر العيني؟ آه بس حابة نتمشى سوا، عندك مانع حضرتك؟ خالص والله، ياللا بينا.

سارتا معًا من عند ضريح سعد إلى القصر العيني، واخترقتا أمواج البشر في القصر العيني. وأشارت هند إلى الشارع الذي تسكن فيه وقالت، بيتي هنا.

كانت هند أقرب واحدة لها من ضمن زملائها وزميلاتها. كانت مدرسة رسم وبالتالي فلم تكن تحضر كثيرًا. ولم تكن بينهما اهتمامات مشتركة كثيرة، ولا دار بينهما كلام حميمي وشخصي من قبل. ولكن هند ظلت ملاكها الحارس منذ بدأت العمل في المدرسة قبل ثلاث سنوات. هند التي تدرس مادة هامشية أعطاها الله شخصية قوية واستطاعت بموجبها التدخل لصالح حورية كثيرًا. لأن حورية كانت إنسانة مستكينة، فغالبًا لم تكن ترد الإهانة. وحدها هند كانت تتدخل في الوقت المناسب لترد عنها الإهانة ثم تنفرد بها وتنصحها أو تشخط فيها، تشخط بحب. أحيانًا ضايق هذا حورية، كونها امرأة ناضجة تحتاج الوصاية من بنت أصغر منها بثلاثة عشر عامًا. ولكن الآن لا تقوم هند بالدور الناصح، بل

المتفاهم، كأنهما أختان، تسيران في الشارع جنبًا إلى جنب وتتحدثان بهدوء ولا تنظران إلى بعضهما البعض.

عند جامع السيدة اقترحت هند أن يدخلا. تعرف أن حورية تحب الصلاة في هذا الجامع. دخلتا وصلتا ثم اتجهتا إلى الضريح الأخضر. قالت حورية إنها لا تعرف الصح. الله وحده يعرف. ودعت الله أن يعرِّفها إياه. وجالت بخاطرها معضلة فلسفية، قالت في الأول، اعمل اللي فيه الخير يا رب، ثم فكرت إن الدعاء هو في النهاية فعل أمر، وإنه لا يصح للإنسان أن يأمر ربه، ففكرت أن الصيغة الأمثل هي أن تدعو الله أن يوفقها لما يحبه ويرضاه، ثم فكرت أن هذا أيضًا ينطبق عليه الحكم السابق، فدعته أن يفعل ما يشاء، ثم فكرت إن هذا الدعاء لا معنى له لأن الله في كل الأحوال يفعل ما يشاء. وكادت ماكينة عقلها تتعطل لثانية إلى أن قررت إضافة عبارة بعد إذنك لصيغة الدعاء، وقالت بعد إذنك يا رب، وفور قالتها انطلق لسانها، وحياة النبي يا رب اعمل اللي انت عاوزه، بس خليني اعوزه كمان بعد إذنك، يا رب أنا عارفة إني غلط، لكن والنبي راضيني، اسمع كلامي يا رب، اعمل اللي باقول لك عليه. والنبي يارب بعد إذنك اسمع كلامي وماتضايقنيش أبدًا. وملأ نور الإيمان قلبها ورأت كأن الله يجلس فوق ويمسك بيديه عجينتين صغيرتين، هي وكمال، ويسبكهما معًا في عجينة واحدة ضخمة، ويضعها أمامه على الطاولة ويفردها بالنشابة ثم يطيِّرها في الهواء ويُدخلها الفرن فتنصهر بالداخل. وكانت تجلس في حضن كمال فوق نار الفرن، عجينة واحدة موحدة، لا تعرف ماذا كانت في الأصل، أي منها مذكر وأي منها مؤنث.

فاقت وفتحت عينيها ورأت هند تجلس بجانبها تقرأ في المصحف وتتمتم، وعلى شفتها العليا ذبابة صغيرة. هشتها لها حورية فانتبهت هند. هند أيضًا كانت كالنائمة.

كان هذا شيئًا مثل الوجد ضرب قلبيهما في اللحظة نفسها.

١٤

ابتسم كمال عندما رآها، وقال إنها تبدو جميلة بدون حجاب، وشيء مثل هذا أيضًا قاله هيثم.

فرحت بنفسها وابتسمت، وعندما تبتسم حورية تظهر غمازتاها بوضوح، امرأة سمراء بغمازتين وجينز وسويتر جلد بيج، كانت تبدو كأميرة نوبية، أميرة نوبية ضحوكة ومعاصرة مدَّنتها الحياة في القاهرة ولكن لم تفقدها سحرها الجنوبي. جلست مع هيثم في الصالة وأخذت تشرح له، ثم سألها الولد إن كانت ستتزوج أباه فعلًا. قالت له أيوه، إنت إيه رأيك؟ قال حلو. واعتذر لها عن قلة أدبه معها في السابق، اعتذر بالإنجليزية، آي آم سوري فور بينج سو روود ويز يو. طبطبت عليه وسألته عن رأيه في محمود الآن. لم يرد الولد ولكن عندما كررت السؤال قال إنه غريب، لا يتكلم ولا يضحك كثيرًا، ولكن يبدو كبيرًا وناضجًا، وعانى صعوبة حتى ينطق العبارة الأخيرة. فكرت حورية في نفسها، ربما يكون عكس ما اعتقدته هو الصحيح، ربما يشعر هيثم بالانسحاق أمام محمود الذي يصغره بست سنوات.

وأن هذا سر محاولته التنطيط عليه. كانت هذه خاطرة عابرة هاجمتها بسلام ورحلت بسرعة.

بعد انتهاء الدرس جلست حورية مع كمال. سألته عن هيثم فقال إنه تكلم معه، وإن الولد متضايق قليلًا، فكرة أن يتزوج أبوه لثاني مرة ليست مريحة طبعًا، ولكن الأساس أنه انبسط من يومين مع محمود. وكل ما سيأتي بعد ذلك سهل. كانا قد استقرا على الإقامة في بيت المنيل. قالت حورية إنها تحب المنيل لأنه يذكرها بأبيها، ولكن لديها شرطًا، تريد أن يتم توضيب البيت من جديد. الحمَّام والمطبخ لا يعجبانها، تريد نقاشة جديدة للبيت. الجدران البيج لا تناسبها ولا تحبها، تريد ألوانًا مبهجة أكثر. لا تريد فرحًا ولا شبكة ولا أي شيء، هما كبرا على هذا. فقط تريد الشعور بأنها تسكن في بيت جديد. المطابخ الحديثة مثلًا ليست غرفًا مستقلة، وإنما يكفي وضع بار للفصل بينها وبين الصالة. الناس زمان كانوا بيتكسفوا وهما بيطبخوا، إنما دلوقتي الناس مابتتكسفش. أصلًا مفيش حاجة تكسف في دا. الباركيه قديم أيضًا، وهذا سهل، ماكينة تمر عليه وتكشطه فيصبح ذهبًا. وابتسم كمال وقال لها إن مفيش مشكلة. فقط عليها أن تنتظر حتى ينتهي العام الدراسي، عندها سيتمكن هو وابنه من الإقامة خارج البيت حتى ينتهي تشطيب الشقة. وهي من جانبها اعتبرت أنه من قلة الذوق أن تفاصل في هذا، الرجل معه حق. فقط تريد دبلتي الخطوبة الآن، لتواجه بهما الأعداء في المدرسة، وأمر آخر، لا سكس حتى كتب الكتاب. تريد أن تحس أنها عروسة. عروسة ينتظرها عريسها لتحدث بينهما كل الأشياء التي يفترض ألا تحدث

إلا بعد الزواج. مش دا الصح؟ قال كمال إن دا الصح. ولكن الصح ليس شيئًا واحدًا، الصح طريق باتجاهين، ومن ضمن الصح أيضًا أن تتعرف حورية على أمه، وهي ست مقعدة وعندها ثمانون سنة ولا تخرج من بيتها. سيذهبان لزيارتها في بيتها بالضاهر، اعتبريها زيارة شكلية، كدا كدا انا خدت قراري خلاص.

أعجبتها عبارة «أنا خدت قراري خلاص»، وابتسمت، ولم تحكِ له عن حلم العجينتين الذي رأته اليوم في الجامع. اعتبرت هذا سرًّا بينها وبين الله. ولكنها فرغت نفسها دقيقتين للتفكير في كنه كمال هذا. هل يُعقل أن يوجد شخص مثل هذا، طيب إلى هذه الدرجة وجميل إلى هذه الدرجة ويحبها إلى هذه الدرجة؟ كل علاقتها بكمال اعتبرتها هدية من الله، كمال نفسه هدية، حبه لها هدية، ووعد الله بأن ينصهرا معًا في الفرن أكبر هدية.

١٥

صحيح أن حورية لم تشرب الخمر أبدًا، ولكنها شربت سيجارة حشيش. حدث هذا وهي في البلاعة. بعد عدة مرات حكت لها أم حسين، الست اللي بتنضف، عن زوجها وسيجارة الحشيش. وقررت أن تجربه فأتت لها أم حسين بسيجارة في المرة التالية. وشربت نفسًا في إثر الآخر حتى بدأت تكح وشعرت كأن روحها ستفارقها. ثم انسطلت تمامًا، وانتبهت إلى هذا عندما خبطت الست

على غرفتها ودخلت فالتفتت لها حورية وقالت بنبرة استفهام، ألو؟ هنا أحست أنها أصبحت مثيرة للسخرية أمام الشخص الغلط، ولم تعاود التجربة.

الآن جربت الحشيش مجددًا. اكتشفت قطعة وهي تروِّق بيت كمال. لم تعرف ما هي ولكنها شمتها وتذكرت الرائحة. سألته عنها فقال إنه يشرب من آنٍ إلى آخر، ولم تكن تعرف هذا. وشربت في البيت عنده، كان هذا في الفترة الأولى لتعارفهما، شربت سيجارة وأحست أن روحها تكاد تفارقها مرة أخرى، ولكنها كانت اكتسبت بعض الثقة بالنفس، نزلت من عنده وهي تحت تأثير المخدر. كانت متزاولة تمامًا ولكن لسبب ما قررت المشي حتى البيت، خافت من التعامل مع سائقي التاكسي وهي مسطولة، فمشت مع نفسها من عبد العزيز آل سعود حتى حاذت كورنيش النيل ومنه باتجاه التحرير، وتحت تأثير السيجارة اعتقدت أن التحرير هو ميدان عابدين، ومضت تبحث فيه عن مدخل السيدة ولا تجده، كانت الأشياء متداخلة في عينيها. سألت امرأة مارة في الشارع، وأشارت لها تلك إلى مدخل باب اللوق، اهو بصي هناك اهو، مطرح ما صباعي بيشاور. ومضت حورية تمشي وتمشي على خط إصبع الحاجة، وأخذ الإصبع يسير بجانبها ويرشدها، وعندما يتعب من المشي كان يطير بمحاذاة كتفها، وكان وجوده مكثفًا أحيانًا وشبحيًّا أحيانًا، ولكن لم يختفِ أبدًا أو يتخلَّ عنها، حتى وجدت نفسها عند قصر عابدين فعلًا.

أصلًا، كانت الشوارع عبارة عن خرائط في رأس حورية، قبل أن

تتحرك من أي مكان وإلى أي مكان، كانت ترسم خريطة في رأسها للطريق المنتظر، وتمشي حسب الخريطة. كون امرأة هكذا تتلخبط بين عابدين والتحرير فهذا يعني أن الحشيش له مفعول حقيقي، ومن المهم وجود إثبات مادي على هذا، لأن حورية كانت تعتقد، من ضمن ما تعتقده، أن التأثير وهم، وأن اعتقاد متعاطي الحشيش أنه سينسطل وحده هو ما يسطله.

شربت حورية بعدها عدة سجائر، أقل من عشرة ربما، واكتسبت ثقة بنفسها والثقة أنها لن تموت الآن. الآن تلف السجائر بسلاسة، ولكن عند كمال فقط، لا تشتري ولا تحاول أن تشتري، وإن كانت حفظت رقم الديلر على تليفونها تحسبًا لأي ظرف طارئ.

تتساءل الآن عن موقف أبيها لو كان عاش وعرف أن بنته تشرب الحشيش، تشرب وتتوه في الشارع، أبوها الذي قال لها لن تعيشي حتى تتعلمي المشي في الشارع. كانت ستقول له يا فرحتك بيًا، بنتك اتلخبطت بين التحرير وعابدين، بنتك شربت حشيش يا ابا. ولكنها كانت تقول هذا بسخرية لطيفة. في أعماق نفسها كانت تعرف أن أباها لم يكن لينصدم فيها. كانت تعرف أن أباها يحب أن يراها مبسوطة. وكانت تتمنى لو كان موجودًا معها الآن. على الأقل ليأتي كمال ويخطبها منه، بدلًا من أن تذهب هي معه وتطلبه من أمه. ولكن لا يهم، صحيح أنها يتيمة، وصحيح أن اليتيمة تدفع ثمن يتمها بلا اعتراض، ولكن الحب قادر على تحويل بلاعة اليتم إلى حديقة، وجعل مياه الصرف الصحي عصائر فاكهة تروي الجميع.

كانت عزومة غداء في الضاهر. الحاجة عدالة أم كمال تتحرك على كرسي بعجل. وطت عليها حورية لتبوسها وهي لم تبذل مجهودًا لترفع جسمها قليلًا، بدا واضحًا أن الحاجة لا تحبها، كانت تعاملها هي ومحمود ببرود. بعد الغداء جلسوا أمام التلفزيون وبدأت فقرة الأسئلة، وانتي بتشتغلي إيه يا حبيبتي، وبتاخدي كام على كدا، ومش ناوية تتحجبي إن شاء الله، وجوزك مات ازاي؟ وصولًا إلى، العيل اللي معاكي دا هتعملي فيه إيه؟ ضرب الدم في رأس حورية وقالت لحماتها، ابني مش هيسيبني يا طنط. وطنط لوت بوزها وهي تقول، آه أومال ايه؟ الواحدة لازم ترضى باللي ربنا قسمهولها.

كانت حورية تشرب آخر شفطة من الشاي. رشفتها بسرعة ثم التفتت لكمال وقالت، مش ياللا؟ وقف كمال ولكن أمه قالت له، خد عاوزاك ف كلمة. ودفعت كرسي العجل باتجاه غرفة النوم وتحرك كمال في أعقابها، وشاهدت حورية ظليهما وهما يشوِّحان بأيديهما ولكنها لم تسمع الكلام. كانت تجلس على الكنبة وتبتسم ابتسامات عصبية لمحمود ولهيثم، وعندما خرج كمال وركبوا السيارة معًا، سألته ماذا قالت له أمه. فلمَّح لها إن مش دلوقتي ومش قدام الولاد، وظل الغيظ يأكلها حتى وصلوا السيدة. هناك لعب الولدان مع بعضهما وهو قال لها إنه كما هو متوقع، الأم مش مبسوطة من الجوازة. أمي صعبة جدًّا يا حورية. بس انا مش عاوزك تقلقي، مفيش حد ف إيده القرار غيري. وليه مش مبسوطة إن شاء الله؟

يعني، بتقول إنك أرملة وكدا. وبتقول إيه تاني؟ بتقول إيه تاني زي إيه؟ قالتلك حاجة على محمود صح؟ بصي، هو صح، هي قالت، بس هو في النهاية كسمها. إيه؟ كسمها، بقولك كسمها. كسمها؟ آه طبعًا كسمها، هو فيه إيه، كسمها طبعًا. طيب خلاص متشخطش، كسمها كسمها.

من الأول خالص، حكى كمال، كانت الأم ضد زواجه بمراته الأولى. كانت تريد أن تزوجه من ابنة خالته، التي هي، بالمناسبة يعني، مطلقة وعندها ولدان، واعترضت على مديحة زوجته الأولى ولوت بوزها أمامها سنين طويلة، وتأخر الحمل لسنتين ظلت فيهما الأم تزن على ابنها ليطلق زوجته حتى ولدت زوجته وماتت وهي تلد. وظل كمال يحمِّل أمه مسؤولية موت زوجته، وقاطعها سنتين ثم عاد إليها. ولكنه لم يعد يهتم بها. كسمها حقيقي يعني. هي زي قِلتها وتعرف أنها زي قِلتها. لم ترَ حورية من قبل شخصًا يحتقر أمه إلى هذه الدرجة. بهذا الوضوح وبهذه العدوانية.

١٧

لا أذكر سببًا لإنشائي حسابًا على الفيسبوك سوى أني كنت فرحانة بنفسي.

كنا نجلس في بلكونة بيته، ونتبادل أنفاس الحشيش، عندما قال كمال إني حلوة، كان يتكلم عن أمه وأخيه، وأنا أتابعه، وقطع السرد

وقال، انتي جميلة جدًّا. خفق قلبي وسألته، بجد؟ فتكلم عن غمازتيَّ وأسناني وضحكتي الحلوة، وبالأساس عن عينيَّ العسليتين. انتي جميلة، أقصد شكلك جميل.

لم أكن سمعت غزلًا بوضوح من قبل. كنت أعرف أني حلوة وعينيَّ ملونتان، أو على الأقل أعرف أن وجهي له شخصية خاصة. حتى في السنوات التي أهملت فيها نفسي وسمنت بعض الشيء، ظللت حلوة. ولكن أحدًا لم يقل لي هذا من قبل. كنت أمشي في الشارع وأسمع كلمات من بعيد، كلمات غير مفهومة، ولا ألتفت لها كالعادة، ولكن بالتأكيد هي معاكسة، ماذا ستكون يعني؟ ولكن أن يقول لي أحد أني حلوة، لا مجرد «حاجة حلوة»، ثم يفصِّل: بسبب لون العيون والغمازة والأسنان البيضاء، فهذا شيء كنت أعرفه بالحدس ولكن لا أملك عليه دليلًا واحدًا من الآخرين. بالضبط هكذا. وأمسكت بأصابعه بكفي وبوستها. وتدلعت قليلًا على كتفه. وقال لي هو شيئًا ثم ناداني، يا حرنكش. نظرت إليه، أول مرة تقولي يا حرنكش. وابتسمت من الخد إلى الخد وكبرت ابتسامتي وكبرت معها غمازتاي. عندما عدت إلى البيت وقفت أمام المرآة وناديت نفسي، حرنكش، حرنكش. كنت شعرت أني أحتاج إلى تربية حرنكش التي بداخلي، لتكبيرها وتسمينها ورعايتها. اتصلت به وقلت له إنني سأنشئ حسابًا على الفيسبوك، وإن عليه مساعدتي في هذا وأن يرسل لي دعوة على الإيميل ويتابع معي لحظة بلحظة أثناء دخولي الموقع وإنشائي حسابًا هناك باسم هو الأكثر تميزًا من أي شيء، Haran Kash.

١٨

أثناء دفنة صبحي، وبينما حورية متشحة بالأسود تنظر ساهمة إلى القبر وهو ينفتح، وإلى المقرئين وهم يقرأون، اقترب منها واحد عرَّف نفسه بأنه زميل لزوجها الراحل. عزاها وسألها كيف حدث هذا؟ فقالت معرفش ونظرت في الأرض، ولكن الشخص لم يرغب في الانصراف. سألها إن كانت تعرف أنه حاول الانتحار من قبل. ظنت أنه يسألها فنظرت إليه وقالت إن هذا ماحصلش. قال لها إن هذا حدث، وإن صبحي نفسه، المرحوم، كتب هذا على الفيسبوك. وكانت أول مرة تسمع حورية هذه الكلمة. سألته يعني إيه فيسبوك، فقال إنه موقع على الإنترنت. حفظت حورية الكلمة وأخذت في الأيام التالية تسأل من حولها عن الفيسبوك ولم يعرف أحد، فظنت أنه اختراع اخترعه هذا الإنسان. بعدها بسنتين أو ثلاث سمعت الكلمة مرة أخرى. وتمنت لو لم تسمعها. كانت تريد التفكير في انتحار صبحي كنزوة عابرة وليس كعمل منهجي متعمد.

بعدها حاولت الوصول إلى زميل صبحي، كانت تريد أن تسأله لماذا موَّت هذا نفسه؟ ما الذي فعلته هي حتى يموِّت نفسه؟ ما الذي فكر فيه ودعاه لفعل هذا؟ ولكن السبل كانت قد تقطعت بينهما، ولم يعد هناك إلا الحيرة تأكل قلبها في غرفتها ببيت المنيل، وكانت زوجة أبيها تدخل عليها لتسألها، مش هتاكلي يا حبيبتي؟ وكانت تقول لأ، مش عاوزة. وكان أبوها يأتي ويجلس

على طرف السرير ويقول لها إن هذا يحدث طول الوقت، والحياة تستمر، وإن عندها ولدًا لا بد أن ترعاه، وكانت تبتسم بسخرية وتقول، آه ولد. في تلك الأيام أيضًا بدا واضحًا تأخر محمود في نطق الكلام، وقال لها الدكتور إن عنده بعض المشاكل، وإن هذه المشاكل لن تنتهي قريبًا، وعرفت هي أنها لن تنتهي أبدًا. ومرت سنة ونصف حتى مات الأب هو أيضًا.

في كل هذا، مع كل هذه الميلودراما التي مرت بها، ظلت كلمة «الفيسبوك» تخيفها. في أعماق نفسها، كانت تعتقد أن هذا هو المكان الذي يعلن فيه البشر عن الأشياء الغريبة والمريضة بداخلهم. كان الفيسبوك يخيفها ويثيرها في الوقت نفسه، ترغب وتخاف، كانت تريد الوصول إلى قلب السر.

الآن، في العصر الحالي، ٢٠١٠، وبعد أن أنشأت أول حساب فيسبوك لها، بمساعدة من ملاكها الحارس كمال، وبعد أن زينت صفحتها بالمعلومات والصور، اكتشفت وهي على السرير أنها نسيت العودة لما كتبه صبحي من زمان عن محاولة انتحاره. لم تهتم، لم تبالِ، نسيت، ولم تتذكر إلا وهي تكاد تروح في النوم، وعرفت أنها ستنسى أيضًا في الصباح. وابتسمت ابتسامة رقيقة، ابتسامة من تمكن أخيرًا من الانتصار على الزمن، وراحت في النوم رويدًا رويدًا، وحلمت ببيت جميل على البحر يلعب فيه الأطفال ويقرأ فيه كمال الجرنال وهي تعد الإفطار للجميع وتدندن.

١٩

نحن الآن في إجازة ما قبل امتحانات نصف السنة. كانت حورية تقضي النهار تذاكر لمحمود والليل لهيثم. فقط استطاعت سرقة ليلة كاملة مع كمال ليشتريا دبلتين من الصاغة في الحسين. لبست دبلتها فورًا وفكرت في أول يوم امتحانات، عندما تعود إلى المدرسة ويرى أولاد الكلب جميعًا دبلتها وهي تخرم عين الكبير. سنتزوج في الإجازة. سنذهب إلى المأذون ويكتب عليّ ويخرس الجميع.

مرا على سيدنا الحسين، ولبسا الدبلتين في الجامع، دبلة فضة ودبلة ذهب، وكلم أمه في الجامع، قال لها إنه لبس الدبلة في اليد اليمنى، وسينقلها إلى اليسرى بعد شهر. قالت له الأم شيئًا فقال لها إنه مش مهم، إن رأيها مش مهم، أنا بابلغك يا ماما مش بستأذنك، ياللا سلام دلوقتي، الصلاة هتقوم ولازم أقفل.

خرجا من الجامع. قالت له إن أمه صعبانة عليها، مينفعش يا كمال تتعامل كدا مع مامتك، أنا لو كنت مكانها كنت هتضايق أوي. لم ينجرح من كلامها. كان صلبًا كما لم تعهده من قبل، قال إن من لا يحترم ظروف الناس لا يستحق أن يحترمه الناس. كان صلبًا وغاضبًا. وهي سكتت، أرادت أن تقول له إن كلامه صح، ولكن العالم لا يمشي بالكلام الصح، إن الناس تنجرح أحيانًا بسبب الكلام الصح، وإن جرح الناس غلط، والكلام الصح لا يحل هذا الموضوع.

ما أرادت قوله كان متصلًا بالميكانيكا، أو قريبًا منها. قالت إنها لم تكن تعرف كيف تطبخ زمان، كانت تحتاج إلى النظر في الورقة كل خمس دقائق أثناء الطبيخ. والورقة كل ما فيها كان مضبوطًا، كله عشرة على عشرة، على الورق لا شيء غلط، ولكن على الطبق كان كل شيء غلطًا. حورية لم تكن بصحبة أم تعلمها الحياة في المطبخ، ولم تتركها زوجة أبيها تدخل المطبخ لأنها كانت تخاف على مكانتها كست البيت، وبالتالي فقد قام الكشكول الصغير معها بدور الأم، ولكن الكشكول كان أمًّا فاشلة، أمًّا تقول كل الكلام الصح ولكن بالنسبة إلى الفعل، زيرو تمامًا.

غضب كمال من كلامها. نفرت عروقه ونثر رذاذًا من فمه وهو يقول إنه لا أحد يعرف أمه أكثر منه. وتمادى وقال أشياء غبية، إنتي ماتعرفيش حاجة، إنتي مش جاية تعلميني أكلم أمي ازاي، انتي مالكيش حق تعلقي أصلًا. وأُخذت هي بهذا الهجوم المباغت، أُخذت لدرجة أنها قالت بصوت خافت، آنا آسفة، وفقدت النطق تمامًا. ركبت معه العربية وظلَّا صامتين، ونزلت من عربيته صامتة. وصعدت إلى البيت صامتة ودامعة ولابسة دبلتها.

رأت محمود يلعب على الكمبيوتر عندما دخلت. ضربته وقالت له إن الكمبيوتر سيجننه، إن الحياة قاسية عليها وإنه لا يقدر هذا. نظر إليها الولد مفزوعًا وجرى ليبكي وحده تحت البطانية، وعندما رأته يجري أمامها بكت هي الأخرى أخيرًا، بكت بحرقة، وعندما هدأت جلست على الكمبيوتر، وفتحت صفحة كمال على الفيسبوك. لم يكن قد كتب شيئًا، وكانت ستجن لتقرأ ما كتبه، اكتب شيئًا يا كمال، أي

شيء، عن الدبلة، عن الحسين، عن أمك، عن الخناقة، عن أي شيء، ولكن لا تتركني هكذا أصارع نفسي، وعندما يئست كلمته على التلفون ولم يرد، وكتبت له تقول إنها آسفة، والله العظيم آسفة. ولم يرد، وظلت ساهرة تحاول أن تلتقط أي شيء على الفيسبوك، حتى قرأت ستاتوس كتبته زميلة لها في المدرسة، ستاتوس من ثلاث كلمات يقول، بكرة كله هيحلو. وأضيئت الحروف في عقل حورية، وسمعت أذان الفجر من حولها، وتذكرت حلمًا رأت فيه نفسها كعجينة تجلس في حضن كمال، عجينة صغرى في حضن عجينة كبرى. ووقفت في الشباك وفتحت يديها للسماء لتستقبل بعض الرذاذ المنهمر وقالت يا رب. لا ترجعني من عندك منكسرة يا رب. وأغلقت الشباك وذهبت لتنام، وأتاها النوم على الفور، وعندما صحت وجدت كمال قد أرسل إليها رسالة يقول فيها إنه يحبها فعلًا. وضحكت على نفسها ومن نفسها. وتذكرت أباها وتذكرت كيف أنه لم يكذب عليها أبدًا من قبل.

زمان، في الأيام الحلوة الرائقة، كان الأب يأخذها معه في كل تمشياته في البلد ويتكلم معها، يحكي لها بصراحة عن كل شيء، كان يقول لها، أمك تعبتني كتير يا حرنكش، وبكرة تتجوزي وانا هموت ولازم تعرفي تتعاملي بعدي، واوعي تفتكري اني مش واخد بالي انك اتخانقتي امبارح مع مرات ابوكي، بس انا مش هقدر اعيش من غير ست، ولازم واحدة ست تربيكي، وبكرة هتتجوزي وتنسي كل دا. وكان يحكي لها حكايات ويأخذها إلى القناطر والسينما ومعرض الكتاب، ويركّبها الطفطف ويؤكّلها الجيلاتي والفشار،

وأخذها مرتين إلى الوحدة العسكرية في مدينة نصر، ولم يزن عليها لتذاكر أكثر، كانت تذاكر وتنجح وكان فخورًا بها. وكان يقول لها إنها ستحصل على تقدير جيد فتحصل على تقدير جيد. لم يكذب أبدًا، كانت تصدقه وتؤمن به.

٢٠

تطوع المقدم إسماعيل محمد عبد المولى في الجيش بعد الإعدادية، ودرس في الثانوية العامة أثناء ما كان شاويشًا، ثم درس في الحقوق، في قلب العنبر كان يفتح كراريسه ويحفظ ويذاكر، وكان يكلم زملاءه عن الأشياء التي لا يعرفونها، وكان له احترامه ووجاهته بين صف الضباط والضباط والعساكر، وحاز أشرطة كثيرة، ثم نجومًا كثيرة، حتى مات برتبة مقدم في العام ٢٠٠٦، وعندما مات لم تفعل شيئًا، تركت عميها يستخرجان تصريح الدفن ويتفقان على العزاء وهي تسير في ركابهما بلا كلمة، ولا دمعة حتى. ثم عادت إلى السيدة وتغطت باللحاف.

ليلة رأس السنة ٢٠١١ حكت حورية هذا لكمال. كانا ساهرين معًا في بيته، وهيثم ذهب لينام، ومحمود في بيت السيدة. كانا قد اتفقا على قضاء الليلة معًا، في حضن بعض، فقط بلا سكس. قالت له إنها أحست بعد موت الأب بأن الكل تخلى عنها وتركها في المجاري. سألها، المجاري؟ تقصدي المجاري؟ فوضعت إصبعها على فمها

ليخفض صوته، قالت، هيثم نايم. وحاول خفض صوته ولم يستطع، فعلت صوتها هي أيضًا. قامت وجلست على السرير وقالت له، على فكرة، صوتك العالي دليل على ضعف موقفك. وضحكا. قالت له إنها أحست بهذا، كأنها في المجاري، والكاكا تحيط بها من كل النواحي، وبعدين انت جيت أنقذتني، باحسّ إنك شبه بابا في حاجات معينة، ومضت تلعب في شعر ذقنه الفضي.

يا ريت كان عندي أب زيك يا حورية. أبويا مش فاكر منه حاجات كتير. وأمي علاقتي بيها عمرها ما كانت كويسة. أنا حملتها مسؤولية موت مراتي. قعدت تزن وتزن لغاية ما جابت أجل الست. وعشان إيه كل دا؟ علشان الولد. طيب الولد جا، والست راحت، كان ذنبها إيه بس دلوقتي؟

كعادتها كلما سمعت سيرة زوجته الأولى، شعرت بقرصة غيرة خفيفة. وقتها أحست به بعيدًا، ليس معها، واغتاظت بعض الشيء، ولكن لم تعدم الحيلة. طبطبت عليه وحرصت على أن يحتك جسداهما بقوة. أرادت أن تنقض عهدهما، عهد «اللاسكس حتى كتب الكتاب»، أرادت أن تثبت لنفسها أنه ما يزال قريبًا منها. ولكن تلفونه رن. رد كمال، وكان أخوه على الخط يهنئه بالسنة الجديدة، وينقل له خبرًا سيئًا تغير له وجهه. أغلق كمال الخط وقال لحورية إن المتطرفين فجروا كنيسة كبيرة في الإسكندرية. بيقول لك لقوا جثث الناس متفرتكة ومتعلقة على سور الكنيسة، ربنا يستر. احنا كنا بنقول إيه؟

كادت حورية تنطق وتقول له إنه كان يتكلم عن مراته، ولكن لسانها

انعقد، حتى تذكر هو، كنت باقول لك إن مراتي لما ماتت أنا تعبت جدًّا، لغاية ما انتي ظهرتي في حياتي. مش حقيقي إن أنا أنقذتك. انتي اللي أنقذتيني من الخوف، ومن حاجات وحشة كتير مش هاقدر احكي لك عنها دلوقتي. مش عارف أقولها لك ازاي، بس دلوقتي بقول الحمد لله إنها اتوفت وإنك انتي اللي ظهرتي في حياتي، ربنا يسامحني اني باقول كدا، بس انتي لازم تعرفي دا.

ابتسمت وبدأت تدندن وحدها، الفرصة بنت جميلة، راكبة عجلة ببدال، فبدأ في مشاركتها، هو بصوت عالٍ وهي بصوت خفيض، لم يكن يحفظ كلمات الأغنية، ولكن همسها كان دليله في بحر الأغنية، كان صوته ينخفض عندما يبدآن مقطعًا جديدًا ويعلو عندما يتكرر المقطع. وأصابعها الرقيقة أيضًا كانت تنقر على رقبته، ثم أعلى ظهره، ثم تبدأ في مداعبة الوحمة أسفل ظهره. ونُقض عهد اللاسكس. كان عهدًا هشًّا على العموم، ولم يكن أحدهما مؤمنًا بإمكانية تحققه.

بعدها ناما لساعتين، حلمت فيهما حورية بابنها. محمود وحده في الشقة، وهي تعرف أن قنبلة ستنفجر هناك الآن، وفي مكان من عقلها ترى جثة ابنها متفرتكة ومعلقة ستين قطعة على حبال الغسيل في البلكونة، وتحاول تحذيره ولا يطلع صوتها، وتظهر لها السيدة زينب وتقول لها، يعني انتي هنا مبسوطة وسايبة ابنك في الخطر؟ وحاولت الرد ولم يخرج صوتها، ولم تيأس، كانت تريد الرد عليها وكانت تريد إيقاظ نفسها. مضت تحاول إطلاق أي صوت، وتفشل وتكرر المحاولة، حتى صحت وهي تصرخ تقريبًا. صحا كمال أيضًا وسألها مالك؟ فقالت إنها تريد العودة إلى البيت لتطمئن على محمود.

قام وأشعل لها النور ولبست. ركبت التاكسي وقلبها منقبض. وعندما أدارت المفتاح في الباب جرت على غرفته ورأته نائمًا وعلى شفتيه ابتسامة. هدأ قلبها قليلًا وفتحت الشباك لتُدخل نور الشمس الطالعة لتوها، ثم مسحت على شعره وهي تتمتم له في سرها بسنة سعيدة وجميلة، وعادت للنوم مرة أخرى.

٢١

اتفق كمال مع مقاول ليتولى توضيب الشقة في المنيل. الحمَّام والمطبخ سيتكسران بالكامل، وسيُبنى بار صغير حول المطبخ، وستنقسم غرفة هيثم لاثنتين، واحدة له وواحدة لمحمود، ثم ستبدأ النقاشة. كان المقاول يجلس مع كمال وحورية في صالة المنيل وهما يشرحان له. حورية كانت ذات خبرة قديمة في توضيب الشقق، منذ إعادة إنشاء شقة السيدة قديمًا، وكانت تتدخل في الحوار وتصحح للمقاول أحيانًا. حتى ينتهي التوضيب، سيذهب كمال مع ابنه ليقيم عند أخيه عاطف. وسيكتبان الكتاب في آخر الشهر، وعليه فلا بد أن يتسلم مفتاح شقته من جديد على يوم عشرين أو أقل.

انتقل العفش في عربية نقل إلى شقة للعائلة في الهرم، ومرت حورية يوميًّا مع كمال على شقة المنيل ليتابعا الوضع فيها. كانت المطرقة تعمل في السيراميك وتكسره وتحوله لشظايا كثيرة، ويتكوم

التكسير في شكاير كبيرة رُكنت بجانب باب البيت، شيكارة تضاف إليها شيكارة ثم شيكارة. والحمَّام والمطبخ اللذان اكتسيا بالسيراميك سابقًا أضحيا الآن عاريين، وحورية وكمال في معارض السيراميك يختاران الألوان، أبيض وأخضر للمطبخ وألوان كثيرة للحمَّام. والعازل، أهم حاجة العازل يا كمال، مش عاوزين جيراننا يقرفونا. ومستعمرات للصراصير تظهر من تحت البلاط المتكسر ومن شقوق الجدران، تنكشف للنور فجأة ثم تلقى حتفها تحت ضربات المطرقة، ويعرق كمال بشدة وهو يصعد بكراتين السيراميك، وتحاول حورية مساعدته ولا تقوى فتجلس على الأرض عاجزة فينزل ويقول لها، مش قلت لك مش هاتعرفي؟ ويحمل هو الكراتين ويلهث، ثم يذهبان ليشربا شيئًا في كافيه، وينفخان في الشاليموه فتنفجر البقاليل على سطح العصير.

استعجلت حورية كتب الكتاب يوم الأحد ٢٣ من الشهر. استعجلت النوم مع كمال تحت سقف واحد بلا خوف. قالت لمحمود، معلش يا بابا، قربنا نخلص، وكان ضميرها يوجعها لأنها تتركه لأوقات طويلة. وكانت تقول لنفسها، أنا أم شريرة، أنا أم أنانية، وكانت السيدة زينب ترد، لا يا حرنكش، إنتي أم مسكينة، إنتي متعرفيش في الحاجات دي، وتبتسم وتقول كل دا هيخلص خلاص يا حبيبتي. وتحضن حورية ابنها وتقول له إنها آسفة. أنا عارفة إني وحشة. أنا عارفة إني قصرت كتير، بس انت هتكبر يا محمود وهتفهم، هتكبر ويبقى عندك عشرين سنة، هيطلعلك شنب ف وشك وهتفهم أكيد.

كلم كمال حورية وقال لها إنها مدعوة هي ومحمود على الغداء في بيت أخيه عاطف حيث يقيم هو حاليًّا. وقالت له ماشي. لبَّست محمود وخرجت معه بتاكسي إلى الدقي. في الطريق سألته، مبسوط يا محمود؟ ولم يرد. صعدا معًا، كان هناك كمال وهيثم والدكتور عاطف ومدام شاهندة زوجته وسما وتمر ابناهما. هذه المرة لم تشعر حورية بنظرات العائلة تخترق عظامها كما شعرت مع الأم. كانوا ودودين معها، وبدا كأن هناك تجاهلًا تامًّا لكلام الأم ولأهمية موافقتها أصلًا، ولكن مع توصية واحدة فقط، يا كمال لازم ترجع تكلم ماما وتلطف الجو معاها، بس فهِّمها إنه خلاص، دي رغبتك انت ومحدش هيمنعك تعملها، بس مايصحش تخليها زعلانة منك بالشكل دا. واستند عاطف الأخ على كرسيه وقال إن كمال طائش من يومه، وكثيرًا ما زعَّل أمه والناس من حوله بلا داعٍ. ولهذا فلا يستطيع أن يأخذ حقه. ولأول مرة ترى حورية كمال كأنه أخ صغير. وضحك قلبها جدًّا، وشرب الدكتور عاطف شفطة من كوب الشاي وبدأ في تشغيل ماكينة ذكريات خفيفة، هل تذكر فلان الفلاني وهل تذكر وقت أن كان كذا وكذا، وكيف لا تذكره، ويضحكون جميعًا.

وبدأوا يأكلون، رقاق وملوخية ومحشي ورق عنب وفراخ، وعزمت شاهندة على حورية بشدة لتأكل، وضحكوا كثيرًا وتكلموا في السياسة، انتخابات مجلس الشعب ومظاهرات ستنطلق قريبًا في عيد الشرطة.

وكان محمود يأكل شاردًا، وسما وتمر ينظران إليه ولا يفهمان، واستمر صمتهما حتى أكل محمود دبوس الفرخة بالقرقوشة التي في طرفه، فنادت سما أباها في استغراب، بص يا بابا دا بياكل العضم. وشخط فيها الأب سريعًا. وأحست حورية بحرج شديد، ولامت نفسها، لأنها هي نفسها من علمت ابنها أكل القرقوشة. وحولت شاهندة مجرى الحوار وسألت عن تفاصيل الشقة والشغل.

عادوا مرة أخرى إلى الصالون ليشربوا الشاي. وقال كمال إنه ينوي زيارة أمه فعلًا، ولكنها استفزته، وتتعامل معه كما لو أنها نسيت ماذا فعلت زمان. والتفتت مدام شاهندة للأولاد وسألتهم، مش عاوزين توروا محمود اللعب بتاعتكم؟ وانسحب الأولاد إلى غرفتهم. وقال الدكتور عاطف إن هذا الكلام لا يقال أمام الأطفال، واحمر وجه كمال قليلًا وقال طيب، ثم عاد ليحكي مشكلته مع أمه، دي عذبتني، طلعت عين أمي فعلًا، وانت كنت عارف وساكت، قل لي ازاي اسامحها بقى، دي ولية بنت كلب جدًّا. وعندما بدأت وصلة الشتائم انفتحت عينا الأخ الأكبر. كان يريد تحجيم كمال عن الكلام أمام الزائرة التي هي، مهما كان، لا تزال غريبة عنهم. ولكن شيئًا آخر حدث عطل كل هذا واستبدل بالكارثة الموشكة كارثة متحققة؛ تعالت صرخات من غرفة الأطفال.

في الغرفة كان هناك أربعة أطفال، أنثى وثلاثة ذكور. كان محمود يقف أمام الجميع، والجميع متكومون بطرف السرير خائفين. ومحمود يصرخ فيهم جميعًا صرخات غير مفهومة، ونقاط من الدم على الأرض. هرعت حورية لمحمود وأمسكته بقوة، وهو ما يزال

يرتجف ويصرخ، وسأل أحد الكبار، حصل إيه، وسأل آخر، فيه إيه، وسألت امرأة، مين اللي اتعور. ولم يرد أحد، كان طفلان وطفلة يبكون، وكان طفل في حضن امرأة يغادران سريعًا إلى الصالة.

جرَّت حورية محمود بقوة إلى الخارج. جلست على الكنبة الكبيرة أمام التلفزيون وأخذت تطبطب عليه وتهمس في أذنه، ماذا حدث يا حبيبي وكيف حدث ما حدث، ومحمود، الذي توقف عن الارتعاش، بدأ في البكاء. وبدأت تبكي هي الأخرى، نهنهة خافتة سرعان ما كتمتها حتى لا يصل الصوت إلى الداخل.

كنت خايفة يومها. خفت من كل حاجة. من ابني وكمال ومن الناس التانيين. معرفتش أعمل ايه في نفسي. وكنت خايفة ليطلعوا من الأودة ويقولوا لي حاجة. أكيد كانوا هيقولوا لي حاجة. كنت حاطة محمود في إيدي وكنت خايفة عليه وكنت باقول ربنا يستر عليه.

ولكنهم لم يقولوا حاجة أبدًا. جاءوا جميعًا وجلسوا حولها، بدون الأطفال. وجلس كمال بعيدًا عنها على الفوتيه. كانوا صامتين ومتوترين. أخرج كمال سيجارة وأخذ يدخن. وهي بعد ربع ساعة تقريبًا من الصمت قالت بصوت خافت جدًّا، أنا آسفة يا جماعة. وتقريبًا لم يسمع أحد ما قالته، وإن كانوا سمعوا أنها قالت شيئًا، لأن الدكتور عاطف نظر إليها خالعًا عباءة الأخ ومرتديًا بالطو الدكتور وسألها:

- إنتي بتودي ابنك في مدرسة معينة؟
- هو بيروح مدرسة القومية العربية.

ـ قومية إيه وقرف إيه؟ ابنك حالة خاصة يا مدام (وأكَّد على «مدام»، أو أن الكلمة هي من تأكدت من نفسها في عقلها)، مينفعش تسيبيه يروح مدرسة عادية.

والتفت إلى كمال وقال له، أنا هبعتلك لستة أماكن ممكن الولد يروح فيها تبقى تقولها لها. والتفت لحورية، ولادنا أهم حاجة عندنا يا افندم.

وزغرت مدام شاهندة لزوجها، مش ممكن الكلام يبقى بالراحة شوية؟ فشوَّح بيديه.

سكتت حورية قليلًا، ثم نظرت إلى محمود وقامت وقالت، متشكرين أوي يا جماعة على الغدا. فقال لها عاطف، اتفضلوا، ومتشكرين على الزيارة.

في ذلك اليوم حلمت حورية بأنها تركب تاكسي، أشارت له إلى اليسار، الشمال دا من فضلك. فما كان من السائق إلا أن اتجه يسارًا، يسارًا مباشرًا، قطع الشارع بناسه وميكروباصاته وقطع البيوت بالعرض ومضى يطير في يسار لانهائي. انفتحت البيوت أمام حورية وهي تمشي، انشقت من أجنابها، رأت صالونات وغرف نوم ودواليب وخزانات للأحذية، رأت رجالًا ونساء يتنايكون، رأت أطفالًا يتنططون، وقططًا تجري لتشخ في الرمال، وكان السائق يضحك بأسنان صفراء ويقول لها، المجتمع المصري يا آنسة. وقالت له أنا مش آنسة، أنا حرنكش، فغمز بعينيه غمزة خبيثة لم تعرف معناها. رأت أقوامًا يُعذبون، فقالت من هم يا رسول الله، فقال هؤلاء ناس لم يخافوا على صورتهم

أمام الناس، ورأت محمود يلعب على الكمبيوتر ولا يراها، ولكنه فجأة ينظر إليها ويقول، انتي قلعتي الحجاب ليه يا مامي؟ وتقول لأن هذا أجمل، فيقول وصورتنا قدام الناس؟ وتخرج شحاذة من إحدى النواصي وتقول لها، انتي تكدبي الكدبة وتصدقيها يا حبيبتي؟ فتهز كتفيها وترد ببديهية، يا أمي ماتبقاش كدبة أصلًا طالما إني مصدقاها.

٢٣

عندما عادت إلى البيت جلست على الكبانيه ومضت تنتف شعر رأسها. تكونت أسفل قدميها بكرات من الشعر. أخذتها كلها ورمتها في قعر الكبانيه وشدت السيفون.

وعندما خرجت وجدت محمود على الكمبيوتر. شخطت فيه وسألته لماذا لا يذاكر. مش فيه امتحانات يا بني آدم! مسكته بعنف من ذراعه لتطرده من كرسي الكمبيوتر وجلست هي. كانت هناك رسالة من كمال، كان يقول لها إنه لا يعرف ماذا يقول، يمكن يا حورية أنا مش الإنسان الجميل اللي انتي كنتي متخيلاه، أنا مش إنسان كويس، ومش عارف ازاي ممكن أعتني بطفل زي ابنك. النهارده حسيت المسؤولية تقيلة، ومش هعرف استحملها، أنا بقولك دا ونفسي تفهميني، يمكن إحنا اتسرعنا شوية لما قررنا نرتبط بالسرعة دي. إنتي اديتيني لحظات جميلة أنا مش قدها ومش هاكون قدها، أنا

خايف أأذيكي وأأذي ابنك وانا مش عاوز أعمل كدا. شكرًا على كل حاجة. كمال. كتب توقيعه أسفل الرسالة، كأنها لا تعرفه، كأنهما غريبان عن بعض.

أحست بصداع وهي تقرأ وغامت عيناها ولم تعد تعرف الصح ولا الغلط، أمسكت فخذها بقوة وكأنها تعصره ثم بدأت تخربش فيه بأظافرها. وبعد انقضاء مرحلة تعذيب الجسد، فتحت صفحة الهوم ورأت الدنيا تغلي، أناس يتحدثون عن مظاهرات كبيرة ستخرج يوم الثلاثاء القادم، واسم خالد سعيد تكرر، ووجدت نفسها غريبة جدًا عن هذا الذي يحدث. في النهاية مشت وراء قلبها. أرسلت إلى كمال رسالة طويلة. قالت له إنها لا تعرف ماذا تفعل الآن، وهل تصدق يا كمال إني فكرت في الانتحار منذ قليل؟ هل تعرف ما فعلته بي؟ هل تعرف ماذا ستفعله بي لو انفصلنا؟ ودلوقتي، دلوقتي يا كمال بتقولي دا، بعد ما حضرنا كل حاجة، بعد ما حضرت نفسي وانت حضرت نفسك؟ بتقول هتأذيني لو اتجوزنا؟ ومتعرفش لو سبتني هتعمل ايه؟ يعني انا هبقى كويسة لو سبنا بعض؟ يعني ابني هيبقى كويس؟ نسيت كل حاجة؟ مش انت اللي قلت لي انك انت اللي خلتني أحبك، مش أنا اللي خليتك تحبني؟ من أجبرك على قول هذا يا كمال؟ أنا؟ ابني؟ أهلك؟ ألم تكن أنت من قلت وأنت من فعلت وأنت من تعهدت بكل شيء؟ تتركني الآن يا كمال؟

كانت حورية تفكر وتكتب وتنطق وتمحو وترتب الفقرات وراء بعضها وفي النهاية داست على زر الإرسال. جلست في انتظار الرد، أي رد، ولم يأتِ. ظلت عيناها معلقتين بالشاشة في انتظار كلمة.

بعد ساعتين قامت ووجدت محمود يجلس على السفرة ويذاكر. قربت منه وسألته عن المذاكرة ثم قالت له إنها حزينة جدًّا. بدأت في الكلام معه، كانت تتكلم معه كامرأة وليس كأم. كانت تعرف أن ابنها لن يفهم، ولهذا تكلمت.

قالت أنا بقالي كتير مافرحتش، كتير أوي، من ساعة لما مات باباك ولما مات جدك، مافرحتش ومالمستش حد. إنت شايفني واحدة وحشة، بس إنت متعرفش يعني إيه خمس سنين مالمستش حد، علشانك انت يا محمود. مش انت شاطر يا محمود؟ مش انت بتجيب درجات كويسة في الامتحانات؟ ليه الراجل قالي اني مش مهتمة بيك؟ مش أنا باعمل اللي عليا يا حبيبي؟ مش انا حرمت نفسي من كل حاجة عشانك؟ عمو كمال عاوزنا نسيب بعض، أنا وهو. هو ميعرفش حاجة. ميعرفش هيحصلي إيه لو سابني، ميعرفش هيحصلك إيه. رد عليا يا محمود. رد عليا والنبي وماتسيبنيش كدا. قل لي أعمل ايه.

كان الولد ينظر إليها بعينين واسعتين. لأول مرة كان يرى أمه هكذا. سكت طويلًا ثم اقترب منها وباسها على خدها. أخذته في حضنها وقالت له، انت حبيبي، عاوزاك تكمل مذاكرتك، إوعى يا محمود تخيب أملي فيك، عاوزاك تجيب درجات حلوة، متخليش حد يقول نص كلمة عليا. لو بتحب مامي يا محمود لازم تبقى أحسن واحد في الدنيا.

عادت إلى شاشة الكمبيوتر، ونظرت إلى صفحتها ولم يكن هناك رد من كمال.

ليومين لم يرد كمال، اليوم الخميس وكتب الكتاب يوم الأحد. لم يرد لا على التلفون ولا رسائل الفيسبوك ولا رسائل التلفون. قامت حورية ولبست ونزلت إلى الدقي. لم يكن لديها ما تخسره. داست على زرار الأسانسير ورنت جرس الشقة وفتحت لها شاهندة. قالت لها، مساء الخير، عاوزة أتكلم مع كمال. قالت لها إن كمال مش موجود، فردت، طيب هستناه هنا لما ييجي. صوتها كان مرتجفًا وبدا لشاهندة أن الجحيم سينفجر قريبًا. فاستأذنت منها ودخلت وعاد كمال، ومن خلفه شاهندة.

ابتسمت حورية أخيرًا، ازيك يا كيمو؟ كلمت المأذون تأكد عليه عشان يوم الحد؟

تردد قليلًا ثم أشار بيديه للدخول، طيب تعالي جوا نتكلم. ولأن الفضيحة كانت على طرف لسانها ومستعدة للانطلاق، فقد رفضت أن تتزحزح من على العتبة، لا أبدًا مش مستاهلة، أنا كنت جاية اطمن بس عالموضوع دا ومروحة.

- أنا قلت لك إنه مش هاينفع.

صرخت:

- ماتقولش مش هاينفع، إنت كنت عارف كل حاجة من الأول. ماتقولش دلوقتي مش هاينفع.

- مش علشاني أنا، دا علشانك إنتي، أنا خدت قراري خلاص.

وكان باب شقة أخرى ينفتح في الطابق نفسه ويطل جار على ما يحدث.

ركعت على الأرض وباست رجليه، مرت بشفتيها على أظافر قدميه مباشرة، وكان الإظفر الكبير متسخًا، قبلات سريعة كانت ترفع أثناءها رأسها إليه لترى أي شيء على وجهه. والنبي يا كمال، متقولش مش هينفع، عشان خاطري أنا ماتقولش مش هينفع. وقامت، مش أنا حرنكش يا كمال؟ مش انت صدقتني ف كل حاجة قبل كدا؟ مش أنا ماكذبتش عليك في أي حاجة، أنا بقول لك هينفع، والله العظيم أنا شايفة إنه هينفع. انت ازاي مش شايف كدا؟

شدها من ذراعها بالقوة وأدخلها إلى الصالة التي سبق وجلسا فيها من كام يوم. سألته هيثم فين؟ فقال إنه في الامتحان. قالت، امتحان العربي صح؟ وعمل إيه في الماث؟ كانت تريد أن تذكره بنفسها، بحورية حرنكش بتاعة زمان. قال إنه عمل كويس. وابتسم وقال إن دروسها جابت نتيجة. وعندما رأت ابتسامته ابتسمت هي الأخرى، صدقني يا كمال دي ساعة شيطان. والنبي ما تحكم على تلات اشهر من ساعة واحدة. قال لها إن الساعة الواحدة أحيانًا ما تتضمن بداخلها ثلاثة أشهر، مثلما أن الأشياء التي تظهر على سطح البحر كثيرًا ما تكون مختبئة في عمقه، فقالت إنها تفكر في هذا أحيانًا أيضًا، وبالألفاظ نفسها، شفت ازاي احنا شبه بعض يا كمال؟

سألته عن شقة المنيل فقال إنها لم تنته بعد. طلبت منه أن يزوراها معًا، يذهبان ثم يعودان ليأخذا هيثم من المدرسة، وخفضت صوتها وقالت، ولو الشقة ماخلصتش مش مشكلة، نقضي كام يوم عندي في السيدة زينب لغاية أما تخلص. قال طيب. قالها بنصف اقتناع، وفي أثناء ما كان يسوق العربية قال لها إنه سيفكر ويرد عليها

بالليل. ثم التفت إليها وقال، وأنا كمان آسف يا حرنكش على أي ألم سببتهولك.

٢٥

هل كانت حورية تتحدى القدر هكذا أم تجاريه، وما هو القدر؟

الأكيد أنها يومها بالليل شعرت أنها قوية، كلمها كمال ليلتها وقال إنه ماشي، الترتيبات ستجري كما خُطط لها، وسيكتبان الكتاب كما اتفقا يوم الأحد، وربما يكون الأفضل أن يقضيا فعلًا كم يوم في السيدة حتى تنتهي شقة المنيل، وأثناء الكم يوم هذه يبيت هيثم عند عمه. هل كان صوته مكسورًا وهو يقول هذا؟ لم تعرف ولم تسأل. فقط وقفت أمام المراية وقالت إن كل الناس، كل هذه المخلوقات بنت الوسخة بنت المتناكة بنت الشرموطة بنت الستين قحبة من صلب بعض، كلها جات عليها وظلمتها، وآن الأوان لتأخذ شيئًا من حقها. آن الأوان لتدافع عن نفسها وابنها.

قديمًا علمها أبوها العند. قال لها، خذي حقك ولو عند مين، ولو قالوا عليكي مجنونة لا تنسي حقك، ولو سالت ريالتك لتأخذيه.

عايرتها مرة زميلتها في المدرسة، عايرتها بشعرها الأكرت وبشرتها السمراء، وضحكت البنات من حولها، وبكت حرنكش عندما روَّحت بيتها. ولكن لم تنسَ حقها. انتظرت سنة، وفي السنة التالية، تحلقت البنات حولها وحاولت زميلتها نزع شعرة من شعرها لتريها للبنات،

شعرة مجعدة تنفرد وتنطوي مثل السوستة. لم تمنعها حرنكش، فقط تكلمت بالنوبية، كم جملة بالنوبية تعلمتها من ستها، توقفت البنت وزميلاتها وبدأن يضحكن، ولم تبالِ حرنكش واستمرت في الحديث بالنوبية، تقول الجملة وتكررها وتخترع كلمات وتدخل كلمات في بعضها، وفي غمرة ضحك البنات عليها خطت نحو زميلتها وتفَّت في وجهها، تفّة دسمة استقرت قرب شفتي البنت، ثم دفعتها ومضت في طريقها. جرت البنت وراءها لتضربها فالتفتت لها وزقتها على الأرض، حتى سقطت وانفتحت رجلاها فركلتها حرنكش في كسها ثم ذهبت. ناكت البنت.

لسنوات طويلة نسيت حورية هذا، لسنوات طويلة تبكي عندما يهينها أحد، لسنوات طويلة تحاول إخراج البنت التي تحيك لانتقامها ولا تفلح. ويدق قلبها بعنف وغضب ثم تقول لنفسها إنها أخيرًا أحرزت انتصارًا ما، ولو بالغصب، من يهتم؟ امرأة بلا كرامة، امرأة رخَّصت نفسها، من يهتم؟ ستحصل على ما تريده وخلاص.

ولكن هل كانت تتحدى القدر أم أنها كانت تجاريه؟

هذا لأننا نشاهد حورية الآن، في عام ٢٠١٤، بعد أربع سنوات على ما حدث، وهي تجلس في زنزانتها، مغطاة بطرحة بيضاء وتتكلم مع زميلاتها بهدوء، تشرح لهن إنه من قلب الظلام يأتي الفرج، ومن قلب الحزن والكآبة تأتي الفرحة. تتابع دودة تتمشى في علبة الحلاوة وتقول لهن إن الله كان معها في كل خطوة تمشيها. وإن لله تصاريف كثيرة، وتسألهن لماذا لا يؤمنَّ بالله مثلها. مهما كان، لا يجب على الإنسان أن يتخلى عن إيمانه بالله، مهما حدث سيكون فيه خير،

وتؤكد على «مهما حدث»، وتقول إنها تعني به أفظع الأشياء، ولو كان موت الزوج والابن في ساعة واحدة. موت الزوج والابن يا حورية؟ موت الزوج والابن يا حبيبتي.

كتبا الكتاب في جامع سيدنا الحسين. ووضع عمها يده في يد الدكتور عاطف أخي كمال، ولم يكن هناك الكثيرون، كالعادة، فقط هند وعائلة عاطف والأولاد وعماها بأولادهما. لم تكن هناك فرحة كبيرة. فقط ابتسامات مجاملة وصمت وتسليم بقضاء الله، ولكن ما هو قضاء الله؟ لم يعرف أحد.

في اليوم الأول ناما جنب بعض في غرفة النوم بالسيدة، ولكن كمال لم يكن يتكلم. وهي قالت لنفسها سيروق، أكيد سيروق، واستيقظا وقال صباح الخير، وعاد للصمت وهي تنظر إليه وتفكر أن هذا سيروح قريبًا. كل القلق سيذوب وسيتطبع الولدان على بعض أخيرًا، فقط يكبران ويفهمان. وحاولت أن تقول له متزعلش مني يا كمال، ولم تنطقها، ولم يترك لها فرصة لتنطقها. كمال ناشف كما لم تعهده من قبل. سابقًا كان ينشف ثم يلين، الآن ينشف ثم يتكسر.

في عشاء اليوم الثاني خبط محمود على الترابيزة وهو يأكل، خبط كثيرًا، ونظر كمال إليه ولم يتوقف الولد عن الخبط. بعدها قال له، مش خلاص كدا يا محمود؟ ونظر إليه محمود بغضب وبدأ في التشنج ثم عاد لطبقه في صمت. وكان كمال متحفزًا لفعل شيء لا تعرفه. واصل كمال الأكل ثم استسلم للصمت التام. لم يقل شيئًا طول الليل، ولا حتى تصبحوا على خير. لبس البيجامة وذهب للنوم وذهبت وراءه.

كنت أريد أن أقول له أنا آسفة، لكن لم أقلها، لم يترك لي فرصة لأقول أي شيء.

حدث هذا ليلًا، هو نائم وجنبه حورية والساعة الآن الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. تقلب كمال، وأحست به واستمرت في إغماض عينيها، حتى عندما سمعت خطواته تغادر الغرفة ظلت مغمضة عينيها، حتى وهي تسمع خروشة كثيرة وجلبة في البيت وأصواتًا معدنية صادرة من ناحية المطبخ، وخطواته تغادر المطبخ إلى غرفة محمود. لم تفتح عينيها إلا عندما سمعت صرخة هادرة تنطلق منه، صرخة ارتجفت على إثرها طويلًا، سواء وقتها أو وهي تتذكرها لاحقًا، إنت هتعمل ايه يعني؟ صرخ كمال فركضت حورية إلى الخارج، إلى غرفة محمود. وكان زوجها يمسك ذراع ابنها. عاوز تعمل ايه. آخرك يعني هتعمل إيه؟ وكان يعصر ذراع محمود بعنف وكأنها كومة غسيل.

قفزت حورية ومدت يدها إلى كمال لمنعه فضربها. وشه كان، مش عارفة أقول إيه، بس كان فيه حاجة تخوف. أنا خفت أقرب منه، كإنه اتجنن. وعاد لضرب الولد، ضربه بعنف شديد، كأن الولد رجل ناضج، ضربه بغلٍّ، بنية القتل، والولد لن يحتمل. أنا كنت عارفة إنه عاوز يقتله، دا مش واحد عاوز يضرب واحد. وكان كمال يصرخ، إنت عاوز تعمل ايه، هتعمل ايه يعني؟ فهمني. والولد سقط وبدأ وجهه ينزف دمًا، وداس كمال على رأسه برجله، داسه كأنه يسحق سيجارة، وضع ثقله كله في قدمه وداس عليه. يا كمال دا عيل، والتفت إليها كمال ممسكًا بالسكينة ومشوِّحًا بها في وجهها، مشوِّحًا بقوة من نوى شيئًا، لم يكن

يشوِّح، كان يحاول قتلها بالأصح. وحورية تصرخ وتصرخ، تفتح باب الشقة وتصرخ، ويتجمع الجيران بملابس النوم، رجالًا ونساء، ويظهر البواب، والولد راقد بنفس ضعيف على الأرض في دمائه.

كمال الآن جالس على الأرض. بنطلون بيجامته مبقع بالدم هو الآخر، ويخفي وجهه بين كفيه. يقترب منه أحد الجيران فيفيق أخيرًا، يفيق ويجري نحو البلكونة، يسند كفيه على سور البلكونة بحركة سريعة كأنه تدرب عليها من قبل، يدفع نفسه ويرتفع جسمه من على السور ويطير بعيدًا باتجاه ليل القاهرة، ينزل إلى أعماق المدينة ورصيفها المترب، يرتطم جسمه بالتكييفات وأصص الزهور ويقطع معه حبال الغسيل، يرتعش ثم يستقر على الرصيف.

أنا رأيت كل هذا، رأيت جثة ابني فوق وجثة زوجي تحت، وكنت أصعد وأنزل جريًا من الشقة إلى الرصيف، لأراقبهما وألمسهما وأتمعن فيهما، وكان هذا صعبًا جدًّا، لأن الشقة كانت في الدور الرابع، وعندما جاء المحققون ليسألوني قلت لهم إني لا أعرف شيئًا، وكنت أنهج، وما خرج مني كان صوتًا مشحرًا كأنابيب البوتاجاز، صوتًا لم أعرفه أنا نفسي. أنا رأيت زوجي وهو يموت، رأيت زوجي وهو يقتل ابني، رأيت ابني وهو يموت، ولم أفهم أبدًا لماذا حدث ما حدث، أو فهمت واستهبلت. هل كانت إحداكن لتحتمل كل هذا؟ كيف احتملته أنا؟ كيف امتلكت كل تلك القوة لأتحمله ولأتجاوزه ولأطير فوقه؟ أقول لكم إنه لم يكن معي وقتها غير إيماني بالله، فقط هذا، وهذا ليس شيئًا سهلًا صدقوني. كانت حورية تواصل الحكي لزميلاتها في السجن، وكان الحكي صعبًا، ولكن عينيها لم تطرفا للحظة وهي تحكي.

٢٦

في صلاة الجنازة قال لها عاطف شدي حيلك، وكذلك قالت شاهندَة، وقالت هي، أخاف اشده أكتر يتقطع، وضحكت، ونظر إليها عاطف كمن لا يفهم النكتة، واستغربت لأن النكتة واضحة. وحضنتها طنط سميحة، زوجة أبيها، وقالت لها معلش يا حبيبتي، قلبي معاكي. ونظرت إليها حورية وقالت إن أحدًا لا يحتمل ما احتملته. وسألتها، تفتكري يا طنط أنا زعلت أكتر على كمال ولا على محمود؟ ولم ترد سميحة لأنها لم تسمع السؤال جيدًا، فكررت السؤال بصوت أعلى ثم أجابت، أنا زعلت على محمود أكتر، علشان محمود ابني وكمال جوزي، والواحدة بتزعل على ابنها أكتر من جوزها، علشان ابني جاي من بطني وجوزي جاي بالصدفة، كان معدي ودخل. وضحكت ولم تضحك سميحة، ثم قالت، احسبي معايا، وفردت أصابعها، كمال كان له معايا تلات أشهر، ومحمود ست سنين، يعني أربعة وعشرين ضعف، يعني اتعودت على محمود أكثر ما اتعودت على كمال أربعة وعشرين مرة. ولو حسبتي كل دا على بعضه فيبقى النتيجة ان انا اتكسرت خمسة وعشرين مرة، أربعة وعشرين زائد واحد. دي حاجة تهد ضهر الجبل يا طنط مش كدا؟ ولم ترد سميحة لأنها لم تسمع.

انطلق الرَّكْب بتابوتين من جامع الحامدية الشاذلية، وتعطل في الطريق كثيرًا بسبب المظاهرات، وتردد كلام كثير في العربية التي ركبتها حورية عن الداخلية ومجلس الشعب، ولم تفهم حورية شيئًا. عند مدخل الدراسة انفصل الركب إلى جزءين، أحدهما باتجاه ترب

عائلة صبحي لدفن محمود، والآخر باتجاه ترب عائلة كمال. بقيت حورية في الأول وبقيت معها طنط سميحة. وعندما نزل ابنها للقبر المفتوح بقيت تتابعه من بعيد ولم تحتمل أن تلمس الكفن الصغير. وسميحة بجانبها لا تعرف ماذا تفعل. فقط أمسكت بكفها وقالت لها انتي مش لوحدك يا حبيبتي، كلنا هنا معاكي، ونظرت حورية إلى التربة والقبر المغطى بتراب مبلول ولم ترَ إلا مجموعات من الشحاذين والمقرئين وحراس الترب، بالإضافة إلى سبعة أشخاص بالعدد جاءوا للأخذ بيدها، من تذكروها من عائلة أبيها وعائلة أمها، حتى أعمام صبحي وأخواله لم يتذكروا ابنهم الذي من صلبهم، وأدركت إلى أي مدى صارت فريسة للوحدة. ثم قررت المغادرة، كانت أول من غادر التربة، وتبعها الآخرون.

في يوم الأربعاء استُدعيت إلى النيابة للتحقيق معها حول موت الاثنين. كان تحقيقًا روتينيًا، وهناك قابلت عاطف. قال لها ألا تخاف، كمال كان عصبي، وهمس لها أن وجود محمود كان يعصبه وأنه كان لا يعرف كيف يتعامل معه، هو نفسه قال له هذا يوم خناقة العيال في البيت عندنا. وشهقت حورية ورجته السكوت فسكت.

في الأيام التالية بدا ألا أحد يهتم بأمرها. لا أحد يراها أو يحس بها. سارت في الشوارع، ورأت قسم السيدة وهو يحترق، ورأت قطعانًا من البشر يمشون متجاورين ويهتفون، قطعانًا انفرجت عنهم الأرض فجأة، وحاولت المشي بلا هدف كما علمها أبوها، ولكن الطرق كانت مسدودة بالبشر ومدرعات الجيش، وكانت تجد نفسها تمشي في مظاهرة فتحاول استعطاف المتظاهرين، فقط لكي ينتبهوا

لوجودها، كانت تريد أن تصرخ، أنا هنا، أنا موجودة، انظروا لي. ولم ينظر إليها الشعب. وحاولت البحث عن أحد تعرفه ولم تجد. وتمشت في التحرير وسألت نفسها كيف أن كل هؤلاء، كل الملايين الهادرة، كل الشعوب المصرية المتحدة، اتحدت فقط على ألا تراها. حتى عندما رأت هند، زميلتها وحبيبتها من المدرسة، وكان يوم ظهور عمر سليمان للإعلان عن تنحي مبارك، أخذتها هذه بالحضن وباستها على خديها وقالت لها والفرحة تتنطط من عينيها، مبروك يا حورية مبروك. ولم تعرف حورية لماذا تبارك لها هند، فقط بعد أن سارتا عدة خطوات معًا التفتت إليها هند وقالت، صحيح يا حورية، أنا سمعت عاللي حصلك، قلبي معاكي يا حبيبتي شدي حيلك. وافترقت بهما السبل بعد عدة خطوات.

ما يمكنني قوله إن قصتي بدأت هنا، في هذه الأيام بالتحديد، قصتي التي لن يصدقها أحد ممن يرون بعيونهم وليس بقلوبهم. قصتي التي أنضجتني على نار هادئة ورمت بي رغيفًا طازجًا أمام الدنيا أتحدى عفانة العالم وحشراته ونفاقه، أتحدى البشر الجالسين في البلاعة ولا يريدون مغادرتها وأوهب الجمال للدنيا، أيوه، أوهب الجمال للدنيا. فكروا في كلمتي هذه واحكموا فيها بنفسكم وأنا راضية بحكم الجميع.

الفصل الثاني

كرسي بعَجَل

«لماذا لا تأكلون اللحم؟

هل يوجد شيء يمنعكم من أكل اللحم؟»

طنط عدالة

١

كان أبي يقول دائمًا، وحِّد التَّكنيك، وكان يفتح تاء التكنيك، وحدي التَّكنيك يا حرنكش. وحد التَّكنيك يا فلان، على أساس أن حفر خرم صغير في الحائط سينتهي بتكسير الحائط وسنخرج جميعًا ونتحرر.

نفع هذا معي، عندما كنت أفشل في فتح علبة السردين بالمفتاح كنت أدق فيها مسمارًا. شاكوش يضغط على مسمار يضغط على صفيح العلبة، وينفتح خرم صغير، يبدو لي لصغره أنه لن يكبر أبدًا، ولكني أعرف أنني إن توقفت هنا فسيضيع مجهودي هدرًا، وفي النهاية، عندما يكون المسمار قد اندق في عشرات الأماكن على الصفيح، تنفتح العلبة، تضطر لأن تنفتح. نفع هذا معي. كبرت صبورة

وحمالة أسية، لا أتنازل عن هدفي. مرة ظللت أجهز لانتقام من زميلتي في الفصل لمدة سنة كاملة لأنها سخرت مني وضحَّكت البنات عليَّ. ظللت أراقبها وأتكلم معها وأرقد لها وبعد سنة كاملة نفذت الانتقام كما تخيلته بالمللي. الحمد لله.

هل تعرفن أني قضيت أسبوعين على الرصيف؟ على الرصيف والله العظيم. أحسست كأن شخصًا يتجول معي في البيت، وسمعت صوت محمود ينادي عليَّ، ورأيت أن بركة الدم على السجادة في الصالة لا تروح، وكرهت البيت وكرهت سنيني وأخذت شنطة كبيرة وذهبت للنوم في الشارع.

هناك في وسط البلد، أمام رصيف مطعم القزاز، تغطيت ببطانية ونمت. كنت أريد أن أنظر في أعين المتظاهرين وأقول لهم إني هنا. فقط ليقولوا لي كلمة، أي كلمة، وهم كانوا موجودين، لا يقول لي أحد إنهم لم يكونوا موجودين، وكانت هناك جمع كثيرة، جمعة العيش، جمعة الحرية، جمعة البتنجان بالجبنة الرومي، أي شيء، كل شيء، ما عدا حرنكش المسكينة التي فقدت ابنًا وزوجين. ما علينا. أصلًا كان أبي يقول، لا تشتكي كثيرًا يا حرنكش.

٢

كانت القاهرة غريبة. امتلأت بالرسومات على الجدران والشعارات السياسية، وكانت حرنكش تنظر ولا تفهم. وكان هناك

شهداء كثر، الشهيد فلان والشهيدة فلانة متواجدان على جميع اللافتات في كل الأماكن، وأين محمود في كل هذا؟ وأين كمال؟ لم يلفت نظركم أبدًا طفل بنظارة يمشي مع أمه في هذا الشارع؟ أنت يا ابني، كم عمرك؟ عشرون عامًا؟ عشرون عامًا ولم تلمح في حياتك طفلًا يمشي مع أمه اسمه محمود؟ عشرون عامًا تعرضت فيها لكل هؤلاء البشر ولم ترَ محمود؟ أنت نصاب يا حبيبي. ضع عينك في عيني واسمع شتيمتك بودانك.

ليومين تمشت حرنكش في الشوارع بعباءة سوداء، لم تأكل شيئًا ولم تتعب من المشي. كانت تريد رؤية القاهرة في وجهها الجديد، قاهرة ما بعد الثورة. كانت تنظر وتنظر وتستوقف الناس وتسألهم وبعض الناس كانوا يضحكون والبعض الآخر كانوا يسايرونها مع لمسات ملل، وفي منتصف اليوم الثالث بدأت تجوع. طلبت سندوتش جبنة مقلية من القزاز. وعندما أكلتها سقطت على أرض الرصيف المقابل، نامت في عز النهار، غطت وجهها بشال أسود أخرجته من شنطتها ووقعت وأصبح جسمها كتلة سوداء نائمة. صحت في منتصف الليل. قامت ومشت في القصر العيني وفي جاردن سيتي. قالت لنفسها إنها لا تعرف هذا المكان. وسألت الشوارع عن أسمائها ولم ترد الشوارع. كان شخص يمشي محاذيًا لها ويكلمها وكانت تنظر إليه وترد عليه بذهول، مين إنت؟ وكان يواصل الهمس لها بكلام ما وهو يحاذيها. حتى جرت منه وانقطع نفسها واختبأت في مدخل إحدى العمارات.

أسبوعان كاملان قضتهما حرنكش على الأرض، في شارع صبري

أبو علم كانت تتغطى بعباءتها وطرحتها السوداوين، وببطانية قذرة رمتها عليها إحدى المارات. امتلأ جسمها بالبراغيث، ومضت تحت البطانية تنزع شعر رأسها وترميه بجانبها وتقرض أظافرها، تحك جلدها وتخرج منه فتائل من الوساخة مبرومة حول نفسها، ولكن لأنها لأول مرة تحررت من السماعات وشغلت أغانيها على الموبايل بصوت عالٍ، فلم ير المارة كل القرف الذي يحدث تحت، وإنما كانوا يتوقفون للحظة بجانبها ليتأكدوا أن فيروز هي من تغني، عبد الحليم، ماجدة الرومي، وغيرهم. وكان الناس يسألون، الله! ما هذه الموسيقى الجميلة؟ الله! ما هذه الغرابة! الله! مصر تتغير! أنقذتها الموسيقى من الجنون في هذين الأسبوعين. كانت تنام بالنهار وتصحو بالليل وتمشي كأنها جنية. وعندما تبدأ الموسيقى في الارتفاع تكون الشمس قد بدأت تضيء المكان ويظهر الموظفون والباعة ويوم جديد يشرق على بلد جديد.

٣

أدركت حورية، أثناء نومها على الأرض، أمرًا ما، نفضته بسرعة فعاد وأطل برأسه، ثم نفضته ثم عاد، ثم سلمت بوجوده، أنها الآن أكثر حرية. صلت العشاء مرة وهي تحت بطانيتها، صلت بقلبها، وهي تصلي قالت الحمد لله. وهزت رأسها بعنف لتطرد عن نفسها الحمد لله هذه. ولكنها في الركعة الثانية قالتها مرة أخرى. كنت كإني

ماشية بكيس تقيل ومش عارفة امشي، ودلوقتي بس الكيس اتشال وعرفت امشي. ولكن هذا ابنك الذي مات يا ست الكل؟ هذا ابني صح، وهو شخص آخر أيضًا.

كانت هناك قصة عن منافسة بين الشمس والريح على أيهما الأقوى. ورأى الاثنان رجلًا يسير لابسًا جاكته، ونفخت فيه الريح ولم يطر الجاكت، ونفخت أكثر فأغلق الرجل الجاكت وصار مستحيلًا تطييره. هنا جاءت الشمس وزادت من درجة حرارتها قليلًا فخلع الرجل الجاكت، ولم يكتفِ بهذا وإنما نظر إلى الشمس وقال لها شكرًا لك لأنك جعلتِني أكثر خفة بدون الجاكت. عادة لا ينظر الناس إلى الشمس ليشكروها، ولكن الرجل نظر هذه المرة، ما شكل دليلًا غير مسبوق على انتصار الشمس على الريح. انتصار السياسة على القفش. انتصار الخفة على الثقل.

الليل والنهار كانا يمران على حورية بالتعاقب، النهار تنامه تحت بطانيتها على الرصيف والليل تمشيه في الشوارع كشحاذة وتمسك بعلبة البيرة بيد والسيجارة بيد، وعندما تخلص فلوسها تذهب لتسحب من ماكنة الإيه تي إم، وعندما يخلص شحن تلفونها تضع الشاحن في أي فيشة في أي قهوة، ولا تكلم أحدًا ولا ترى أحدًا، وعندما ترى تكون كمن لا ترى. وقفت مرة أمام أحدهم بنظرة شاردة لدقيقة ثم قالت، أنا حرة وأعمل اللي ف مزاجي. واللي مش على مزاجي ماعملوش، وواصلت المشي كالمسرنمة، ولم تخبط في أحد أبدًا، ولم تخطئ تعدية الشارع.

ولحقها مرة شاب جربان. ظل يقول لها كلامًا وسخًا من التحرير

حتى طلعت حرب، وعندما حاذاها جرت وصرخت، ولحق به شباب الثورة وقالوا إن أمثاله يشوهون صورة الميدان، وزعقوا فيه وأبعدوه بالعافية عقابًا له على تشويه الصورة. كانت قوية لسبب لا تعرفه، لم يلمسها أحد بغير رضاها، كأنها قديسة، ولا تعرف كيف حدث هذا ولا لماذا، كإن ربنا كان باعتلي رسالة، إنتي حبيبتي يا حرنكش ومش هسيب حد يزعلك.

مرة واحدة فقط حدث هذا، وكانت هي من استدعت مغتصبها. كانت تسير في شارع شمبليون ليلًا، سكرانة لدرجة أنها رجَّعت في نصف الشارع وجاء شاب ليسندها فتعلقت برقبته، وتلبونت بين ذراعيه، ففتح سوستة بنطلونه وخلص فيها بسرعة وهو يتلفت حوله في هيكل سيارة محروقة عند دار القضاء العالي. تمشيا قليلًا بعد أن خلصا وسألته من هو، فقال إن أمه تعد شايًا للمتظاهرين في التحرير، وسألته تعرف محمود؟ وقال أنهي محمود؟ قالت محمود ابني فقال لا. فمدت خطواتها إلى الأمام ونظرت إليه وقالت أوريفوار.

٤

فيما بعد، على مدار السنوات التالية، سيشكل الأسبوعان اللذان قضتهما حورية على الأرض ذكرى شبحية بالنسبة إليها، لن تعود تذكر منهما الكثير، وعندما تخطر على بالها ذكرى لا تستطيع تسكينها في مكان ولا زمان بعينه، تقول أكيد حدثت وأنا على الأرض. ولكنها

ستظل تذكر بالتفصيل كيف انتهى الأسبوعان، أو بالأحرى، كيف تدخلت الدولة المصرية لإنهائهما.

فجأة، وهي نائمة، وأم كلثوم تغني في تلفونها، امتلأت الشوارع بالغاز والخرطوش والصراخ ولم تعد خيمتها آمنة. بدأت تجري ولا تعرف ممن تجري. واختلطت الشوارع عليها وتعثرت مرتين ووقعت طرحتها السوداء وقامت وسمعت أحد الضباط يزعق في عساكره، هاتولي الست دي. وشوَّحت في العساكر وهي تجري، أنا ماليش دعوة.

قطعت شوارع كثيرة وهي تجري، والعساكر الذين يلاحقونها لم يتبقَّ منهم إلا واحد ظل مصممًا على الإمساك بها، كأنه ماكينة تسمع الأمر ولا تفهم. انتظرت حورية حتى أصبحا هما الاثنان وحدهما في شارع صغير مظلم وسقطت على الأرض. اقترب منها العسكري فصوبت بوز جزمتها على وجهه بمنتهى القوة. ابتعد قليلًا فانقضت عليه. لا تعرف من أين أتتها القوة، كان أبوها يقول، هاجمي خصمك من كل النواحي، لا تتركيه يفكر للحظة، عنصر المفاجأة عليه أكبر عامل يا حرنكش. وصفعته وعضته وأمسكت بطوبة من الشارع وأخذت تضربه بها، وهو كان أعزل بلا سلاح. رقد في النهاية على الأرض، وتلفتت حولها، وفجأة أدركت أين هي، كأن الكهرباء عادت إلى عقلها مرة واحدة. كانت على مقربة من محطة محمد نجيب. أسرعت الخطى لتخرج من الشارع ولتصل إلى أقرب نقطة عمار تختلط فيها بالبشر. في شارع بورسعيد بدأ نفسها ينتظم. تطلعت إلى المحلات المضاءة والسيارات والموتوسيكلات الماشية وبدأ

وعيها يعود شيئًا فشيئًا. سألت نفسها ما هذا، ماذا أفعل هنا، ما هذه الملابس التي عليَّ؟ لأنها فوجئت بكم القذارة في عبايتها السوداء، وفوجئت بقطع كبير فيها أيضًا واختبأت لترى أن هذا القطع يعلو جرحًا في خصرها.

ومشت ومشت. وصلت إلى جامع السيدة ودخلت، وهناك قالت لها امرأة إنه لا يصح أن تدخل جامعًا بهذه العباية المقطعة، فقالت لها أنا على باب الله يا ستي، أنا واحدة ست غلبانة، وليس لي سوى الله، وأنتِ تريدين أن تحرميني من الكلام مع الله؟ ونظرت إليها الست مستغربة لهجتها، منظرك يقول شيئًا وكلامك يقول شيئًا. وتركتها حورية ووقفت أمام الضريح ودعت الله أن يهون عليها أمرها، قالت إنها لا تعرف ماذا حدث، ولكنها تعرف أنه الأكثر فظاعة من أي شيء، وأيًّا كان ما حدث يا رب، أنا أقول أيًّا ما كان، هونه عليَّ، بعد إذنك طبعًا. وخرجت من الجامع وهي تقول ما حدث حدث. خلاص، ماذا سيحدث يعني؟ سأموت؟ أبدًا. سأقاوم وسأعيش والله سيلطف بنا. إذن مش مهم بقى.

وصلت إلى بيتها. نظرت إلى الرصيف، حيث سقط كمال من شهر، وأحست كأن بقع الدم لم ترح من على الأرض، ووطت على ركبتيها ومضت تلعب بأصابعها في التراب لترى من أين أتى الدم، وتذكرت مشاهد غائمة، وانقبض قلبها بعض الشيء وهي تصعد السلم، وهي تدخل المفتاح في الكالون، وهي تدخل وترى المكان الآخر، الصالة التي مات فيها ابنها. ولكنها أصرت على تجاهل الأمر، دخلت الحمَّام وخلعت عباءتها المعفنة وملابسها الداخلية،

ووقفت تحت الدش ساعة كاملة. ساعة ظلت البراغيث تطير فيها من عانتها وتحت إبطيها وتحلق في سماء الحمَّام في أسراب ضخمة ومتناغمة هاربة من رائحة الصابون المنعش، وملتحقة برائحة القذارة المطرودة.

خرجت من الحمَّام وطهرت الجرح في خصرها بالميكروكروم ولبست طقمًا نظيفًا وجلست على الكنبة أمام التلفزيون، وعلى صوته نامت ساعتين. كانت هناك دوشة كبيرة في الحلم، وتفاصيل كثيرة نسيتها فور ما صحت. جلست إلى الكمبيوتر لأول مرة من شهر ووجدت رسائل عزاء كثيرة من زملاء من المدرسة، وفتحت عينيها من الدهشة، ولأول مرة تفكر أن هناك كثيرين يحبونها ولم تكن تعرف. ولأول مرة يبتسم قلبها من شهر، ابتسامة هادئة ورقيقة مثلها.

٥

الآن عندما أتذكر هذا، أتذكر كم أني نسيت. تخطر على بالي أحيانًا فترة الأسبوعين على الأرض ويبدو لي كأن النور انطفأ لأسبوعين ثم عاد وأضيء مرة أخرى. كأني دفنت الصدمة في تراب الرصيف. ولم يكن هناك ما يضاهي دشًّا ساخنًا أخذته في البيت بعد عودتي، وجلوسي على الفيس لأجد كل هذه القلوب الحلوة من حولي التي تهتم لأمري.

ازددت رغبة في رؤية حب الناس من حولي. كنت فصلت شريحة التلفون عن جسمه طيلة الأسبوعين، فأعدت تركيبهما ورأيت مكالمات من أرقام عديدة اتصلت بي، زملاء لي أيضًا وأقارب بعيدين، كما رأيت اتصالًا من عاطف أخي زوجي. قضيت الليلة على الكنبة أمام التلفزيون، أرد على من سبق لهم الاتصال بي بصوت هادئ، ولكن أيضًا بجسد مكسر ومسترخٍ ومستحم لتوه بعد أيام القذارة. وحده عاطف لم أكلمه، وقلت لأؤجل هذا إلى الغد. لم أرغب في سماع أي صوت قد يعكنن مزاجي. كلمت هند، والله يسامحني، ضحكت بصوت عالٍ معها.

كان الجميع يتكلمون عن الثورة على صفحتي، مع فيديوهات لأحداث جرت في ميدان التحرير وخارجه، كلام عن المجلس العسكري وعجلة الإنتاج والفلول. ولكن صورة واحدة تكررت عند أكثر من صديق، صورة العسكري الذي ضربته وهو يمشي محاطًا بعسكريين آخرين، ملابسه ممزقة وجرح كبير في وجهه، مع تعليق متكرر، حطينا على الداخلية تاني مرة. وضحكت بصوت عالٍ. لم تكن في ضحكتي مرارة أبدًا، ليس إلا المرح الصافي. قمت وكلمت هند وقلت لها إني عاوزة أشوفها، اسكتي يا نودا، مش انا بقيت ثورية جامدة جدًّا! لازم احكيلك أما اشوفك. هتضحكي جدًّا والله.

إلى هذه الدرجة وصل بي المرح ساعتها. كان هذا شيئًا مريبًا. بدأت أتفرج على إسماعيل يس وقهقهت، ولكن عندما سمعت صوت شباك يُفتح من المنور تذكرت أني امرأة فقدت ابنها لتوها، فكتمت

ضحكي وتابعت الفيلم بابتسامة حزينة تناسب أيامي الحزينة، ثم بكيت قليلًا ونمت. كانت أوقاتًا مضطربة.

٦

أول ما فعلته حورية في اليوم التالي كان التخلص من السجادة المبقعة بالدم في صالة بيتها. نادت البواب وحملها ليرميها على السطح. ونزلت واشترت سجادة جديدة بدلًا من القديمة ووضعتها في المكان نفسه. أمسكت المقشة وبدأت تزيل العناكب عن أركان السقف، ثم اكتشفت أن التراب ملأ جسمها بدون أن تفعل شيئًا ذا بال، فقالت لنفسها وأنا اتعب نفسي ليه؟ وبحثت عن رقم الست اللي بتنضف وكلمتها. أم حسين من جانبها لم يكن عندها شغل يومها فجاءت بعد ساعة.

قالت أم حسين إنها سمعت عما حدث لها، وإنها حزينة جدًّا، وذرفت دمعتين أيضًا. قالت إن أحدًا لم يكن في أخلاق محمود أبدًا، وإن ربنا يبرد قلبها عليه، ثم غيَّرت الموضوع فجأة، سألتها إن كان لها معارف في الشرطة، وحكت إن زوجها ممسوك في قضية حشيش. أخذته الشرطة من بيته قبل الثورة بأسبوع، وحدثت الثورة وهرب المساجين من السجون ولم تسمع خبرًا عنه. وحياتك يا مدام لو تعرفي حد من معارف والدك تدليني عليه. احنا مالناش غير ربنا دلوقتي.

ماذا فعل زوجها؟ أصحابه أغووه. كان رجلًا طيبًا يراعي بيته وأولاده، ولكن مصاريف البيت جعلته يلجأ إلى سيجارة الحشيش. ولكن قسمًا بالله لم تكن سوى سيجارة واحدة كل أسبوع، ولكن صديقًا له جاءه ذات يوم وطلب منه أن يخفي شيئًا عنده، وهو لم يرفض، وهجمت الشرطة بالليل على محله، وأتاري كان ما أخفاه حشيشًا.

وعدتها حورية أنها ستبحث عن أحد من معارف أبيها، وفي قرارة نفسها سألت نفسها عن هذه الوليّة قليلة الذوق، وانا في إيه وهي في إيه دلوقتي؟ وأعطتها حقها ومشت الست ثم رجعت حورية لتستمتع بالبيت النظيف. أخذت دشًّا طويلًا وخرجت وبحثت عن شيء ما لتأكله في الثلاجة، وفي باب الثلاجة فوجئت بثلاثة صراصير تتمشى وتهز شواربها. ودققت ورأت الكثير من بيض الصراصير بين شقوق كاوتشة الباب. أمسكت الفليت ورشت، ولكن مزاجها كان تعكر. كلمت أم حسين وقالت لها إنها بدلًا أن تحكي لها حكايات زوجها كان عليها الاهتمام بالعمل أيضًا. البيت مليان صراصير يا ام حسين. وهو دا شغلك اللي اديتك فلوس عشانه؟ أنا متأخرتش عنك في حاجة قبل كدا، بس لو سمحتي راعيني زي ما انا براعيكي. من فضلك يعني يا أم حسين لإن اللي فيا مكفيني.

وأغلقت الخط وأجرت مكالمتها المؤجلة لعاطف، وقال لها هذا البقية في حياتك ويا رب تكوني بقيتي أحسن ومعلش هازعجك. تكلم عن ميراث كمال، وقال إن عليها تقديم صورة من شهادة وفاة

الرجل مع طلب إعلام وراثة للمحكمة. تلاقيكي اكيد بتقولي انا ف ايه وهو في ايه، بس معلش، دا حقك وحق هيثم. وكانت سماعة التلفون على أذنها وهي تواصل رش الصراصير بالفليت، ورأت الصراصير وهي تمشي في خط مستقيم لتصل إلى بقعة الدم تحت السجادة الجديدة، وأزاحت السجادة ورأت أعشاشًا ضخمة تلوذ بها قطعان الصراصير، التي رأتها فبدأت تهرول عائدة نحو كاوتشة باب الثلاجة. وأربكها هذا جدًّا، قالت لعاطف حاضر هاشوف الموضوع دا، وأنهت المكالمة وهرولت لجوجل لتبحث عن أفضل الطرق للتخلص من الصراصير، ثم كلمت هند وطلبت منها أن تراها لأنها تحتاج إليها كثيرًا، أكثر من أي وقت مضى.

زارتها هند بعد يومين وحضنتها كثيرًا. جلستا في البلكونة وتكلمتا عن الخوف. قالت حورية إنها لم تعد تطيق البيت. كل شيء فيه أصبح يخيفها، وهي تتذكر الحادثة كل يوم وترى كوابيس، حطي نفسك مكاني يا هند، انا كل يوم بنام في السرير اللي كنت نايمة عليه لما حصلت الحادثة، وموضوع النضافة كمان بقى يضايقني. البيت مليان حشرات، ومهما رشيتها بتفضل، واقولك على حاجة كمان، بصي على السقف كدا. ايه اللي فوق دا؟ ونظرت هند وقالت لها إن هناك عنكبوتًا. تعرفي بقى إن امبارح ماكانش فيه حاجة؟ يعني انا نمت والسقف نضيف وصحيت لقيت العنكبوت دا. يعني هل دا طبيعي ولا انا ابتديت اتجنن؟ انا مش عاوزة اتجنن يا هند.

قالت إنها تفكر الآن بجدية في الرحيل في أية داهية بعيدًا، وقالت إنها من فرط ما قرفت باتت أسبوعين في الشارع، ومررت الجملة

بعادية وكأنها لم تقل شيئًا ذا بال. سألتها هند عن زوجة أبيها وأين هي، فقالت إنها ست عجوزة ومابتسمعش وفيها اللي مكفيها. وبعدين انا مبقتش احب البيت دا. البيت دا؟ لا يا هند، انا طبعًا مابقيتش احب البيت دا، بس كمان انا اقصد اقول ان بيت المنيل ما بقيتش احبه. انا عشت فيه أيام صعبة. وبعدين انتي قاطعتيني، انا كنت عاوزة احكيلك على حاجة.

سكتت حورية. أرادت أن تقول إنها سمعت صوت محمود مرتين منذ أن عادت إلى شقة السيدة، وإنها رأته أيضًا مرة في الشارع، هو نفسه، وإن هذا يخيفها، ولكن الكلمات اختنقت في زورها وبكت، وأخذتها هند في حضنها، وعلى صدر صديقتها أحست حورية بالأمان. كان صدر هند جميلًا وحلمتاها بارزتين. سكتت الاثنتان ثم قالت لها هند إنه لا حل فعلًا سوى أن تعزِّل. فترة بسيطة على الأقل لغاية ما حالتك النفسية تبقى أحسن شوية. غادرتا البلكونة إلى الشقة، وانقبضت حورية فور أن دخلتا. نظرت إلى الشقة وتخيلتها قبرًا تخرج منه ديدان بكروش ضخمة تتكرع جثة ابنها في أنحاء الصالة، وارتعشت وأخفت ارتعاشها عن صاحبتها. ومضت تتخيل نفسها في شقة جديدة، بلا تاريخ ولا ذاكرة ولا ديدان، وقلبت الفكرة في رأسها وقالت لهند صح، أنا لازم اعزل، هي دي الحاجة اللي لازم تحصل.

قبل أن تفترقا قالت هند، يعني انتي كنتي عاوزة تخونيني يا حورية، والناس يقولوا ايه لما يلاقوكي اتجوزتي؟ وقصة حبنا الكبيرة هنعمل فيها ايه؟ وقرصتها قرصة خفيفة في طيزها وابتسمت حورية.

٧

طول الوقت كانت حورية تعرف هذا، وطول الوقت تنكره. هند تحبها. هند لديها ميول غريبة، حورية تقول «غريبة» ولا تقول «شاذة». طول الوقت كانت هند تُلمح، وطول الوقت حورية تتجاهل. كانت تخاف من هذا بالتأكيد، ولكن الخطوات التي قطعتها في الأيام السابقة جمّدت قلبها بعض الشيء، لدرجة أنها بعد يومين كلمت هند وقالت لها إنها تريد زيارتها في بيتها. وضحكت هند، يا سلام، يا دي الهنا يا دي النور، داحنا نفرشلك الأرض رمل يا ستو أنا. وضحكت حورية وقالت لنفسها، هذه بنوتة جميلة، هذه بنوتة تضحك من ولا شيء وروحها حلوة. ووضعت السماعات في أذنيها ونزلت باتجاه القصر العيني.

كانت هند تسكن في روف صغير في أحد الشوارع الجانبية، غرفة مبنية بالخشب مفتوحة على سطح عمارة من خمسة طوابق. دخلت حورية ولفتت انتباهها صور ممثلي الأبيض وأسود على الجدران، ولوحة معلقة على جدار كامل مرسومة فيها امرأة بشعر مفرود ترفع قبضتها عاليًا، وفي أمواج شعرها مظاهرة من رجال ونساء جميعهم يرفعون أيديهم وتتطاير من حولهم أغلال مكسورة. سألتها عن اللوحة فقالت إنها هي من رسمتها، انتي نسيتي ان انا مدرسة رسم يا حورية؟

في شقة القصر العيني اكتشفت حورية صديقتها الفنانة الثورية. بدأت هند ترسم اللوحة قبل الثورة بسنتين، أنا كنت حاسة إن الثورة جاية جاية، ولما الثورة حصلت حمدت ربنا. انتي فاهمة يعني إيه

تقعدي عمرك تستني حاجة تحصل وبعدين تلاقيها بتحصل قدامك؟ الثورة دي أجمل حاجة في حياتنا يا حورية. وقالت لها حورية إنها ليست حورية. إنها حرنكش. وضحكت هند ضحكة ظهرت لها كل أسنانها، تحت حبوب نمش معدودة، ويعلوها شعر برتقالي ناصع، وبدا لحورية أن هند أجمل بنت عرفتها في حياتها.

كانت حورية تكبرها بسنين كثيرة. حوالي ثلاثة عشر عامًا، حورية في الأربعين وهند في السابعة والعشرين. ولكن هذا لم يمنع أن تكون هند أختًا كبرى لها. كثيرًا ما وجدت حورية نفسها ضعيفة أمام زملائها في المدرسة، وكانت هند تتدخل لصالحها. هند كانت لمضة ولسانها طويل، ومع أنها تدرس مادة تافهة ولكن الجميع كانوا يخافون من لسانها ويعملون لها حسابًا. وحورية، التي تدرس مادة أساسية مثل الرياضيات، كانت لا شيء بلا هند. وعت حورية بهذا وولد هذا لديها مشاعر متناقضة، ولكن في كل الأحوال، كانت هند درعها الصلب أمام الدنيا.

حكت لها حورية كيف أنها ضربت العسكري في المظاهرة، وانفتحت عينا هند من الدهشة وضحكت. ثم قامت وقالت، أظن آن الأوان لجوب محترم. وأحضرت عدة الحشيش وقالت لحورية إنها ستدخلها الآن عالمًا سحريًا لم تعرفه من قبل. فقالت حورية إنها جربت الحشيش. وعدت على أربعة أصابع، أنا شربت حشيش، وشربت خمرة، ونمت في الشارع، وعملت علاقة مع راجل ماعرفوش. وفتحت هند عينيها بدهشة، إيه دا كله إيه دا كله! أيوه يا بنتي هو احنا بنلعب؟ كانت حورية مزهوة بأنها تقدم لصاحبتها

معلومة مدهشة أخيرًا، بعد أن كانت المعلومات المدهشة من نصيب صاحبتها. طب انا عندي ويسكي لو عاوزة. طب هاتي.

شربتا وحششتا. وجلست هند على الأرض، وكان عبد الحليم يغني نبتدي منين الحكاية، وغطست حورية على الكنبة وبدأ الاكتئاب يداهمها مع بعض الأفكار السوداء، ورأت حياتها كأنها مكان قفر ينبت فيه الشوك، وعندما اشتد عليها الاكتئاب هزت رأسها بقوة لتفيق، والتفتت إلى هند وهمست لها، يا هند. نظرت إليها هذه. أنا عاوزة حضن. ابتسمت هند وقامت وجلست جنب حورية وفتحت ذراعيها، فأتت هذه وغرقت في حضن تلك.

أطالتا البقاء في حضن بعض، ورفعت حورية شفتيها وباست هند على رقبتها، وتحمست هند، بدأت تمرر أصابعها تحت قميص حورية ووصلت للإبط، ونظرت في عينيها فوجدتهما مغمضتين وهي تلهث. نزلت بشفتيها لتلمس شفتيها. وهنا فقط أفاقت حورية. همست لهند، بلاش يا نودا، أنا خايفة. لم تستجب هند. فقط ابتعدت عن الشفتين لتقترب من الأذن. مرت بشفتيها تحت أذني حورية، وهي تهمس لها، انتي حرنكوشتي أنا، انتي مش حرنكوشة حد. وحاء «الحرنكوشة» فحيح كامل، وحورية تنصهر تحت صهد أنفاسها، ولا تعرف من فيهما الذكر ومن الأنثى، كأنهما قطعة عجين. وفكرت حورية في قطعة العجين وتذكرت حلمها بأن تصبح هي وكمال عجينة واحدة وسهِّمت قليلًا، فابتعدت هند خطوة للخلف وسألتها مالك، فقالت أبدًا. واقتربت هند منها مرة أخرى، ولكن حورية جفلت هذه المرة وقالت، سوري يا هند، أنا مش عارفة انبسط خالص.

سكتت الاثنتان لخمس دقائق ثم عادت حورية للفوتيه وقالت إنها لا تعرف أن تنبسط بدون أن يكون هناك ذلك الشيء الذي يدخل فيها، وإنها لا تعرف كيف أن بعض النساء ينبسطن مع عدم وجود ذلك الشيء. فقالت لها هند، بس انتي عارفة انه حتى لو انتي مع ست فيه حاجة ممكن تدخل صح؟ وعارفة ان ربنا مثلًا خلق صوابع عند الستات. قالت أيوه، ولكنها تحب أن تتخيل قضيب الرجل كأنه مسمار قلاووظ يلف ويركب فيها. وردت هند أن قضيب الرجل ليس مسمار قلاووظ، وإنما عضلة مزفلطة تنقبض وتنبسط، عكس الإصبع الذي لا ينقبض أبدًا. ردت حورية بأنها تعرف كل هذا، بس معلش. وابتسمت برقة وكانت عيناها ملتمعتين. وقالت بعد قليل إنها لازم تمشي، وقامت وبدأت تلم أشياءها.

عند عودتها إلى البيت قالت لنفسها انتي مش لذيذة يا حورية، انتي مش لذيذة يا حورية أقسم بالله.

وكانت مواسير الحمَّام تسرب مياهًا بمعدل نقطة كل ثانية. وتمعنت فيها كثيرًا ثم انفجرت في البكاء.

٨

لم يكن بكاء حورية بسبب تسرب المياه، حتى وإن بدا كذلك. بعد أن نزلت من عند هند، وقبل الرجوع إلى بيتها، قررت المرور على بيت كمال. لم تمشِ على رصيف بيته مباشرة. فقط مشت على

الرصيف المقابل، ونظرت إلى بلكونة الشقة وهجم عليها الحنين بدبابيس ظلت تخزها في كل أنحاء جسمها، لدرجة أن عينيها ذرفتا بعض الدموع من فرط الألم. وشاورت على بلكونة الشقة وعملت لها باي، ثم عادت أدراجها.

هل كانت تريد أن تصعد؟ هل كانت تريد أن تختبر بنفسها خواء الشقة من كمال؟ هل كانت تريد أن ينزل كمال، وهل توقعت أن ينزل لها من البلكونة، يرمي نفسه عليها فتأخذه في حضنها؟ هل كانت تريد أن ترى هيثم؟ وكانت فيروز توشوش في أذنها، ساعدني، يا نبع الينابيع، يا سيد العطايا، ساعدني. فكرت أنها تحتاج بشدة إلى جوب حشيش آخر يكمل معها الليلة، ثم قالت وماله، كمال كان يشتري الحشيش. أنا أيضًا سأشتريه. أين المشكلة؟ وبحثت في أرقام تلفوناتها عن طُلبة، الديلر الذي كان كمال يتعامل معه، وكلمته وقالت له إنها مرات الدكتور كمال الله يرحمه، وقالت له إنها تريد صباعًا فسألها هل يزورها في شقة المنيل كما اعتاد فقالت لا، أنا في المنيل بس مش في الشقة. تعال اشوفك في أي حتة تانية. واتفقا على اللقاء قرب كوبري الملك الصالح، ووقفت هناك وانتظرته حتى مر عليها بالعربية، وجلست بداخلها وأعطاها صباع الحشيش، ثم قاد العربية ورماها بعد أمتار.

نزلت ووضعت السماعات. وقبل أن تغادر المنيل نظرت إلى الخلف، باتجاه ما تصورت أنه بيت كمال، وخاطبته بأغنية فيروز، العصافير بتلعب وبحقولك بتطير، واليمامة بتشرب من نبعك بكير، همهمت بها وأشارت للتاكسي ورمت نفسها فيه، لأنها خافت

المشي في الشارع ومعها المخدرات. ومر التاكسي على كمين وتجاوزه بسلام بعد أن كانت ماتت في جلدها. وعندما عادت لفت الجوينت وأخذت صورة كمال تختفي من رأسها ويحل محلها صوت نقاط المياه المتسربة من الماسورة في الحمَّام، وانتبهت لهذا، وحاولت استبقاء صورة كمال في مخيلتها، أغلقت عينيها وحاولت التركيز كثيرًا، ولكن نقط المياه كانت تنتزعها من تركيزها، فأخذت تبكي.

ولم ينته البكاء إلا بعد أن أخذت قرارًا ببيع الشقة.

كلمت البواب وطلبت منه البحث عن مشترٍ كويس، وقالت إن المبلغ الذي تريده هو مئتا ألف، والشقة تستحق أكثر ولكنها تريد الفلوس في يدها كاش، الشقة بقت كئيبة ومابقيتش طايقاها وكل حاجة فيها بايظة. سألها إن كان أحد زعلها في شيء، فقالت إن الدنيا زعلتها. وكان أنفها سائلًا وكانت تشن بين كلمة والثانية من أثر نوبة البكاء السابقة. وعندما أنهت المكالمة مسحت أنفها مسحة شاملة ونهائية حتى عاد كما كان.

٩

صحت في نص الليل. أحست بضغط في أمعائها فذهبت لتفرغه في الحمَّام، وارتاحت فور ما أفرغته. هناك فكرت أن الشخة الجيدة هي الشخة التي تدعوك ولا تدعوها، وتتم بلا جهد

وبانسيابية، في مقابل الشخة السيئة التي تمر بحزق كثير وإجهاد، وتذكرت الدورة.

كنا بعد منتصف الشهر بيومين، وعادة تأتيها الدورة قبل منتصف الشهر بيوم أو اثنين. صحيح أن ذاكرتها كانت مغبشة بفعل النوم الطويل، ولكنها استطاعت تذكر شخص قابلها في مكان مظلم ما ورمى حيواناته المنوية فيها بجانب عربية محروقة، وامتلأت بالرعب. ارتعبت لدرجة أنها انتفضت ولم تشد السيفون، وقامت نحو المرآة لتفحص بطنها وتحسس عليه. وعادت إلى سريرها وهي تفكر أن طفل شوارع سيخرج من بطنها، طفل بملابس ممزقة ومشحمة ويمسك سيجارة، وبدأت تتخيل الطفل وهو يكبر، وهي تمشي معه في الشارع ويقول لها بصي يا ماما، هنا يوجد هدف، وتقول له هو فين، فيقول قدامك أهو. وتمعن النظر ولا ترى شيئًا، فقط تتوقف عنده، عند ابنها، ابن الشوارع، وتسأله لماذا أظافره متسخة إلى هذا الحد، ولماذا ملابسه قذرة إلى هذا الحد، وتقول إنها لا بد أن تشتري له هدومًا جديدة، فيمشيان في وسط البلد ويختاران هدومًا له، وتسأله حلوة يا محمود؟ فيقول حلوة يا مامي. ويمضيان معًا. يدخلان مدرسة ويجلسان على التختة ليحلا الامتحان، يسألها، هتقولي نعم ولّا لأ يا ترى؟ فتقول، لأ، وتقولها بفخر لدرجة أنها تحوِّر فيها، كلَّا، كلَّا وألف كلَّا، كلَّا البتة، بتة الكلَّا. ويضحكان كثيرًا.

صحت و«بتة الكلَّا» ترن في رأسها. كانت قد نسيت كل شيء عن البيريود المتأخرة والطفل المحتمل والمتعة غير المكتملة وصورة كمال والمواسير التي تسرب ماء.

كانت حورية تميل كغيرها لتخيل المصريين كتلة واحدة.

صحيح أن غرقها في مأساتها الخاصة عزلها عما يحدث في البلد، ولكن هذا لم يمنع من تكون صورة عن الشعب. الشعب المصري كان مع مبارك ثم الشعب المصري انقلب على مبارك. لم تكن في الصورة تعقيدات كثيرة.

في مدرسة صغيرة قرب محطة المترو، ذهبت حورية لتقف في طابور الاستفتاء على الدستور، طابور طويل مثل الثعبان، وهي ومن حولها يشكلون جسمه، يتلوون كما يتلوى الثعبان ويزحفون نحو الهدف كما يفعل. هناك، في عمق جسم الثعبان، فوجئت بمعارك صغيرة بين الناس حول لا ونعم، واستغربت هذا قليلًا.

كان هناك من هم مع حسني ويؤيدون التعديلات الدستورية وبعضهم ضدها، والعكس صحيح. لخبطها هذا بشدة وأزعجها. وسألتها امرأة عن رأيها، فقالت إنها ستكتب لا، ولكنها عندما دخلت اللجنة كتبت نعم. وعندما كلمت هند وسألتها هذه ماذا كتبت، لم تكذب وقالت إنها كتبت نعم. بان الإحباط في صوت هند ولكن حورية قالت إن هذا رأيها وإنها مقتنعة به. وإنها صحيح كانت مقتنعة أنها ستصوت بلا ولكن رأيها تغير في الطابور، وقالت إن الآراء نسبية وإنها ليست شيئًا واحدًا ممسوكًا وإنما تتغير طول الوقت. وطلبت من هند ألا تزعل منها بسبب ما حدث في المرة السابقة. هي صحيح تحبها جدًّا ولكنها لم تفكر في هذا الموضوع من قبل أبدًا، وهي

تخاف منه وتشعر أنه غير مناسب، بالإضافة إلى هذا فعلى هند أن تقدر ظروفها. هند من جانبها بدا أنها تتفهم. قالت لها إن التيرم الثاني سيبدأ، هانشوفك في المدرسة؟

منذ الحادثة توقفت حورية عن التفكير في المدرسة. كان تأجيل الدراسة بالنسبة إليها أمرًا مثاليًّا، فكيف تعود امرأة فقدت زوجها وابنها مرة واحدة للتدريس؟ قالت إنها لن تستطيع العودة، على الأقل في هذا الوقت. طيب يا حبيبتي قدمي طلب انقطاع عن العمل. كام أسبوع كدا لغاية ما تتزني نفسيًّا شوية.

قالت حاضر، وفي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة وقدمت الطلب. ومرت على محكمة جنوب القاهرة وقدمت إعلام الوراثة الذي كلمها عاطف عنه، واستلمه منها رجل بشنب وكرش، وقال لها البقية في حياتك، قالها بطيبة أو أنها تخيلت هذا. وعادت وهي تحس أنها تبدأ بداية جديدة في حياتها. وأن دبابيس الحنين التي وخزتها من يومين ستنزعها واحدًا واحدًا، وستكومها كلها وترميها في الشارع حتى يمر عليها المطر والهواء وتصدأ ولا تعود تنفع لشيء. وقالت ليحدث هذا الآن، أن أبدأ حياة جديدة، أحسن من أن يحدث فيما بعد.

عادت إلى البيت وكتبت على الفيسبوك إنها تريد بيع سرير وسفرة ودولاب ومكتب وثلاجة وغسالة وسخان وبوتاجاز وطقم أنتريه وتلفزيون، وقامت ولمت كل ملابسها وأغراضها في ثلاث شنط كبيرة، ونزلت وحجزت غرفة في فندق بميدان طلعت حرب لمدة لا تعرفها. وفور أن دخلت بدأت تشعر بتقلصات البيريود أسفل

بطنها، ما يعني ألا بطن سيكبر وألا طفل شوارع سيخرج، وأحست بالارتياح ولكن هذا لم يمنعها من أن تبتسم بسخرية وهي تتطلع لبقع الدم وتهمس، بداية مبشرة لحياة جديدة.

١١

لم تأخذ حورية كل ملابسها، حاشت الملابس السوداء وحدها في حقيبة وأخذت معها الملابس الملونة. حياتي من الآن ستصبح بالألوان. أحمر واصفر واخضر وفوشيا وتركواز. الأسود يمتص كل الألوان بداخله، والأبيض يعكسها خارجه، وهي زهقت من الامتصاص وتريد أن تعكس، أن ترى الجميع ويشرق نورها على الجميع.

قالت لها هند إنها بعد طلاقها، بعد أن كانت أجرت كل التحاليل وتأكدت أنها هي السبب في عدم الخلفة، وبعد أن تأكدت أنها لن تصبح أمًّا أبدًا، وفي اليوم الذي تكلمت فيه مع زوجها وأخبرها برغبته في الانفصال عنها، نزلت واشترت ملابس ملونة كثيرة. يومها لأول مرة تلبس الأصفر، ومشت به في الشارع وقابلت أصحابها، وردًّا على أي صديق يعلق على الأصفر كانت تقول، أصل انا اتطلقت النهارده، وتضحك ويبهر فستانها الأصفر وشعرها البرتقالي أنظار الجميع.

هو كدا الموضوع يا حرنكش، اخرجي وغيري جو وف داهية اللي يزعلك يا قطة. والشقة اللي مضايقاكي دي كمان في ستين داهية،

عاوزة منها ايه، أنا لو منك اقلع أم الاسود دا وانزل اشتري هدوم كتير واسيب الشقة واروح اقعد في أي حتة لذيذة.

هذا ما تذكّرته حرنكش وعربات النقل تأتي وتذهب مع صديقات وأصدقاء جاءوا ليحملوا عفشها ويعطوها أموالًا في يدها، وكان الربيع بخماسينه يقترب ويحل ضيفًا على البلد. ومعه جُمع يملؤها شباب ونساء غير محجبات، وحورية تنزل الشارع وتراقب وسط البلد، كساكنة لا كمشاءة. كامرأة تقطن فندقًا لا كامرأة تنام في الشارع. قالت حياتي هنا في وسط البلد، الثورة على أرض الثورة ستنسيني ما حدث. الثورة حدث كبير، حدث يخص البلد، وأحداث البلد تنسينا أحداث أنفسنا. ولكن هذا لم يمنعها من أن تخرج صور محمود بين الحين والآخر وتتأمل فيها وتتأثر بعض الوقت ثم تعود لتضعها في محفظتها.

وزارتها هند في غرفتها التي تطل على طلعت حرب، لم تتكلما في السياسة يومها. قالت لها هند هو دا الكلام وسألتها اشمعنى هذا الفندق، فقالت إنها لا تعرف غيره، وإن المنظر من بلكونته جميل. بلكونة الفندق كانت تطل على تمثال طلعت حرب مباشرة. جلستا فيها وقالت هند إنها تحب أن تسكن في وسط البلد. وإن كل حاجة بتحصل هنا، وكانت تقصد الفعاليات الثقافية. وسألتها ماذا ستفعل بعد أن تبيع الشقة فردت أنها ستشتري شقة جديدة. فين؟ مش عارفة.

أنا زهقت من حياتي، ومش عارفة ازاي هكمل بعد كدا، بس وصلت لقرار اني مش عاوزة أكمل في شقة السيدة. انتي كان معاكي

حق. الشقة دي كانت كئيبة جدًّا عليا. السباكة باظت، وفيه مشاكل في النضافة، وانا مش عارفة اتصرف خالص. أنا بفكر ادور على شقة إيجار هنا في وسط البلد. ما تيجي تسكني معايا. طب ما تيجي انتي تسكني معايا؟ لا معلش يا هند، شقتك صغيرة أوي وانا عاوزة ابقى لوحدي شوية كدا. قالت هند، طب ياللا يا حلوة، خلينا ننزل ندور على شقة دلوقتي. حلاوتها ف حموتها.

لفتا نواحي باب اللوق، وأشارت حورية إلى الشارع الذي ضربت فيه عسكري الأمن المركزي فقبضت هند على كتفها وشدتها إليها بالعافية وباستها على شفتيها في حركة خاطفة، ثم قالت وهي تشير بسبابتها وكأنها تعلمها، دماغك ماتروحش بعيد، البوسة دي بوسة ثورية. وضحكت حورية بصوت عالٍ، وكان هناك بواب جالس أمام عمارة يضرب كفًّا بكف، وجرتا قبل أن يكبر الموضوع، وقبل أن تصلا إلى نهاية الشارع التفتت هند وزعقت في البواب، داحنا هنفشخكوا، وضحكت حورية على الكلمة حتى دمعت وخبطت على كتف هند وقالت لها، يا مجنونة!

لفتا في كل الشوارع ولم تعثرا على شقة بسعر مناسب. أكلتا في مطعم بباب اللوق وعزمت عليها حورية أن تصعدا إلى الفندق مرة أخرى لتشربا الشاي. وقالت هند ماشي، وصعدتا ودخلت حورية الحمَّام، وأمام مرآة الحمَّام أخذت تكرر بصوت منخفض، داحنا هنفشخكوا، هنفشخكوا عالآخر، هنفشخكوا بكل المقاييس. وأحبت نبرة صوتها وهي تقولها وخرجت بابتسامة كبيرة.

كنت مبسوطة يومها. كنت مبسوطة لما نزلت الشارع ورأيت

الشمس طالعة والشوارع هادئة، وكنت مبسوطة لأني سأنام في طلعت حرب وليس في السيدة زينب، وكنت مبسوطة لأن هند لم تلح عليَّ لفعل أي شيء، بل تركت الموضوع ينساب والأصابع تنساب والموضوع يتطور والأصابع تتطور وتصبح مسامير قلاووظ. من لا تريد منكن أن تسمع لا تسمع، ولكن هذا ما حدث، وأخطئ في حق نفسي وفي حق الله لو كذبت، يومها تأوهت هند كثيرًا، تأوهت وبدأت تصرخ صرخات متقطعة وتعض ذراعي حتى سكتت، ولما رأيتها وصلت، ولم أكن وصلت بعد، طبطبت عليها وقلت لها، كفاية كدا. نظرت لي وسألتني إن كنت وصلت فقلت لا، وقلت مش مهم والمهم إني مبسوطة، انبساطك يبسطني. وغفونا سوا، وكنت مستمتعة وأنا ألعب في خصلات شعرها البرتقالي، وأضفرها مثلما أضفر شعري.

وعلى سرير واحد يتسع لشخص واحد رحنا في النوم.

١٢

أول مرة أرى فيها مظاهرة كانت عام ٢٠٠٥. كنت مع صبحي ومحمود أحمله على حجري، في التاكسي، قادمين من مكان باتجاه البيت، ووقف التاكسي عند مدخل السيدة وكانت هناك مظاهرة. كان الجو حارًا جدًا، ومحمود لم يحتمل هذا وبكى. وشخط صبحي في السواق فشخط السواق في صبحي وقال، يعني أركّب جناحات للتاكس يا ناس؟

لم نحتمل الانتظار في التاكسي الواقف، فنزلنا لنخوض وسط المظاهرة، وكانت تقف أمام جامع السيدة بالضبط، ولم يكن الوضع أفضل هناك. اخترقنا الجموع ببطء وبدأت ذراعي تئن من ثقل محمود عليها، وكان صبحي يلح عليَّ أن أسرع للخروج من المظاهرة، وأنا أحاول ولا أستطيع. وكان المتظاهرون يمسكون بمقشات ويلوحون بها عاليًا، وأنا لا أفهم بالضبط ما هذا ولا لماذا، ولكن لفتت نظري مقشة مرمية على الأرض، فانحنيت والتقطتها بيدي التي لا تحمل محمود. كنت أحاول الاستفادة من وجودي في المظاهرة بأي شكل.

في البيت حاولت أن أكنس الأرض بالمقشة التي حصلت عليها، صحيح أنها كانت مقشة بدائية، وصحيح أن صبحي سألني وأنا أكنس ماذا أفعل وضحك عليَّ، ولكني كنت فرحانة باللعبة الجديدة التي معي. في النهاية انتصرت وجهة نظره ورمينا المقشة في السندرة.

على العموم، كانت هذه مظاهرة واقفة، ليست مسيرة. المسيرات تعلمتها في ٢٠١١. لا أعرف، أنا أصلًا أحب المشي، وأفخر بالمشي لساعات طويلة بدون أن أتوقف لحظة واحدة، أمشي منطلقة ولا يلتفت أحد إليَّ. المسيرات كانت تختلف، في المسيرة تختل قوانين الحياة الطبيعية وتتعطل السيارات ويزدحم الشارع وتتكاثر الكلاكسات، والمشي يكون محددًا بآخرين أمامك وآخرين خلفك وبهدف انطلقت منه المسيرة وهدف ستصب فيه. وهذا لم يكن إيقاعي. كنت أقول إن المشي الذي تمشيه المسيرة ليس مشيًا. وإني أمشي من ساعة أن كان هؤلاء العيال في اللفة. باختصار، إيقاعي لم ينضبط مع المظاهرات. أحسست كأن المظاهرات تسلبني شيئًا جميلًا طالما كان من نصيبي.

ولكن على الناحية الأخرى، فالثورة ربما كانت، كما قالت هند لي مرة، أجمل شيء حدث في حياتي. لماذا؟

أنا امرأة مرت بصدمة عصبية فظيعة. أنا امرأة انتحر زوجي الأول، وصحا زوجي الثاني من عز النوم ليقتل ابني ثم ينتحر. أنا امرأة طاقت ما لا يطيقه بشر. ماذا أفعل؟ هل أموت؟ وهل يمكن لأحد إذا ما تعرض لصدمة عصبية كهذه أن يموت، أن يتخذ قرارًا بأن يموت؟ ممكن طبعًا، ولكن هذا ليس أنا. الآن بعد مرور السنوات أعرف أني، مهما بدوت ضعيفة وغلبانة ولا حيلة لي، أشد عندًا من الصخر. بابا علمني العند.

ولكن عندي وحده لم يكن كافيًا، الثورة ساعدتني بشكل أساسي. كل شيء كان يمشي في اتجاه جديد، كل الناس يتكلمون كلامًا جديدًا. باختصار، أخذتني السياسة من حزني الصغير ورمتني إلى حزن كبير. هذا التكنيك نفع معي. أنا نمت أسبوعين في الشارع، رأيت كل شيء في الشارع، رأيت شبابًا يكنسون الميادين وبناتًا يهتفن. صحيح آلمني جدًّا أن أحدًا لم يركز في قصتي، ولم أحظَ بتعاطف ولو بعشرة صاغ، وأن قصتي هذه على فظاعتها لم تأخذ إلا سطرين في جريدة، مقابل قصص طويلة عن شيء لم أفعله ولا أنتمي له، ولكن الثورة سحبتني، وكاذب من يدعي غير هذا. البعض سحبته لأنه لم يكن لديه شيء في يديه ليفعله، والبعض سحبته بالتحديد من الشيء الذي كان في يديه ليفعله، وأنا كنت من النوع الثاني. قولوا في الثورة أي شيء، ولكن الأكيد أنها كانت دوامة، وهذه الدوامة هي ما كنت أحتاجه بشدة. باختصار، هذه استفادتي الوحيدة من الثورة. وما عدا

ذلك لا شيء. علمني عم ناجي، وسأحكي لكن عنه، أن الواحد عليه أن يكون عادلًا لأن الله يحب العدل، أنا أخذت من مظاهرة السيدة مقشة وأخذت من ثورة يناير دوامة.

بدأت أتابع الأخبار بعطش حقيقي، اشتريت جميع الجرائد، وكنت أتسمر على الفيسبوك بالعشر ساعات ولا أكتب حرفًا واحدًا، كنت أريد أن أفهم. الفهم ليس عيبًا، وعندما تزورني هند أتناقش معها، وأسمع أكثر مما أتكلم. راقبت المسيرات من بلكونة الفندق وعندما كان الغاز المسيل للدموع ينطلق كنت أنزل جريًا على السلالم لأشمه، ولكنني أبدًا لم أدَّعِ أنني ناشطة سياسية. كنت أؤكد لنفسي أني أكبر من هذا بكثير. ناشطة كونية مثلًا. أليس كذلك يا عم ناجي؟

١٣

إذا كان هناك شخص يمكن لحورية أن تسميه أباها الروحي فهو عم ناجي. كان عم ناجي أول من يقول لها كلامًا كبيرًا، كلامًا من عينة أن الرئيس يبيع البلد، كان أول إنسان سمعته يقول بحنين حقيقي، الله يرحمك يا عبد الناصر. كان بلديات أبيها وزميله. دخلا في اليوم نفسه معهد صف الضباط وتزاملا وتآخيا، وعندما بدأت السبل تتفرق بهما وينقلان إلى وحدات مختلفة، حرص ناجي على الانتقال إلى القاهرة، ليصبح بجوار إسماعيل، ويتزاورا كلما أمكن هذا، وحضر ولادة حرنكش وأحبها من قلبه. كان يدخل عليهم البيت ولا يتركها

قبل أن يحكي لها قصص الأنبياء جميعًا، من سيدنا آدم حتى سيدنا محمد، وفي مرحلة تالية بدأ يكلمها عن إضراب عمال السكة الحديد وإضراب عمال شركة الغزل والنسيج، وشركة زيت الزيتون، وشركة زيت الصابون، وكل أنواع العمال والشركات والزيوت، وعندما صارحها أبوها برغبته في أن تدخل الثانوية العسكرية، وقف أمام أبيها وقال له حرام عليك يا أخي، هذه بنت وأنت شاعر وأنا وأنت دخلنا الجيش صدفة وبلا تخطيط، ولا تربط حياة بنتك بصدفة أنت نفسك لا تحبها. البنت تريد تعليمًا عامًّا، أدخلها تعليمًا عامًّا، وحفظت له حرنكش الجميل. شكرًا يا عم ناجي. أنت فقط لا تعرف كيف أحتاجك الآن، لدرجة أني أفكر الآن أن كل ما حدث لم يكن إلا تلكيكة لكي أراك.

١٤

كلمها البواب وقال إن هناك مشتريًا يريد رؤية الشقة. قالت له حلو، إمتى؟ فقال بعد بكرة. كلمت أم حسين وطلبت منها أن تأتي اليوم أو غدًا لتنظف الشقة لأن هناك مشتريًا لها. وأتت في اليوم التالي فعلًا. تقابلتا أمام العمارة وصعدتا معًا، ودخلت حورية وانقبض قلبها لرؤية الشقة بلا شيء، لا عفش ولا أجهزة، وطلبت منها الست أن تنزل ثلاث ساعات حتى تنتهي هي، ولكن قبل أن تنزل سألتها إن كانت عملت شيئًا في الموضوع الذي كلمتها عنه. أنهي موضوع يا أم حسين؟ جوزي يا مدام حورية، اللي قلت لك انه محبوس.

وعدتها حورية أنها ستبحث في أرقام تلفوناتها عن شخص تعرفه من أيام أبيها. ونزلت.

الحق أن حورية لم تبحث في أرقام تلفوناتها، لأن الشخص المقصود كان في رأسها طول الوقت، عم ناجي. أرادت أن تلجأ إليه بعد انقطاع دام حوالي ربع قرن، لتحكي له ما حدث لها، لتبكي في حضنه ولتسمعه يناديها بحرنكش. جلست على كافيه شوب وبدأت تتذكر بالتدريج. بعد ساعة كلمت زوجة أبيها وقالت لها إنها تريد أن تزورها، ودفعت الحساب وأخذت تاكسيًا إلى شارع البحر الأعظم. وهناك، عندما رأت البيوت الملونة بالأحمر والأصفر، عندما رأت بيتًا بمشربية، قالت له عندك يا اسطى، ونزلت شارع أمير الجيوش وتمشت مئة متر حتى البيت.

في بيت المنيل فتحت لها طنط سميحة. عجوز ضعيفة السمع وتتواصل بالكاد مع الآخرين. باست كل منهما الأخرى وطبطبت عليها سميحة بحنان كبير، والكثير من عاملة ايه دلوقتي يا بنتي، وبتقضي يومك ازاي، والله يكون في عونك، وحرنكش ترد بغمغمات بلا معنى، فقط الحمد لله، ربنا يلطف، وما إلى ذلك.

كان التلفزيون شغالًا على مسلسل لم تعرفه حرنكش. وكان هناك مشهد مؤثر عن البطلة التي تريد أن تستقل بحياتها. وحكت لزوجة أبيها أنها تنوي ترك شقة السيدة والإقامة في شقة أخرى، ثم سألتها إن كانت لديها أي وسيلة اتصال بعم ناجي؟ وعلّت صوتها وهي تقول، ناجي عبيد يا طنط. فاكراه؟ أيوه ناجي عبيد أومال ايه طبعًا. فاكراه طبعًا. قالت حورية إنها تريد رقم تلفونه لأن هناك

واحدة معرفة عندها مشكلة في الشرطة، وتريد أن تستشيره في هذا الموضوع. قامت المرأة وبحثت في دفتر تلفونها الكبير وفي النهاية أعطتها رقمًا أرضيًّا، وقالت إنها لا تعرف إن كان الرقم شغالًا أم لا. وزعقت حورية، مابتكلميهوش يا طنط؟ لا. مفيش كلام بيننا من ساعة امك. وسكتت ولكن لم يفت على حورية أن تلاحظ تعبير القرف على شفتيها.

وتجاهلت حورية القرف، وقالت إنها لازم تمشي الآن لأنها تركت امرأة تنظف البيت وزمانها خلصت.

١٥

كان البيت نظيفًا ويبرق وتفوح منه رائحة الصابون عندما عادت، وكانت أم حسين تجلس على كرسي بلاستيكي تبقى بعد مذبحة العفش التي قامت بها حورية، وقامت عندما دخلت هذه ومضتا تدوران معًا في أنحاء الشقة. ثم قالت حورية إنها تذكرت شخصًا بإمكانه المساعدة في قصة الزوج المقبوض عليه، ولكنها لم تكلمه بعد، ووعدت أن تكلمه في اليومين التاليين. وانتي رأيك هيطلع يا مدام؟ بصي يا ام حسين، انا مش عاوزة افتي، بس متهيألي هيطلع، بما إن مافيش قانون في البلد دلوقتي، احنا بس عاوزين واسطة جامدة. المشكلة الوحيدة ان الشخص اللي بقولك عليه دا راجل مهم في الجيش مش ف الشرطة ولا النيابة، أنا بس باقول ممكن يبقى عنده معارف هناك.

شكرتها أم حسين بشدة. وعرضت عليها حورية أن تشربا كوبي شاي معًا، وقامت وشغلت الكاتل وأتت لها بالشاي في كوبين بلاستيكيين، وجلستا، أم حسين على السجادة الوحيدة المتبقية، وحورية على الكرسي البلاستيكي الوحيد المتبقي. أخرجت حورية سيجارة حشيش كانت لفتها بالأمس. أشعلتها ومضت تدخن، ثم قالت لأم حسين إنها قبل أن تزور هذا الشخص فعليها معرفة ماذا كان يفعل زوجها بالضبط، وبصراحة، وبدون اللف والدوران بتاع واحد صاحبه ترك عنده حشيش وهذا الكلام، حتى تتمكن من أن تحكي لهذا الشخص الكلام المظبوط. فوجئت أم حسين قليلًا بالكلام ثم انطلقت لتحكي.

ـ هو كان بيمشّي حاله يا مدام، احنا غلابة في الآخر ومحتاجين القرش. هو كان بيتعامل في المخدرات ماقلناش لأ، بس على قد حاله، يعني زي ما تقولي يوصل طلبية من هنا لهنا، هو حظه في الدنيا قليل، جرب يشارك واحد صاحبه في محل كهربائي ف الأميرية بس صاحبه طلع ابن كلب ونصب عليه.

ـ وكان بيخلي الحشيش دا عنده في البيت يا ام حسين؟

ـ آه ماهو مفيش حتة تانية، كان زمان فيه محل الكهربائي دا وكان بيخلي الحاجة فيه، بس صاحبه دا قام طرده ومشاه وجاب شوية بلطجية يضربوه. هو ماكانش عامل عقد ولا عامل أي حاجة، فخد بعضه ورجعلي وهو مضروب.

ـ يا ساتر يارب! ودا حصل امتى؟

ـ دا كان من فترة كدا، أديله سنتين دلوقتي.

كنا في عام ٢٠١١، و«من سنتين» يعني في ٢٠٠٩. في السنوات التالية، ستتحول ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ و٢٠٠٩ و٢٠١٠ إلى زمن مبهم يسمى «قبل الثورة»، و«قبل الثورة» هذا سيصبح مصطلحًا يشير إلى انضباط البلد، إلى القانون والأمن والأمان، قبل أن يخرج البلطجية والمتظاهرون وتجار المخدرات والباعة الجائلون من جحورهم. ولكن حتى قبل أن يأخذ المصطلح دلالاته المعروفة، كان كثير من الناس قد استبطنوا معناه. استغربت حورية لكون هذا حدث في العصر الذهبي بالتحديد، قبل الثورة.

- ضربوه ازاي يا ام حسين؟

- ضربوه يا مدام. عوروه، وواحد كان جايب سلاح آلي وتَنُّه يضرب في الهوا عليه لغاية ما رجعلي الراجل متعور وهدومه مقطعة وغرقانة دم.

- أيوه يا ام حسين بس الموضوع دا مش سهل كدا، فيه قانون وفيه حكومة.

سكتت أم حسين ولم ترد.

- أنا أقصد إنه كان ممكن يبلغ عنهم. أقل حاجة إنهم بيتاجروا في المخدرات.

- هيبلغ يقول ايه يا مدام؟ ماهي الحكومة مابتجيش الا عالغلبان، هيقولوله انت جاي تبلغ، طب تعالى هنا، انت بتعمل كيت وكيت. وهيفتروا عليه هو. ماهو احنا غلابة يا مدام.

سرحت حورية قليلًا بخيالها. تخيلت عالمًا كاملًا يقوم على السلاح الآلي والقتل والجريمة ولا وجود فيه لضابط الشرطة.

استبشعت الفكرة في خيالها وحاولت طردها، ولكن الفكرة ظلت تحوم حول رأسها وتزن كالذبابة. تضغط وتضغط على أفكارها وتصدر أزيزًا لا يتوقف، معًا مع سريان مفعول الحشيش في رأسها، حتى أنها هزت رأسها بقوة لتعاود التركيز في كلام أم حسين، التي كانت تواصل الحكي بلا هوادة، وعند نقطة معينة في كلامها قاطعتها حورية:

ـ قولي لي يا أم حسين، هو السلاح دا سهل أوي كدا في المناطق دي؟

ـ يا مدام دي حتة ما يعلم بيها إلا ربنا. دا كفر والله. أقولك على حاجة، مش بيقولوا عالسيدة منطقة شعبية؟ إيه رأيك إنها تعتبر زي جنة بالنسبة للمنطقة عندنا؟ وان مابيحصلش هنا واحد على عشرة في المية من اللي بيحصل عندنا؟

كان الحشيش قد تمكن من حورية تمامًا، شعرت بالجملة الأخيرة وكأنها جملة مهينة، وأنها مضطرة لرد الإهانة. قالت:

ـ غلط، المنطقة هنا برضه منطقة معفنة، انتي مشفتيش أيام الثورة يا ام حسين، أنا شفت القسم هنا وهو بيتحرق. وناس ما يعلم بيهم الا ربنا ظهروا في كل حتة.

ـ معلش، ماهو برضه نسبة وتناسب، يعني لو حاجة هتحصل هنا بتحصل عندنا عشر أضعاف. خديها قاعدة يا مدام، أي حاجة بتحصل هنا اضربيها في خمستاشر مرة هتلاقيها بتحصل عندنا.

شعرت حورية مجددًا بالإهانة من عبارة «خديها قاعدة». من هي لكي تأمرها بأن تأخذها قاعدة أو لا تأخذها؟ ولكن لم تعمل عقلها

بعقل أم حسين. بلعت الإهانة وحاولت التفكير في رد ذكي. ساد صمت قصير ثم قالت:

-انتي عارفة يا ام حسين اني مسكت مسدس في إيدي وضربت نار؟

سكتت أم حسين قليلًا، أخذت وضع المستمع لأول مرة في الحوار.

-آه والله. بابا الله يرحمه كان بيعلمني اضرب نار. كان بياخدني نادي الصيد مع واحد صاحبه ويعلموني اضرب نار. لو عاوزاني دلوقتي انشنلك على أي حد ماشي في الشارع هتتفاجئي والله.

وضحكت، ولكن أم حسين لم تضحك. فكرت قليلًا في جملتها ثم قالت لها:

-معلش برضه يا مدام، إحنا محدش عندنا بيروح نوادي، الناس عندنا مقاطيع اتعلموا في الشارع. عندك انتي الموضوع دا زي ما تقولي كدا هواية، إنما عندنا الوضع مختلف، عندنا مابينشنوش، عندنا بيغزوا على طول.

وضحكت أم حسين.

فكرت حورية في نفسها أن بنت الكلب هذه مصرة على كسب النقاش لصالحها بأي شكل. أما هي، لأن المخدرات استنزفت قدرتها على التفكير، فلم تستطع الرد. سكتت وبان على ملامحها أثر الهزيمة، ثم قامت وقالت:

-خلاص يا أم حسين. أنا خلال يومين إن شاء الله هشوف موضوع جوزك دا وهكلمك على طول، بس ادعيلي الموضوع يمشي كويس.

لم تكذب حورية في قصة تعلمها النشان، باستثناء أن هذا لم يكن يحدث في نادي الصيد، وإنما في الصحراء.

هناك، إلى عمق الصحراء، على أطراف القاهرة، أخذها أبوها. أعطاها مسدسه الميري وطير طبقًا بلاستيكيًّا في الهواء وقال لها نشني عليه. وضربت مرتين وفشلت وقالت له أعطني هدفًا واقفًا يا بابا، فقال لها لا، احسبي سرعة الرياح وسرعة الطبق واضربي بقلبك ولا تفكري كثيرًا. وضربت وفشلت، وبدلت وضع المسدس من يدها اليمنى ليدها اليسرى، فقال لها وحدي التكنيك يا حرنكش. وفشلت، وفشلت في المرة التالية، وفشلت في المرة الثالثة، ويئس الأب ونسي الموضوع ولكن عم ناجي لم ييأس ولم ينسَ. قال لأبيها صلي عالنبي يا اسماعيل وإذا بدأت شيئًا فأكمله. وكان يخاطبه في لقاءاتهما الشخصية بدون ألقاب رغم اختلاف الرتبة، لأنهما كانا أكثر من أخين. وقال له الأب خذها، آهي عندك أهي، خذها ووريني.

وأخذها عم ناجي يوميًّا إلى النقطة نفسها، في الصحراء التي ستصبح فيما بعد مدينة ٦ أكتوبر. وأصر على أن يعلمها ولم ييأس. حتى عاد بها إلى المقدم إسماعيل وقال له، أهي بنتك، وهذا الطبق المكسور قطعتين هي من كسرته. وبنتك ستصبح أحسن نشانجية في العائلة، أحسن منك أنت نفسك، وأنا لم أفعل شيئًا سوى إني

وحدت التكنيك. كان مثل عم وأب وصديق لها، وأحبته الطفلة بشدة.

رغم كل هذا لم يتكلما من زمان جدًّا، منذ طفولتها، من ٣٠ سنة ربما. والآن تقرر الكلام معه أخيرًا، تستجمع شجاعتها. الآن بعد أن بحثت عن رقمه ووجدته، كلمته أخيرًا. كانت مترددة، وارتبكت عندما رد عليها طفل. قالت:

ـ السلام عليكم. أستاذ ناجي عبيد موجود من فضلك؟

وجاء عم ناجي على الخط الثاني، لم يعرفها في الأول.

ـ سلامو عليكم، ازيك يا عم ناجي؟ أنا حورية.

ـ حورية!

ـ حورية بنت إسماعيل عبد المولى.

ـ حرنكش؟!

قالت:

ـ أيوه.

ـ إزيك يا حرنكش، دا إيه المكالمة الحلوة دي؟

ـ وحشتني أوي وعاوزاك في حاجة، وعاوزة اشوفك.

ـ أقولك حاجة؟ انتي فين دلوقتي؟

ـ أنا في البيت يا عم ناجي.

ـ جنبك مترو؟

قالت:

ـ أيوه.

ـ طب خدي بعضك وتعالي دلوقتي نتغدى سوا ونخلص الموضوع دا.

لم ترد، فحلف عليها:

ـ هه؟ مش عاوزة؟ أقسملك بالله لو جيتي دلوقتي لاخلصلك الموضوع في التو مهما يكون هو إيه.

وسكت قليلًا ثم قال:

ـ يا بت دانتي واحشاني أوي.

وقفت حرنكش في المترو باتجاه محطة المرج، محشورة وسط الرجال، تتسول الهواء من مروحة قديمة في السقف. نزلت وتمشت حتى البيت القديم كما تتذكره. رنت الجرس خارج الفيلَّا، ففتح لها ولد قادها إلى الجنينة، وهناك وجدت عم ناجي واقفًا بالفانلة واللباس يقصقص أوراق الشجر. لم يسمن، ما زال طويلًا ونحيلًا كما كان زمان، لا يزال «ناجي إبرة»، كما سمعت اسمه في وحدة عسكرية كان يخدم فيها، وازدادت مساحة البياض في شعره الذي خف قليلًا من الأمام، وشنبه ما زال عملاقًا كما هو، فقط ابيَّض تمامًا.

نظر إليها وشدها بعنف ليحضنها، وقادها بيده إلى قعدة كراسي بامبو في منتصف الجنينة وهو يحكي كم أنه حزن لموت أبيها، ولعن الشيطان الذي تسبب في كل هذه القطيعة بينهما، وهي من جانبها أخفت عنه كل الحكايات الأخرى. خافت أن تحكي. كانت تجلس أمامه كالبنوتة، يداها على حجرها كأنها تمثال. وهو كان يسند ركبته على الطاولة فتتوازى أمام عينيها ركبتاه بالشعر الأبيض المتناثر فيهما، استغربت شكله وجلسته بالكيلوت أمامها. وكانت مكسوفة ولكنها تعودت بعد قليل. فقط الألفاظ

لم تنسجم معها. أتى الولد الذي فتح لها فأعطاه عم ناجي ميتين جنيه وقال له، روح هاتلنا كيلو كباب وكفتة من عند مصيلحي، قله عشان الظابط ناجي، وقله يجيب كل السلطات اللي عنده، ولو حاجة طلعت مش كويسة هانيكه، وقل لاخوك الخول لما يشخ يشخ جوا الكبانيه، جوا عين الكبانيه، مش يزروطلي الجدار من جوا. انصدمت حورية ولكنها تذكرت أن هذا عم ناجي. حتى عندما قام ليطرطر بين الأشجار وعاد وهو يلعب في بتاعه ولمحت بوضوح بقعة مبتلة في لباسه، حتى هنا ابتسمت في نفسها وقالت إن هذا عم ناجي.

وانتي بتعملي ايه دلوقتي. قالت إنها تسكن وحدها في وسط البلد. وسط البلد عند التحرير يعني؟ قالت أيوه، فأمرها بصوت قاطع أن تترك هذه المنطقة حالًا، هي امرأة تسكن وحدها وهذه المنطقة لم تعد آمنة، يعني يا بت الكلب انا ما صدقت شفتك النهارده بعد أكتر من عشرين سنة، مش عاوز اسمع خبرك تاني يوم الصبح زي ابوكي. كفاية علينا البلاوي اللي بنسمعها كل يوم. خدي بعضك وانقلي على أي حتة عدلة. وهزت رأسها لتجاريه ولكنه عبس. سألها بعد قليل، وانتي بتنزلي مظاهرات بقى على كدا؟ هزت رأسها نفيًا وقالت إنها لا تحب المظاهرات.

أتى الأكل فنادى امرأة عجوزًا من داخل الفيلًا لتحضِّر السفرة. حكى لها أنه يعتمد في حياته على مجموعة من عرب غلابة يعيشون هنا في المنطقة، ونادى على الولد الصغير وأخيه والمرأة العجوز ليأكلوا معهما. أكلوا جميعًا وهي مرتبكة بسبب وجود الآخرين، وسألت نفسها هل تحكي له عن موت ابنها أم لا، وفي النهاية انتصرت الإنسانة المتحفظة بداخلها، اكتفت بالقول إنها تبهدلت بعض الشيء الفترة السابقة.

بعد الأكل أتى الشاي، وأثناءه أخرجت ورقة فيها اسم زوج أم حسين والتاريخ الذي أخذته الشرطة فيه وشرحت القصة، فكلم شخصًا في التلفون وطلب منه أن يستعلم عن هذا الشخص، وقال لها في النهاية إنه سيكلمها في اليوم التالي ليأتي لها بكل المعلومات، ولو ربنا شاء إن شاء الله خلال اسبوعين بالكتير الراجل دا راجع. بس على شرط مايبقاش متاخد ف قضية كبيرة ولا مسجل خطر. هو يبقالك ايه بقى؟

قالت إنها لا تعرفه وإنما هي خدمة لواحدة ست غلبانة. فاندهش قليلًا وسألها، يعني خدمة لوجه الله؟ وارتبكت وقالت إنها تريد فقط مساعدة الست ووجدتها فرصة لتتصل به، فانخفض صوته وهو يقول لها، ربنا يباركلك يا بنتي. وقام وعاد بعد أن ارتدى جلابية صيفية، لأن الليل كان بدأ يليل والجو أصبح أبرد، ومنحها ظرفًا وقال إن فيه قرشين علشان لو احتاجت أي حاجة. اتخضت قليلًا ثم رفضت رفضًا قاطعًا، هي لم تأتِ من أجل هذا، وبالنسبة إلى الفلوس فهي مستورة والحمد لله، وهي تملك قرشين كويسين في البنك وستبيع شقتها أيضًا ومقابلها ستحصل على قرشين كمان، وإن كانت عندها مشكلة فهي حظها القليل في الدنيا. انت بس ادعيلي يا عم ناجي وكله هيحلو.

١٧

عندما قال عم ناجي لحرنكش، الله يباركلك يا بنتي، أحست بشيء قوي يغمرها، شيء كأنه رضا الله. هذا الإحساس لا يُعرَف

ولا يوصف، فقط يُحس. لازمها الإحساس وهي في المترو عائدة إلى وسط البلد. في المترو جلست جنب الشباك وكلمت أم حسين لتخبرها أن الشخص المعرفة الذي كلمتها عنه وعد خيرًا، وإن الموضوع سينحل خلال أسبوعين بالكثير. ثم ركنت رأسها على الشباك وفكرت في نفسها كامرأة ظلمتها الدنيا من جميع النواحي، ورغم هذا قامت بمشوار طويل عريض لتقدم خدمة من أجل ست غلبانة لا تعني لها شيئًا تقريبًا، وذلك لأن الإنسان مهما حدث له، مهما انظلم في الدنيا، فعليه ألا يتخلى عن حب الخير، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعل لوجوده كإنسان معنى، وليس المعنى فحسب، ولكن فعل الخير يجعل الإنسان أكثر سعادة أيضًا، فحتى المال والأولاد لا يمنحون الإنسان لحظة الزهو هذه التي لا تقدر بها كنوز الدنيا. وكان صوت بهاء سلطان ينساب من موبايل أحدهم في المترو، أنا زعلتك في حاجة، طب إيه يا حبيبي هي، بتداري عينك ليه، لما بتيجي في عينيا. وتأثرت لدرجة أنها ارتجفت وأحست بشجن قوي يعصف بها، وفكرت أنها لو كانت وحدها كانت لتبكي بقوة. وتبدل زهوها بنفسها خوفًا، بالتحديد خوفًا من أن تنجرف إلى حدود الكفر، لأنها تعرف أن الله يحب التواضع والمتواضعين، وفكرت أنها لو كانت كويسة هكذا كما تتصور ما كان الله ليعاقبها هكذا.

ولكن هناك شيئًا اسمه ابتلاء يا حرنكش، والابتلاء يتطلب كثيرًا من الصبر. صبر ثم صبر ثم صبر بدون سؤال عن النتيجة، ومن يسأل عن النتيجة يُدفع دفعًا خارج السباق. ارتبكت حرنكش وهنَّج عقلها لدقيقتين، وتمنت لو كانت وحدها لتحسم هذا الأمر في عقلها.

ولكن حرنكش لديها دائمًا الحل لتكون وحدها. نزلت في محطة السيدة، وتمشت حتى الجامع ودخلت.

بالداخل تعلقت بالشبك المعدني المبلول بالمسك، خاطبت السيدة مباشرة، قالت لها يا أم العواجز أخبريني، يا صادقة يا صديقة يا مشيرة يا بنت بنت النبي، إن كان عقابًا من الله أتحمله وأضع عنقي على أستارك، وإن كان ابتلاء أضع جزمة في بقي وأصبر. وكانت السيدة زينب في فستان زفافها مكللة بالورد وتحيطها رائحة المسك والسجاجيد والجزم، واللون الأخضر يشع من شبك المقام. وقالت يا ست ارحميني، قولي لي إن الله ليس غاضبًا مني، قولي إن هذا كله صدفة، كله من الألف إلى الياء، إنه ابتلاء وسأمر منه وسيراضيني الله كثيرًا.

وخرجت حرنكش ومشت باتجاه وسط البلد، بحثت عن السماعات في شنطتها فلم تجدها فقالت كدا أحسن، لم تكن تريد أن تشتت نفسها تحت وطأة أغان مختلفة، وهذا بالتحديد لأن أغنية بهاء سلطان كانت هي ما يحتل ذهنها، وكانت تدندنها وتنوع في دندنتها وإطالة الكلمات أو تقصيرها، مع خط من الموسيقى العلقة الحزينة يدور داخل رأسها، أنا ضايقتك؟ طب قلت حاجة ماتتقالشي؟ مش ماشي ولا سايبك تمشي، قبل اما افهم فيه ايه. كانت منتشية بفعل الاستغفار والندم والشجن ودعاء الله.

كانت أول سيارة تقع عيناها على نمرها تحمل نمرة من ثلاثة أحرف، لطف. واعتبرت هذه بشارتها لتلك الليلة، رد الله عليها، اللطف. الطف بنا يا لطيف، كن لنا لطيفًا واجعلنا لطفاء نسري في هواء ونذوب في هواء ولا نعود نميز نفسنا. وصعدت إلى غرفتها في

الفندق ونامت وحلمت بنفسها تؤدي امتحانًا أخيرًا في المدرسة، ويتحول طلابها في المدرسة إلى أساتذة يشرفون عليها وهي تحل الأسئلة، وتتبدل عليها وجوه طلابها، وتتبدل عليها الأماكن وهي جالسة تحل. وصحت وتواصل بداخلها أثر الحلم ساعتين فتحت فيهما الشباك ونظرت إلى تمثال طلعت حرب وقالت ربنا يلطف بينا.

١٨

لم يتأخر اللطف على الأرض، كلمتها أم حسين بعد ساعتين وقالت لها إن زوجها رجع في الرابعة فجرًا، سمعت خبطًا على الباب وفتحت فرأته ولم تصدق نفسها. وقررت أن أول شيء ستفعله صباحًا هو الاتصال بها، ربنا يخليكي يا مدام، انتي والله خدمتيني خدمة كبيرة أوي وربنا وحده اللي عالم انتي عملتي ايه وهو اللي يعرف يكافئك، بس جميلك دا على راسي والله يا مدام حورية والله.

ارتبكت حورية بشدة من هذا الإطراء، وحاولت إيقاف الست عن طريق ربنا يخليكي، أنا معملتش حاجة، ماتقوليش كدا بس، ولكن داخلها كان ممتلئًا بزهو عملاق، والزهو كان يكبر ويحفر علاماته على وجهها أيضًا. وعندما أغلقت التلفون فكرت أنها لا تريد الجلوس في غرفتها وإنما أن ترى هند لتحكي لها عن معجزتها الصغيرة هذه. كلمتها وقالت لها هند إنها في قهوة في القصر العيني. خلاص عشر دقايق البس واجيلك.

مشت تترقص في الشارع، ووصلت إلى مكان السيارة التي كان مكتوبًا عليها «لطف» بالأمس ولم تجدها، فابتسمت وأحنت رأسها أمام مكانها الشاغر ورفعت له إبهامها تقديرًا وقالت، شكرًا، أديتي مهمتك على أكمل وجه. وواصلت المشي. وصلت ووجدت صاحبتها جالسة، بيدها ليّ الشيشة وحولها ثلاثة شباب وبنتان. ارتبكت لأنها كانت ظنتها وحدها، وجلست وطلبت شايًا.

كانت وجوه الشباب غريبة، تشبه الوجوه التي غزت وسط البلد، والقاهرة كلها عمومًا، في هذا العام. بنت محجبة تضع حلقًا في مناخيرها، وبنت غير محجبة بجينز وتي شيرت، والشباب واحد بنظارة وآخر بذيل حصان وواحد شعره كبير وكنيش مثل كعكة على رأسه، ومقعد آخر محجوز لجيتار في غطائه. ارتبكت حورية أيضًا لأنها فكرت أنها بجلستها معهم ستكون أكبرهم سنًا. هند نفسها تبدو أكبر منهم. الزمن يمر سريعًا ويأتي ناس ويذهب ناس طول الوقت.

تحدثوا عن تفجير الكنائس، وعن مظاهرات للمسيحيين عند ماسبيرو، وشاركتهم هند النقاش بمنتهى الحماس، ثم قام الشاب بذيل الحصان وأمسك الجيتار وقال إنه سينصرف. سأله آخر إن كان سيدفع حسابه، فقال إن عنده حساب في هذه القهوة، وأشار إلى القهوجي قائلًا، كله في اللوح المحفوظ ماتقلقوش.

أثار التعليق الأخير بالتحديد مناقشة حول اللوح المحفوظ وأين هو محفوظ، وضحك الشاب أبو نظارة وقال، هو عمل كام طبعة لحد دلوقتي اللوح المحفوظ؟ فضحكوا جميعًا، وضحكت البنتان، وكركعت هند بالضحك أيضًا، وكانت حورية تراقبها بطرف عينيها.

قال الشاب بشعر كالكعكة إن اللوح المحفوظ هذا هو أكبر داتا بيز في تاريخ البشرية، وقال أبو نظارة إن جوجل تفوق عليه وسرق الفكرة من الله. فرد أبو شعر كالكعكة إن الله سيرفع دعوى على جوجل. وكانوا يتكلمون ويضحكون ويضربون أكفهم بأكف بعض تشجيعًا على النكتة الحلوة. وانفجرت حورية. كانت أول مرة تتكلم منذ بداية القعدة، نظرت مباشرة في عين الشاب ذي الكعكة وسألته: إنت كدا ظريف مثلًا؟

كانت متشنجة والغضب يطفح على وجهها، ولم يرحمها أبو نظارة وطبطب على كتفها وقال، روقي بس كدا وهدي أعصابك. فانتفضت من أثر لمسته ووقفت. قالت إن فيه حاجات مايصحش الهزار فيها. وعلى فكرة، انت كدا دمك مش خفيف إطلاقًا. أمسكت هند بيدها وقالت لها، طب اقعدي ماتتضايقيش دول بيهزروا. فنظرت إليها حورية وقالت، أنا آسفة يا هند. أنا كنت فاكراكي لوحدك وكنت جاية على الأساس دا، ابقى اكلمك ف وقت تاني بقى. ومشت بسرعة وكوب الشاي أمامها ما زال ملآن، وقبل أن تكمل مئة متر سمعت هند تناديها من خلفها، نظرت ووجدتها تجري لتلحق بها، خلاص يا ستي ماتزعليش، أنا هزأتهم جامد وسبتهم وهنقعد سوا. وقرصتها في وسطها وقالت، ايه بقى اللي مزعلَّ الحنكوش؟ لا والله يا نودا مكنتش زعلانة، بالعكس دانا جاية ومزاجي رايق أوي وقلت اقعد معاكي واحكيلك، بس هما حرقوا دمي جامد، بس انا بقيت كويسة دلوقتي خلاص. وضحكت.

تمشتا معًا وحكت لها حرنكش قصة عم ناجي وأم حسين

وزوجها، وقالت إنها مبسوطة لأنها شعرت أخيرًا أن الله قريب منها، وإنها حلمت حلمًا قد يكون تفسيره إن ما حدث معها ابتلاء كبير من الله، قولي لي يا هند هو انتي مؤمنة بالله؟ ابتسمت هند ابتسامة خفيفة وقالت أيوه ولم تضف. ومرت دقيقة وقالت هند، ما تيجي نصلي لنا ركعتين في السيدة؟ انا لسه كنت هناك امبارح يا هند. معلش والنبي، أنا حاسة إني عاوزة أصلي أوي. وابتسمت حرنكش وهزت كتفيها، وماله.

في الطريق ذكرتها هند بالمرة الأولى التي صلتا فيها معًا هناك. كان هذا قبل الحادثة، وكانت حرنكش تشكو لها من علاقتها بكمال. وانا كنت بسمعك وبفكر ف حاجة تانية خالص. سألتها حورية ما هي، فأشارت إلى شفتيها وقالت، كنت بفكر ف جوز الشفايف العسل دول، وارتبكت حورية، بعد قليل قالت هند، آنا آسفة يا حرنكش، ماتزعليش مني. وقالت حرنكش، أبدًا يا هند، إنتي أطيب واحدة أنا عرفتها من زمان، وعمرك ما ضايقتي حد، أنا باقول ربنا يريح بالك بس.

في الجامع جلستا على الأرض، أمسكت هند بالمصحف ومضت تقرأ فيه. أما حورية فصلت ركعتين وارتكنت للجدار وغرقت داخل نفسها. فكرت في هند، وفكرت إن لمسات هند أيضًا تثيرها، وإن هند لو كانت ذكرًا كان الأمر ليصبح أفضل بالتأكيد، ثم إن هند مؤمنة فعلًا، تحب الله وتحب الخير ولا تؤذي أحدًا ولا تتوقف عن الابتسام، لأنها نظيفة من جوا، وفكرت أنها تتخيل هند دائمًا، دائمًا أبدًا، على هيئة امرأة اكتشفت لتوها أنها لن تتمكن من الخلفة، ويطلقها زوجها وتنزل بشعرها البرتقالي وفستانها الأصفر وتقول للناس أصلي

انطلقت النهارده وتضحك. هذه هي هند بالنسبة إليها، في مقابلها هي، الحزينة الكئيبة التي تنام في الشارع بعباءة سوداء ولا تتوقف عن الشكوى من حظها. وبدأ زهوها بنفسها، الذي تعملق من الأمس إلى اليوم، يتضاءل مرة ثانية، ونظرت إلى السقف وسألت الله، يعني انت راضي عني يا رب؟ وسمعت امرأة بجانبها تتكلم في التلفون وتقول بصوت عالٍ ومفاجئ، أيوه، أيوه، ستين مرة أقول أيوه. وابتسمت مرة أخرى. شكرًا يا رب.

لم تحك لهند عن هذه العلامة الأخيرة التي تلقتها من الله، فكرت قليلًا ثم قررت أن تسألها عن اللوح المحفوظ، هو فيه كل حاجة مكتوبة عن الإنسان صح؟ يعني كل الحاجات اللي الواحد بيعملها وبيقولها وبيفكر فيها. قالت هند إنها تظن هذا. ففكرت حرنكش أنه بالتأكيد كتاب ضخم فعلًا كما قال الشباب، وتساءلت هل الأشياء مكتوبة فيه بشكل معلوماتي صرف، أم أن هناك تعليقات عليها، وهل هناك كلمات مكتوبة بخط أكثر بروزًا من غيرها، وهل فصول اللوح المحفوظ مقسمة زمنيًّا أم وفق موضوعات حياة الإنسان، ثم انتهت في تفكيرها إلى أن قراءة اللوح المحفوظ ستكون أمرًا مثيرًا بلا شك.

ولأن حرنكش لم تصل إلى إجابة عن أسئلتها المعلقة، فقد قررت أن تسأل جوجل. عادت إلى غرفتها في الفندق وبحثت على الإنترنت عن اللوح المحفوظ، وكانت أول نتيجة وجدتها هي «اللوح المحفوظ pdf»، وضحكت حتى شخرت من فرط الضحك، وفتحت النتيجة لتجد أنه كتاب عن اللوح المحفوظ وليس اللوح المحفوظ نفسه، فاستغفرت ربها على تسرعها وعلى ضحكها وعلى أنها طاوعت،

ولو في أعمق نقطة من أعماق أعماقها، استظراف الشباب حول اللوح المحفوظ.

بدأ النوم يراودها، وفي نومها رأت الشيخ يقرأ بصوت جميل. البَيِّنَةُ. رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتلُو صُحُفًا مُطَهَّرةً. فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ، ورفعت إصبعها من على التختة وسألته، فيها اللوح المحفوظ يا شيخ؟ ففكر مليًّا ثم فتح تلفونه ليسأل جوجل. وانتهى الحلم ولم تعرف الإجابة.

١٩

بعد ثلاث محاولات أو أربع بعت الشقة أخيرًا. رجل عجوز بتي شيرت وشورت جاء مع زوجته لزيارة الشقة وأعجبتهما. سألني لماذا أريد بيعها فأجبت بصراحة إن حادثة وقعت لي فيها، وصحيح أني شهدت فيها أجمل أيام حياتي ولكن الحادثة كرهتني فيها، ولهذا فأنا أبيعها أرخص كثيرًا من أسعار الشقق في المنطقة. بعدها بأسبوع أودع الرجل المال في حسابي وذهبت معه إلى الشهر العقاري ووقعت له التنازل، وعدت إلى غرفتي في وسط البلد بعد أن قطعت علاقة استمرت طويلًا بالحي القاهري القديم والشعبي والأسطوري والمؤسس. خطوة جديدة إلى الخارج، هذا هو المهم.

في غرفة صغيرة مطلة على طلعت حرب عشت ستة أشهر، غرفة ليس فيها إلا سرير يتسع لشخص واحد وتلفزيون ودولاب صغير، وكاتل أعمل فيه النسكافيه. غرفة تدخلها الشمس كل صباح، ومفتوحة

على مظاهرات يومية وبلد يسير بسرعة نحو المجهول. كأني انتقلت من حياة قديمة، حياة مات فيها جميع من حولي، إلى حياة أرى فيها كل يوم ناسًا مختلفين يقولون كلامًا جديدًا. كانت توحشني شقة السيدة، أكيد كانت توحشني، حتى عيوبها كانت توحشني، حتى ظلامها ورطوبتها وحشراتها كانوا يوحشوني، وفي صيف القاهرة الخانق اشتقت إلى هذه الرطوبة والظلام، ولكن من يريد الشمس لا يشكو من الحر. أنا في النهاية امرأة أريد التخلص من ذاكرة قديمة وبناء حاضر جديد، حاضر مليء بالحر والعرق، صحيح، لكنه أيضًا مليء بالنور والحياة والمظاهرات التي كنت أتفرج عليها من شباك غرفتي.

لم أكذب على عم ناجي حين قلت له إني لا أحب المظاهرات، أنا لا أكذب، أنا فعلًا لا أحب المظاهرات، ولا أفهم كل الهوجة التي انتشرت في البلد فجأة، ولكني أعي بقوة أن كل شيء له عيوب ومميزات، المظاهرات مقرفة وعنيفة ومزعجة ولكنها وفرت لي فرصة لأن أذوب مشاكلي الشخصية في مشاكل البلد. وعلى الواحدة أن تعرف ما الذي تريده وتمضي فيه، حتى بعيوبه، لأن لا شيء خاليًا من العيوب. هكذا أفهم جملة أبي حين طلب مني توحيد التكنيك. هذا تفسيري للجملة.

وفكرة أخرى كنت أفكر فيها وقتها، في الحقيقة، في حقيقة الحقيقة، أنا لم أقطع علاقتي بالسيدة زينب. كنت أقويها ربما، أنا مقتنعة بالحكمة التي تقول امتلك ما شئت فسترحل كما جئت. الحقيقة أن أصل شرور العالم تكمن في الملكية، هكذا آمنت، عندما يمتلك الإنسان مسمارًا فإنه يخاف بمقدار مسمار، وأنا كنت أمتلك

شقة وأخاف بمقدار شقة، وبعدها تحررت بمقدار شقة. أردت أن أكون درويشة، ألبس أخضر وأمسك سبحة وأتوه في الأرض ولا يكسر عيني أحد. والدرويشة لا تملك شقة ولا عربية، هل تملك حسابًا في البنك؟ لا أعرف، ولكن درويشة بفلوس سائبة أحسن من درويشة بشقة، هكذا أفهمها.

هكذا أفهمها أصلًا لأسباب غير عقلانية، يعني لأسباب لا أستطيع شرحها بالمنطق. مثلًا، في نفس اليوم الذي بعت فيه الشقة نمت ورأيت محمود. كان يركب المرجيحة، ويطير بها عاليًا ويصيح أوووووه كلما اقترب من السماء، وأنا أضحك وعيناي تدمعان من الضحك، إلى أن ينقذف فجأة في قلب السماء ويختفي، وأذهب للبحث عنه في غرف تشبه غرف خلع الملابس، وأسأل كل من يمر أمامي إن كان رآه، وفي إحدى الغرف أجده وهو يلبس الجزمة ويقول لي، ياللا يا مامي البسي هنتأخر. وأذهب لأحضنه فيجري مني ويقول، مفيش وقت يا مامي عشان خاطري. ثم يمشي ويتركني.

لم يكن هذا أول حلم لي بمحمود، رأيته بعد أن مات ثلاث أو أربع مرات، وفي كل المرات يكون مثل وحش صغير، وأنا لا أعرف ما معنى الوحش الصغير، ولكن نظارته تصبح نظارة كعب كوباية، سميكة جدًّا، وعيناه تتسعان بداخل عدستيهما مثل عيني الوحش الصغير. كان هذا في الأول، ولكن بعد أن بعت الشقة رأيته طفلًا جميلًا، شابًّا يتحمل المسؤولية، رجلًا ناضجًا يرعاني ويهتم بي.

بلا شك كان هناك تغير للأفضل حدث معي. محمود مثلي، يكره الملكية الشخصية ويحب الدرويشة، يكره حورية ويحب حرنكش.

٢٠

كلمني عاطف أخو كمال وقال لي إن جلسة المحكمة التي سنتسلم فيها إعلام الوراثة تحددت بعد أسبوع. المرحوم ترك مئتي ألف جنيه في البنك وشقة المنيل. وهناك أنا وأمه وابنه. قلت له إني لا أريد شيئًا. الحادث كان مؤلمًا وهذا يكفيني، فطلب مني أن نتقابل. واقترح مطعمًا في المقطم حيث يعمل، وقلت ماشي.

قشعرت عندما رأيته في المطعم. تذكرت أيامًا لا أريد تذكرها، تذكرت إهانة وإذلالًا تعرضت لهما عنده في الشقة، ولكنه سلم عليَّ بدفء، وقادني إلى الكرسي وبدأ في الكلام قبل أن نجلس، أنا معرفش أقول لك إيه يا مدام حورية. الوضع صعب والحادثة كانت صعبة. بس اللي اقدر اقوله لك ان دا طبع كمال. جلسنا على الطاولة، أخرج موبايله وسلسلة مفاتيحه وواصل الكلام، واحنا صغيرين، كنت انا بتاع تلاتين سنة وهو عشرين، اتخانق معايا بالإيد، مااعرفش ايه اللي حصل بس هو كان بيغير مني شوية، كنت اخوه الكبير وكان شايفني ناجح وبشتغل كويس وعندي عيادة فقرر انه يغير مني، مسك السكينة مرة واتخانق معايا، كان عصبي جدًّا، عورني في كتفي، واحنا قاطعناه أسبوعين وبعدين الموضوع اتنسى، وانا كمان اتجوزت ورحت سكنت في الدقي وبعدت عنهم، هو يمكن بعد ما مراته ماتت هدي شوية، ربنا هداه وهدي، بس الحادثة الأخيرة دي خلتني أقول لا. أنا آسف جدًّا لكل اللي حصلك، ولو فيه تعويض ينفع يحصل ماكنتش أتردد، لكن إنك تخسري ابنك دي حاجة مش سهلة، أنا عندي ولاد وعارف.

كان يتكلم بنبرة خشبية ولا مشاعر فيها، وكل كلامه كان واضحًا تمامًا، بلا صوت أو مقطع ضائعين، كان يتكلم عن الموت كأنه يتكلم عن الكورة. فقط لم يكن ينظر إليَّ، كانت عيناه في الأرض، وفي نصف الكلام أخرج منديلًا ومسح أنفه. كان كلامه هو أصدق شيء أسمعه في حياتي.

المهم انا مش جاي علشان احكيلك على دا. جاي اقول لك على موضوع الورث. انتي مينفعش تقولي مش عاوزة نصيبي، مينفعش لإن دا حقك، ومينفعش لإن دا أقل حاجة ممكن نديهالك. صدقي أو ماتصدقيش، أنا فكرت كتير ف الموضوع دا بعد الحادثة، بصراحة مش أنا لوحدي، أنا وشاهندة مراتي قعدنا نفكر ازاي ممكن نعوضك عن اللي حصل، وماعملناش حاجة، ربما تكاسل أو تباطؤ، وكمان ماعرفناش إيه اللي ممكن يعوض أم عن خسارة ابنها. فكل اللي بطلبه منك دلوقتي انك ماتجيش تقولي مش عاوزة نصيبي من الورث.

أتى الويتر فتوقف عن الكلام، ظل يراقبه وهو يعطينا المنيو ويصب ماء من زجاجة كبيرة في كوبين. عندما مشى الويتر قال إنه يرجو مني أن أتفهم الوضع جيدًا، وضع أمه بالتحديد.

خطرت ملامح أمه على بالي فارتعشتُ، وهو لم يلاحظ وأكمل، دلوقتي كمال اتوفى وعنده ولد صغير ومراته اللي هي انتي، وأمه لسه عايشة. وماكدبش عليكي إن ماما، أمي، سألتني ازاي ممكن نستثنيكي من الورث. سألتني كدا بس مش بشكل مباشر وأنا شخطت فيها. هي بالنسبالها ان مش عدل واحدة تتجوز واحد يومين وبعدين يبقالها نصيب من الورث، وانا قلت لها ان مش عدل واحدة تتجوز

واحد يومين وبسبب دا ابنها يضيع منها، أنا بكلمك بمنتهى الأمانة، هي بتفكر تديكي نصيبك من الفلوس وبس، مش الشقة، معرفش عشان إيه، الله أعلم، بس ف كل الأحوال أنا واقفلها جامد في الموضوع دا. انتي حقك يتحفظ حسب القانون والشرع، وخلاص يا دار ما دخلك شر.

يا بنت الكلب، قلت في سري وأنا أضع قناعًا محايدًا على وجهي. كانت عيناه معلقتين بالمنيو ويتكلم وهو ينظر إليه. سألته ماذا سيطلب. اختار لاتيه وأنا طلبت شايًا أخضر.

أتت الطلبات وشربنا، ودخنت سيجارة. ويبدو أنه فوجئ بمنظري وأنا أدخن ولكن لم يعلق، وكانت هناك فتحة صغيرة في بلوزتي الزرقاء، وكان يسترق النظر لصدري ولم يعلق. كان جنتلمان حقيقيًّا. قلت لنفسي، هذه عائلة من الجنتلمانات. سألته عن هيثم فقال إنه كويس، نجح في امتحانات السنة ولكن بدرجات مش كويسة، هو يتعافى من الصدمة على العموم. ويقضي نصف الوقت معهم ونصف الوقت مع جدته، أم كمال، وعلى العموم، هيثم أصبح من شباب الثورة، نزل مع أصدقاء له، أطفال مثله، في التحرير، ويتكلم الآن عن النظام والعدالة وكل هذا الكلام. وضحك، وسألني عن أخباري فحكيت له أني أخذت إجازة من الشغل وبعت شقتي لأن تجربة الموت أثرت عليَّ، الإنسان هيستفيد إيه لما يبقى مكتوب باسمه شقة وعمارة، يمكن لو عنده ولاد هيستفيد، بس أنا اقتنعت إن الإنسان مش عاوز غير شوية فلوس م البنك ياكل ويشرب بيها وخلاص. اقتنعت إن الكفن مالوش جيوب، واديك شايف، حتى الورث بيعمل مشاكل.

كان يهز رأسه وأنا أحدثه عن فلسفتي ولا يقول إلا صحيح، صحيح، وعند الجملة الأخيرة قال إنه بالمناسبة، ماما عاوزاكي تروحيلها، لما اتخانقنا أنا وهي قالت خلاص خليها تجيلي ونتكلم سوا. عاوزاني علشان تتكلم معايا في إيه يعني؟ علمي علمك والله، ممكن تكون عاوزة تسم بدنك بكلمتين. اسمعيهم واستحملي أرجوكي، بس ماتتنازليش عن حقك. توعديني يا حورية؟ هززت رأسي وأنا أبتسم.

طيب، رمضان داخل بعد تلات تيام، لازم تيجي تفطري معانا في يوم. هيثم ماوحشكيش؟ قلت له إن هيثم واحشني، ولكن أنا عارفة إنك ستعذرني، أنا أحاول أن أنسى ما حدث. قال إن هذا كلام فارغ، نحن أهل وكنا أهلًا وعلينا السعي لأن نظل أهلًا. ابتسم قلبي بامتنان وأنا أقول له حاضر.

ونحن نمشي قلت له إني أريد أن أخبره بشيء، هو يتكلم عن خسارتي لابني وكأنها الخسارة الوحيدة، ولكنه لا يعلم أن كمال أيضًا يوحشني بشدة، يمكن يكون فقدان الابن أصعب من فقدان الزوج، ولكن الزوج، خاصة لو كان كمال، لا يمكن تعويضه أيضًا، أنا عمري ما شفت من كمال حاجة وحشة، ودا حاجة نادرة الأيام دي، وصدقني أو ماتصدقنيش، أنا مابقولش غير الله يباركله علشان راحة البال اللي اداهاني لما كنت معاه.

قبل أن نودع بعضنا قلت له إن فيه من كمال. كمال أيضًا حتى عندما يتكلم في مواضيع مؤثرة كان يتكلم بصوت عال. وابتسم عاطف وقال، طبعًا، مش اخوات؟ وطبطب على كتفي وافترقنا.

أخذت أحاول تذكر أم كمال عندما روحت، ولم أتذكر إلا امرأة اسمها عدالة على كرسي بعجل لا تحبني ولا تحب ابني. وصليت لله وقلت له إني سأذهب إليها في البيت، ولكن رقق قلبها عليَّ، أنا تعبانة ولا أحتمل كلامًا يحرق الدم، وأنت من وعدتني باللطف وأنا لم أطلب شيئًا، وأنا أريد أن أنهي هذا الموضوع وليعش كل واحد في سلام. جمَّد الله قلبي فكلمتها في التلفون وقلت إنها واحشاني وأريد أن أراها فقالت تعالي يا حبيبتي، أنا في البيت النهارده. وكلمت هند وقلت لها إني ذاهبة إلى خناقة صغيرة مع حماتي، وادعيلي ارجع عايشة. صحيح ضحكنا ولكني، بيني وبين نفسي، كنت ميتة من القلق.

رننت جرس شقة الضاهر ففتحت لي طنط عدالة. تحركت من الصالة إلى الباب على كرسيها المتحرك وأدارت مقبض الباب بعصا قصيرة ركنتها على الباب بعد أن فتحت وعادت إلى الصالة بالكرسي. جلست أنا مرتبكة، ازيك يا طنط، اهو عايشين. ولكن السياسة ساعدتنا على فتح حوار نتجاوز به لحظات الصمت المعوق هذه.

كانت لها آراء شديدة القسوة في الثورة. كانت ترى أن من قام بها هم مجموعة من الصيع والنصابين، وإنهم ضحكوا على هيثم واستدرجوه معهم، ولا دين ولا أدب ولا أخلاق ولا حاجة خالص، وبيقرفونا عالفاضي، أنا ديك النهار شفت مظاهرة تحت البيت، وبصولي وقعدوا يزعقوا، قمت جبت شوية ميه وكبيتها عليهم.

وضحكت معها وأنا أتخيل المتظاهرين المبلولين بالماء. دا حتى في رمضان عاوزين يعملوا مظاهرات في التحرير، حتى الشهر بتاع ربنا هيكرهونا فيه. دول لو كانوا يعرفوا يعني إيه ربنا ماكانوش يعملوا كدا، دول ماعندهمش إلا أستغفر الله العظيم رب واحد، وفركت أصابعها دلالة على الفلوس.

لاحظت ارتعاشة أصابعها عندما فركتها، وصعبت عليَّ، قلت لنفسي هذه امرأة مقعدة ووحيدة ومات ابنها، سألتها إن كانت لا تحب أن تستعين بواحدة ست تساعدها، كنت أسألها بشكل بريء والله، لأنها صعبت عليَّ جدًّا والله، فقالت إنها تحب أن تعتمد على نفسها، ونظرت إليَّ وكأنها تتهمني بشيء لا أعرفه.

ساد صمت متكهرب لمدة دقيقة ثم سألتني مفيش أخبار حلوة، أخبار حلوة زي إيه؟ قالت إنها تقصد زواجًا جديدًا، إيه هتقعدي كدا من غير جواز؟ ولمحت أثر ابتسامة ساخرة على شفتيها فجاريتها وقلت لها، ربنا يصبرنا يا طنط، وضحكتُ وكنت أحاول تلطيف الجو ولكنها لم تستقبل هذا جيدًا. آه يصبرك ياختي مش عاوزين نلبس اسود تاني، وكانت تبتسم ابتسامة مسمومة. تغاضيت عن التلميح فأضافت، وانتي جاية دلوقتي تقولي عاوزة الشقة مش كدا؟ بطلي جشع يا حورية، وكررتها مرة ثانية وهي تضيق عينيها، بطلي جشع يا حورية وخليكي قنوعة.

كنت أريد أن أقول لها إني لا أريد ورثًا ولا خرا، ولكن لم أقل. فقط همستُ بصوت مخنوق، ابنك موِّت ابني يا طنط، وانتي أول حاجة تكلميني عليها الورث؟

شاطت طنط، انفجرت، لا يا حبيبتي، انا عاوزاكي تفهمي حاجة كويس خالص، أنا أمة لا إله إلا الله قالت لي وشك وحش على الراجل بس انا قلتلهم لا، دي حاجة بتاعة ربنا، بس انتي كمان قبل ما تقولي الكلمة احسبي رايحة فين، ابنك دا كان حلو وانا حبيته، وأي حد يقول غير كدا يبقى كداب ابن كلب، انتي اللي ماحبيتيهوش، واحدة زيك كانت لفت على دكاترة الدنيا عشان تعالجه، بلاش، تحطه في مدرسة حلوة يعرفوا يتعاملوا معاه. مش دا لو حصل ماكانش حصل اللي حصل؟ ونظرت لي طويلًا كأنها أفحمتني.

ساد صمت لدقيقة، ثم سألتني إن كنت أريد أن آكل. شكرتها بصوت خافت، ولكن الكلبة كانت تنصب لي شركًا. أضافت، عندنا شوية فراخ بعضمها إنما تستاهل بقك. فراخ بعضمها؟ إيه، مش كنتي بتوكلي ابنك عضم فراخ، صح دا ولا هتنكري؟ كنتي وكِّليه لحمة يا اختي ومتسيبيهوش كدا.

قبل هذه الكلمة كنت أحاول أن أكون محايدة، أسمع شتيمتي وأعتذر وأضع كلبًا ميتًا في فمي، ولكن عندما أتت على سيرة محمود بدأ الدم يغلي في نافوخي، أردت أن أقول لها شيئًا، شيئًا مهينًا وجارحًا من حرنكش القديمة التي لا تعرف من هي، شيئًا مجنونًا ومفاجئًا يجعلها قزمة أمامي. قمت إلى المطبخ وأتيت بكوب ماء وشربت شفطتين، وقلت لها، عارفة يا طنط، انتي وسخة أوي.

نظرت إليَّ ولكن كلامي كان أسرع من رد فعلها، هافهِّمك ليه، دلوقتي ابنك اللي انتي زعلانة انه مات، احمدي ربنا انه مات، عشان لو كان عايش كان هيبقى زمانه مرمي ف السجن، وغير كدا، عارفة

لو ماكانش موّت ابني، لو ماكانش كمال ابنك موّت محمود ابني، كان زمانه موتك انتي، عشان أنا عمري ما شفت حد بيكره أمه زي ما ابنك كان بيكرهك. انتي كسمك يا طنط. كسمك أوي فعلًا، كسمك بدرجة يستحيل تتخيليها.

وقمت باتجاهها، لا أعرف كيف واتتني الجرأة والله، الله يلهمنا دائمًا. لمحت الخوف في عينيها مني، وقلت، كمال كان بيقول لي انه كسمك، وكنت بقوله لأ فيقول لي وانتي ايش عرفك، انا بقول لك كسمها عشان هو كسمها، وانتي موّتي مراته الأولانية، عارفة ليه يا طنط، عشان انتي خرا، طبعك خرا، كل حاجة فيكي خرا. انتي ليه خليتيني اجيلك، عشان تسمي بدني صح؟ بس كدا، عشان تسمي بدني. كل همك ازاي تقرفي الناس اللي حواليكي، صح؟ وبتقولي لي أنا اللي وحشة؟ مين فينا اللي وحشة يا طنط؟ مين فينا اللي شرموطة؟

أمسكت بها وزقيتها من الكرسي حتى وقعت على الأرض، الكلبة القحبة، وعلى فكرة انا مش عاوزة الورث، مش مهم، أنا سايباهولك عشان انا مش وسخة، عشان انتي اللي وسخة، وانتي عندك ما يكفي من البجاحة عشان تقولي لي ان انا وسخة. وأخذت أبل أصابعي من كوب الماء وأنثره عليها، قومي كدا ودافعي عن نفسك ووريني هتعملي إيه، مش هتتحركي عارفة ليه، عشان انتي حشرة، عشان انتي مالكيش لازمة، وكانت تحاول الإمساك بذراع الكرسي وهي تغمغم وتقول أشياء غير مفهومة.

لم يكن الموضوع ليستمر إلى الأبد من ناحيتي، وأنا لم أكن أريده

أن يستمر إلى الأبد. أعدتها مرة ثانية إلى الكرسي، لإني نضيفة ودي حاجة عمرك ما هتفهميها. وكانت تنظر إلى عباءتها المبلولة بالماء، أنا همشي دلوقتي، وهكلم عاطف عشان امضي معاه التنازل عن الشقة، رمضان كريم يا طنط وكل سنة وانتي طيبة.

هنا فقط نطقت طنط. بصوت مذهول قالت شكرًا.

لملمت حاجتي ومشيت. اتجهت بسرعة إلى شارع خلفي وأنا أنهج من التأثر وأمسك بقلبي، كل ما استطعت قوله وقتها هو الحمد لله الذي نفخ في صورتي وقدَّرني على رد حق ابني أمام هذه القحبة، وسندت على عربية متربة ورجَّعت من القرف. مشيت من الضاهر إلى البيت، وكان التلفزيون يعلن اليوم المتمم من شهر شعبان والغد أول أيام رمضان. في نصف الطريق كانت صلاة العشاء قد بدأت، فدخلت إلى جامع في الطريق وصليت العشاء والتراويح. ومشيت في وسط البلد وجلست إلى ترابيزة تبع عربية فول وأكلت بطاطس مهروسة وفولًا بالطحينة وهزرت مع البائع وقلت له ناوي تصوم ولا زي كل سنة؟ وكنت أنظر في عينه مباشرة لأني في هذا الوقت أحسست أني قوية، عملاقة فخورة بنفسها. وكلمت الديلر وقلت له إني أريد صباعًا، ومر عليَّ أمام الغرفة التجارية في باب اللوق، فقلت له إن الصباع الفائت لم يكن جيدًا، وهذا الصباع لو لم يكن جيدًا أيضًا فسأتوقف عن التعامل معه. ارتبك قليلًا من هجومي عليه، وأخذ يثني الصباع لأتأكد من ليونته، ثم دعاني لسيارته وقضم جزءًا منه ولف لي سيجارة وقال لي خذي جربيها، وشربت نفسًا فأعجبني، وأعطاني السيجارة وأعطاني قطعة حشيش أخرى بدل

المقصومة وقال إنها كادوه منه، ومشيت فرحانة بنفسي. عدت إلى الغرفة وشربت السيجارة على السرير ووقعت الطفية على الملاءة فحرقتها وتركت فيها ثقبًا ففكرت أني لو استهبلت سيُخصم ثمن الملاءة من الروم سيرفيس، وعاهدت نفسي أن أشتري غدًا ملاءة جديدة ولا أستهبل، ونمت بعمق.

لم أنتبه إلى التلفون الذي رن حوالي عشر مرات وأنا نائمة. فقط عندما صحوت وجدت ميسدات كثيرة من عاطف. كلمته فأتاني صوته جافًا، ايه اللي حصل امبارح يا حورية؟ الأم كما هو متوقع سمت بدني، ولم أحتمل أنا ورددت عليها جامد. أنا آسفة يا أستاذ عاطف بس انا مش عاوزة الورث وعاوزة اشوفك في أي وقت امضي معاك التنازل ودا قرار نهائي. سمعني للنهاية ثم قال إن أمه تعيشي انتي. أزمة قلبية. بعد أن مشيتِ رنت على البواب فأتاها بعد ساعة وكان السر الإلهي طلع. كسر البواب الباب ودخل فرآها ميتة على الكرسي بعجل.

لم تعرف حرنكش كيف ترد. وقالت إنها لا تعرف كيف ترد، وكررت الله يرحمها أكثر من مرة، وقالت رمضان كريم ونسيت أن تقول البقية في حياتك.

وبعد أن انتهت المكالمة سهمت كثيرًا، ساعة كاملة تنظر في الملاءة بحرق السيجارة الذي فيها، لتحاول تهدئة نبض قلبها. ثم قامت وأمسكت مصحفًا ومضت تقرأ فيه. تقرأ على السرير. تنهي سورة فتدخل في الأخرى وتنهي جزءًا فتدخل في الآخر، حتى أنهت ربع قرآن وهي على السرير.

لأيام طويلة ظلت حرنكش تفكر أن الله أكرمها بموت الست، أكرمها حقيقي، وأتعبها هذا الشعور. كانت تنام وتفكر في هذا قبل أن تغرق في أحلامها، وأحيانًا مع أنفاس سيجارة الحشيش التي تشربها قبل النوم. كان تفكيرها هذا يكبر ويسيطر على المشهد كله، لدرجة أنها كانت تضطر إلى هز رأسها على المخدة لتفكر في أشياء أخرى، ولكن الفكرة لازمتها، في الأول أزعجتها ثم تعلمت الابتسام. قررت أنها لا بد لها من التصالح مع الموضوع، والتصالح لم يأتِ إلا عندما فتحت صفحتها على الفيسبوك وكتبت ستاتوس سيقدَّر له أن يكون أنجح ستاتوس تكتبه حتى هذه اللحظة: أنا عارفة اللي هقوله مش صح وعيب ومايتقالشي، بس فيه ناس بجد لما بتموت بتحس انك قادر تشم نفسك براحتك، الله يصبر العايشين بس الفقيدة كانت بنت كلب الصراحة.

حصلت حورية على خمسين لايك، وتجادل ناس على صفحتها، هل هي صح أم غلط، وشيَّر بعضهم الستاتوس، وكانت هند من هذا البعض، شيَّرته وكتبت تعليقًا: حرنكش الجميلة اللي مابتتكسفش تقول اللي جواها حتى لو مخالف للسائد. نجاح الستاتوس جعلها تفكر في اليوم التالي أن تكتب: كان لا بد أن تموت الشرموطة، كتبتها ثم محتها لأنها انكسفت قليلًا. فقط مضت تمشي في وسط البلد، في عز الحر الرمضاني، نهارًا وليلًا، والزهو بنفسها يبلغ مداه وتكبحه فيتضخم أكثر، وتنغم بالصفير لحن «كان لا بد أن تموت الشرموطة»، اخترعت اللحن ودندنته وهي تمشي.

بعد نجاح الستاتوس اكتسبت بعض الثقة تجاه الفيسبوك، كتبت أشياء كثيرة، وشيَّرت نكتًا وتعليقات ورسومات ساخرة، وهند تتلقفها لتشيِّر منها، هند صاحبة الثلاثة آلاف صديق تأخذ بيد صديقتها لتنجِّمها. ولكن هناك أشياء غير النجومية قد تأتي من الفيسبوك.

مثلًا، كتبت على صفحتي ذات يوم، انهض، إنك لست بميت. لا أذكر لماذا كتبتها ولا السياق الذي كتبتها فيه، فقط أذكر أني بعد أن كتبتها حلمت بمحمود، هل تصدقن هذا؟ في نفس اليوم بالظبط، وكانت هناك سينما قديمة في الحلم أو شيء كهذا. كانت هذه أول مرة، بعدها بيوم رأيته أيضًا وكان هناك عيد ميلاد لصاحبه وأنا أخرج معه من البيت وأكتشف أني نسيت الموبايل فأدخل لآتي به ويظل يستعجلني ويتأفأف، وينتهي الحلم وهو يقول يا مامي الموضوع خطير جدًّا، لازم نلحقهم كلهم. وصحوت وظلت الجملة ترن في عقلي طول النهار. وبعدها بكم يوم، وبعد أن انتهيت من صلاة التراويح رأيته خارجًا من الجامع، وحاولت أن ألحقه ولكنه تاه في زحمة المصلين. ونظر إليَّ نظرة واحدة، غمز لي واختفى عن عيني، غمزة واضحة، أوضح حتى من ملامح وجهه، أكبر من ملامح وجهه.

الصراحة أني كنت رأيته من الأول خالص، بعد أن مات بأيام قليلة، كنت راكبة في التاكسي ورأيته، على الرصيف هناك أمام القزاز. هل تعرفي يا هند أني نزلت من التاكسي وجريت وراءه واختفى مني؟ هل تعرفي أني قضيت أسبوعين على هذا الرصيف حتى أراه مرة ثانية، ولم أره؟ كانت حرنكش تحكي لهند وهي متأثرة. نظرت إليها هند وكررت اقتراحها بأن تسكنا سوا، تعالي عندي يا حورية،

الاستديو عندي صغير بس فيه روف وأكبر من الأودة اللي انتي قاعدة فيها دي، وهتدفعي أقل من اللي بتدفعيه في الفندق، واهو نتونس ببعض. وشردت حورية قليلًا ثم سألتها، انتي ليه قلت لي حورية مش حرنكش؟

انتقلت حرنكش مع هند إلى شقتها بالقصر العيني. نزلت الريسبشن وعملت تشيك أوت، وقالت للموظف إنها قضت أيامًا جميلة في الفندق، وإن أحدًا لم يضايقها وإن كل واحد في حاله، ولكنها عثرت على شقة لطيفة. وركبت التاكسي مع شنطتين كبيرتين وطلعت على السلم الضيق ووضعت أشياءها، وبمجرد أن وضعتها حضنت هند بقوة، وقالت لها انتي حبي الأول والأخير، وأخذتا تهزران معًا وتلعبان الواحدة بلسانها فوق جسم الأخرى، وهاجت حرنكش ثم قالت، خلاص بقى. كنا في النهار وكانت حرنكش صائمة ولم تكن تحب التمادي في هذه الأشياء وقت الصوم، أصلًا لم تكن تحب التمادي في هذه الأشياء عمومًا، كانت أيقنت أن حبها لهند سيظل حبًّا بلا أمل، حبًّا كحارة مسدودة، لا الحارة توقفت عن الوجود، ولا هي أدت إلى شارع آخر.

قبل أن تنام قالت لهند إنها تشعر أنها محظوظة بها، وأنها كانت محظوظة بكمال أيضًا، وإن عاطف أخا كمال يبدو كما لو كان ملاكًا نزل من السماء، وإن الأشخاص الذين يظهرون في حياتها أشخاص رائعون، ولكن حياتها نفسها ليست رائعة، وقالت لهند، أنا بخاف عليكي ساعات، بخاف لتعملي ف نفسك حاجة وحشة، وابتسمت بطرف شفتيها وقالت، عشان تبقى كملت. وطبطبت عليها هند ثم

انقلبت حرنكش إلى اليسار، عكس اتجاه هند، لتفكر في محمود. لتغري لاوعيها بأن يجعلها تحلم به، ولكن لاوعيها عاندها ورفض أن يهديها محمود في الوقت الذي تطلبه، وإنما زارها هو بنفسه. قبل أن تروح في النوم بثوان، زارها لاوعيها وقال لها، اّبجني تجدني، وفرك إصبعين مرتعشين دلالة على الفلوس، وتداخلت صورته مع صورة طنط عدالة حتى راحت في نوم بلا أحلام، وليس فيه إلا هند مسجاة بجانبها على السرير نفسه. راحت في نوم هادئ وصامت كالقبر.

٢٣

الحقيقة أنه بعدها، وبدرجات مختلفة، ستبدأ حرنكش في التعامل مع نفسها كامرأة فيها شيء لله. كانت أحست بهذا من قبل، منذ أن رأت سيارة اللطف راكنة في الشارع، أو، أقدم كثيرًا، عندما أمسكت الطفلة التي كانتها بقطة ميتة وطبطبت عليها حتى عادت إلى الحياة، ولكن في هذه الأيام غزاها الإحساس أكثر قوة وتكثيفًا، لدرجة أنها ستضبط نفسها مرة جالسة على الروف وتحصي بأصابعها عدد المرات التي صدقت فيها العلامات وعدد المرات التي كذبت فيها خلال يومها.

في غالب الأوقات كانت تفعل ما يفعله كثيرون ممن يحسون أن فيهم شيئًا لله. كتمت الشعور وحبسته وأنكرته وسخرت من نفسها بدعوى أن هذه الأشياء غير معقولة. فقط الآن، في هذه الأيام، وشهر

رمضان المبارك يملأ الدنيا بأصوات الأذان وقرآن التراويح وصوت عبد المطلب يتردد من التلفزيون، وبعد أن نطقت الكلمة فقتلت عدوتها، فقط الآن استسلمت لعذوبة الإحساس.

وقعت عقد التنازل لعاطف، رغم معارضة الأخير، لأنها أحست أنه فقط هكذا، بالتنازل عن المالكة بداخلها والتحول في اتجاه الدرويشة، يتأكد لها الإحساس. نبت الإحساس بداخلها فنمَّته وكبَّرته ولم تدعه يفلت من يدها. انطلقي يا حرنكش انطلقي. تختلط كلمات أبيها بتكبيرات صلاة العيد التي تشاهدها من روف شقة هند. يقول بكرة الدنيا هتحلو، فترد عليه وهي تغمز، العصافير هتطير في الجو، ثم ينظران في اتجاه المنبر ويرنِّمان معًا مع المصلين، نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. ويشير باتجاه جامع السيدة ويقول، حطمي الحدود وكسري السدود واصنعي مجدًا غير معهود. فيختمان معًا، لا إله إلا الله.

الفصل الثالث

براءة الأطفال

«القط مشمش مات يا بابا، والبيت سكت خالص يا بابا»
قمر ـ مغنية مصرية ـ كلماتها

١

في العربية هناك كلمة «تشاؤم»، وفي الإنجليزية هناك «pessimism»، ولكن المفهومين ليسا متطابقين مئة في المئة.

التشاؤم الإنجليزي، الـ«pessimism»، هو في نهاية الأمر مفهوم لطيف، ويعني أن الإنسان ينظر إلى النصف الفارغ من الكوب، ويعتقد أن العالم سيسير إلى الأسوأ. ويقدم الإنسان المعاصر تبريرات عقلانية لتشاؤمه هذا، أي لتنبؤاته، أي يعقلن ما هو غير معقول. التشاؤم في الإنجليزية كلمة ترقد على الحافة ما بين المعقول والخرافي.

ولكن التشاؤم العربي يغوص أكثر داخل الخرافة. يسهل جدًّا في العربية، ورجوعًا إلى قواعد التصريف البديهية، إرجاع التشاؤم

للشؤم. البومة مثلًا رمز الحكمة لدى الإغريق، ولكنها رمز الشؤم لدى العرب مثلها مثل الغراب، وكانت لدى العرب قديمًا كلمة «التطير». وقيل إنها ترجع إلى الطير، فكان العرب إذا رأوا الطير يذهب يسارًا تطيروا، أي تشاءموا. وعلى العموم، فحتى يومنا هذا لا يزال اللبنانيون يسمون الفراشة «بشورة»، أي حاملة البشرى.

هذا المفهوم عن الشؤم ليس موجودًا في الإنجليزية، أو على الأقل فهو غير مرتبط بالـ«pessimism». في الإنجليزية هناك فقط الـ«bad sign»، كلمة خفيفة ولطيفة للنذير أو الفأل السيئ.

طبعًا، الشؤم والفأل العربيان مفهومان خرافيان، يقول الإنسان المعاصر، لا وجود للعلامات ولا للنذر ولا للفؤول، الحسنة والسيئة، هذه أشياء تنتمي إلى دوائر أخرى لا يهتم بها الإنسان المعاصر، سواء كان يتحدث العربية أو الإنجليزية. تنتمي ربما للوح المحفوظ الذي سألت عنه حورية من قبل.

وعلى ما يبدو، فقد أخذ العرب المحدثون والمتعلمون مفهومي التشاؤم والتفاؤل من الإنجليزية، وانضاف معنى آخر للمعنى الأصلي للكلمتين العربيتين. أصبح هناك معنى شبه عقلاني يمكن استخدامه بكثافة في المحاضرات الجامعية والمقالات الصحفية، ومعنى أقدم غير معلن وباطني ومستتر ويقع كله داخل الخرافة. يقول المصريون: أنا بتشاءم من وشك. هذا هو المعنى الآخر للكلمة، وهذا هو المعنى الذي يخص حورية. على الأقل في السنوات الست ما بين ٢٠٠٦، سنة انتحار الزوج الأول، و٢٠١١، سنة انتحار الزوج الثاني ومقتل الابن.

بجانب إيمانها أن فيها شيئًا لله، كانت حورية قد سبق وفكرت في كونها امرأة شؤم، أي مشؤومة، والشؤم كلمة بالعامية المصرية وإن كان يمكن عدها فصيحة. الشؤم كلمة لا تقال كثيرًا، ترقد في أعماق البيوت المصرية ومعتقداتها. في لحظات تعقد الأزمة لحد غير معقول يلجأ المصريون إلى محاولات تفسير الأزمة عبر مفهومي الشؤم والتشاؤم.

من نافلة القول أيضًا أن الإنسان، على قدر ما يكبر في السن، يصبح أميل لاستخدام المعنى العربي الأصلي، المظلم والقدري، من استخدام المعنى الآخر الأكثر إشراقًا. وهذا أيضًا مرتبط بكينونة البيت. على قدر ما يخرج الإنسان ويلتقي بالعالم فإنه يستبطن أكثر المعنى العقلاني، الإنجليزي اللطيف، وعلى قدر جلوسه في البيت يغدو المعنى المظلم جزءًا من حياته. في البيت يقترب الإنسان، أو الإنسانة، من الدوائر الأخرى التي تحكم حياتنا. بعيدًا عن قوانين السياسة والاقتصاد، قوانين العالم، يقترب الإنسان أكثر من القوانين الباطنية، قواعد وقوانين أخرى يفهمها هو بحد ذاته. والمقصود بالكلام هنا هو طنط عدالة.

عرفت حورية أنه قبل زواجها بكمال بأيام، وبعد مشاجرة خفيفة جرت بين ابنها وابنه، انفردت طنط عدالة بكمال وقالت له الحقيقة الصارخة، الحقيقة التي لم يعبر عنها أحد من قبل، قالت له إن هذه التي تريد الزواج بها هي امرأة شؤم، شؤم بوضوح وبلا مواراة. امرأة انتحر زوجها الأول، وخلفت عيلًا متخلفًا عقليًا، ماذا تريد منها يا ابني؟ هذه ستحول حياتك لجحيم. يكفي الكآبة في بيتكما.

شوف يا ابني، الأطفال أحباب الله، ليس عندي أي شيء ضد الولد والله، ولكن الولد، غصبًا عنه، وهذا يحدث، لقط شيئًا من روح أمه. الأطفال أحباب الله يا ابني، لذلك اسأل ابنك ما رأيه في ابنها، ابنك سيقول الحقيقة، الأطفال لا يكذبون.

ردًّا على نظرية الشؤم، يلوّح الإنسان المعاصر المتعلم بنظرية الصدفة. وهي نظرية، مع تفاهتها، تحظى بكثير من المدافعين عنها في العالم، ومنهم أذكياء أيضًا. وكان لدى هند ما تحكيه لحرنكش عن الصدفة؛ قصتان دالتان كانت أولاهما قصة قمر، قصة امرأة تدخلت الصدفة في حياتها فدمرتها، امرأة وقفت على ناصية المصائر في العالم فلسعتها تيارات الهواء المتضاربة حتى قتلتها. قصة تموت م الضحك. خليني احكيهالك بطريقتي يا حرنكش. وصبت هند في كأسها بعض الفودكا واعتدلت في جلستها.

٢

كانت هناك مغنية اسمها قمر. وكانت تغني بصوت جميل، مبحوح وجميل، ولكن لم يكن لها حظ من الشهرة.

عُرض على المغنية مرة، وكان هذا قبل الثورة بسنوات معدودة، أن تغني في مركز ثقافي، الألماني أو الفرنساوي أو الأوكراني، شيء مثل هذا. وهي من قبل لم تحظ بفرصة مثل هذه، وأحسن مكان غنت فيه كان هذا الروف الذي نجلس فيه الآن، وفرحت

قمر جدًّا، وكلمت كل أصحابها لتعزمهم، وأصحابها كلموا كل أصحابهم، وأنا كنت صاحبتها، كنت صاحبتها الأقرب. أنا كمان كلمت واحد صاحبي. كان اسمه مجدي وكان طويلًا وعريضًا مثل البغل وجسمه مليئًا بالوشم. أنا بقول لك عشان تاخدي فكرة، بس عشان تفهمي الموقف.

مجدي من ناحيته كانت علاقته متوترة بصاحبته، وكل أسبوعين كانا يتركان بعضهما ويأتي ليتشحتف أمامي هنا في هذا الروف. كان يشك أن صاحبته على علاقة بشخص آخر. أنا سألته تعرف قمر؟ قال أسمع عنها. قلت طب اعزم صاحبتك على حفلتها. هتنبسطوا وكله هيحلو. قال طيب، وعزمها. وقمر كلمتني في اليوم اللي قبل الحفلة، كانت فرحانة وسألتني عن الفستان الذي ستلبسه. أنا عمري ما شفتها فرحانة كدا. قمر كانت مكتئبة قبليها، والظاهر إنها كانت ابتدت تشرب بيسة. متعرفيش البيسة يا حرنكش؟ أحسن، مش لازم تعرفيها.

كنت أعتقد أن الحفلة ستنقذ قمر، ولم يحدث هذا.

لأنه في الحفل نفسه، وبينما الجميع جالسون، وقمر تبهرهم بصوتها والموسيقى المصاحبة لصوتها، وبالتحديد بينما تغني موالها «يا بويا»، والذي كانت تعرفه هند من قبل، وبتحديد التحديد بعد أن غنت الأبيات الثلاثة الأولى منه ولم يتبقَّ إلا الرابع، صمتت لخمس ثوان، صمتت لتستحضر كل طاقتها ولتؤهل الجمهور لاستقبال الجملة الختامية. وفي هذا الوقت كان مجدي يجلس جنب صاحبته، ويبدو إن رسالة جتلها على التلفون، طلعته وبصت فيه بسرعة، ودخلته

ف الشنطة تاني، ومجدي رمى عينه على التلفون ولقاها رسالة من الشخص اللي هو شاكك انها على علاقة بيه.

دلوقتي قمر قالت أول جمل من الموال بتاعها، الموال اللي ثبِّت الناس كلهم، ومش فاضل إلا الجملة الأخيرة، والناس كلها ساكتة ورنة الإبرة تسمعيها في القاعة، وقف شاب طويل وصرخ يا متناكة، والناس اتخضت فشخ، وبصوا، لقوا شاب بشعر طويل وعامله ضفاير واقف زي البغل قدام صاحبته وبيديها بالقلم. رعب.

صاحبته طبعًا كانت مرعوبة ومش عارفة تعمل حاجة. وهو لقاها فرصة، شبط فيها وفضل يضربها جامد بالأقلام والشلاليت. الناس اتثبتت لمدة خمستاشر ثانية تقريبًا، وبعدين ضحكوا، واحد ضحك والتاني ضحك وبعدين الجمهور كله قعد يضحك، حتى انا ضحكت غصبن عني. مين اللي ماضحكش؟ الشاب البغل، ودا طبيعي عشان كان بيضرب صاحبته، وصاحبته، ودا طبيعي عشان هي اللي كانت بتنضرب، وقمر.

المزيكا كانت وقفت خالص مجرد ما البغل ظهر في الأحداث. بعد كام دقيقة الأمن دخل وطلَّع مجدي بالعافية. والناس كتمت ضحكها وقعدت مستنية قمر عشان تكمل الأغنية، بس قمر كانت قاعدة على المسرح بتعيط. بعد شوية قامت ورجعت تغني. قالت موال تاني، وموال تالت، كإنها بتعمل الواجب اللي عليها. نفسها اتكسرت خلاص. خلصت غنا وجريت عالبيت.

وانا كمان يا حرنكش خلصت وجريت عالبيت.

بعد ساعات ظهر فيديو على اليوتيوب، فيديو لقمر وهي تغني،

وقبل اللحظة الفلانية، لحظة البيك، الذروة بنت المتناكة، واحد بيصرخ ويقول يا متناكة. أظهر الفيديو الناس التي تضحك، وأنا كنت منهم، لقطة لثانية أو ثانيتين على وشي وانا بضحك.

ويبدو إن قمر رأت الفيديو، لأنها جاءتني بعدها وتخانقت معي، كانت تجلس هنا، في المكان الذي تجلسين فيه الآن. قالت لي انتي عاملة صاحبتي وبتضحكي عليا، ومين اللي عزم الواد الزبالة دا، مش انتي؟ وليه تعملي فيا كدا يا هند؟ وبتضحكي عليا في المسرح؟ مش قادرة تكتمي نفسك حبة؟ وقالت إني غيرانة منها وأشياء كهذه، واتخانقنا مع بعض جامد، بعدين سابت البلد وهاجرت على السويد وكملت اكتئاب هناك. ماتكلمناش من ساعتها.

أنا بقول لك دا عشان اقول لك إنه هل أنا السبب زي ما هي قالت؟ أبدًا، أنا هعمل إيه؟ فيه حاجة اسمها صدفة، ودي مش ف إيد البشر إنهم يتحكموا فيها، خاصة لو فيه ستة مليار إنسان وكل واحد له قصة وكل واحد مشغول بقصته. يعني هل تتخيلي مثلًا إنه بعد ما قمر جاتلي واتخانقت معايا، ودي كانت واحدة صاحبتي وعزيزة عليا، جالي مجدي دا، البغل، وقعد يعيط عشان خلاص صاحبته سابته للأبد. سألته يومها إن كان عرف ان حفلة صاحبتي باظت بسببه، فبصلي وقالي، آه والله؟ وبعدين كمل كلام عن صاحبته. مأساة يا حرنكش مأساة.

كانت حرنكش ساكتة طول الحكاية. كانت سكرانة وغير واعية، تسمع طراطيش كلام عن إنسانة اسمها قمر فشل حفلها الأول، وعن إنسان اسمه البغل، وعن الصدفة التي لم يتحكم فيها الإنسان

أو الإنسانة. ثم التفتت حرنكش إلى هند وقالت لها، انتي زعلتي عليها؟ على مين؟ على صاحبتك اللي الحفلة بتاعتها باظت؟ طبعًا زعلت. يا هند انا مش بحس انك ممكن تزعلي، قولي الحق. انتي مابتزعليش صح؟ وضحكت حرنكش وضحكت هند كثيرًا، وحياتك بازعل يا اختي. والله العظيم بازعل.

تقول هند إن ما حدث كان بفعل الصدفة، ويقول الإنسان العادي إن ما حدث كان إرادة الله، الذي لم يرغب أن يكتمل حفل قمر بالخير لأنه لم يرغب لها بالخير من الأول، وهناك قصة، لا تصدقها هند ولكنها تحبها، عن عزرائيل ملك الموت الذي أخذ ينظر باندهاش لشخص من بني إسرائيل وهو مار بجواره في الشارع، ورآه الشخص فخاف أن يكون آتيًا لقبض روحه، فجرى إلى الملك سليمان في القدس ليستنجد به. الملك سليمان من جانبه قرر تحدي القدر. أرسل الرجل على ظهر واحد من الجان إلى مدينة بعيدة. وسافر الرجل، وهناك التقى بعزرائيل مرة أخرى الذي جاء ليقبض روحه وليصرح له بسر نظراته المندهشة في المرة الأولى، كُلفتُ بقبض روحك في هذا البلد الذي نحن فيه الآن، فلما رأيتك في البلد الآخر اندهشت وقلت، كيف سأقبض روحه هناك وهو هنا؟

تدلنا هذه القصة على أن إرادة الله ستحدث ستحدث، وألا جدوى من محاولة تغييرها، وأن الحمد لله على كل شيء. هذا رد المؤمن. وصحيح أن حرنكش كانت مؤمنة، ولكن بطريقتها. لم تكن هذا النوع من المؤمن المسلِّم بقدره، ولكن المؤمن العنيد الجاهز للمحاربة من أجل تغيير قدره.

٣

في نفس الجلسة على الروف، وكنا في اليوم الرابع للعيد، نفدت الخمرة. قامت هند لتبحث وقلبت أرجاء البيت فلم تجد، عادت خائبة لحرنكش وقالت لها إن الخمرة نفدت، ومن قبلها كان الحشيش نفد أيضًا، ولكن حرنكش، الجالسة على كرسيها كالملكة، أشارت إلى ركن من أركان الروف وقالت، فيه حتة حشيش مرمية هناك أهي. نظرت هند ووجدتها حتة حشيش فعلًا لم ينتبه أحد لها من قبل، فوطت أمام حرنكش في حركة مسرحية وقالت لها، إذن فلتتواصل السهرة بفضل الله وبفضل توجيهات مولاتي وبفضل دعا الوالدين. وعادت إلى كرسيها ومضت تسخن وتلف قطعة الحشيش، وكانت لها أسرع يدين في لف الحشيش. وبعد السكر والصهللة والصوت العالي جاء الحشيش والحزن.

شربت حرنكش نفسين وأرادت أن تتكلم، أرادت أن تفتتح وصلة من النواح على حظها، أن تمسك بدفة الحوار وتقودها نحو الدراما السوداء التي تتقنها. غطست في مقعدها وقررت في نفسها ألا أفضل من أن تخترع حلمًا. قالت إنها رأت محمود هذه الليلة، ولكن عندما صحت أدركت أنه لم يعد هناك محمود ولا يحزنون. قربت هند كرسيها منها وطبطبت عليها وقالت إن ربنا سيكرمها كرمًا كبيرًا لا حد له. فابتسمت حرنكش بمرارة مصرة على أداء الدور للنهاية، قالت هيكرمني آه! ابتسمت هند وقالت، آه هيكرمك، مانتي مسيرك تتجوزي تاني وتخلفي، وأنا اعمل ايه مثلًا؟ وعادت هند مرة أخرى لتمسك دفة الحوار، عبر قصة حقيقية هذه المرة وليست اختراعًا.

هند لا تخلف. عرفت هذا وهي متزوجة وكان هذا سببًا في طلاقها. جلس معها زوجها وقال لها بصراحة إنه يحب أن يكون أبًا، ويعرف أنها ستفهم هذا. وفهمت هذا. هند امرأة متفتحة وعصرية. قالت خلاص، لنتطلق. فقال إنه لم يكن يحب للأمور أن تصل إلى هذا. قالت بلا لم أكن أحب بلا لم تكن تحب، لنتطلق وخلاص. وتطلقا. هكذا عرفت هند أنها ستعيش كصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، بلا أمل، ولا ربع أمل، في أولاد قادمين.

ولكن من قبل هذا، من أجل الصدق والصراحة، كانت عرفت ميلها نحو البنات، عرفت ولم تجرب. أو جربت مرة واحدة وغامضة في زمان مغرق في القدم. وهذا يعني أن مصيريها، مصير الزوجة العاقر والبنت السحاقية، التقيا بالصدفة في الشارع من دون أن يعرف أحدهما الآخر مسبقًا، ولكن ما أن التقيا حتى اندفع كل منهما للتأكيد على الآخر. وضحكت حرنكش. عجبك هذا يا حرنكش؟ اسمعي طيب ما هو أنقح.

الأغرب من كل هذا، في سلسلة الغرائب التي حكتها هند هذه الليلة، هو أن يكون أخوها عقيمًا هو الآخر. لا تعرف هند كيف يمكنها وصف هذا. تعبنا معاه كتير واتهمنا مراته وبعدين طلع هو اللي مابيخلفش. تفتكري دا اسمه إيه؟ البنت وأخوها لا يخلفان، ما هذا إذن؟ كانت هذه معضلة شغلت بال هند طويلًا ولم تعرف لها حلًّا.

قربت حرنكش حاجبيها من بعضهما وسألت هند، مش ممكن يكون الموضوع وراثي؟ هو باباكي كان بيخلف؟ كركعت هند بضحكة عالية ثم قالت، لا ماكانش بيخلف، جابنا عن طريق كروت الشحن. وقامت وقرصت حرنكش في خدها، بقى انتي مدرسة رياضيات انتي؟

ضحكت حرنكش ثم شردت قليلًا وقالت، مش لازم الأب بالتحديد على فكرة، ممكن مامتك كمان، أو حد من جدودك.

نظرت هند إليها نظرة مضحكة تعبر عن اليأس الكامل من أن تفهم حرنكش شيئًا في حياتها، وضحكت حرنكش على نظرة صاحبتها، ثم ضحكت على نفسها، ضحكت بقوة حتى شخرت ونخرت ودمعت. ضحكت حتى سقطت على الأرض ونزلت دمعة منها على بلاط الروف، وعندما انتهت كريزة الضحك نظرت إلى هند فوجدتها ساهمة تنظر إلى الشارع وعلى وجهها تعبير كئيب، أكأب تعبير رأته في حياتها. وعندما لاحظت هند أن حرنكش تنظر إليها ابتسمت بسرعة.

عرفت حرنكش أن هند تزعل أحيانًا. وأن زعلها أقوى من فرحتها. أقوى لدرجة أن لحظة واحدة من الزعل تأتي كالمرزبة لتهدم مئة سنة من الفرحة. خجلت حرنكش بشدة ولم تقوَ على مواجهة وجه هند الحزين، فعادت تنظر إلى الأرض وغمغمت، قصة فظيعة خالص.

٤

مرة واحدة فقط وصلت حرنكش إلى الأورجازم مع هند، بعد كل المحاولات الفاشلة، وبعد أن أيقنت حرنكش أنها ستظل عمرها في انتظار المسمار القلاووظ ولا يأتي.

كان الإسلاميون قد صعدوا إلى المشهد السياسي بشكل واضح، المشايخ يُستضافون في القنوات التلفزيونية، الإرهابيون يحظون

بصوت وتمثيل في صراع القوى الدائر على الأرض. وعوضًا عن الصدر والساقين والذراعين الذين للإنسان، يتحول البشري إلى كائن هيولي يرتدي جلابية توحد ملامح جسمه وتنزل به درجة في سلم التطور وتجعل الكلام معه مستحيلًا. الذقون والروائح المنتنة تغزو الشوارع، بما فيها شوارع وسط البلد، شوارع التحرير نفسها، فيما عُرف باسم «جمعة قندهار» وما سبقها وما تلاها. وهند أوشكت على أن تموت من الغيظ، ولكنها لم تتكلم كثيرًا. فقط قالت إن الإسلاميين يسرقون الثورة. وحرنكش قالت إنه لا علاقة لهؤلاء بالإسلام، وبصراحة، بمنتهى الصراحة، لو خيروني بين البرادعي وبين الإخوان سأختار الإخوان. الإخوان عاقلون أما البرادعي والاشتراكيون وستة إبريل والسلفيون، كل هؤلاء وجوه مختلفة لنفس الكابوس.

والمسيحيون يا حرنكش؟ والمسيحيون أيضًا. لأ يا حرنكش، حقيقي لأ. بأي حق يُحرق بيت للصلاة لشخص لا ذنب له إلا أنه يريد العيش في مجتمع عادل؟ وصرخت حرنكش، هذه ثورتكم يا حبيبتي. من حضَّر عفريتًا يصرفه.

على مسار موازٍ لظهور الإسلاميين، كان هناك مشهد آخر، رجال ونساء بصلبان زرقاء على أكفهم يتوجهون في مجموعات طويلة وعريضة أمام مبنى تلفزيون ماسبيرو للاحتجاج، حاملين صلبانًا خشبية ضخمة وصورًا للآباء الكهنة والرهبان ونداءات لبابا يسوع وتضرعات لأمنا مريم. أخذت هند حرنكش في يدها وذهبتا هناك، إلى ماسبيرو. وزعت هند الماء والكلام الطيب على المعتصمين المسيحيين. لأول مرة ترى حرنكش مسيحيين بتي شيرتات. قبلها،

كان كل من رأتهم بقميص داخل البنطلون، والآن شباب غاضبون سرسجية أسماؤهم أبانوب وروماني بتي شيرتات وبوشوم عملاقة على أذرعهم عليها صور أمنا العذراء والآباء الكهنة، ويبدو أن هند لم تشعر بالارتياح أيضًا. لأول مرة في مظاهرة، تحس الاثنتان، هند وحرنكش، بالمقدار نفسه من الشعور بالغربة. لم تعرف هند أحدًا من المعتصمين، ربما واحدًا أو اثنين ولكن ليس أكثر. وحرنكش فرحت بهذا، لأنه أخيرًا سيتاح لها أن تكون هي وهند على حد سواء. لا أحد مشغول أكثر من الآخر. الاثنتان ضائعتان.

ركضتا معًا أيضًا. سقطت عليهما قنابل الغاز والرصاص وهاجمتهما المدرعات. خاضتا بأقدامهما وسط الصلبان المتكسرة ولوحات القديسين العائمة في بحيرات الدم، وكان هناك صراخ كثير وعواء وروائح محترقة، وافترقتا في الشوارع المليئة برائحة الغاز، وكان نشيد حزين يتردد في الأنحاء، أنا عايزك إنت يا صاحب القوات، تشغل يمينك تعمل معجزات.

واختفت هند عن عين حرنكش. بحثت عنها الأخيرة ونادت عليها ولم تجدها، ووجدت نفسها وحيدة ونفسها مقطوع بجانب تمثال طلعت حرب، حيث كانت تسكن قبل أسابيع. فكرت في الصعود إلى الفندق لتقول لهم أنا كنت هنا. كنت ساكنة هنا. والآن ذهبت بعيدًا، وصاحبتي اختفت وتلفونها مقفول وليس معي مفتاح الشقة، وقد تكون ماتت. وأنا وحيدة بين الأشرار. وكان باب العمارة مغلقًا. أكملت الطريق حتى عمارة القصر العيني، مشت حينًا وجرت حينًا هاربة من قطعان الأمن المركزي. صعدت وخبطت على باب الروف

ولم يفتح أحد، وندهت يا هند يا هند ولم يكن أحد بالداخل. فجلست على بسطة السلم أمام باب الروف مربعة، لا تعرف ماذا تفعل، وفي كل مرة تسمع صوت أقدام رجل أو امرأة تطلع على السلم تقول هذه هند ولا تكون هي. وكان هناك نور خفيف يأتي من شباك صغير يطل على المنور. وعلى هذا النور رأت برصًا كبيرًا يتمشى على الحائط، برصًا أتى من شباك المنور ونزل على الحائط مقتربًا منها، وفكرت كيف أن الصراصير طردتها من بيتها السابق، ثم حلت روحها في هذا البرص الذي يلاحقها الآن، واحتمت بالركن من البرص ومضت تغمغم، أنا عايزاك انت يا صاحب القوات، تشغل يمينك تعمل معجزات. في البدء قالتها لأن اللحن علق بمخها، ثم بدأت تردد اللحن بشكل مهووس، مرة وراء مرة كأنه تعويذة. والبرص كأنه لا يسمعها أو لا يفهمها، يقترب منها بعناد وبنظرة متشفية في عينيه، كأنه استطاع أخيرًا اللحاق بها بعد مطاردة طويلة. ثم صعدت هند.

زعقت هند زعقة فرح خافتة عندما رأت حرنكش. أما حرنكش فلم تحرك ساكنًا، فقط أشارت برعب إلى البرص، فداست عليه هند بجزمتها وسحقته. هنا فقط قامت حرنكش. قامت وحضنت هند حضنًا طويلًا. وحشتيني، وحشتيني، وحشتيني، وليس إلا كلمة وحشتيني على شفتيهما. وفتحت هند الباب ودخلتا، وحرنكش ترفض مغادرة حضنها، ترفض أن تدعها تتحرك بعيدًا، ولو إلى الحمَّام. معلقتين بحضن بعضهما، انقلبتا على السرير. وكثير من التنهدات ودموع الفرح قبل أن تشرع حرنكش في لحس حلمتي هند، وكانت مفتونة بهما من زمان.

فتحت هند عينيها لترى إن كانت صاحبتها جادة، فأغلقتهما حرنكش بشفتيها، أغلقتهما ولم تدع صاحبتها تتحرك بعيدًا عن يديها، حركتها يمينًا وشمالًا، قلبتها على بطنها ولحست طيزها، وعلى ظهرها لتحك ركبتها بكسها، وبينما هي راقدة على ظهرها فتحت هند درج الكومودينو بجانبها والتقطت شيئًا بلاستيكيًّا مضت تلاعب به كس حرنكش وهي تهمس، دا م السويد دا، وهيجتها كلمة السويد، وبدأت تستحضر اللذة من أعماقها، من ذاكرتها، إلى الخارج، وتقول لها تعالي يا لذة، اطلعي فوق حبة، ياللا ياللا، هاجيبهم مش قادرة خلاص هاجيبهم والله. صرخت الاثنتان الصرخة نفسها وهما تصلان. سكنت حرنكش في حضن هند وهما تلهثان. وصوت لهاثهما بدأ في الخفوت وصولًا إلى الصمت، وبعد دقيقتين من الصمت قالت حرنكش، كان هيحصلي حاجة لو مُتي وانا لسه ماعملتش معاكي.

نظرت إليها هند بحب كبير وأخذتها في حضنها، ثم همست، بعد الشر عليا. وعلى صوت سارينات الإسعاف الواصلة من الخارج نامتا أخيرًا. قذرتين ومشبعتين بالعرق ورائحة الغاز.

٥

أنا بدأت حياتي مع السكس مبكرًا. من لا تريد منكن أن تسمع لا تسمع، ولكن هذا لن يلغي الحقيقة. كان هناك إنسان اسمه صبحي

لا أذكر عنه الكثير، وكان هناك جنتلمان اسمه كمال، وقضيبه أيضًا كان جنتلمانًا، يستأذن قبل الدخول وقبل الخروج، وكانت هناك هند التي بلا قضيب، ولكن قبل الجميع، في البدء وقبل التاريخ، في الجامعة، كان هناك حسين عبد الرحيم شحاتة.

أتى حسين من بلد في بني سويف وسكن في المدينة الجامعية. كان شابًّا بشنب خفيف تعرفت عليه في قسم الرياضيات بكلية العلوم. عرفته في الفرقة الرابعة. استعار كشكول محاضراتي ولم يرجعه. يومًا واثنين وثلاثة حتى انفردت به في القاعة وقلت له جرى ايه يا حبوب؟ انت نسيت نفسك عشان عملت فيك جميلة؟ الولد كان فلاحًا، لم يستطع الرد عليَّ. جاء في اليوم التالي بكشكول محاضراتي، وقال لي إن الحقيقة أنه كان ضائعًا ولم يجده إلا اليوم. ونظرت إليه بقرف ومشيت. وقتها كنت مختلفة عما بعدها، كنت جدعة وشطورة، صوتي عالٍ ولا أخاف أحدًا.

الولد من جانبه انبهر بهذه البنت التي أمامه، أنا. واقترب مني بشدة، وأنا لم تكن لي علاقات سابقة بأولاد. وهو كان يضحكني، يحكي لي عن البلد الذي جاء منه. فجأة وجدت نفسي في عالم آخر، فيه فلاحون وبقر وجرارات وسواقون وعربيات نقل وروائح بهايم وسباخ وجاز وبنزين، فيه مدينة جامعية وشباب يتحركون بالألبسة وبكاسيتات ضخمة. بدأ حسين يناغشني، وأنا الخارجة من بيت أمي، لم أحظ بأن يناغشني أحد من قبل. وكنا نجلس بجانب بعض على البنش ونتبادل كلمات الحب، وأكتب له إني أخاف كثيرًا، وإوعدني تحافظ عليا يا حسين. ويكتب انتي مراتي يا بت، عارفة يعني انتي

مراتي. وكان قال لي سابقًا إنه يحبني ويريد أن يتزوجني، وصدقت أنا مثل العبيطة. لا أحد يتعلم ببلاش.

المهم أن حسين ناكني، سوري على اللفظ، ذهبت معه إلى المدينة الجامعية، لا أذكر السياق بالضبط، ما سبق هذا وما تلاه، أذكر مشاهد عامة جدًّا، منها سرير المدينة القذر، بملاءته المبقعة ببقع الشاي ودم البراغيث، وانضاف إليها فيما بعد دمي مع بقع الحيوانات المنوية. فقدت بكارتي على هذا السرير، وكانت هذه أعفن تجربة أخوضها في حياتي. لا أعرف الآن ما الذي دفعني لهذا. ربما أردت أن تكون لديَّ قصة أحكيها عن نفسي. أردت أن أقول لديَّ حبيب وعملت سكس ولديَّ بيبي في بطني وماذا سأفعل فيه، ربما كنت زهقت من حرنكش التي تمشي في الشارع كالعسكري ولا يلاحظها أحد، وأردت أن أسمع كلامًا يتردد عني.

مع هذا، مع أن هذا ما أردته بالضبط، فقد رجعت البيت يومها منقبضة. ولم أذهب إلى الكلية ثاني يوم ولا ثالث يوم، ذهبت فقط بعد أسبوع. ولم أتصل بحسين خلال هذا الأسبوع لأنني أردت التأكد أنه لن يتصل بي لو لم أتصل به، وتأكدت. وعندما رجعت الجامعة واجهته بسؤال واحد، هتتجوزني يا حسين؟ قال لي أيوه، أكيد. وقلت له إن هناك بيبي في بطني، ولم يكن هناك بيبي. ولكن لونه تغير، وعندما تغير لونه أدركت ما فيها. فصرخت فيه، انت زبالة انت حيوان انت مش إنسان. وعليت صوتي حتى تسمعني صاحباتي. كنت سأموت على قصة تُحكى عني. وشتمني هو بلفظ قبيح، قال لي إيه يا لبوة، هكذا، بالكلمة، مش عَجَبك المسمار اللي دقيته، عاوزة إيه

تاني؟ وعندما روحت فكرت في معنى كلامه عن المسمار، وعندما فهمت رجَّعت.

ولم تتكون القصة التي أردت لها أن تُحكى، ببساطة لأننا كنا في السنة الرابعة، في الربيع، قبل الامتحانات بأسابيع. انعزلت في البيت وذاكرت وذهبت إلى الامتحانات وامتحنت ثم لم أرَ أحدًا من زملاء الدفعة بعدها. ربما تكونت القصة، ولكني لم أسمعها.

لهذا بالضبط، لأن أحدًا لم يحكِ، قررت أن أحكي أنا، أحكي لكُنَّ، عسى أن تخرجن يومًا، أن نخرج يومًا، من الزنزانة الضيقة، ونحكي لبناتنا، لحفيداتنا، لزوجات أبنائنا، عما حدث.

٦

بعد مذبحة ماسبيرو اكتأبت هند بشدة. صارت تصحو وتفتح الفيسبوك وتظل تحدق فيه بلا اهتمام، وتأتي حرنكش لتعاكسها فلا تبالي وتعاود التحديق في الفيسبوك. وحرنكش من جانبها ظنت أن في هذا موقفًا منها، كأن هند نادمة على السكس معها. وأرادت أن تعتذر لهند ولم يسعفها لسانها. أسبوعان كاملان قضتهما هند في صمت، وتيقنت فيهما حرنكش أن حتى هند، بنت الربيع والأمل والشمس والزينة، تزعل أحيانًا.

أصبحت هند عصبية أيضًا. تكره أن يمس أحد الثورة بكلمة. عرفت هذا حرنكش عندما جاءتها يومًا وطبطبت عليها وقالت لها،

يعني كان ماله مبارك بس يا هند؟ فانتفضت هند وقالت مالوش، احنا اللي ولاد وسخة يا حورية. ممكن تسكتي شوية بقى؟ أُخذت حورية بهذا الهجوم، وأخذته على أعصابها. نزلت من البيت وجلست على القهوة وشربت شايًا وشربت سيجارة وفتحت الفيسبوك على موبايلها لترى إن كانت هند قد كتبت لها لتعتذر، ولم تكن هند كتبت لها. فبدأت حرنكش تفكر في بعض الخواطر السياسية.

أولًا، فعلًا، كان ماله حسني؟ طبعًا، قبل هذا، قبل الشيء الذي حدث، عندما كان حسني موجودًا، لم يكن البلد في حال جيدة، ولا في حال سيئة. ولكن كان كل إنسان يعرف حدوده. لا تملك حرنكش شيئًا ضد المسيحيين، ولكن هل كان يتوقع أحد أن يخرج المسيحيون ويهتفون بسقوط الجيش قبل التنحي؟ أن يخرج كل من هب ودب ليطالب بحقوقه، وماذا عن حقوق البلد؟ لا. هذا سؤال حقيقي. ماذا عن حقوق البلد؟

ثانيًا، لماذا شخطت فيها هند؟ ما الذي فعلته حتى تشخط فيها هند؟ يبدو لي، وهنا حرنكش تكلم نفسها، أنه حتى هند، حتى كل زملائها وأصدقائها، يرفضون أية رؤية تخالف رؤيتهم، وهم، رغم كل كلامهم عن الحرية والديمقراطية، لا يحتملون أيًّا منهما.

ثالثًا، أين الإنسانية في الموضوع؟ صحيح أن هند تقول إنها كانت تعرف بعضًا من شهداء ماسبيرو من بعيد، ولكن من أقرب لها، هي أم شهداء ماسبيرو؟ كيف تتأثر إنسانة بشهيد للثورة ولا تتأثر بصديقتها وزميلتها في السكن، التي هي، علاوة على هذا، مرت بأفظع كارثة إنسانية رآها إنسان في حياته؟

الفكرة الأخيرة بالتحديد هي ما استحوذت على عقل حرنكش، هذه ثورة بلا إنسانية. هذه ثورة بلا أخلاق، هذه ثورة عمياء. وفتحت وكتبت لهند تقول لها، اللي انتي عملتيه مش إنسانية يا هند. حقيقي مش إنسانية. وانا مش مبسوطة منك، لا أنا ولا محمود ابني.

أرسلت الرسالة وقامت لتتمشى في القصر العيني. قطعته ومشت باتجاه السيدة زينب. لم تدخل الجامع كما هي عادتها، وإنما مرت تحت بيتها القديم في السيدة. تلفتت بحثًا عن البواب ولما لم تجده طلعت. خبطت على شقتها القديمة ففتحت لها امرأة. قالت لها حرنكش، أنا صاحبة الشقة الأصلية. قالت لها المرأة، نعم يا اختي؟ وأنا ماذا؟ قالت لها دعيني أدخل فأنظر إلى الشقة وأخرج. خمس دقائق فقط والله. صعبت على المرأة فدخلت حرنكش. نظرت إلى زوايا الصالة، ثم إلى غرفة النوم، ونظرت إلى المرأة وقالت لها، كل زاوية في الشقة تذكرني بشيء، فرجاء والنبي، لا تتخلي أبدًا عن سنتي واحد عشتي فيه. طبطبت المرأة على ظهرها وقالت، أنا عارفة اللي حصلك يا حبيبتي، قلبي معاكي. ابتسمت حرنكش ابتسامة خفيفة وسألتها أين زوجها وأولادها. قالت إنهم في الخارج وليسوا في البيت. بتسألي ليه؟ لأن الرجال ليس لهم أمان، قالت حرنكش، لأنك قد تصحين يومًا، كما صحوت أنا، على زوجك وهو يقتل ابنك ثم ينتحر. هذا يحدث والله وليس أفلامًا. طيب ياللا اتفضلي بقى، دفعتها المرأة باتجاه باب الشقة، وعندما زرجنت حرنكش شدتها الست من ذراعها بالعافية حتى كادت تسقط، ولم تتهاون الست، كانت ضخمة كالجاموسة. وجدت حرنكش

نفسها في النهاية مطرودة ومرمية على باب الشقة والباب يُصفق في وجهها بعنف. قامت ونظرت بأسى نحو الشقة. كانت حزينة على هذه المرأة التي لا تعرف ما ينتظرها في الأيام القادمة، حزينة لأنها رفضت نصيحتها، كما سبق أن رفضت هي نصائح كثيرة. لو كنتِ بس سمعتي نصيحتي، لم يكن ليحدث لك ما سيحدث، قالتها حرنكش ونزلت. وفي الشارع، على الرصيف المقابل لبيتها، رأت محمود.

كانت تنزل ببطء على السلم الحلزوني، لم تكن خائفة من شيء أو تشعر بإهانة من أي نوع، نزلت كأميرة مكللة بالمجد وأكاليل الغار. ولكن وهي تخطو على درجات الطابق الأول، ومن وراء شبك حديدي يكشف عن الشارع، رأت محمود وهو يجري في لحظة خاطفة. رأته وندهت عليه وهي تصرخ، ثم نزلت الدرجات المتبقية جريًا لتلحق به. ندهت في الشارع عليه وجرت بالاتجاه الذي جرى فيه ولم تلحقه، كالعادة.

انبضنت كثيرًا وجلست على الرصيف. كل مرة تقع في هذا المقلب. كل مرة كل مرة. وكل مرة تجلس على الرصيف بلا حول ولا قوة. فكرت في هذه الفكرة وطردتها على الفور، قالت إنها تغيرت، إنها لم تعد حورية الغلبانة خلاص، صحيح أن هذا يحدث كل مرة، ولكنها لن تدعه يحدث هذه المرة، ولم تعرف ما معنى هذه الجملة بالضبط. قامت ووضعت السماعات في أذنها وقطعت الطريق بخطواتٍ سريعة نحو البيت.

فتحت الباب ودخلت وكانت هند ما تزال جالسة على اللابتوب،

كأنها لم تتحرك أبدًا من هناك. لم تكلمها حرنكش، لم تنطق بكلمة، ولا حتى السلام، وفور أن رأتها، تبددت كل القوة التي نمت بداخلها عندما رأت محمود. الطاقة السلبية بتموتني، غمغمت بقلب منقبض ودخلت الحمَّام وأخذت دشًّا، ثم غيرت هدومها وخرجت. وبخطوات واثقة تحركت نحو الدولاب، أخرجت من خلفه مرتبة رخيصة ووسخة. وفرشتها على الأرض ونامت، لأول مرة منذ سكنت في هذا البيت تنام وحدها، بدون جسم هند يدفئ جسمها في الليل البارد.

نامت على ظهرها ولم تتقلب على المرتبة كما تفعل عادة، ظلت محدقة في السقف، لخمس دقائق، في صمت تام، إلى أن وجدت نفسها تنطق بجملة قصيرة، أيوه فيه خوف. قالتها وبدأت تروح في النوم، وكان هناك صوت بكاء ارتفع فجأة من ناحية هند، نشيج مكتوم سمعته حرنكش ولم تتحرك. كانت حرنكش تدخل عالم أحلامها بهدوء. ودخلت وأغلقت الباب عليها من الداخل ولم تخرج إلا في الثالثة فجرًا.

٧

قلت لنفسي، يا اختي الله يعينك على ما بلاكي، ولكن حتى متى تنتظرين الناس لتتحرك من أجلك وأنت لا تتحركين؟ حتى متى تربطين مصيرك بمصير هند التي تلوي بوزها أمامك أربعًا وعشرين ساعة

ولا تكلف خاطرها إذا قلت سلامًا أن تقول وعليكم السلام؟ لماذا تهتمين بها إلى هذا الحد؟ لماذا لا تخرجين في نصف الليل وتبحثين عن شقة أخرى ومكان آخر ولا يعود أحد يعرف طريقك؟

وبدأت أتحرك لأخرج من الشقة، وخرجت من الشقة ووجدت نفسي لا أزال في البيت. أنا أحلم إذن، أنا أحلم وأريد أن أفيق حتى أخرج من الحلم، وتنفست بعمق وخرجت من الحلم، وهناك في الصحو، خارج حدود الحلم، كانت الدنيا صفراء، قابلت شخصًا ودودًا وقال لي بس قولي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقلت أعوذ بالله من الشيطان ثم قلت له، أو قلت لنفسي، لحظة واحدة، لماذا عطشت الجيم وأنت تقول «الرجيم»، لماذا لم تقلها «الرجيم» كما نقولها كمصريين؟ ولم يرد ولكني عرفت في قلبي أنه شرير. وحاولت الصراخ ولم أستطع، قلت لو صرخت سينتهي كل شيء. وتبخر الشخص وأنا أحاول الصراخ، وصحوت أخيرًا على صوتي وأنا أصرخ. صحت هند أيضًا، فجريت إلى حضنها وقلت لها أنا خايفة يا هند. وحضنتني هند، لأول مرة منذ أيام، وقالت لي، معلش يا حورية. الأيام دي وحشة أوي. وحشة وحاشة مش طبيعية.

قالت لي هند إن الله موجود، وإنه ما دام موجودًا فلن يرضى بأن يُظلم أحد، وقلت لها بعد قليل ماشي بس الله لا يرضى أن نجلس وننتظر مصيرنا. وابتسمت هند.

قالت لي هند إنهم يحكموننا بالخوف، وقلت لها معلش أنا أعرف أن الخوف موجود، أنا أكثر واحدة تعرف أن الخوف موجود، ولكن لماذا نجلس خائفين ولا نخرج لنكسر خوفنا، والتمعت عيناها.

قالت لي هند إننا سننتصر، وقلت لها من نحن، فقالت نحن الشعب، نحن من لم نؤذِ أحدًا، قلت لها طيب ولكن من لم يؤذوا أحدًا سينتهي مصيرهم بأن يتأذوا. لنخرج ونتحدى هذا لمرة واحدة في حياتنا، وطبطبت عليَّ هند.

كانت هند تتحول أمامي، ملامحها والنمش في وجهها وشعرها الأحمر، كل يعود ليسكن في مكانه، كانت تعود أمامي لتصبح البنت الجميلة التي كانتها قبل ماسبيرو. وأنا كنت أراقب هذه المعجزة، هذه المعجزة التي هي تحول هند، وهذه المعجزة التي هي أنا، أنا الخارجة من كابوس وأعيد هند لما كانت عليه، أنا الخائفة التي تبدد خوف من حولها، أنا المعجزة. وجدت نفسي أهتف لها كأني أذكرها، الشعب يريد إسقاط النظام. ارتخت ملامحها تمامًا، وابتسمت، ثم همست بصوت خافت، الشعب يريد إسقاط النظام يا حرنكش. وصمتنا نحن الاثنتين ويدها في كفي، حتى قالت، تعالي نصلي في السيدة زينب. وابتسمت أنا أيضًا وقلت لها ياللا بينا. ونزلنا كما أردت في الحلم، لكن معها، كما لم أرد، لا يهم.

لم نقابل أشرارًا في الطريق، ولا أناسًا يعطشون الجيم، وأصلًا، فبمجرد أن لمس هواء الفجر الساقع وجهينا حتى نسيت كل شيء عن الحلم والكابوس. كنا نمشي على النيل، مسكت هند كفي وقالت لي ونحن نمشي، الشعب يريد إسقاط النظام، وقلت لها الشعب يريد إسقاط النظام، ببساطة هكذا، كأنها السلام عليكم وعليكم السلام، وعندما تمهلت سيارة بجانبنا ومضت تكلكس لنا أشرت لها بإصبعي الأوسط وهتفت فيها، الشعب يريد إسقاط النظام. وتجاوزتنا السيارة

وقالت لي هند، بقيتي ثورية يا حرنكش. وضحكت وقلت لها، عشان خاطر عيونك بس.

وفي الجامع لحقنا الفجر في ركعته الثانية، ثم جلسنا قليلًا حتى بدأ الجامع يغلق بابه فخرجنا، ونحن خارجتان قالت لي، أنا مش عارفة كنت هعمل ايه من غيرك يا حورية، انتي فيكي حاجة جميلة أوي، حاجة مش عارفة أوصفها. وأنا من جانبي امتلأت بالفرحة للمديح، ولكن أيضًا خطر على بالي وجه كمال، بصلعة وذقن رمادية أنيقة، وجه يأتي ويروح ولا يستقر في مكانه.

على العكس من المرات السابقة، فكرت أن ذكراه لا تهمني، وبشكل مفاجئ، فكرت أن ليس وجهه هو الذي يأتي ويروح، وإنما أنا التي كبرت كثيرًا، كبرت أكثر من كمال، انطلقت كثيرًا وطرت كثيرًا، ورأيت كمال من تحتي صغيرًا، توقفت عنده للحظة، هززت رأسي تحية له للحظة، ثم واصلت الطيران.

٨

في اليوم التالي فكرت حرنكش أنها ربما تكون شرموطة.

لماذا قالت الشعب يريد إسقاط النظام، لماذا قالت هذا بالتحديد في الأيام التي رغبت فيها في أن تقول عكسها تمامًا لهند؟ كانت تفكر وترد على نفسها، لا، أنا قلت لها هذا لأنها كانت تستحق أن أقول لها هذا، لأنها أطيب من أن أتركها وحيدة لتعتقد أن الشعب

لا يريد إسقاط النظام. أما أنا، عن نفسي، فأعرف جيدًا أن الشعب لا يريد شيئًا.

ولهذا، لإحساس حرنكش أنها شرموطة، أو أنها تشرمطت للحظة. فقد سعت إلى التطهر، بطريقتها طبعًا. عندما اتصل بها عم ناجي ليلة عيد الأضحى وعزمها على غداء العيد عنده في المرج وافقت فورًا. عم ناجي، بوصفه ينتمي إلى شعب آخر غير شعب هند، بوصفه ينتمي إلى شعب لا يريد إسقاط النظام، هو من سيفهمها.

كانت الأرض مخضبة بالدماء عندما دخلت حديقة الفيلَّا في الثانية عشرة ظهرًا، أنهار واسعة من الدماء تجري وتنصبُّ في بالوعات بساحة حديقة الفيلَّا، وبلاطات منزوعة من الأرض استقرت بها بحيرة دماء كثيفة. وعم ناجي يقف فوق شواية ويهَوي على الفَشَّة، بملابس ثقيلة هذه المرة، بالأحرى، ببالطو أسود قديم مفتوح فوق تي شيرت مموه بلون العسكرية المصرية. تقدمت بخجل منه وهو لا يراها، وعندما حانت منه التفاتة نحوها قال، كأنه يواصل كلامًا قديمًا معها، اصبري نص ساعة والأكل هيجهز، ميبقاش همك على بطنك كدا.

ضحكت ببلاهة ولم تجد ما ترد به عليه، كان يقف ويشوي بكل تركيز، ولم تعرف ما تفعله. في الغالب شعرت ببعض الحرج وهي واقفة بجانبه بلا شيء يشغل يديها، فقررت أن تبدي اهتمامًا بأي شيء. تمشت في الجنينة الصغيرة وتابعت ضفدعًا يتقافز داخل مسكبة نباتات على الأرض، جرت وراءه لتحاول الإمساك به ولم تستطع، حتى وجدت نفسها قرب باب الفيلَّا. نظرت نظرة متوجسة ناحية عم

ناجي حتى سمعت صوته ينادي وهو لا ينظر إليها، خشي يا بت جوا، دا بيتك يا كلبة نسيتي؟ فدخلت حرنكش، بتردد أولًا، ثم جمدت قلبها ودخلت.

لم يكن هذا بيتها كما قال عم ناجي، وإنما قضت فيه إجازات كثيرة، مع أبيها وأمها، في الأزمنة القديمة الطيبة. وعندما كانت تنام فيه كانت تنام في الطابق الثاني، هي في غرفة وأمها وأبوها في غرفة، ومن شباك غرفتها كانت تسمع نقيق الضفادع بعد المغرب وسط هدوء كامل. المرج لم تكن هكذا وقتها. ولا البيت نفسه كما يبدو.

كان البيت مظلمًا جدًّا من الداخل، مرت حرنكش على الشبابيك، وكانت تحفظ أماكنها، فوجدتها قد سُدت وبُني مكانها حجر أصبح جزءًا من الجدار. اكتأبت وأرادت الخروج لتسأل عم ناجي عن السبب، ولكنها استسلمت لغواية التجول في البيت.

صعدت إلى الطابق الثاني، حيث كان من المفترض أن توجد غرفتها، واستعانت بنور الموبايل وهي تطلع السلم لأنها كانت تذكر وجود درجة مكسورة، وفتحت النور ولم تكن هناك درجة مكسورة، إما أنها لا تذكر جيدًا أو أنهم أصلحوها. وفي الطابق الثاني مرت على الغرفة التي كان أبوها وأمها ينامان فيها، فتحتها ولم تجد السرير وإنما كراكيب كثيرة، غسالة صدئة وكراسي مرصوصة فوق بعضها، وترابيزة سفرة مائلة على جنبها لأن رجليها مكسورتان. عرجت بعدها على غرفتها، ولحسن حظها كان كل شيء موجودًا، كل شيء. سريرها الصغير، وصور ميكي على الجدار، وقطار كهربائي كانت تلعب به

كان متروكًا بقضبانه على مكتب وُضع مؤخرًا في الغرفة. وحتى الشباك الصغير الذي كان في الغرفة وسمعت منه سابقًا أصوات الضفادع، لم يُسد، تقريبًا هو الوحيد الذي لم يُسد في البيت. نظرت منه ووجدت عم ناجي تحت ما يزال يشوي ويجفف عرقه من الصهد الطالع من الشواية. جلست باسترخاء على السرير، بعد دقائق خلعت الجزمة ومددت جسمها وراحت في النوم.

صحت وهي لا تدري كم الساعة وأين هي. استغرق الأمر دقيقة حتى تذكر أنها في بيت عم ناجي، وأنها ترقد على السرير الذي طالما نامت عليه وهي طفلة. نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار ووجدتها السادسة والنصف. ارتعبت قليلًا لأنها بدأت تنام في الواحدة، ومعنى هذا أنها نامت خمس ساعات ونصف كاملة، وأين غداء العيد؟ وأين عم ناجي؟ ولماذا لم ينادها؟

ولكن الشمس كانت ما تزال طالعة من شباك الغرفة، والساعة على موبايلها كانت الواحدة والنصف، ومعنى هذا أنها نامت نصف ساعة فقط. ولم تكن ساعة الجدار معطلة، وإنما كانت تتكتك بمنتهى الوضوح، اقتربت منها ولاحظت أنه صحيح أن العقارب تتكتك ولكنها لا تتحرك، وذلك ببساطة لأن أرقام الساعة، وبالتحديد الثلاثة والستة والتسعة والاثني عشر، بارزة إلى الأمام بشدة، مما يجعل عقربي الدقائق والثواني يتعطلان لدى الوصول إليها ولا يتمكنان من العبور، فتتكتك الساعة ولا يمر الوقت. حاولت ليَّ العقربين إلى الخارج ليتحررا من قبضة الرقم ستة، ونجحت للحظة، ولكن بعد أن التويا عادا إلى مستواهما الطبيعي في ثوان. طيب، قالت حرنكش،

سيتحركان قليلًا ويشمان بعض الهواء ثم يتوقفان عند الرقم تسعة، إلى أن يأتي بطل همام، مثلي يعني، إحم يعني، بكل تواضع يعني، ليحررهما من الرقم تسعة، وابتسمت ونزلت.

تحت، في الحديقة، كان عم ناجي ومعه الطفل الذي رأته المرة السابقة، وطفل وامرأة آخران، يجهزان الترابيزة في الحديقة، ينقلان الأطباق والمعالق والعيش من داخل البيت إلى الترابيزة. انضمت إليهم حرنكش على أمل أن يوكلا لها مهمة محددة، ولما لم يحدث هذا فقد ظلت واقفة لا تعرف ماذا تفعل، إلى أن التفت إليها عم ناجي وسألها، خدتيلك جولة جوا؟ فهزت رأسها بالإيجاب، فقال لها، طب ما تمدي إيدك وتساعدي شوية بدل ما انتي واقفة كدا. ارتبكت أكثر وأرادت أن تسأله ماذا تفعل بالضبط، ولكنه سبقها وقال، روحي هاتي الملح والفلفل م المطبخ جوا. جرت سعيدة بمهمتها الجديدة، وزعق عليها وهي داخلة، إوعي تكوني نسيتي المطبخ فين. والتفتت إليه فوجدته يغمز لها.

جلسوا جميعًا وأكلوا، هي وعم ناجي والمرأة والطفلان. ولم يهتم عم ناجي بأن يعرفها بالمرأة والطفلين، وإنما اهتم بتعريفهم هم بها، حورية دي بقى اعز واحدة عليا، ابوها الله يرحمه كان أعز اصحابي، وهي ف مقام بنتي تمام، هي بنت عاقة وبت كلب صحيح، لكن ف مقام بنتي. صح يا بت؟ ونظر إليها فضحكت، ثم أضاف، وبعدين هي من شباب الثورة كمان. وانخضت حرنكش لأنها لم يسبق لها أن عرفت نفسها بأنها من شباب الثورة، كما لم يسبق لها أن عبرت له بأي شكل عن أنها مع الثورة. استغربت قليلًا.

ضحكت المرأة على كلمة «شباب الثورة» هذه، وقالت لحرنكش، أصل عمك ناجي يكره الثورة دي عما. وانفتح عم ناجي، ثورة ايه يا ام ثورة انتي كمان؟ هي دي ثورة، شوية صيع وبلطجية وتقولي لي ثورة. والتفت إليها وقال، لا مؤاخذة يا حرنكش. وضحكوا جميعًا وهي انكسفت قليلًا. وقامت المرأة وغرفت لحرنكش بعض الفتة في طبقها، ووجهت كلامها إليها، والله العظيم دا البلد شافت خراب ماشافتوش من قديم الأزل. انفعل عم ناجي وأضاف من جانبه، موجهًا كلامه إلى حرنكش هو الآخر، ثورة ايه؟ دا عامل شعره سمبوكسات ودي مبينة تلات تربع بزازها وتقولي لي ثورة؟ دا عيال ما يعلم بيها الا ربنا، وكل اللي عليهم حقي وحقي. دا سيدنا إبراهيم لما قال لابنه يَا بُنيَّ إنِّي أَرَى في المَنامِ أنِّي أَذبَحُكَ، قاله إيه الولد؟ يا أَبتِ افْعَلْ ما تُؤمَرُ سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللهُ، إن شاء الله، مِنَ الصَّابِرينَ. فما بالك دا نبي بيكلم نبي، وييجي عيل بشخة يقولك حقي؟ ياخي ينعل اللي نتعتك! وبان عليه الانفعال لدرجة أن سكت فجأة ليهدئ قلبه.

لم تقوَ حرنكش على رد الهجوم بأي شكل. وبشكل عام، فلم تكن متأكدة إن كانت هي المقصودة بهذا الهجوم أم أن عم ناجي خلط بينها وبين شخص آخر. فقط آثرت التريث حتى تمر العاصفة. وعندما مرت العاصفة، وبدأت أصوات خبط المعالق في الأطباق تجلجل من جديد، سألها بهدوء، انتي لسه قاعدة في التحرير؟ قالت له إنها ليست في التحرير، وإنها عندما رأته المرة السابقة كانت تسكن في طلعت حرب، أما الآن فهي تسكن في القصر العيني. مد يده ليأخذ قطعة رقاق من

الصينية ثم نظر إلى طبقه بكآبة وقال بصوت خافت، يعني في التحرير.
يئست حرنكش من الشرح ولم تعد تفهم كيف يفهم عم ناجي الكلام.
في النهاية قالت بخجل، أنا آسفة.

قبل أن تمشي أخذها عم ناجي جانبًا، وما لم يفلح في فعله سابقًا أفلح فيه عندها. أعطاها ظرفًا وقال إن فيه مبلغًا من المال، لكي تبحث عن شقة حلوة تنتقل إليها فورًا، بشرط ألا تكون في التحرير. وعندما ينتهي المال سينتظر اتصالًا منها ليعطيها مبلغًا آخر، وإن لم تتصل به فسيتصل هو بها، لا أعذار، لا حجج، فقط عليها أن تغادر التحرير حالًا. سيزن عليها ولن يرحمها حتى يتأكد أنها بخير في مكان آخر. حاولت أن تعتذر له ولكنه صرخ فيها، يا بنت الكلب هو انتي مش بنتي؟ بتتكبري على إيه انتي دلوقتي انا مش فاهم؟ ثم وجه إصبع السبابة باتجاهها، خلي بالك انا مش عاوز اقولك تعالي اقعدي معايا هنا، مع ان هو دا الصح وهو دا المفروض.

لم يكن أمامها سوى أن تأخذ الظرف بيد مرتعشة، وبعدها، في عربة السيدات بالمترو، فتحته ووجدت فيه عشرين ألف جنيه.

٩

كانوا يسيرون، هي وهند وأصدقاء لها، في شارع طلعت حرب باتجاه ميدان التحرير. جاعوا وعطشوا في الطريق فاشتروا شيبسي وبيبسي وحلويات، ومضوا يأكلون وهند تزغر لأي من يحاول رمي

النفايات في الشارع. كانت تمسك كيسًا وتقول، ارموها هنا، اعتبروني أنا صندوق الزبالة بتاعكم.

من أول طلعت حرب حتى آخره لم يروا صندوق زبالة واحدًا. كانت الأرض ممتلئة بالمخلَّفات من حولهم، وهند، وحدها فيما يبدو، كانت حريصة على الحفاظ على نظافة مدينتها. قرب الميدان وجدوا صندوق زبالة معلقًا على عمود نور. ركضت هند باتجاهه ورمت محتويات كيسها فيه. ولكن المحتويات وقعت على الأرض. كان الصندوق بلا قاع. وضحكوا جميعًا.

ميدان التحرير أجمل ميادين القاهرة. قال أبوها هذا مرة وهما يعبران فوق كوبري المشاة الذي كان يقطع الميدان من فوق. كان هذا بعد أن طلق أمها، والكلام كثير في حلقه ولكن المتاح خروجه قليل. قطع الصمت وأشار إلى الميدان المخضر من تحت وقال، أجمل ميادين القاهرة ميدان التحرير.

وقتها كان الميدان ممتلئًا بالحدائق الخضراء، وفي قلبه نافورة، وفيه موقف أوتوبيسات خلف المتحف المصري، وكان ترام مصر الجديدة يصل إليه رائقًا ومتهاديًا. سردت حورية على أصدقائها معالم الميدان القديم بكل تفاصيلها ليتخيلوا الصورة التي تستعيدها الآن في خيالها. كان اليوم انتصف وهم يجلسون في الساحة أمام مجمع التحرير، المكان الوحيد الذي لم يتغير من الميدان كما تعرفه، في مليونية جديدة تقوم ببطولتها من جديد الأنقبة والجلاليب والأسوكة، مع رائحة عفنة قادمة من دورة مياه الثورة في قلب الميدان. أشارت حرنكش إلى دورة المياه لتضفي مزيدًا من التناقض على صورة الميدان بالأمس واليوم.

قالت هند:

ـ الله! انتي بتحكي حلو أوي يا حرنكش. ما تكتبي الحاجات دي عالفيس.

ـ لأ، أتكسف، أتكسف عمومًا أحكي عن حاجات حصلت لي.

كانت الجلسة صافية ومليئة بأحاديث ودية مثل هذه، ولكن هند قطعتها لتقترح عليهم لعبة مثيرة؛ أن يهتف أحدهم أي هتاف ثوري، ويكرره الباقون، ثم ينتظرون رد الفعل من الجمهور الواسع، خلونا نشوف مين فينا ينفع يبقى قائد للجماهير!

وقاموا وبدأوا يتمشون في أنحاء الميدان، كي لا تحفظ الجماهير وجوههم. وهتف اثنان، ثم هتفت هند، وعندما جاء الدور على حرنكش حاولت التنصل ولكن جميع من حولها دفعوها. أصبح من المستحيل تجاهل التحدي، فهتفت يسقط يسقط حكم العسكر. كان هتافًا ضعيفًا ومثيرًا للشفقة وفاقدًا للإيقاع، ولم يردده وراءها سوى هند ورجل عابر. وانكسفت كثيرًا، ولكن هند سرعان ما التقطت منها النداء وكررت بحماس، يسقط يسقط حكم العسكر، فأصبح الاثنان عشرة أو خمسة عشر، فهتفت مجددًا، عسكر عسكر عسكر ليه، احنا ف سجن ولا إيه؟ وتحول الهتاف إلى مظاهرة صغيرة ضمن مئات المظاهرات التي ملأت التحرير يومها، وضحكت حرنكش وهي تنظر إلى هند وتغمز لها هذه. وبينما تغمز، ومن ضمن من يهتفون الآن، ميزت حرنكش صوتًا طفوليًا معروفًا لها، ميزته لأن إيقاعه لم يكن مضبوطًا على إيقاع الآخرين؛ كان يطيل الهتاف بعد أن يسكت الناس بثوانٍ، كان صوت طفل ببساطة، والتفتت حرنكش خلفها فرأت هيثم كمال.

دق قلبها بعنف، كأنها تعفرتت أو رش عليها أحدهم مية نار. مسكت هند وقالت لها إنها تريد الخروج حالًا، قالتها بصوت منخفض، لأنها لم ترغب أن يسمعها الولد. قالت هند استني خمس دقايق فقالت مفيش خمس دقايق ولا عشر دقايق، خرجيني دلوقتي. ولم تنتظرها وإنما أسرعت الخطو بسرعة وشقت صفوف الواقفين أمامها لدرجة أن البعض تصور أن هناك هجومًا للأمن، وبدأ البعض يجرون هم أيضًا على إثرها ثم توقفوا بعد ثوان، أما حرنكش فقد ظلت تهرول ولحقت هند بها حتى وصلتا إلى هارديز في طرف الميدان. وهناك، أمام هارديز، ومجمع التحرير يلوح أمامهما عملاقًا وصامدًا لا يزال، جلستا على الرصيف. أمسكت حرنكش بقلبها لتهدئه، وسألتها هند عما بها ولماذا جرت ولماذا خافت ولماذا هي متوترة لهذه الدرجة. قالت في الأول مافيش، ولكن عندما ألحت هند اعترفت، شفت واحد مش عاوزة اشوفه، واحد مابحبوش، واحد بيكهربني لما اشوفه. انتي بتتشاءمي يا هند؟

ردت بأنها لا تتشاءم، لإن كل الأشياء بيد ربنا وإن حرنكش تعرف هذا بالتأكيد لأنها امرأة مؤمنة، واعلم أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

أنا بقى بتشاءم فشخ، نطقت «فشخ» كأنها ولدت وهي تنطقها، كأنها كلمة عابرة لا تستدعي اهتمامًا.

في الأسانسير، والاثنتان صاعدتان، أعادت هند السؤال عن الشخص الذي رأته حرنكش، فقالت هذه إنها رأت الشخص الذي قتل محمود ابنها. سكتت هند للحظة، ثم سألت بصوت خافت وغير

مصدق، كمال؟ هزت حرنكش رأسها بعنف وكأنها تتوقع السؤال وقالت، لأ مش كمال. وأردفت، كمال ماقتلش ابني، وأردفت للمرة الأخيرة، ثم كمال مات خلاص. لم ترد هند. خرجتا من الأسانسير وصعدتا الطابق الأخير على السلم في صمت كامل.

١٠

رؤية هيثم سرَّعت حياة حرنكش، موَّنت عربتها بالبنزين فانطلق العَجَل.

حاولت إبعاد ذكرى وجه هيثم عن مخيلتها، ولم تستطع. كل ما خطر ببالها أربع كلمات، تأتي الواحدة في إثر الأخرى، «أسفل وأوسخ خلق الله». تحاول تذكر أشياء أخرى، تحاول التفكير في المظاهرات، الشيخ حازم أبو إسماعيل، المشير طنطاوي، هند، ثم يأتي أسفل وأوسخ خلق الله ليمسح هذه الأفكار بأستيكة ويمضي يتمختر أمامها. فتحت اللابتوب في اليوم التالي وكتبت ستاتوس، لو فيه طفل عنده اتناشر سنة بيتفرج على أفلام سكس، يبقى إيه نوعية الطفل دا غير إنه طفل زبالة؟ وهند بجانبها لا تكلمها، فقط تضع لايك على البوست، ولا تفهم على ماذا وضعت لايك.

أخذ الستاتوس عدة ساعات حتى ينضم إلى قائمة أكثر ستاتوهات حرنكش إثارة للجدل. علقت واحدة إن العيب ليس على الطفل وإنما على أهله، فردت حرنكش أن هذا يعني أن الأطفال ليسوا كائنات

مستقلة بذاتها، وإنما ملكيات خاصة للأهل، وأن هذا تفكير بدائي ومتخلف وهو السبب فيما وصلنا إليه. وقال آخر إنه وهو صغير، ربما أقل من عشر سنوات، كان يستمتع بمشاهد الراقصات العاريات في التلفزيون، فردت أن هذا أمر مختلف، وأنك عندما تشاهد التلفزيون غصبًا عنك فهذا يختلف عن أن تبحث بنفسك عن فيلم سكس لتشاهده على الكمبيوتر الخاص بك. وكانت منهمكة في الرد وتفنيد آراء الرومانسيين الذين يريدون دفع التهمة عن الأطفال بأي شكل، إلى أن لاحظت التناقص التدريجي للتعليقات على كلامها.

لم تفهم هذا إلا بعد ساعة. كانت الدنيا انفجرت في الخارج تمامًا، بدأت مذبحة محمد محمود ولم يعد أحد مشغولًا بالرد على هواجسها.

كلمتها هند في التلفون وقالت إن الدنيا مولعة بالخارج، تعالي لتتفرجي يا حرنكش، زي تمانية وعشرين يناير بالظبط. وحرنكش لم ترغب إلا في متابعة التعليقات على بوستها، ولم يكن بالها رائقًا لزفتة وزفتين يناير هذه، ولكن التعليقات خلاص لم تعد موجودة. الكل كان بدأ يتحدث عما يحدث في التحرير، وللمرة الألف يتحول الفيسبوك إلى ساحة حرب وتجد حرنكش نفسها ضائعة فيها. لهذا قررت ارتداء هدومها والنزول للحاق بهند.

وصلت إلى أول ميدان التحرير، وهناك على يسارها كانت الناس واقفة تتفرج، وعلى يمينها ساحة الحرب الحقيقية، شارع محمد محمود برائحة الغاز والدخان وأصوات الانفجارات الصادرة منه. كلمت هند على التلفون ولم تكن الشبكة شغالة. وقفت بين المتفرجين

لتتفرج هي الأخرى، وعين منها على محمد محمود، الذي توقعت أن ترى فيه هند، وعين أخرى على الميدان نفسه، حيث خافت أن ترى هيثم. ولكن هند أتتها بالتحديد من ورائها، من ناحية الميدان، قرصتها في وسطها وهي تهتف، يا مزة، وقبضت على كتفها وشدتها باتجاه شارع محمد محمود، ياللا ندخل المعمعة.

ابتسمت حرنكش وقررت دخول المعمعة معها بلا مقاومة. أمسكت كل منهما بكف صاحبتها وجرتا إلى داخل الشارع، وعلى مدخل محمد محمود وقفت مجموعة من الشباب ممسكين بأيدي بعضهم على هيئة جدار، وقال أحدهم لهما، مافيش حريم تدخل جوا، فدفعته هند بعيدًا وهي تقول، حريم في طيزك! ولكن ما أن اقتحمتا الجدار البشري، وفور ما أصبحتا بالداخل، وكان كل شيء سريعًا وخاطفًا ولا يثبت على حال، المناظر والأصوات والروائح، الأنين والهتافات وطلقات النار، حتى ماتت هند، أخذت طلقة في رأسها ووقعت بلا صوت وماتت.

شهقت حرنكش، ولم يسمع أحد شهقتها.

وطَّت على جسم صاحبتها لتتأكد، وكان كل شيء قد أصبح مؤكدًا ولا يحتمل التأويل، الجسد كأنه لعبة لا إرادة فيها، تسيل الدماء منه مختلطة بتراب الشارع فيتكون وحل أحمر وساخن بين أصابعها.

ارتعشت ووقفت مرعوبة، وأخذ الشباب ينتفضون من حولها ويصرخون، الداخلية بلطجية، وهي في مكانها لا تعرف ماذا تفعل.

أتت عربة الإسعاف، ووضع الشباب الجثة بالداخل، وصرخت امرأة عابرة، بنتي حبيبتي، وأزاحت الجميع وصعدت داخل عربة

الإسعاف، وحرنكش تتراجع للخلف خطوة وتندمج في جمهور المتفرجين على المشهد، وترى المرأة تحسس على هند وتبكي، وأثناء التحسيس والبكاء تمد يدها في شنطتها وتخرج موبايلها ومحفظتها وتدسهما في شنطتها بحركة سريعة. وحرنكش واقفة كالمسمرة، لا هي تستطيع طلوع عربية الإسعاف لتودع صاحبتها، ولا قطع يد الحرامية الكلبة، لا اقتحام المعمعة ولا العودة إلى الميدان.

جلست لدقائق على الرصيف تنظر إلى عربة الإسعاف المبتعدة حتى بدأ الجميع في الشارع يهرولون خارجين منه، والشباب يهتفون، اثبت، الداخلية بلطجية. أمسك بها أحد الشباب وأوقفها بالعافية وسحبها وراءه خروجًا من الشارع.

وفي الميدان، على صينيته المستديرة المقابلة لمجمع التحرير، تلفتت حولها، وخيل لها أنها لمحت من بعيد هيثم يعبر الشارع. فارتعبت ومدت الخطى للخروج ناظرة في الأرض. سمعت صوتًا يقول، تعالي خدي بس رايحة فين؟ فبدأت تجري باتجاه القصر العيني، هرولت بخطى متسارعة وقلبها يدق، ولم تتوقف لالتقاط أنفاسها إلا وهي في البيت.

هناك أغلقت الأبواب بالترابيس واستحمت، وتحت المياه الساخنة قررت أن تخرج لتكتب ستاتوس تنعي فيه صاحبتها، تحكي بالضبط ما حدث، وتصف سخونة الدماء في أصابعها، وتفتحه على البابليك.

ولكن ستاتوس كهذا من شأنه أن يطير، ويطيِّر اسمك معه، في كل أرجاء الفيسبوك يا حرنكش، إلى أي مدى أنت مستعدة لهذا؟ وانكسفت قليلًا من الشهرة المتوقعة التي قد تصيبها، كما خافت من

الصداع وقلبة الرأس والجدالات التي لا تنتهي، وقررت أنها غير مستعدة. وعندما خرجت من تحت الدش، وكانت نبضات قلبها قد عادت إلى معدلها الطبيعي، فتحت صفحة هند على الفيسبوك، وكتبت لها سؤالًا قصيرًا، انتي فين يا هند؟ بحاول اتصل بيكي وتلفونك مقفول.

١١

قبل موت هند، كانت حرنكش تعرف أنها ستموت. حلمت بهذا كثيرًا جدًّا، في كل ليلة تنام فيها، منذ الليلة الأولى التي جاءت فيها لتسكن معها في القصر العيني.

تنبأت بموتها، ولكن التفاصيل فقط كانت تختلف كل مرة.

قالت لنفسها في أحلامها، كلهم ماتوا، فلماذا لا تموت هي أيضًا؟ كانت هند تنام بجانبها على السرير نفسه، وتصحو حرنكش وتحاول إيقاظها ولكن هند لا ترد. تعرف حرنكش أنها ميتة فتواصل النوم بجانب الجثة. وفي حلم آخر ترى صبحي يرمي نفسه من أحد شبابيك شقتها، ومن شباك آخر يرمي كمال نفسه، ومن شباك ثالث ترمي هند نفسها، وعندما تنزل حرنكش لتحت تفاجأ أن أربع جثث ترقد على الرصيف، المنتحرين الثلاثة وبجانبهم محمود ابنها، كأنما نزل من السماء وليس من شباك الشقة. وفي صيغة مختلفة من الحلم يرمي النيل جثثًا كثيرة، وتميز جثة هند بينها.

كان موت هند بالنسبة إليها، في نقطة من وعيها، مسألة وقت فحسب. لم تعرف كيف تعبر عن هذا، لم تخبر به أحدًا. كل ما استطاعت قوله لهند هو، خلي بالك من نفسك. وهند كانت تطبطب على كتفها في حركة عفوية وساذجة، ولا تعرف من أين نبعت الجملة ولا إلى أين ستذهب.

ولكن بعد موتها، بعد موتها الحقيقي، لم تحلم بها حرنكش. الأصح أنها لم تحلم أصلًا. وأثار استغرابها هذا. هند كانت تحاصرها من جميع النواحي في صحوها، فلماذا لم تزرها في الحلم ولا مرة؟

كان نجم هند يعلو ويعلو كعادة الشهداء، وكثير من الصور تُنشر لها في أماكن وأوضاع وأوقات مختلفة. تفحصتها حرنكش جيدًا، درست كل تفاصيل صاحبتها، رأتها طفلة، ثم في الإعدادية، ثم الكلية، ثم وهي ترسم مع طلبة في شارع المعز، وفي المدرسة، «مدرسة الأفكار»، واقفة أمام الطلبة تطالع رسوماتهم، رأت صورًا لها مع زملاء وزميلات لها، ثم في ميدان التحرير، ثم ترفع علامة النصر بجانب دبابة يوم تنحي مبارك. رأت صورًا لها بالحجاب، وصورًا لها من غيره، وكل الصور كانت ملونة، وفي كلها كانت هند تبتسم، وفي بعضها تبتسم وتغمز، تغمز كأنها تنادي حرنكش، إيه يا مزة! ومع كل هذا فلم ترها في أحلامها، وما رأته في أحلامها كان أشياء لا يمكن حكيها.

كتب واحد من أصحاب هند: أنا عرفت هند في التحرير. واقدر اقول انها كانت أجمل بنت اعرفها في حياتي، مبتبطلش تضحك. كإن مش وشها اللي بيضحك، كإن روحها اللي بتضحك، كإن روحها

اتولدت وهي بتضحك، وكتبت أخرى: أنا من ساعة ما عرفت اللي حصل وانا مش مصدقة، وعارفة ان هند موجودة هنا لكن عاملة نفسها مش سامعة عشان دا مقلب من مقالبها، وكتبت ثالثة: النهارده الدنيا بتمطر والسما مغيمة وكئيبة، وجالي إحساس ان دا عشان هند مابقتش موجودة، مع السلامة يا نو، إحنا حياتنا هتبقى وحشة أوي من غيرك.

راقبت حرنكش كل هذا، وسجلت إعجابها بكل البوستات. وقابلت صاحبة العمارة وعزَّتها هذه وقالت لها إنها صحيح لن تغير العقد ليصبح باسم حورية، ولكنها تسمح لها في الوقت نفسه بالإقامة في البيت حتى موعد انتهائه، في شهر فبراير من العام القادم. أي بعد ثلاثة أشهر. وقالت حرنكش ماشي. وعادت إلى البيت ونامت ولم تر أحلامًا.

لم تحضر حرنكش دفنة هند، ولكن حضرت عزاءها، وكانت في جامع ما في المهندسين، وصلت بملابس ملونة وجلست مع السيدات، ولاحظت السيدات ملابسها ولم يعلقن سوى بالنظرات، واقتربن منها وتحدثن معها، ولكن لم يعرفنها. شعرت بنفسها غريبة، لأكثر من مرة تقول لواحدة أنا صاحبة هند اللي كنت ساكنة معاها، فتقول الواحدة، أيوه أيوه هند حكتلي عنك، ولا تكمل لأنها لا تملك شيئًا لتضيفه، لأن هند على الأرجح لم تحك عنها لأي شخص قط، عرفت هذا لأن ولا واحدة سألتها عن الملابس الملونة التي تلبسها. الجميع خفن منها.

واحدة فقط بفستان أسود قصير اقتربت منها وقالت لها انتي حرنكش؟ قالت حرنكش أيوه. مدت يدها بالسلام وقالت، أنا اسمي قمر، وهند

كانت بتحكيلي عنك على طول. مدت حرنكش يدها بالسلام وقالت أهلًا وسهلًا، وفي نقطة من ذاكرتها تذكرت قمر هذه.

قالت قمر، احنا مش لازم نقعد في العزا للآخر، تعالي نخرج شوية. وخرجتا، قمر بالأسود القصير وحرنكش بالملون المحتشم. عبرتا الشارع، واختفتا عن المعزين والمعزيات، وهنا فقط قالت حرنكش، أنا عارفاكي على فكرة، انتي بتغني صح؟ ابتسمت قمر وقالت، دا كان زمان وجبر.

عزمتها قمر على كافيه بشارع أحمد عرابي. قالت إنها تقيم في ستوكهولم الآن، وتحاول نسيان كل الخرا الذي في مصر. وإنها جاءت فقط لتحضر عزاء هند ثم ستعود على الفور. لكن المفارقة ان حتى العزا ماحضرتوش للآخر، قالت قمر وهي تبتسم، ثم وضعت عينيها في عيني حرنكش، وانتي بقى مش لابسة اسود ليه؟

ارتبكت حرنكش، ارتبكت وبان عليها الارتباك، وسكتت طويلًا، حاولت نطق كلمة فلم تطلع ثم كلمة أخرى فلم تطلع ثم سكتت، ولكن قمر، بابتسامة صلبة وعينين نفاذتين، لم تتوقف عن النظر إليها. كان لا بد إذن أن تتكلم حرنكش. طردت من ذهنها كل الكلمات المقطوعة التي خطرت على بالها وقالت كسم كل هذا، سأرتب جملة كاملة وأقولها، لماذا أخاف منها؟ وقالت الحقيقة.

أنا ابني مات من أقل من سنة يا ست، ومعاه جوزي كمان، ولبست اسود عليهم شوية، وبعدين قلعت الاسود، وبعدين دلوقتي فكرت إن ماينفعش كل شوية البس اسود واقلعه، عشان انا بحب اتعود على حاجة. هزت قمر رأسها بتفاهم، وطبطبت على كتف حرنكش.

تشجعت حرنكش بفضل دعم قمر. فواصلت الكلام، أصل انا ناس كتير بتسألني، هل يا ترى انا زعلت على هند أكتر ولا على ابني أكتر. والرد اللي عاوزة اقوله، الرد اللي كنت دايمًا بقوله، اني زعلت على محمود ابني اكتر حد. لإن محمود مات وهو عنده ست سنين، يعني عشت معاه ست سنين، بينما هند عشت معاها تمن شهور، يعني اتعودت على محمود أكتر مما اتعودت على هند تسع مرات. عشان كدا أنا بعتبر اني زعلت على محمود اكتر مما زعلت على هند.

ابتسمت قمر وقالت لها، كنت فاكراكي هتقوليلي عشان هند ماكانتش هتحبك تلبسي اسود وكل الكلام الفارغ دا. في الحقيقة ماكانش فيه أكأب من هند. انا عارفاها كويس، خابزاها وعاجناها، إحنا كنا متصاحبين زي ما انتي عارفة أكيد. ونظرت بقوة في عين حرنكش منتظرة الرد عن السؤال الذي لم تسأله، وحرنكش لم تكن تعرف ولكنها هزت رأسها بالإيجاب.

دفعت قمر الحساب وقامتا. قالت قمر إن طيارتها بعد ست ساعات وإن عليها العودة إلى البيت لتغير هدومها وتجري على المطار. وهما واقفتان تنتظران التاكسي أشارت حرنكش إلى الجامع وقالت، ماكانش حقهم عملوا العزا في الجامع دا. كان حقهم يعملوه في السيدة زينب. هند كانت بتحب السيدة. فردت قمر بسرعة كطلقة الرصاص، أنا مابحبش السيدة. مابتحبيش السيدة؟ آه لأ مابحبهاش. ولم تضف قمر، ولم ترد حرنكش.

جاء التاكسي فركبت قمر، ورمقت حرنكش العربة وهي تبتعد، وكان رقمها عبارة عن حروف القاف والميم والراء.

بقدر عال من الحب والكره والدهشة والنفور والاستثارة، وبمعدل ١٥٠ نبضة قلب في الدقيقة، تابعت حرنكش التاكسي الذي يبتعد. ثم أشارت إلى تاكسي آخر وركبت.

١٢

لم أرَ أحلامًا في هذه الفترة، أو أن أحلامي كانت فقط عبارة عن دوشة كبيرة، انفجارات في كل مكان، وأصوات هلع لا تقول شيئًا محددًا، وظلام دامس تقطعه بعض الألعاب النارية والشماريخ والدخان والحرائق، لا قصة أو مشهد أو جملة حوارية يمكن حكيها. كنت أنهي حلمًا من خمس دقائق، حلمًا بدخان ونار ورائحة غاز، وأصحو وأنام لأدخل في حلم آخر من خمس دقائق، بدخان ونار ورائحة غاز أيضًا. لهذا كرهت النوم وقتها، وحرصت على تأجيله ساعة بعد ساعة وأنا سهرانة على الفيسبوك أتابعه ولا يدخل عقلي شيء. وعندما كنت أنام كنت أحاول تصفية ذهني من أي شيء، وذهني لم يكن يصفو، وأحاول استدعاء محمود لأحلم به ولا أحلم به. أحاول تذكر ملامحه ونبرة صوته وأقول له يعني يرضيك تسيبني يا محمود دلوقتي وانا محتاجالك؟ ولا يرد محمود. وأحاول تذكر هند، وأقول لها لا تتركيني ها هنا وحيدة. يعني بذمتك ماوحشتكيش يا هند؟ ولا ترد هند أيضًا، ولا تأتي لتزورني أيضًا.

كانت فترة عصيبة جدًّا عليَّ، أصعب شيء على الواحدة، أنا أقول

«أصعب شيء» لأني أعرف أنه أصعب شيء، أن تحاول نسج حلم ولا تفلح. أُقرِّب الموضوع لكُنَّ؟ كل واحدة منكن أكيد تعرف كم كلمة بالإنجليزية، ولكن تعالي يا حلوة تكلمي مع واحدة بالإنجليزية. اعملي جملة تخصك. ستنسين الكلمات ولن تتذكري منها شيئًا ولن تبقى إلا همهمات بلا معنى، بالضبط مثل مشاهد الحريق التي كنت أحلم بها. كنت أجتهد وأحزق وأقول الآن سيؤدي حدث إلى حدث آخر ولا يحدث هذا، إلى أن وقعت المعجزة ورأيت حلمًا كبيرًا، حلمًا حقيقيًّا. وفي هذا الحلم ظهر وجه هند لأول مرة منذ زمن طويل، مضببًا وغير واضح، ولكنه ظهر.

كنت أقود جيشًا كبيرًا جدًّا، وكان حينًا يبدو على هيئة جنود بشريين، وحينًا على هيئة سرب من الفراش، وأنا نفسي أحيانًا أكون على هيئة إنسانة أو على هيئة فراشة. وكنا نحاول الوصول إلى ما خلف خطوط العدو. بجانبي أصدقائي وصديقاتي، الذين هم في الوقت نفسه أيضًا قادة الجيش، فراشًا وفراشات أحيانًا، وبيدي المدفع الرشاش، وأطلق النار على من أمامي بلا هوادة، ولكن طلقاتي لا تصل إلى أسوار العدو، تنطلق أمتارًا معدودة ثم تسقط ولا تكمل طريقها، لأن أسوار العدو كانت على بعد كيلومترات طويلة. أذكر منظرها جيدًا، غائمًا كأنما بفعل الشبورة على الطريق الزراعي. وتنطلق من جانب العدو طلقات رصاص، ويسقط أحد الرفاق بجانبي، وتسقط أخرى، والأخرى لها وجه هند، أرى وجهها يسقط تحت أقدامي ويتزحلق وأشوطه بعيدًا إلى مكان آمن تحت الأشجار، وأهتف لها أننا، نحن المسلمين، ندفن موتانا هكذا، ولا أيأس وأواصل التقدم.

وبين فريقي، بين فريقي الذي هو من لحمي ودمي والذي آكل وأشرب معه، يطلق بعض الأفراد النار على آخرين. أنظر إليهم فأعرف أن الخيانة تسللت إلى صفوفي. فأصوب عليهم المدفع، على الخونة، وأقتلهم واحدًا بعد الآخر، وعندما أنتهي من تصفيتهم لا يعود معي سوى خمسة أو ستة أفراد فحسب، والباقون ماتوا إما بفعل طلقات العدو أو طلقات عملاء العدو أو طلقاتي أنا. ولكن هنا بالتحديد، يملأ الإيمان قلبي أننا أوشكنا على الوصول إلى العدو، بالخمسة الذين معي. وننطلق كلنا بسرعة أكبر، كأن طاقة أكبر بكثير اندفعت في دمائنا، والمدفع الذي في يدي يتحول إلى شعلة، شعلة الحرية مثلًا، وأجري وأقفز فوق كل برك البنزين والمنحدرات وحفر النار، وأكتشف خائنًا آخر بين صفوفي فأنظر إليه فيموت، وفقط في النهاية، عندما أجد حتى الخمسة والستة الذين معي قد تساقطوا، في هذه اللحظة بالضبط أرمي الشعلة باتجاه أسوار العدو، وتنفجر الأسوار في حريق عظيم، وتنفجر برك البنزين من تحتي في فرقعات رهيبة، ويصفرُّ العالم بفعل النار، وأرى الأعداء وهم يشتعلون، والعدو الكبير وهو يتفحم وينصهر ويسيل وجهه على الأرض، وفقط عندما يكون العالم القديم قد تهدم كله، تخمد النار.

أرى العالم الجديد وهو يتشكل، براعم صغيرة تبدأ تزهر، وتيارات صغيرة من الماء تبدأ في التحول إلى شلالات، وندعة مياه خفيفة تنزل وتتشكل في جداول رفيعة سرعان ما تنضم لبعضها وتشكل أنهارًا كبيرة، تروي الأرض وتحول البراعم إلى أشجار وهكذا، وأنا أجلس بين الجميع كالبرنسيسة. تستغربن أني أحفظ الحلم بكل تفاصيله حتى

الآن؟ أنا تعبت بشدة حتى نسجته، تعبت وحزقت وعاندت ووحدت التكنيك، بالضبط كما علمني أبي. من منكن لديها أب مثل أبي؟

١٣

عندما صحت حرنكش من حلمها هذا، وكان قلبها يدق من الفرحة وروحها منتعشة، قررت العودة إلى السيدة زينب، في محاولة لمواصلة التجربة الروحية التي بدأت في الحلم، ولم تكن تتخيل أنها ستواصل بدقة كما خططت.

أخذت بعضها وهناك، أمام المقام المشع، لم تستطع البكاء، كما لم تستطع البكاء في الأيام السابقة أيضًا. جلست وريحت نفسها وحاولت ذرف الدموع أكثر من مرة، لأنها تذكرت أن الدموع تأتي بالاجتهاد، مثلما أن الحلم أتى بالاجتهاد. واجتهدت كثيرًا حتى تنزل الدموع، ويبدو أنها ظلت تجتهد حتى ندت عنها آهة ما، لأن المرأة التي تجلس بجانبها نظرت إليها، فاعتذرت حرنكش وقالت سوري. ثم أحست أنها لا بد أن تضيف كلمة ما، فقالت إنها منذ عدة أيام يخطر على بالها البكاء ولكن لا تستطيع، ولذلك فقد أتت هنا لتستطيع. المرأة، على غير عادة النساء في هذا المكان، بدت من الطبقة الوسطى، كانت تفتح الواتس آب على تلفونها ومشغولة بالرد على رسائل تصلها، وعلاوة على هذا فقد كانت سمراء، بدرجة لون حرنكش أو أدكن قليلًا. وصحيح أن مداخلة حرنكش أخذتها

من الواتس آب ولكن لم يبد أنها انزعجت، وإنما التفتت فورًا إلى حرنكش. قالت إنه أحيانًا ما يحدث هذا لها، وإنهم محظوظون لكون هناك نيل في مدينتهم، على عكس أناس كثيرين يعيشون في مصر، ولذلك فإن الحل الذي تفكر هي فيه دائمًا، الحل الذي يثمر دائمًا نتائج عظيمة، أن تسير بجانب النيل بلا هدف. وسألتها من أين أنت؟ قالت حرنكش إنها من القاهرة. قالت المرأة لا تنرفزيني، ليس هناك أحد من القاهرة. من أين أنت؟ اعترفت حرنكش أن أباها من كوم إمبو. فابتسمت المرأة وقالت لها أحسن ناس. أنا بقى من أسوان نفسها. شوفي يا حبيبتي، النيل يقسم القاهرة لقاهرتين، واحدة شرقية وأخرى غربية، والأخيرة اسمها الجيزة، إذن ضعي الجيزة على يمينك والقاهرة على يسارك، وسيري باتجاه الجنوب. باتجاه كوم إمبو نفسها. وحين تصلين هناك، حين تلمحين مدخل كوم إمبو، ويبدأ قمر بوبا في الظهور أمامك، سترتاحين أكثر. ووطت عليها ووشوشتها، الناس في القاهرة لا يفهمون هذه الأشياء. فقط نحن نفهمها. استغربت حرنكش وسألتها من نحن، من أين هي، فقالت لها احنا من النوبة يا حبيبتي، ما انا قلتلك. وشكرتها حرنكش على النصيحة وودعتها، وقبل أن تقوم قالت لها المرأة، سيبك م السيدة زينب دلوقتي، وروحي مطرح ما قلتلك. زي ما قلتلك، قمر بوبا يا حبيبتي. اوعي ماتروحيش.

عادت حرنكش إلى البيت وقلبها يدق لمرأى ملاكة الله التي ظهرت لها. فتحت اليوتيوب ومضت تبحث عن أغاني قمر عليه.

قلت من قبل إنني أتشاءم، ولكن لم أقل إنني أتفاءل أيضًا.

الحلم، ورؤية الملاكة النوبية والتعرف على قمر، كل هذا أهلني لمواجهة الحياة بعد رحيل هند. الحياة في القاهرة صعبة، ولكن من تعود على المشي في الشوارع، من تعود على مواجهة نظرات الرجال ولمس العربيات والميكروباصات للحمه، لن يعطله عن الحياة موت من حوله. قلت لنفسي، ستكون عيبة في حقي لو جلست في البيت أبكي. حرنكش من النوبة، الأميرة حرنكش من جبال النوبة، لا تبكي. الأميرة حرنكش فقط تنطلق وتهرس أعداءها. انطلقي يا حرنكش انطلقي.

أغاني قمر أهلتني أيضًا لمواجهة الحياة. بحثت عنها على اليوتيوب وأدمنتها. بدأتِ بفيديو من دقيقة ونصف، يا ناس أنا مت في حبه وجم الملايكة يحاسبوني وحدش كدا قال وبقينا أمثال، ثم آخر تجلس فيه بين الشباب وتدندن بمرارة، الخيانة ف دمِّك، أعوذ بالله منِّك. ثم قررت أخيرًا تشغيل أشهر فيديو لها، وأحد عناوينه على اليوتيوب كان، «شاهد ماذا حدث للمغنية المتناكة».

كانت تقف على المسرح وترثي قطها الذي توفاه الله من يومين، تحكي كيف تعود مشمش على إيقاظها في الصباح وعلى استقبالها عندما تدخل البيت، وفي أثناء الحكي، وبدون أن نعي النقلة التي حدثت، تهتف، القط مشمش مات يا بابا، تقولها بنبرة حزينة وغريبة ومنغمة، كأنها تضع الختم النهائي على قصتها، ولكن الختم النهائي يتضح أنه غير نهائي، وإنما يكشف عن مزيد ومزيد من الطبقات تتابعت بعده، والبيت سكت خالص يا بابا.

أكون عرفت أني الآن في الأغنية، في قلب الموال، وأني دخلته من دون أن أعي، ولا موسيقى شغالة في الأرجاء، فقط صوتها، وإذا سكتت فأنا أسمع الصمت الرهيب.

تواصل، وانا كنت ضد موته أصلًا.

أرتعش لأني أفهم كل شيء. أفهم معنى موت القطط ومعنى سكوت البيت ومعنى أن يكون المرء ضد موت أحبائه، قمر تغني باسمي، تعبر عني وعن كل ما لا أقدر على إخبار الناس به، ويبدو لي أن عينيها تلتمعان بالدموع وهي تختم موالها الحزين: علشان بخاف بالليل، ولا تكمل، تصمت لثوانٍ لأن صوتها تحشرج أو لأنها تعد الجمهور لاستقبال الكلمة النهائية في موالها، «يا بابا» الأخيرة، وفي هذه الثواني الأخيرة وبينما أعين الجمهور معلقة بها، يجعر شخص بعلو صوته: يا متناكة.

لم أستطع تمالك نفسي، ضحكت.

الله أعلم كيف كانت قمر ستنهي موالها، هذا شيء علمه عند الله، ولكني عن نفسي كنت واثقة أن لولا ما حدث كان ليمكنها إخراج أفضل موال مغنى بالعربية، أقوى موال وأروع موال. ومع هذا، ومع أن عينيَّ، مثلهما مثل عيون من حضروا الحفل، كانتا معلقتين بقمر أيضًا، فلم أتمالك نفسي من الضحك. حتى وأنا أراها، بعد انتهاء خناقة الشاب وصاحبته، تعيد الموال مجددًا، ولكن بنفس مكسورة وروح غير منطلقة هذه المرة، حتى هنا ضحكت، كأني أخرج بقايا ذيول الضحكة الطويلة المكركعة من أعماقي.

لمت نفسي بشدة بعدها على الضحكة التي انفجرت رغم أنفي، ولكن لم أتوقف عن التفكير في قمر، كأنها لبستني.

وصدقن أو لا تصدقن، صدقن مع أن هذا يبدو مستحيلًا، أني كلما سرت في شوارع القاهرة بعدها ودندنت، «القط مشمش مات يا بابا»، كنت أرى سيارات بألواح عليها كلمة «قمر». عشرات السيارات كانت تحاوطني من كل ناحية، وكل منها اسمها قمر.

وعندما حانت مني مرة التفاتة مفاجئة إلى اللوحة المعلقة في الشقة، اللوحة التي سبق أن رسمتها هند بنفسها، وفيها امرأة بشعر طويل ويغرق الرجال في أمواج شعرها وتتحطم أغلالهم هناك، قلت لنفسي هذه قمر، الوجه هو الوجه والشعر هو الشعر وحتى القرط في أذنها هو نفسه.

١٥

في هذه الأيام رفعت أول صورة بروفايل لي على الفيسبوك، كنت ألبس فستانًا بلا أكمام وقصيرًا بعض الشيء وأجلس في البيت، صورت الصورة لنفسي ووضعتها على الفيسبوك. قلت لنفسي آن الأوان أن يعرف الناس حرنكش، نجمة فيسبوكهم المحبوبة. بعض الردود كانت غبية على الصورة، كتب لي أحد زملاء المدرسة إن البقية في حياتي علشان هند، وأضاف، بس مش شايفة ان الوقت مش مناسب شوية للحاجات دي؟ وأضاف «هاهاها» إلى كلامه. مقرف.

ولكن في هذه الأيام أيضًا، وردًّا على الصورة في الغالب، بدأ أحدهم يكتب لي رسائل. كتب لي أنه يحب أن يتعرف عليَّ. وتبادلنا

الكلام عدة أيام، كنت زهقانة وبادلته الكلام بدافع الفضول، وشيئًا فشيئًا بدأ الكلام يدخل في مناطق عميقة. أنا لابسة إيه دلوقتي، وهو مش سعيد مع مراته وهذه الأشياء. لم أرغب في التورط. أو كنت راغبة ولكن خائفة. صارحته مرة، على استحياء، أن كل من أحبني تبهدل كثيرًا، واستعملت كلمة «تبهدل» لأني لم أقدر على قول الكلمة الحقيقية. فكتب لي إنه يحب البهدلة. قلت لنفسي الحمد لله، خلصت ضميري وقلت له. ولكن بيني وبين نفسي، لم أكن خلصت ضميري.

الحقيقة صعبة. لا أرغب في عزاء أو مواساة. أنا تزوجت صبحي ومات، وتزوجت كمال ومات، وأحببت هند وماتت. هل حُكم على كل من عرفني أن يموت؟ وما الذي عليَّ فعله، ماذا أفعل يا قمر؟ لا أرغب في مواصلة الطريق وحيدة، والطريق بطول النيل طويل، وكيف أسير فيه لا أكلم أحدًا ولا يكلمني أحد ولا أحب أحدًا ولا يحبني أحد؟ هذا أكثر قسوة مما أحتمل. دليني يا قمر، دليني يا من تزرعين اسمك على عربات القاهرة من حولي، دليني يا من لا تحبين السيدة زينب، ويا من ترين هذا أمرًا طبيعيًّا لا يستحق الشرح الطويل. دليني يا من تملكين أشياء كثيرة ومهمة وذكية لتقوليها.

في هذه الليالي الباردة، وأنا أجلس على الروف والسقعة تخترق عظامي، وأنا جالسة أنظر إلى الشارع مغطاة ببطانية سميكة لا تُظهر إلا عينيَّ وطرفًا من وجهي، كنت أنادي قمر، وكان القمر يلوح غائمًا من وراء السحب.

في هذه الليالي الباردة ذكرتني قمر بحسين. قالت لي اسألي عنه،

ما أخباره وماذا يفعل؟ اسألي عنه وسيحل هذا مشاكل كثيرة لديك. انزعجتُ وحاولت استبعاد ما خمنته وسألتها، حسين مين؟ قالت، حسين الذي دقَّ فيكِ أول مسمار. قلت لها إن حسين بعيد جدًّا، وكيف أعرف أين هو أو ماذا يفعل، فقالت لي، لا تستهبلي يا حبيبتي. منذ متى تهمك المسافات؟

١٦

في شقة البحر الأعظم، تقع سندرة رُكنت فيها لعب وكراكيب كثيرة.

في الصباح اتجهت حرنكش إلى بيت مراهقتها. سارت بمحاذاة النيل جنوبًا إلى المنيل، إلى شارع البحر الأعظم. دقت الباب ففتحت لها سميحة، زوجة أبيها، وأدخلتها وضايفتها بالشاي وبعض الكحك المتبقي من عيد الفطر البعيد. جلستا وساد بينهما صمت طويل، لأن حرنكش لم تعرف ماذا تقول ولم تكن لديها طاقة لتقول وتعلي صوتها حتى تسمعها طنط. بعد عشر دقائق صاحت حرنكش، أنا عاوزة أطلع السندرة يا طنط. انفزعت طنط من الصيحة المفاجئة وطلبت منها أن تعيد ما قالته، ولكنها، قبل أن تعيده حرنكش، استطاعت تفسيره. ارتكنت على الكنبة وأشارت بنظرة لامبالية إلى غرفة السندرة الواقعة فوق الحمَّام مباشرة. السلم فين يا طنط؟ أشارت طنط إلى السلم في المطبخ فقامت حرنكش لتحضره. سندته على إفريز باب الحمَّام حتى

سألتها طنط، بس ليه؟ التفتت إليها وقالت، فيه شوية ورق قديم عاوزاه ف شغل.

صعدت حرنكش درجات السلم النقال. وصلت إلى السندرة الواطئة منحنية وهي تدخلها. في أحد أركان السندرة، الركن الذي يقع فوق بانيو الحمَّام بالضبط، تكوم كثير من كراريس وملازم وكشاكيل المحاضرات من أيام الكلية. قرفصت على الأرض مخاطرة بنظافة ملابسها. ومضت تفر في صفحات الكشاكيل، واحدة وراء الأخرى. كحَّت كثيرًا وذرات التراب تطير من الورق إلى أنفها، إلى أن عثرت على الكشكول المرغوب، الكشكول الذي سبق أن أعطته لحسين في الكلية وكان سببًا في قصة الغرام التي دارت بينهما قديمًا.

مع أن هذا الكشكول هو ما جاء بحرنكش إلى هنا، إلا أنه لم يكن أكبر غنيمة تحصل عليها، وإنما كانت تلك كراسة صغيرة بصفحات قليلة، وبمسافات واسعة بين الأسطر كأنها معدة لتدريب الأطفال على الخط الجميل. وكانت تحوي قصيدة من تأليف المقدم إسماعيل عبد المولى، بعنوان «بكرة الدنيا هتحلو، والعصافير هتطير في الجو».

شهقت حرنكش شهقة فرح سرعان ما أعقبتها الدموع، ونزلت الدموع على الصفحات المتربة وخلَّفت برك وحل صغيرة على الأوراق. أخرجت جميع الدموع المخزونة في عينيها منذ غيب الموت صاحبتها. وعندما انتهى المخزون، اتجهت إلى باب السندرة واسترقت نظرة لطنط سميحة لتتأكد أنها لم تسمعها، وكانت هذه

نعسانة وراكنة رأسها على الكنبة وفمها مفتوح وأمامها التلفزيون بصوت عال وطاولة عليها الكحك والشاي.

أمسكت بالكراسة التي تحوي قصيدة أبيها، وبسائر الكشاكيل وملازم الورق، ورمتها كلها من باب السندرة على أرض الشقة تحت. وهنا انتبهت طنط سميحة من غفوتها وشهقت خوفًا. وكانت سحب الغبار تتطاير من الكشاكيل. ورفعت سميحة رأسها إلى حرنكش فابتسمت هذه اعتذارًا، ونزلت على السلم.

وتحت، أخذت حرنكش الكشاكيل إلى الحمَّام ومضت تنظفها من الغبار بفرشة، ووضعتها كلها في كيس نايلون. وباست طنط سميحة على جبينها ومشت.

١٧

في كشكول المحاضرات كان مدونًا عنوان حسين عبد الرحيم شحاتة ورقم تلفونه. وكان هذا في الأصل هو ما دفع حورية لرحلتها القصيرة إلى البحر الأعظم.

والرحلة القصيرة أعقبتها رحلة طويلة. جربت الاتصال برقم حبيبها الأول، فأتاها الرد بأن الرقم الذي طلبته غير موجود بالخدمة. فقررت أخذ الميكروباص إلى بني سويف.

في الصباح لبست عدة الحرب؛ حجابًا وبنطلونًا وتيشيرتًا ومن فوق عباءة سوداء، الحجاب نفسه والعباءة نفسها اللذان صاحباها

لأسبوعين على رصيف وسط البلد. ومن موقف عبود أخذت ميكروباصًا جنوبًا إلى بني سويف. مضت في الطريق تقرأ قصيدة أبيها، وتبتسم ويختلج قلبها امتنانًا للأيام القديمة الحلوة.

وفي إهناسيا، شارع ترعة السلطان، حيث يقطن حسين عبد الرحيم شحاتة، مضت تبحث عن العمارة رقم ١٥. رأت امرأة منقبة تخرج فسألتها، لو سمحتي يا أستاذة، عيلة عبد الرحيم شحاتة ساكنة هنا؟ لم تكن المرأة من هنا ومشت سريعًا، فانتظرت امرأة أخرى حتى خرجت بنت من العمارة، سألتها البنت أنهي عبد الرحيم شحاتة، فقالت لها هذا الذي له ابن اسمه حسين. استغربت البنت وقالت، أنا أخته، وأمسكت بيد حرنكش وقالت لها تعالي، وأخذتها إلى محل موبايلات قريب ونادت من الخارج، يا حسين.

من محل الموبايلات خرج حسين، رجل بكرش وذقن متسخة بالشعر وقميص ذبلان مع بقع من العرق تحت إبطيه، نظر إلى المرأة التي أمامه وقال لها خير؟ قالت له عاوزة كارت اتصالات. نظرت الأخت لها واطمأنت لعادية الموضوع ومشت. أعطاها حسين كارت الشحن وأعطته الفلوس، ونظرت إلى الأسفل قليلًا، نظرة غير ملحوظة، لما بين رجليه، ولم تر المسمار لأن قميصه الذبلان كان يغطيه. ومشت ولم يعرفها.

في الميكروباص من إهناسيا إلى بني سويف قالت لنفسها حلو، أول حبيب في حياتي، الحبيب المؤسس والمركزي هذا، لا يزال موجودًا، حيًّا يرزق، ويعمل ويتاجر في كروت الشحن. ليس مكتوبًا عليَّ أن أسير وحيدة. أنا لست مشؤومة يا قمر، أنا لست وحشة زيادة

عن اللزوم، وبالتأكيد أيضًا ولا حلوة زيادة عن اللزوم. أنا عادية. وكان قلبها هادئًا وروحها مطمئنة.

أحست بنفسها، لأول مرة منذ زمن طويل جدًا، كأنها مثل بقية الناس، وأن بإمكانها إيقاف أي سائر في الشارع لتقول له أنا زيي زيك، أنا لست أقل منك ولا أنت أحسن مني. بشكل عام ليس هناك أحد أحسن من أحد، ولكن بشكل خاص فأنت لست أحسن مني.

في الميكروباص المتجه من إهناسيا إلى بني سويف، وعلى الكرسي القلاب الذي كان من نصيبها، واصلت التفكير في عاديتها وفي كونها غير ملحوظة بين النساء، ولا قصة حياتها تختلف عن قصص حياة باقي النساء، وارتاحت كثيرًا لهذا حتى إنها ركنت جسمها على ظهر الكرسي، وظلت ترجع بظهرها إلى الخلف وتسترخي إلى أن شعرت بركبة الجالس من ورائها تنغرس بقوة في ظهرها. في الأول لم تهتم، ولكن عندما وطى الرجل، وسرب كفه من تحت قطع غير ملحوظ في عباءتها، ناحية الخصر، بدأت تفكر في الانتقام. تركت الكف تنساب وصولًا إلى فخذها، فوق البنطلون الجينز، وعندها فقط فكت دبوس حجابها، وغرسته بقوة شديدة وغير مكبوحة في ظهر كفه. صرخ الرجل وهلع الركاب وتوقف الميكروباص. هنا، بعد أن تبللت عباءتها بنقط الدماء، تركت حرنكش الدبوس، والتفتت للرجل بابتسامة واسعة وهي تقول، بلا استعجال أو كروتة، معطية كل حرف حقه، يا ابن الكلب يا زبالة. ثم أدارت رأسها للسواق بتمهل أيضًا وبدون أن تغادر شفتيها الابتسامة الواسعة ونادته، نزلني هنا يا اسطى من فضلك، وكنا قبل المحطة بأمتار معدودة، ونزلت بخطوات بطيئة واثقة بنفسها.

هنا عرفت حرنكش أنها ليست امرأة عادية، أنها أحسن قليلًا من العادية. ونظرت إلى السماء، وكانت الدنيا ليلًا، وشكرت قمر من أعماق نفسها على اقتراحها. أسديتِ لي خدمة عمري يا قمر. وتمشت إلى بني سويف. وهناك ركبت ميكروباصًا ثانيًا إلى القاهرة.

في الميكروباص الثاني جلست وراء السواق، والشباك على يسارها. وقبل أن تكتمل العربة بالزبائن ارتكنت ميتة من التعب على الزجاج، وصحيح أنه كان مضببًا بفعل الشبورة، ولكن أمكنها أن تلمح عليه انعكاس طفل ما جاء ليجلس بجانبها، طفل بأيس كاب يأكل نصف وجهه. لم تتحقق من ملامحه وواصلت ركن رأسها على الشباك. ثم بدأت الأفكار تقتحمها وتدفعها بعيدًا وهي لا تجرؤ على النظر إلى الطفل على يمينها، ولا إلى انعكاسه على يسارها. وعندما تحركت العربية، أحست بكف ثانية على فخذها الأيمن، كف حنونة هذه المرة، غير الكف الأولى في العربية الأولى. نظرت إلى مصدرها فوجدت محمود ابنها فعلًا هو من يجلس بجانبها، ظلت تحدق فيه فاقدة النطق، وظل الولد ناظرًا إليها في ثبات، حتى سألها في النهاية بنصف ابتسامة، إزيك يا مامي؟

استوعبت حرنكش المفاجأة في نفسها، لم تصرخ أو تنفعل، كانت بشكل ما، هذا ما قالته لنفسها فيما بعد، مؤهلة لمواجهته، كانت تعرف أنها ستراه أخيرًا. بعد دقيقتين كاملتين ابتسمت وقالت له أخيرًا يعني؟ أخيرًا افتكرت ان ليك أم؟ إنت ابن إنت؟

سألته أين هو فقال لها إنه يعيش هنا، وسألته أين هنا فأشار إلى مكان غير محدد على اليمين وقال هنا. لاحظت أظافره المتسخة

وهو يشير بإصبعه، فقالت له إيه دا يا محمود؟ وغضبت عليه ولكن لم تصرح بهذا، لأن الوقت كان غير مناسب. ما استطاعت قوله هو إنه أصبح يشبه أطفال الشوارع، فقال لها، أيوه، كنت عارف انك هتقولي كدا. وضحكت هي رغمًا عنها، قالت يعني خلاص؟ كلامي مابقاش يفرق معاك؟ مامي بقت مملة خلاص؟ وقال لها بطلي بقى، مانتي عارفة انه مش قصدي. وضحك الاثنان معًا.

تكلما كثيرًا طول الرحلة إلى القاهرة. قال إن الفترة التي افترقا فيها كانت صعبة عليه، وهو يعرف إنها كانت صعبة عليها هي أيضًا. وأحيانًا كان يسأل نفسه، إذا كانت هي واحشاه لهذه الدرجة، فلماذا لا يعود ليعيش معها. وانتظرت هي إجابة عن السؤال، ولكنه صمت، صمت كأنه أنهى جملة. سألت، وماجيتش ليه بقى؟ أحنى رأسه إلى الأسفل وقال بصوت خافت، كنت زعلان منك شوية.

يا مامي انا هكلمك بصراحة، أنا كنت كل شوية باقول طيب ما ياللا واجيلك وخلاص، بس انا حسيت ان مينفعش، ان لازم انتي اللي تجيلي، عشان انتي اللي سبتيني. نظرت إليه بعنف، أنا سبتك، ولا انت اللي سبتني، مين فينا ساب التاني يا محمود؟ لم يردعه هجومها العاصف وواصل هجومه الحزين، انتي أصلًا كنتي مصدقة ان انا باكل عضم الفراخ صح؟

اندفعت حرنكش لتنفي عن نفسها التهمة بكل الصور، قالت إنها أبدًا أبدًا لم تصدق. وإن مأساة حياتها أنها لم تصدق، وإن من صدقوا كانوا آخرين، آخرين تكرههم، آخرين تعرفهم بالاسم وتعرف أين هم وسينتهي بك الأمر لأن تسمع عنهم أخبارًا تفرحك.

يا محمود يا حبيبي وحياتك ماتظلمنيش، أنا الدنيا كلها ظلمتني ومش عاوزاك انت كمان تيجي تكمل عليا. وذرفت دمعة وهي تقول هذا. فطبطب على فخذها وقال لها، خلاص يا مامي، صافي يا لبن. قالت بصوت مخنوق من أثر البكاء وهي تبتسم، حليب يا قشطة.

تغير محمود قليلًا منذ كان معها. لم يعد يرتدي نظارة، وخط من شنب أخضر ظهر أعلى شفتيه، كما طال شعره كثيرًا، بالإضافة إلى أظافر شديدة الاتساخ، وكلام طليق ومسترسل لا يعوقه شيء. كل شيء فيه كان يدفع حرنكش للتفكير في أن التجربة أنضجته. هو نفسه قال لها ما يشبه هذا. حكى لها أنه تحرك في أماكن كثيرة، واكتسب خبرات حياتية مختلفة، عاشر أناسًا مختلفين وأكل أطعمة مختلفة وأصبح له أصحاب كثيرون من كل الأماكن. وعلى قدر ما كان يتحرك كان يتابعها أيضًا. هو يعرف أنها تسكن في القصر العيني الآن، وأنها قبلها كانت في طلعت حرب، وحزن بشدة عندما ماتت طنط هند، لأنها كانت مثل خالة له، أو أمًّا ثانية. حزن ولم يعرف كيف يعبر لها عن هذا لأنه كان ينتظرها حتى تأتي هي وتعتذر له. وحضنته هي مرة ثانية حضنًا مطولًا، وشمت وهي تحضنه رائحة منتنة تنبعث من قميصه. قالت له كدا يا محمود؟ بقالك قد ايه ماستحمتش قل لي؟ هز كتفيه وقال، عادي يعني، كلنا لينا الحق في الغرابة. وضحكت بصوت عالٍ التفت له الراكب أمامها، ذلك الذي يجلس بجانب السواق. ضحكت وغاصت بظهرها في الكرسي، ولم تنغرس ركبة الجالس وراءها في ظهرها هذه المرة،

لأنها هذه المرة، على خلاف المرة الأولى، كانت بصحبة رجل. التفتت إليه وقالت، انت من دلوقتي الراجل بتاعي يا محمود. صح يا بابا؟ فقال لها صح يا ماما. وخدت بالك يا محمود ان حسين طلع لسه عايش؟ خدت بالي، أنا كنت عاوز اقولك كدا من الأول عشان ماتبقيش متضايقة، بس كنت مستني لغاية ما تيجي انتي ليا وتعتذريلي. وابتسمت وقالت حصل خير.

كانت متعبة من أثر المشوار، قالت إنها ستنام قليلًا، وطلبت منه إيقاظها عندما يصلون القاهرة. هز رأسه ولم ينطق. وركنت رأسها على الشباك وحاولت النوم، وتأخر هذا كثيرًا لأن قلبها كان يدق من فرط الإثارة، ولكن في لحظة معينة اختلط فيها كل شيء بكل شيء في ذهنها وبدا أنها على وشك النوم فعلًا، سمعت صوت محمود من جانبها، على إيدك يا اسطى هنا. توقف السواق ونزل محمود، وأفاقت هي، وعندما انتبهت كانت العربية بدأت تتحرك من جديد. صرخت في السواق حتى يتوقف عن الحركة، والتفت إليها ونظرت باتجاه محمود ورأته يتجه بعيدًا كمن لا ينوي العودة. استوعبت الوضع وقالت للأسطى، لا خلاص معلش كمل طريقك. وأكملت الطريق إلى القاهرة بدون محمود.

اكتفت منه بهذه المحادثة القصيرة، وعرفت أنه سيعود إليها مرة أخرى بعد أن تصالحا، لأنها وهي راكنة رأسها على الشباك وتروح في النوم، رأت محمود وهو يرقد على هيثم ويشبعه ضربًا.

ونظرت خلفها، باتجاه النقطة التي نزل فيها محمود. ابتسمت بحب كبير وبدأت التخطيط لقتل هيثم.

١٨

من الأول خالص، من بداية البداية، أنا لم أدن كمال بقتل محمود. كمال كان معذورًا، كانت له أم شرموطة وابن وسخ. وهذان الاثنان بالتحديد، الوسخ والشرموطة، هما من ينبغي توجيه أصابع الاتهام إليهما، لا كمال الذي كان ضحية مثلما كنت أنا ضحية، وأكثر مني. الأم الشرموطة سبق وقتلتها، ولكن الابن الوسخ، ودوره في مقتل محمود هو الدور الأساسي هنا، هذا الابن ماذا سنفعل معه؟ العدل أن يموت القاتل، صح؟ هذا ما أعرفه، وهذا ما يعرفه الجميع وإن كانوا ينكرونه، خوفًا أو استهبالاً.

لساعات ظللت على الفيسبوك أبحث عن اسم هيثم كمال وأجرب كل الهجاءات الممكنة لاسمه، حتى وجدته، وأرسلت إليه طلب إضافة. وقضيت ليالي طويلة وأنا أفتش في صفحته على الفيسبوك، أردت أن أعرف ماذا يفعل وإلى أين يذهب، وأين يمكن أن أجده لأقتله ليصبح العالم أجمل ولو قليلًا. في هذه الأيام قلت لنفسي خلاص، سأقتله وأسلم نفسي للبوليس وأذهب إلى السجن، وفي السجن سأجد محمود. كنت أعرف أني سأجده في السجن. محمود ليس ابنًا عاقًّا، قلت لنفسي، أنا أعرفه جيدًا. لليالٍ طويلة خططت لقتل هيثم وللمجيء إليكن هنا، في سجن القناطر هذا، ونتونس ببعضنا وبالصحبة الحلوة. لأنني وأنا أبحث عن هيثم على الفيسبوك، كنت أبحث أيضًا على جوجل عن سجن القناطر. كنت أريد أن آخذ جميع احتياطاتي. وحضرت أيضًا عدة غيارات وفرشة أسنان. لم أحب أن

أترك شيئًا للصدفة. عندما يأخذونني إلى السجن، عندما آخذ نفسي إلى السجن، أحب أن أكون جاهزة.

قبل هيثم صداقتي، وأرسلت له أقول إنه واحشني، ورد عليَّ وقال إنه رآني مرة في مظاهرات ماسبيرو. وكان يكتب بالفرانكو-أراب التي كنت أجتهد لفك شفراتها. ولم نكرر المحادثة بيننا بعد هذا. لم أرغب إطلاقًا في الكذب. الكذب كان آخر شيء أفكر فيه، وإلى الآن لا يسامحني ضميري لأنني كذبت عندما قلت له إنه واحشني. وإلى الآن أكاد أرجِّع ما ببطني عندما أفكر في هذا. هناك شيء مقرف في الكذب، مقرف وغير محتمل ويقلب المعدة.

كنا في عز الشتاء، في عز الفصل الدراسي، وهيثم ينزل كل يوم من بيت عمه في الدقي ليركب الباص المتجه إلى مدرسته في الجيزة. ماذا لو وقفت على الرصيف المقابل وأطلقت النار ثم سلمت نفسي؟ ماذا لو انتظرته أمام باب مدرسته وأطلقت النار ثم سلمت نفسي؟ وماذا عن عاطف؟

لم يتصل بي عاطف من فترة طويلة جدًّا، ربما منذ أن ماتت أمه وحللنا كل موضوع الورث هذا، باستثناء بعض اللايكات على صوري التي أضعها على الفيس. ولكني في أعماق نفسي، لم أرغب في إيذائه. عاطف كان ملاكًا في نظري، أكثر من ملاك في الحقيقة. أذكر تفهمه وحنانه ورغبته في المساعدة غير المشروطة. لم أرغب في إيذاء عاطف أبدًا. ماذا نفعل إذن؟ أخبريني يا قمر ماذا أفعل، قلن لي أنتن ماذا أفعل؟ على العموم، هذا مجرد سؤال، أعني أن هذا ليس سؤالًا أطلب إجابة عنه، لأن القدر فيما بعد هو ما أخبرني ماذا أفعل.

١٩

في أحد هذه الصباحات الشتوية رفعت حرنكش تلفونًا إلى عم ناجي. قالت له إنها تحتاجه ضروري، لأمر لا يمكنها التصريح به في التلفون، وهو أمر شخصي هذه المرة، من أجلها هي، لا من أجل أي ست بتنضف البيت. وتحتاجه يعني تريده في خدمة. والعم ناجي، الذي كان ينتظر من زمان أن تقول له حرنكش إنها تحتاجه، لم يكسفها. قال لها إن أيًّا كان ما تحتاجه لأجله، أي شيء، من أصغر شيء إلى أكبر شيء، ستحضر وتجده أمامها. كارت بلانش أمامها الآن.

في حديقة بيت المرج جلسا كالعادة، وقالت له إنها لم تستطع الانتقال خارج ميدان التحرير، لا تزال تبحث عن شقة خارج الميدان، وكل يوم يسوء الوضع عما هو عليه، ومنذ أسابيع انفجرت معارك ضخمة واجتاح الناس الشارع من تحتها، بل وصعدوا إلى الدور الأول بالعمارة، وأنا امرأة أسكن وحدي ولم أتعرض من قبل لشيء كهذا وأوشكت أن أموت رعبًا. أنا أريد مسدسًا يا عم ناجي.

أنصت عم ناجي باهتمام شديد. ثم غادرها ودخل البيت، وعاد يحمل مسدسًا ملفوفًا في ورق سلوفان وأكياس نايلون كثيرة، باسه بشفتيه ثم أعطاها إياه، اللي يقرب منك اضربي نار في طيزه، في طيزه باقول لك. وضعت المسدس في شنطتها، وصمتت دقيقة ثم قالت، أنا طول الوقت كنت بازنّ على بابا علشان تتصالحوا يا عم ناجي. عمري ما صدقت أي حاجة اتقالت عليك. أُخذ بهذه الجملة، بوغت ولم يعرف كيف يرد. بعد قليل فقط أجهش بالبكاء. بكى كأنه

طفل صغير. العم الرهيب أخذ ينهنه. عندما انتهت الدموع، مسح أنفه بكم جاكته، ووضع كفه على كفها وقال شكرًا يا بنتي. وعندما تودعا حضنا بعض طويلًا.

٢٠

لم تفقد حرنكش أبدًا ثقتها في قدرتها على النشان. في كل مكان كانت تمشي فيه كانت تحدد هدفًا بعيدًا، تفرد سبابتها وتطلق النار. كانت تتدرب على النشان فقط بعينيها وإصبعها. ولكن لم تفقد ثقتها بنفسها أبدًا.

في هذه الأيام عرفت حرنكش عدوها ـ هيثم ـ وأداتها ـ المسدس ـ وما لم تعرفه هو الزمان والمكان، أين وكيف يمكنها إطلاق النار على هيثم والتخلص، مرة واحدة وإلى الأبد، من العدو. درست جميع الاحتمالات. انهوست بمتابعة صفحة الطفل. كانت ترغب في رصد أي مكان يذهب إليه وحيدًا، بعيدًا عن أعين الناس، لتتخلص منه وتنهي هذا الفصل من حياتها وتبدأ فصلًا جديدًا في السجن.

ماكنتش عاوزة البوليس يمسكني. أكتر حاجة مكنتش عاوزاها إن البوليس يمسكني. كنت عاوزة أموته، ومحدش يعرف إني موته، وأروح القسم بنفسي واسلم نفسي واقول اني موته. هكذا تقول حرنكش، وتضيف إن هذا فقط هو ما كان كفيلًا بجعل عاطف يسامحها؛ الاعتراف.

مكانش هيسامحني، أنا عارفة، هيسامحني ازاي، وهو انا عمري مثلًا سامحت هيثم إنه موت محمود؟ ولكن فقط هكذا، فقط عن طريق أن تسلم هي نفسها لا أن يمسك بها البوليس، فهذا ما لن يجعل عاطف يستصغرها في نظره لهذه الدرجة. أنا كنت كبيرة في عين عاطف، وأردت أن أظل كبيرة. أردت تقليل الخسائر بأي شكل. كل طموحي كان تقليل الخسائر.

وفي غمرة بحثها المحموم عن الأماكن التي يذهب إليها هيثم. توقف الكون مرة ثانية عن الدوران. اجتاحت الحرب أدمغة الجميع وبوستاتهم. تجددت المعارك مرة أخرى في محيط ميدان التحرير. نظرت حرنكش من الشباك فرأت الأطباق والأكواب الزجاجية تحلق فوق أدمغة المتظاهرين وتصيب منهم من تصيب. رأت كثيرين يسقطون، بفعل الزجاج والخزف المتناثر وبفعل الغاز المسيل للدموع، وفي ظل كل البوستات النضالية والمحاربة كتب هيثم، أنا نازل التحرير، مين ييجي معايا؟ ابتسمت في قلبها وقالت، أنا آجي معاك يا حبيبي.

نزلت حرنكش. أخذت مسدسها، ملفوفًا في ورق سلوفان كثير، في شنطتها، دهنت وجهها بالبيبسي مثل سائر المتظاهرين ليحميها من الغاز. وجرت وسقطت وتعثرت وقامت وعاودت الجري، وسقطت مرة أخرى وداس متظاهر على ذراعها، وعانت من سحجة ستظل تصاحبها طويلًا، ولم يقل لها أحد هذه المرة الحريم ماتدخلش جوا، هذه المرة لا يجرؤ أحد على أن يسميها «حريمًا». ولم ترَ هيثم. لأيام ثلاثة تتظاهر وتقوم بمهامها كثورية

وتمسح الأرض بحثًا عن هيثم ولا تجده. قلبها يدق بعنف ولكن هذا لا يردعها عن خطتها.

في اليوم الرابع وصلت حرنكش إلى حدود اليأس. تركت المسدس في البيت وجلست واضعة وجهها على كفيها على رصيف القصر العيني، بعد شارعين من بيتها، في مقابل ما كان سابقًا بنزينة والآن هو مساحة سوداء وخالية للمتظاهرين، والدنيا تمطر مطرًا خفيفًا دلالة على الخير، دلالة على أن الدنيا ستحلو. وهناك، داخل أرض البنزينة التي لم تعد بنزينة، أبصرت هيثم. ارتعشت عندما رأته وجرت داخل الشارع الجانبي كي لا يراها. اطلعي البيت يا حرنكش وهاتي المسدس. حاضر، قالت ولم تنفذ. جبنت. حتى حرنكش تجبن أحيانًا. كان هيثم يجلس على أرض البنزينة يدخن سيجارة مع اثنين من أصحابه. بتشرب سجاير يا هيثم؟ عندك كم سنة يا خول عشان تشرب سجاير. كانت تراقبه مختبئة وراء عربة حمص شام وبائع غزل بنات. كانت ترى أجزاء مشوشة ومهزوزة منه، على قدر ما كانت تسمح الفراغات بين الزبائن وأكياس غزل البنات والبخار المتصاعد من الحلبسة الساخنة. وامتلأت بالكراهية تجاهه، وتصاعدت الكراهية من قلبها وصوته يتردد في ذهنها، هو ابنك متخلف عقليًّا؟ وارتعشت ارتعاشة هائلة، وحكت قدمها في الأرض بقوة، وشعرت بغثيان كأن الكراهية تصاعدت من قلب عصارات المعدة الحمضية وستغمر الشارع والبشر والعربيات والمظاهرات بالقيء وتفيض عن جدران القصر العيني، وفي كل هذا لم تتنازل عن النظر إلى هيثم، إلى أجزائه المشتتة والشبحية، بينما في داخلها يتردد كثير من الوشّ، الذي ستميزه

بعد ثوان بأنه صوت أبيها يهمس لها بعناد وإصرار، وحدي التَّكنيك يا حرنكش. وكان هيثم يولع سيجارة أخرى من السيجارة السابقة، وفجأة رأته يسقط وتمتلئ أرض البنزينة بالدم والصراخ والهرجلة.

ابتعد الطفل الذي كان بجانبه، وتفرق الناس، ثم عاد الطفل وأخذ يحرك جثة هيثم ولم تتحرك، والوَش الذي كان في رأس حرنكش اختلط بصرخات قصيرة آتية من الرصيف المقابل. رأت بعينين مشوشتين الجسد الصغير المتهاوي ورأت الدم ورأت عربية الإسعاف القادمة تتراقص على وقع السرينة والصريخ والوش وارتعبت جدًّا، وجرت بسرعة شديدة نحو البيت وصعدت إلى شقتها.

نور الغرفة مطفأ. قلبها يتنطط بجنون في قفصه الصدري. فتحت الثلاجة بحثًا عن أي كحول يهدئها فلم تجد إلا زجاجة بيبسي. شربتها كلها على بق واحد، وأطلقتَ عدة تكريعات قصيرة متتالية، الواحدة إثر الأخرى. وتحركت تجاه درج الكومودينو وأخرجت المسدس الملفوف بالنايلون وأمسكته بكفيها العرقانتين. ألقت بنفسها على السرير. وقالت لنفسها بصوت عالٍ، أنا قتلت هيثم، وكانت هذه أول عبارة تنطقها بصوت عالٍ من ساعات طويلة.

الآن ستسلم نفسها للبوليس. ستقول لهم أنا قتلت هيثم وقتلت جدته والآن انتهى هذا الفصل في حياتي وما لديكم ضدي افعلوه. حرصت على ألا تفتح أي نور في البيت، ألا تصدر أي صوت، ويكفيها صوت قلبها الذي يزلزل، أو هكذا تخيلت، أرجاء البيت. فتحت الفيسبوك، أرادت كتابة شيء عن هذا، عن حياتها التي أصبحت وراءها وعن خوفها من القادم، مضت تكتب وتمحو وتكتب وتمحو

حتى بدأت صورة هيثم تزين صفحة الهموم عندها، ينزف دمًا ومكتوبًا تحتها: استشهاد الطفل هيثم كمال على يد قناصة الداخلية. وصورة أخرى مع تعليق، الداخلية بلطجية، وأخرى بسخرية، وبيقولوا الداخلية مافيهاش قناصة!

وابتسمت في قلبها، وتذكرت أباها وهو يدرِّبها على التصويب على الطبق البلاستيكي الطائر، ويقول، في اللحظة المناسبة يا حرنكش، لا قبلها ولا بعدها، قلبك سيحس باللحظة فاسمعي كلامه. واتسعت ابتسامتها وهي تقف أمام المرآة. أحبت شكلها وأحبت ضحكتها ورأت نفسها مزة كما لم تر نفسها من سنين، وأشارت إلى صورتها في المرآة وهي تقول لنفسها، وربنا انتي أحلى قناصة.

٢١

بعد أن انتصف الليل بساعتين تقريبًا، وبعد أن غزت صورة الصبي ذي الثلاثة عشر عامًا الذي قتلته الداخلية صفحات الفيسبوك، بدأ قلب حرنكش يهدأ، بالتحديد عندما بدأت تفكر في محمود. في هذه الساعات توقعت حرنكش أن يأتي محمود لزيارتها، كما سبق ووعدها في الميكروباص. استسلمت للفكرة ولعذوبة صورة محمود وهو يدق باب شقتها. وقامت لتضع كرسيًّا مقابلًا لكرسيها في الروف.

وفعلًا، في الثالثة قبل الفجر، سمعت الدقات على باب البيت. قامت لتفتح وأشارت لمحمود بالدخول، بلا أيس كاب على رأسه

هذه المرة ويرتدي جاكتًا مبطنًا ومتسخًا. ابتسمت وأدخلته بدون كلام. دخل هو وجلس على الكرسي الذي سبق أن أعدته له. سألته إن كان صدَّق الآن أنها لم تظلمه من قبل، وأنها كانت طول عمرها تعرف الظَّلَمة الحقيقيين، فقال إنه لم يكذِّبها من قبل. سألها إن كان لديها شيء ليشربه، فقالت إن آخر كمية من البيبسي كانت لديها شربتها قبل مجيئه بساعات. ارتبك قليلًا، ثم أخرج من جيب جاكته المتسخ بطحة وبدأ يشرب منها وهو يقول لها، سوري. محمود! إيه دا يا محمود؟ مدت يدها نحو البطحة وشمتها وغزت أنفها رائحة الكحول الرديء والقوي. وانت عندك كم سنة بقى عشان تشرب القرف دا؟ النهارده عيد يا مامي. النهارده استثناء، قال محمود وهو يجرع، ثم أضاف، وبعدين يا مامي ممكن لو سمحتي ماتسميش الخمرة قرف؟ طلب ذلك وهو ينظر في عينيها بقوة ويبتسم، ابتسامة رقيقة مثله.

على بلاط أرض الروف كان ثمة صرصار يقف بعيدًا عنهما. نظرت إليه حرنكش وحاولت تجاهله، ولكن بين الوقت والآخر، عندما كانت تحين التفاتة منه نحوها، كان منظره يربكها. في النهاية لم تستطع المقاومة وقالت لمحمود، ممكن تموِّت الصرصار اللي هناك دا؟ قام محمود نحوه ونظر إليه عن قرب وقال لأمه إنه ليس صرصارًا، وإنما تبغ على ما يبدو. قامت نحوه حرنكش ووطت ولمسته وتأكدت أنه تبغ، من بقايا هند في الشقة، هند التي كانت تلف السجائر ولا تستعمل مثلها سجائر مميكنة. قالت لمحمود إنه من بقايا طنط هند، وغريب أن الريح لم تطيرها منذ ذلك

الوقت، وعادت مع محمود إلى جلستهما بجانب جدار الروف ورمت كتلة التبغ في الشارع. تابعاها وهي تطير وتتفتت وتتناثر فوق شارع القصر العيني. صرصار يطير من البيت ويتفتت في الهواء. كمال يركب جناحين ويحلق من الشرفة نحو الرصيف وقبل الوصول يكون قلبه قد وقف. كثير من الصور تتابعت في رأس حرنكش إلى أن قررت نفضها بعنف. هذه قطعة تبغ، قالت لنفسها، لا أكثر ولا أقل.

كانت الشوارع خربة من تحتهما، الأنوار مطفأة وزجاج مكسور متناثر في الشوارع ومتظاهرون نائمون ومغطون ببطاطين كالحة وبقايا من رائحة الغاز ما تزال سائدة في الجو. رآها تنظر إلى الشارع فسألها، ما تيجي ننزل نلف شوية في التحرير. فزعت من الطلب، وكانت حضرت نفسها لأن تجلس الليلة تدردش معه في الروف. قالت، صعب خالص. التحرير دلوقتي خرابة. فهز كتفيه باستهانة وقال، عادي يعني، كلنا لينا الحق في الخرابة، وجرع جرعة من الويسكي. سألته، ممكن بق؟ أعطاها البطحة وشربت، وتذكرت الطعم الحمضي للكحول الذي جربته أول مرة وهي نائمة على الرصيف في وسط البلد بعد الثورة، فتشجعت وقالت ياللا بينا.

نزلا معًا، محمود سكران قليلًا ويترنح، وهي فايقة. لفا في أنحاء التحرير، بين باعة الترمس والسوداني والشاي وغزل البنات. جلسا في الحديقة المواجهة لمجمع التحرير، وتكلفتت هي في نفسها من أثر السقعة. لاحظ هذا فقال لها ثانية واحدة وقام جريًا. عاد بعد دقيقتين ومعه بطانيتان مهلهلتان. من فين دول يا محمود؟ ارتبك في الأول

وقال كلمات مثل «عادي» و«مش مهم»، ولكنها أصرت على السؤال. قال إنه نزعهما من على جسم شيخ سلفي كان نائمًا. سرقت حاجة الناس؟ قالت بغضب فرد أن الأمر ليس هكذا. الشيخ السلفي كان سمينًا جدًّا، والكمية المهولة من الدهون على جسمه كفيلة بتدفئته، لإن الدهن موصل رديء للحرارة يا مامي. أُخذت بالإجابة وبعد ثوان تبدل غضبها على ابنها فخرًا به. لسه بتروح المدرسة يا محمود؟ أيوه. وبتجيب درجات حلوة؟ أكتر مما أي حد يتخيل، قالها بلسان ثقيل من أثر الخمرة.

وبينما هما نائمان بجوار بعضهما اقتحمت سيارة الميدان، فزعت حرنكش ولكن محمود قال إن العربية توزع وجبات على المتظاهرين، وجرى واختفى للحظة عن عينيها بين زحمة المتزاحمين على الوجبات. وكان هناك صحفيون من الخلف يصورون المشهد. فجأة ثارت بلبلة وبدأ المتزاحمون حول العربية في التخبيط على شنطتها الخلفية. وبدأوا يصرخون في سائق العربية بكلمات لم تتبينها حرنكش. وهنا لمحت محمود وهو يصرخ بينهم، ربما كان أعلاهم صوتًا، وكان يقول إن المتظاهرين مش جعانين، والتفت لمن حوله وصرخ بصوته الرفيع الطفولي، صورتنا يا عالم! فرَّت العربية بسرعة هربًا من الهاجمين عليها. ولحقته حرنكش وأمسكت بيده وسارا بعيدًا. بعد قليل قال محمود وهو ينظر إلى الأرض، عاوزين يثبتوا للناس إن المتظاهرين دول زبالة وجعانين بياكلوا العضم اللي بيتحدفلهم. ثم التفت إليها وسألها، انتي مصدقة يا مامي إن الثوار جعانين؟ سكتت ثم قالت

بارتباك، لأنها لم تعرف هل تعنِّف ابنها أم تفخر به، بقيت ناشط ثوري يا محمود؟ ولم يرد.

عادا إلى جلستهما على حشائش الحديقة، وحورية ما تزال مرتبكة، كان بقلبها كلام كثير لم تعرف كيف تقوله لابنها. وترددت طويلًا بين الكلام وعدم الكلام، إلى أن حسمت قرارها وسكبت على مسامع ابنها كل ما كان بجعبتها، أنا كمان ناشطة ثورية يا محمود. أنا مش إنسانة سلبية. إوعى تكون فاكر عشان نزلت مظاهرتين تبقى ناشط أكتر مني. اللي انا عملته دا عملته عشان مين؟ ووطت صوتها تمامًا، لدرجة أنها هي نفسها لم تسمعه، إنت واخد بالك إني لسه قاتلة حد دلوقتي حالًا؟ ثم عاد صوتها ليعلو بالتدريج، عشان مين دا؟ مش عشانك انت وزمايلك بتوع الثورة؟ مش عشان الدنيا تبقى أحسن ليكم؟ نطقت السؤالين الأخيرين بعصبية، وعلى عكس توقعها، فلم يتعصب محمود. ظل ساكتًا محدقًا نحو البعيد، ثم قال وهو ما يزال ينظر بعيدًا، كل واحد ثوري بطريقته يا مامي. دق قلبها بفرح لجملته، وحضنته بقوة وقالت، يا حبيبي يا محمود.

وبعد أن أذن الفجر بنصف ساعة، وبينما الشمس تبدأ في الصعود ببطء على ميدان التحرير، قال محمود إنه سيمشي، لأن عنده أشياء مهمة ليفعلها. أمسكت بياقة جاكته وقالت له بلاش يا محمود، ماتمشيش دلوقتي والنبي، خلينا نحتفل شوية كمان. أفلت يدها من ياقته بأن رجع خطوة إلى الوراء. قال معلش يا مامي. ومشى بعيدًا وهو يقول لها باي. وانتظرت هي أن يرجع في قراره، ولما رأته يبتعد عن عينيها بتصميم ابتلعت المرارة في قلبها وصعدت إلى البيت.

٢٢

بعدها بأيام، ستبحث حرنكش عن رقم ناظرة مدرستها، «مدرسة الأفكار»، وستكلمها. ستقول إنها سمعت بالأخبار المحزنة، موت هند وهيثم بفارق أيام قليلة، وستقترح تغيير اسم المدرسة إلى «مدرسة الشهداء»، لأن هذا أفضل شيء يمكننا فعله للشهداء. ستسمعها الناظرة بهدوء وستقول إنها فكرة وجيهة، ثم ستسألها إن كانت تعرف أنها فُصلت من المدرسة. بعتنالك إنذار والتاني على بيتك عشان الغياب. بعتولي على عنوان السيدة؟ آه على عنوان السيدة. ماتزعليش يا حورية بس دا القانون، أنا باكلمك كأخت كبيرة، انتي زودتيها خالص في الغياب بصراحة.

لن تزعل حورية. ستنهي المكالمة وتلف سيجارة حشيش وستخرج للروف لتطل على شارع القصر العيني وهي تشربها. ستكتئب قليلًا ثم تقول لا بد أن أخرج من هنا في أسرع وقت.

كنت قرفت من القصر العيني وبدأت أراه أقبح شارع في مصر. كان اعتصام مجلس الوزراء قد انفض وعاد الجميع لمتابعة قضاياهم الروتينية، ولكن بعد أن تحول الشارع إلى مزبلة مظلمة، انسدَّ بجدران عازلة عملاقة، ومثلها في جميع الشوارع المؤدية إلى وزارة الداخلية ومجلس الشعب، وتراكمت فيه بحيرات من السيارات الراكنة أمام الجدران العملاقة، وأصبح من المستحيل أن ترى سيارة تمشي فيه.

كنت أخذت ميعادًا مع سمسار في عابدين ليدلني على شقة قريبة. ونزلت بأثر الحشيش في دماغي.

من ضمن العربيات التي رأيتها تحت كانت واحدة راكنة أمام البنزينة التي لم تعد بنزينة. استغربتها ولففت حولها، وكانت لوحتها تحمل رقم «قمر».

إذا كانت المعجزات، العلامات التي يرسلها لنا الله، تنقسم إلى نوعين، عادية وغير عادية، فرؤية سيارة قمر كانت معجزة عادية، ولكن هذه السيارة، سيارة قمر هذه، كانت تركن بالتحديد فوق الموضع الذي قُتل فيه هيثم، الذي قتلتُ فيه هيثم، وهنا كانت تكمن المعجزة غير العادية. لم يعد من الممكن رؤية بقع الدماء على الأرض، ولم يعد من الممكن معرفة إن كانت بقع الدماء أصلًا لا تزال موجودة أم لا. أقول هذا لأنني فور ما رأيت هذا، قشعر جسمي بقوة. وقتها أدركت ما حاولت تجاهله في الأيام السابقة، أنني أصبحت قاتلة، قاتلة أطفال بالتحديد. قشعر جسمي ولم أعرف لماذا قشعر.

في أحداث مجلس الوزراء، وقبلها، في أحداث محمد محمود، قُتل كثيرون، قُتل الشيوخ وسُحلت البنات، وغيرهم كثيرون. ما أريد قوله أن بين كل من ماتوا، الشيوخ والنساء والشباب ورجال الدين والمسلمين والمسيحيين، فأكثر ما صدم الناس في الداخلية هو مقتل هيثم.

لأيام طويلة تساءلتُ عن هذا، وقرفتُ من هذا أيضًا بصراحة.

ما أفظع أن تقتل طفلًا! يقول الإنسان بثقة مبالغ فيها، إنهم يقتلون الأطفال، يصرخ ويشوح بيده ولا تملك ردًّا عليه. طيب وماذا؟

إذا كان الناس يتصورون أن قتل الأطفال أفظع من قتل غيرهم، إذا كانوا يتصورون الأطفال أشياء، ممتلكات بلا عقل ولا تمييز، وبالتالي

تستحق الرحمة أكثر من غيرها، وإذا كنت أنا لا أنتمي إلى هذه الطائفة من الناس، إذا كنت أنا أعرف أكثر من غيري أن الطفل بإمكانه تدمير العالم لو استطاع، فلماذا إذن قشعر جسمي عندما فكرت في هيثم؟

أقصد أنني قضيت وقتًا طويلًا أفكر في مصدر الفكرة القائلة إن قتل طفل أقسى من قتل إنسان بالغ، لماذا وصفت نفسي بأنني قاتلة عندما قتلت هيثم، ولم أصف نفسي بالقاتلة عندما قتلت جدته من قبله؟ أعرف أن ما أفكر فيه هو نقطة في بحر الفكرة الإنسانية. منذ قديم الأزل والإنسان، البالغ الراشد، يعتقد أن الأطفال أبرياء.

كنت أحاول الوصول إلى التحرير، ومن بعده تنفتح الدنيا أمامي، إلى شوارع وأحياء وأخرى، إلى عابدين حيث يقع مكتب السمسار الذي سيحملني إلى شقة أخرى. خرجت من البيت وسرت يمينًا. وجدت سورًا عملاقًا أمامي، بحثت عن أية فتحة فيه فلم أجد. تقدمت من أمين شرطة يشرب الشاي بجواره، قال لي شمالًا، دوغري دوغري، ثم يمينًا. سرت شمالًا، دوغري دوغري، وعند الدوغري الثانية، أو هكذا تخيلت، وجدت جدارًا آخر، جدارًا مصمتًا بلا أي فتحة. قلت لأعود إلى القصر العيني وهناك سأتمكن من تحديد الاتجاهات بشكل أفضل.

طيب وماذا؟ في القصر العيني، ومقابل الجدار، قررت التوقف عن الاعتماد على أمناء الشرطة، والرجوع عدة شوارع إلى الوراء، ورجعت، وعلى يساري، في الاتجاه المقابل للاتجاه الذي دخلت فيه من قبل، لأن الاتجاهات تنعكس بين التقدم في الشارع والرجوع فيه، دخلت يسارًا، وسرت كثيرًا أيضًا، حتى صدمني جدار آخر، وتحته

كان يجلس طفل وبيده قزازة بيرة. طفل يشرب بيرة. طفل ليس طفلًا. وطيت عليه وسألته كيف يمكنني الوصول إلى التحرير. فأشار إلى شارع القصر العيني، وقال لي أن أدخل يمينًا عند الوصول إلى القصر العيني. ونفذت ما قاله بالحرف، ولكن عند القصر العيني نظرت يمينًا لأجد الجدار العملاق نفسه الذي كان هو أول جدار أراه في الشارع.

لماذا فعل الطفل هذا؟ لماذا دلني على الاتجاه الخاطئ؟ هو يعرف بالتأكيد أن القصر العيني مغلق، صح؟ أم لا يعرف يا ترى؟ يعرف أم لا يعرف؟ بريء أم شرير؟ أردت الرجوع إليه لأسأله كيف يصف نفسه بكلمتين، ولم أفعل، لأنني كنت تحت تأثير الحشيش، وعندما أكون تحت تأثير الحشيش أحب أن أقلل احتكاكي بالناس قدر الإمكان.

مشيت كثيرًا في القصر العيني والشوارع المتفرعة منه، وكل جدار كان يسلمني إلى جدار، وعجزت عن الوصول إلى ميدان التحرير، كما عجزت عن معرفة طبيعة الأطفال، وبالتالي عجزت عن معرفة شيء عن نفسي.

ولكن الأطفال فعلًا لا يعرفون كثيرًا عن العالم يا حرنكش. لماذا تجادلين في هذا؟ هل يستطيع الطفل مثلًا سرقة محفظتك مثلما يفعل الرجل الراشد؟ نعم يستطيع، أجبت، وما أكثر الأطفال ناشلي المحافظ. طيب هل يستطيع الطفل القيام بأشياء أعقد، مثلًا، النصب والاحتيال؟ أو سرقة أجور العاملين لديه؟ لا، لا يستطيع. شفتي إذن؟ وهل يستطيع الطفل القتل؟ لا، لا يستطيع. شفتي بقى؟

ولكن لا، لحظة واحدة، لا تربكيني ثم تفرحين بانتصارك عليَّ. الطفل أيضًا يستطيع القتل. خليني أرتب أفكاري بوضوح.

حسنًا، لنقل إن قتل الأطفال أفظع بما لا يقاس من قتل الراشدين، وإنه أصعب على الضمير، ويقطع بأن من فعله وحش مفترس، عدو للإنسانية، أسفل وأوسخ خلق الله. لماذا إذن قتل هيثم محمود؟ لماذا خنقه بسخريته، وخنق من حوله حتى حوّل حياتهم جحيمًا وحتى اندفع الجميع ليقتلوا الجميع؟ لماذا قتل هيثم محمود، إلا أن يكون هيثم بنفسه هو أسفل وأوسخ خلق الله، قاتل أطفال مقرفًا وكريهًا؟ أجبت بنبرة المنتصر، المنتصر الحقيقي هذه المرة لا المنتصر الزائف. وكنت عثرت على الشارع الجانبي المظلم الذي يؤدي إلى باب اللوق، ومن ثم إلى عابدين. وهذا كان شيئًا رمزيًّا بالغ الدلالة بالنسبة إليَّ.

هناك في عابدين، التقيت بالسمسار، وأخبرني ألا شيء تحت يده الآن، ولكن وعدني أنه فور ما تخلو شقة من سكانها سيخبرني، وأخذ بياناتي وغادرته، وفي طريق العودة استأنفت التفكير في معضلة قتل الأطفال.

إذا كان هيثم قاتلًا، وأنا قتلته، فأنا إذن قاتلة لقاتل، لست قاتلة في المطلق.

هيثم كان يوترني، كنت أتكهرب عندما أراه، كان يكهرب الجو عندما يظهر، أي أن هذا ليس شعوري وحدي، وإنما شعور الجو أيضًا. لدي إثباتات كثيرة على هذا. كان وجوده في أي مكان كفيلًا بسحب الأوكسجين منه.

ولكن أيضًا، أفكر أن مع كل هذا، مع كل كراهيتي له، فأنا أسديت له خدمة عمري، جعلت منه شهيدًا لعنف الداخلية، جعلت صورته ترتفع على يفط المتظاهرين، جعلته رمزًا. من يصدق أن طفلًا تافهًا

مثل هذا يصبح رمزًا كهذا، خالد سعيد الثاني، أو أفضل من خالد سعيد، لأن خالد سعيد عندما مات كان عمره ٢٨ عامًا، وهيثم عندما مات كان عمره ١٣ أو ١٤ عامًا، يعني عمر هيثم كان نصف عمر خالد، يعني هيثم أصبح رمزًا أكثر من خالد سعيد مرتين.

وهذا قادني إلى الفكرة الثانية التي فكرت فيها وأنا أعود إلى البيت، بدون أن أتوه هذه المرة لأن أثر الحشيش كان قد زال، لو سلمت نفسي، لو ذهبت إلى الشرطة وقلت إنني أنا من قتلت الولد، هل سيكون هذا لصالح الولد، الولد الذي مات خلاص وأصبح شهيدًا؟ لو اعترفت بقتلي له، ستتكسر الهالة التي حول رأسه وستسقط كسورها في الطين وتتوسخ، ولن يعود أحد قادرًا على لملمتها من الطين وتنظيفها وإعادتها إلى مكانها. لهذا فالأفضل، الأكثر عقلانية، الشيء الصح إذا ما نحينا العواطف، ألا أفعل. ميتٌ بهالة أفضل من ميت في الطين.

تأكيدًا على هذه الفكرة، فور وصولي أعدت الاتصال بالناظرة. قلت لها إني مش زعلانة، وإن ما يريده ربنا سيكون، ولكن رجاء رجاء رجاء، فكري في اقتراحي بتغيير اسم المدرسة إلى «مدرسة الشهداء»، هذا شيء أفعله لا من أجل نفسي ولا من أجل وظيفتي، وإنما فقط من أجل روح البنت التي صاحبتها والطفل الذي كنت مثل أمه. ووعدتني خيرًا وأنهت الاتصال.

وكلمت عاطف. قلت البقية في حياتك، وقلت إن هيثم مات شهيدًا، أنا رأيته يوم مات، وأنت لا تعرف كم كان بطلًا حقيقيًا. فشكرني بتأثر على اتصالي وعلى كلامي هذا. وقال إنتي وحشتينا جدًا على فكرة، فقلت وانت كمان.

ولهذا، فصحيح أنني اشتقت إليكن من قبل أن أعرفكن، تغمز حرنكش لثلاث سجينات حولها وتقول بنبرة نصفها مُحن ونصفها سخرية من المُحن، ولكن معلش، لنؤجل الشوق قليلًا، ولنتقابل في ظروف أحسن. وما النصر إلا صبر ساعة.

كانت تلف خيط الحرير على البكرة، وهي ترسل للسجينات من حولها قبلات هازلة وطائرة في الهواء، ثلاث قبلات، واحدة لكل واحدة.

الفصل الرابع

بيوت هادئة

«ادخلي يا حبيبتي. عندي شاي دافئ ومخدات ملونة
ستنسيكِ كل القرف بالخارج»
الست اللي تحت

١

في يوم بعيد، من ثلاثين سنة تقريبًا، همست الأم للأب على السرير: صاحبك بيعاكسني.

قالت بعدها أشياء وقالت قبلها أشياء، ولكن الطفلة، التي كانت تتنصت من وراء الباب، لم تسمع غيرها. «صاحبك بيعاكسني». ترددت الجملة طويلًا في عقل الطفلة. ولم تعرف ماذا كان رد فعل الأب.

الأيام التالية كانت مشحونة بالكهرباء. قل الكلام بين الأم والأب. لاحظت الطفلة هذا، فهي لم تعد طفلة خلاص، كانت تبلغ ١٤ عامًا، مراهقة في أول سنة لها بالثانوية، وخاضت لتوها معركتها الأولى

والوحيدة ضد أبيها، بعد أن طقت في دماغ الأب وقرر أنه لن يرتاح إلا وبنته في الثانوية العسكرية.

كانت الطفلة تعرف أنها خذلت أباها بإصرارها على الثانوي العام. كانت تعود من المدرسة وتدخل غرفتها ولا تملك القدرة على رفع عينيها في عينيه. وهو أيضًا بادلها التجاهل. لم يتكلما لشهرين أو ثلاثة. لم يكن غاضبًا، وكانت تعرف أنه لم يكن غاضبًا، ولكنه لم يتكلم معها، كان كأنه يمثل دورًا على المسرح. ولكن معها، مع الأم، كان يضحك طول الوقت، كان لا يزال هو إسماعيل الذي تعرفه. وغارت البنت من أمها.

وعندما سمعت الأم تهمس صاحبك بيعاكسني، ابتسمت، كأن القدر انتصر لها، كأن الأب سيترك زوجته ويأتي ليرتمي في حضنها هي، ويضحك معها ويعود ليتمشى معها في الشوارع وليأكلا في المطاعم ويعلمها النشان.

ولكن هذا لم يحدث، توترت علاقة الأب والأم، والأب والبنت. كان يحارب على الجبهتين، ولاحظت حرنكش هذا ولم تتكلم. لم تعرف ماذا تفعل، إلى أن قررت التخلص من الغيرة والتصرف بنبل. رجعت من المدرسة، وعلى الغداء، مع أبيها وأمها، نظرت في عين الأب وقالت له، أنا عاوزة أتكلم معاك لوحدنا. ارتبك الأب. نظر إلى عيني ابنته واختبر نظراتها الثابتة على وجهه، قال بما بدا وكأنه لامبالاة، خير؟ فقالت لوحدنا يا بابا لو سمحت. نقَّلت الأم نظراتها بينهما، ولم تعرف ماذا تقول.

في غرفتها جلس الأب على كرسي المكتب وجلست هي على

طرف السرير. سألته إنت زعلان من ماما ليه؟ حاول الدفاع وقال إنه ليس زعلانًا منها ولا حاجة، ولكن الصوت خرج ضعيفًا. إنت زعلان مني عشان انا مش عاوزة اروح الثانوي العسكري بتاعك دا، وأنا آسفة والله، بس زعلان من ماما ليه؟

ارتبك الأب أكثر وأكثر، وخفض عينيه أكثر وأكثر. حاول ارتداء قناع غاضب ولم يستطع. كانت بنته امرأة الآن، كأنها امرأته. قال لها إنتي صغيرة يا حرنكش وهو نفسه لم يصدق نفسه. مرت برهة صمت حتى سألت، فيه حد بيعاكسها صح؟ بدأ الغضب ينفر في عروقه، وصوته الذي كان مرتعشًا اكتسب قوة ما عندها. صرخ، إنتي مالكيش دعوة بالحاجات دي خالص. لم تهتز البنت وإنما واصلت النظر إليه، وسألت بهدوء، عم ناجي صح؟

انهارت مقاومة الأب. نظر إلى الأرض ولم يرد. لم يرد إطلاقًا. وقالت البنت، حتى لو دا حصل يا بابا، ماتزعلش منها. هي اللي قالت لك دا. هي جت من نفسها وقالت لك دا، هي ماحدش غصبها عشان تقول لك دا. وقامت البنت من على طرف السرير. قرفصت على الأرض تحت رجليه، ورفعت يدها لتحسس على وجهه، وشوَّكتها ذقنه النابتة. لم تكن هناك دموع لتمسحها، فقط شعر مبيَّض وجلد مرتعش. همست، اوعدني يا بابا ماتزعلش منها. دقيقة ورفع الأب وجهه وقال، حاضر. ودقيقتان وقام ليخرج، وقبل أن يخرج مسح على شعرها.

لم يعودا ليفتحا الموضوع بعدها، الأب والبنت. فقط تحسن الجو في البيت، عاد الكلام لينمو بين الرجل وزوجته، ولو همسًا،

وعاد المشي ليربط بين الأب وابنته. خرجا ليمشيا بمحاذاة حديقة الأورمان، وتخطيا قفزًا شخاخ أبو قردان على الرصيف المحيط بحديقة الحيوان، وضحكا كثيرًا. وعندما ظهرت نتيجة امتحانات نصف العام، وحازت حرنكش درجات مرتفعة فيها، أهداها أبوها ووكمان. وكان اختراعًا جديدًا وقتها، على الأقل بين زميلاتها وصديقاتها، وأهداها معه شرائط كاسيت كثيرة، عماد عبد الحليم وعمر فتحي وسميرة سعيد.

كانت البنت تمشي كل يوم من مدرستها إلى البيت، وتضع السماعات في أذنها. ولا تصغي إلى أحد بجوارها. لم تخلع السماعات إلا عندما كانت تمشي مع الأب، وأخذت تبدل شرائط الكاسيت، التي ضاع مصروفها على شرائها، وتجرِّي الشرائط بالقلم الجاف لتتغلب على سفِّ الشريط، انصرعت بالووكمان الصغير. في الليل أيضًا، وهي في البيت، كانت تضع السماعات في أذنها، لم تدع أبدًا أغانيها تتردد من خارج سماعات الأذن، وشغلها هذا عما يحدث في البيت. وفي رأسها بدا لبرهة أن همسة الأم، صاحبك بيعاكسني، قد انتهى مفعولها ولم يعد أحد يتذكرها، كأنها لعنة ضلت طريقها، ولكن الأحداث سرعان ما عاودت الانفجار، فيما يبدو وكأنه بلا رجعة هذه المرة.

في أحد أيام العام ١٩٨٥، كان الأب والأم يشاهدان التلفزيون، وحرنكش في غرفتها بالسماعات في أذنيها. فجأة علا صوت الأب، صرخ بغضب، ما تسكتي بقى يا ولية. ارتعبت حرنكش عندما سمعت. نزعت السماعات من أذنيها فورًا، ووقفت بجوار الباب تتنصت.

صرخت الأم هي الأخرى، مش هسكت إلا اما تقولي هتعمل ايه. والأب، مش هاعمل حاجة. والأم تنشج، أنا مبستريحش لما اروح هناك، وانت عارف دا كويس. والأب، اللي انتي بتقوليه دا ف دماغك انتي بس. فتحت حرنكش الباب ووقفت أمام الزوجين، فصرخ فيها الأب، خشي أوضتك يا بت. وصرخت الأم، لا ماتخشش، خليها هنا تشوف خيبة أبوها. تنَّح الأب للحظة، نظر إلى زوجته وابنته بغضب، ثم قرر أن يدخل هو غرفته. خمس دقائق وخرج منها، بحقيبة ملابسه هذه المرة. نظر إلى الأم وقال لها، اشبعي بالبيت، وخرج.

انفجرت الأم في وصلة بكاء طويلة، واقتربت منها حرنكش بخطوات مترددة وطبطبت عليها، نظرت إليها الأم مطولًا ثم قالت، عمو ناجي وحش يا حورية، وحش أوي، إحنا مش لازم نروح عنده تاني أبدًا. اوعديني ماتروحيش عنده أبدًا. ولم تعرف حورية كيف ترد عليها سوى بأن همهمت بصوت ضعيف، حاضر.

٢

بعد موت هند وصعود الجدران عاليًا في كل أنحاء شارع القصر العيني، أصبحت الشقة مكانًا شديد الكآبة بالنسبة إلى حرنكش. يُضاف إلى هذا أننا كنا في يناير وعقد الشقة سيخلص بعد شهر. سألت زميلات المدرسة القديمات عن شقة قريبة ولم يجبنها، ويبدو أصلًا أنهن لم يعدن يحببنها. ودارت في الشوارع بحثًا عن شقة ولم تجد

وتاهت، وكرهت القصر العيني أكثر. علقت بذاكرتها صورتها وهي تقف أمام صاحبة البيت وتتحايل عليها لتؤجل انتهاء العقد لشهرين آخرين، وصاحبة البيت تسقي الزرع في بلكونتها، غير مهتمة بتوجيه عينيها إليها، الاتفاق اتفاق يا حبيبتي.

كانت تحتاج إلى شقة بأسرع وقت، وقلبت الاحتمالات في عقلها، ثم وصلت إلى أنها تحتاج قبلها إلى زيارة عم ناجي. هو الوحيد، من بين من تعرفهم، الذي يعرف كل شيء، وسيدلها على التصرف السليم. أرادت أن تحكي له عن موت هند واكتئابها وحيدة في الشقة، وأرادت سؤاله إن كان يعرف شقة قريبة منها تقيم فيها.

كان يجلس على عوامة فوق كرسيه بحديقة فيلّا المرج. البواسير هالكاه من شهر، ولا يريد الذهاب إلى الدكاترة لأنه يكرههم، لأنهم كلهم على بعض شوية ولاد قحبة نصابين، والعوامة أصبحت حله الأسهل للجلوس بلا ألم، وهو يمر بلحظات من الاكتئاب في هذا البيت، والعيال العرباوية الذين يساعدونه مثلهم مثل قلتهم، ولا يجدهم عندما يشتد عليه الألم بالليل ويكاد يبكي ولا أحد حوله.

وبادلته الشكوى. قالت إن الكيل فاض بها وإنها أيضًا قرفت من شقة التحرير، ولكنها لا تعرف إلى أين تذهب، وأعز صاحباتها، البنت التي كانت تسكن معها، قد ماتت. ماتت؟ ازاي؟ ارتبكت وقالت إن بعض البلطجية قتلوها. في الشارع؟ ماعرفش يا عم ناجي. ناس طلعوا البيت وقالوا لي انها ماتت، هما طبعًا قالوا لي الداخلية اللي موتتها، بس انا متأكدة ان اللي موتها البلطجية.

انفعل عم ناجي، نسي الألم واستبدل به الغضب. أصدر أصواتًا مثل الغرغرة من حنجرته وبدا على وشك التحول، داخلية ايه وخرا إيه؟ انتي تسيبي المكان الزبالة دا فورًا. والمسدس اللي اديتهولك؟ لسه معايا، بس انا خايفة استخدمه جدًّا. ولم تعرف إن كانت كاذبة أم صادقة.

عاد إلى الترويج لاقتراحه القديم، أن تأتي لتقيم معه في بيت المرج. الدنيا هنا حلوة وبعيدة عن أي دوشة والناس هنا كلهم حبايبي، مربيهم على إيدي. وحرنكش، أكثر من أي مرة، وجدت نفسها ميالة لاقتراحه. طلبت منه أن يعطيها أسبوعًا لتفكر في اقتراحه، ولكن خلال هذا الأسبوع، إذا وجد أي مكان جاهز للإيجار، مكانًا يعرف صاحبه وتستطيع أن تكون مطمئنة وهي فيه، فليخبرها فورًا. قال لها بلا مكان تاني بلا تالت، ولم يكمل جملته لأن حرنكش أمسكت بكفه وقالت له، عشان خاطري يا عم ناجي. تأثر وحاول أن يداري التأثر وراء شنبه الغليظ الذي ارتعشت شعراته لثانية، ثم استسلم لكفها وقال لها حاضر.

٣

في الطريق من فيلًا عم ناجي إلى محطة مترو المرج خبطها توكتوك. احتك بها بالأحرى، وصرخت وقفزت بعيدًا بأمتار. ولكن التوكتوك مضى بعيدًا. كأنها هواء أو لا شيء.

في الواقع، فكثيرًا ما سيطرت عليها أثناء مشيها بالشارع فكرة واحدة، أنها مهما كانت، ضعيفة أو غلبانة أو لا يعمل لها الناس حسابًا أو لا تعرف كيف تتصرف، مهما كان، فهي ليست شفافة. وأن هذه منحة منحها الله لها ولكل الناس، وتوسعت في أفكارها وقالت لكل الحيوانات، وتوسعت أكثر وقالت لكل الأشياء.

كانت تمشي الأول مشيتها العسكرية، مباشرة وسريعة ولا تنظر يمينًا ولا شمالًا، ومع أنها تكون عادة غارقة في الموسيقى المنبعثة من موبايلها، ومع أنها غالبًا لا ترى الناس، إلا أن الناس كانت تتفاداها، ووصلت أحيانًا بأفكارها إلى كون الناس هم الشفافين، وهي ليست شفافة. وكان هذا الإحساس يملأها أحيانًا إلى أن تقول لنفسها لا يا حرنكش، لا تبالغي، أنتِ ترين الناس أيضًا. لا أحد شفاف. لا أنت ولا هم.

صحيح أن هذا كان يضايقها أحيانًا، لأنها رغبت أن تكون شفافة، ألا يراها أحد، ولكن لم يحدث هذا كثيرًا. سرعان ما تفكر في أن رغبتها في أن تكون شفافة بينما هي غير شفافة عنصر قوة بالنسبة إليها، كمن منحه القدر أموالًا كثيرة وهو يرغب في التخلي عنها. كأنها قوية رغم أنفها.

ولكن سائق التوكتوك الذي احتكت عربته بها لم يرها، ولا كلف خاطره بأن ينظر إليها ليعتذر، ولا حاول المعاكسة أيضًا، ولا الناس من حولها رأوها. صرخت وانتظرت بعيدًا والناس ماشون في حالهم. نظرت حولها وقالت إنها أخيرًا شفافة، وقضمت نصف الصرخة في حلقها ولم تبالغ فيها، وعاودت المشي بسرعة كأن شيئًا لم يحدث.

انبسطت بهذه الثواني المعدودة من الشفافية. لم تتألم بسبب احتكاك حديد التوكتوك بها، وإنما أكملت الطريق.

وهناك، تحت السلم المؤدي إلى محطة المترو، وقدماها غائصتان في الأرض الموحلة بسبب المطر، أدركت أنها ليست شفافة بالضبط، ولكن الناس صراصير، وأن جزءًا كبيرًا من معركتها في الحياة كان مع الصراصير، بدءًا من شقة السيدة وحتى شقة القصر العيني، وحتى في شقة المنيل، وظلت تتخيل الصراصير التي تقف لتبيع أغراضًا رخيصة ومعفنة في خيام بفوانيس تحت محطة المترو، والصراصير التي تمشي في الشوارع على هيئة فسب وتكاتك وأطفال يلعبون في الطين ونساء سمينات ورجال بجلاليب يتدافعون على السلم ليلحقوا بالمترو. كسم الصراصير، قالتها في المترو والناس تنفجر من محطة الشهداء وإليها.

وبينما هي تصعد درجات المترو، رنَّت في عقلها أغنية كانت تغنيها قديمًا لتنيِّم محمود، لما الصبح بيفرش نوره، يصحوا ولاد الأرض يدوروا، والنمل يحاذي في طابوره، ويعبِّي ويشيل في جحوره.

سيطرت الأغنية على عقلها، وأخذت تتمتم بها في سرِّها وهي في المترو، وهي تنزل في محطة سعد زغلول، وهي تطلع من تحت الأرض إلى فوق الأرض، وترى السوق هناك وبرك الطين والناس تقف لتبيع وتشتري وتتعارك. صراصير تنق في الخلفية توحدها الرغبة في العودة إلى جحورها، صراصير الليل الشتوي تنشد في سيمفونية قذرة.

٤

كان الأب يحلم لها بمشية محددة. في واحدة من جولاتهما المشتركة، وهي في السابعة من عمرها تقريبًا، أفلت يدها وعبر الشارع وحده، ورأته يبتعد ويعبر إلى الضفة الأخرى، ونظرت إلى السيارات وبكت من الرعب، حتى عاد وأخذها. وهناك على الرصيف، بعد أن عبرا الطريق، أخبرها أن أفضل طريقة لعبور الشارع هي عدم النظر إلى اليمين ولا إلى الشمال. السواقين هما اللي يشوفوكي مش انتي اللي تشوفيهم. لإن المشاة لهم الأولوية. وأضاف بصوت خافت كأنه يصفِّر، المسخرة دي لازم تخلص بقى. خافت البنت من أبيها يومها، خافت لأنه تركها لتموت بين السيارات، ولكن لم تنسَ الدرس قط.

في قصيدته التي كتبها لها، والتي وجدتها بين كشاكيل الكلية المتربة في شقة البحر الأعظم، قرأت مقطعًا تحليليًّا من الأب لمشيتها، وحرنكش مظبوطة كالعادة، وبتمشي الخطوة المعتادة، وبتتقن أعمالها زيادة، ولا تسمع لاصحاب السو. كان هذا مقطعًا من القصيدة يصف ما هو كائن، بالإضافة إلى آخر أتى على هيئة الأمر، مقطع يتمنى ما ينبغي أن يكون، ويا بنتي لا يمين وشمال، دوغري وغير كدا بطَّال، وبكدا تتظبط الأحوال، وتشوفي في الحال والتو.

عندما رأت حرنكش الكراسة بين خبيئة سندرة المنيل، لم تصدق عينيها. مضت في البيت تحسس على صفحات الكراسة المصفرة وتشمها وتهمس بصوت خافت ومتأثر، يا بابا يا بابا. وأعجبتها نبرة

صوتها وهي تهتف له فهتفت بوتيرة أسرع، وقربت الكراسة من صدرها بشدة. كانت كأنها تحاول تحضير روح أبيها. كان هناك بعد سحري وغامض في هتافها «يا بابا يا بابا»، لدرجة أن جلدها قشعر وانتصبت مسامه.

٥

هل تحبين أباك يا حرنكش؟ وكوني صريحة.

ترد حرنكش بالإيجاب، أنها طبعًا تحب أباها. وعندما يتذاكى السؤال أكثر، عندما لا يكون عن مجرد حب الأبناء للآباء، عندما يصبح، هل كنت ترغبين في النوم معه، حتى هنا، لا تتفاجأ حرنكش، لا تنصدم. تفكر قليلًا، تفكر كأنها لا تخجل من جوهر السؤال، تفكر وكأن الإجابة قد تذهب إلى الإيجاب كما قد تذهب إلى السلب، باحتمالات متساوية. تقلب كل شيء في رأسها، تقول يمكن ومش متأكدة وأيوه ولأه وتفحص جميع الاحتمالات، ثم، عندما تتذكر واقعة محددة، تقول لأه. تقولها بقوة من وصل إلى إجابة بعد تفكير طويل، بعد تفكير حر وغير خائف من الوصول إلى إحدى الإجابتين.

كتبت حرنكش لقمر على الإيميل وقالت لها إن أباها واحشها، ولم ترد قمر إلا بعد أسبوع، وردت بفقرات مطولة كالعادة، قالت لها ما معناه تذكري أباك جيدًا ولا تسمحي له بمغادرة ذاكرتك،

بالحلو أو بالوحش، لأن كلًّا من الحلو والوحش أحسن من الغياب.

وبدأت حرنكش تحاول استحضار ذكرى أبيها بقوة، مارست تمارين الذاكرة قبل النوم، وكانت كلما خطرت على بالها ذكرى محددة تقوم لتكتبها، في الكراسة نفسها، كراسة «بكرة الدنيا هتحلو». في إحدى صفحات الكراسة كتبت، صاحبك بيعاكسني، وفي أخرى كتبت، وحدي التكنيك، وفي ثالثة، انتي لازم تتعالجي عند دكتور. كانت طول الوقت تذكر المشاهد العامة، ولكن الجمل الحرفية، تفاصيل المشهد، لم تستطع تذكرها إلا الآن.

كنا في إجازة الصيف في إحدى ليالي العام نفسه، ١٩٨٥، وكان الأب يجلس ببنطلون البيجامة وفانلة بحمالات، والأم تجلس بجانبه أمام التلفزيون الذي كان يعرض مسرحية «شاهد ماشافش حاجة»، وحرنكش بجانبهما بسماعة الووكمان. الأب والأم يتناقشان، وشيء ما في النقاش كان معوقًا وعصبيًّا، النظرات أو حركات الأيدي، وأثار هذا اهتمام البنت الصغيرة. قام الأب في عز المناقشة، لمحته البنت بطرف عينها يتوجه إلى درج التسريحة في غرفة النوم، ويخرج منه عدة أوراق، ثم يعود وكأن بيده دليل الانتصار. اهتمت البنت وأزاحت سماعة الووكمان لتفهم.

قال الأب، كان لسه ف المنصورة ف سنة ٦٩. وقالت الأم، أيوه بس كان بييجي هنا ف الأجازة. وقال الأب، لا ماكانش بييجي. وقالت الأم، لأ كان بييجي وانت اتخانقت معاه علشان كنت عاوزه يطلع البلد عندكو. وأردفت، وقلت له متشغلش بالك بينا، روح شوف مراتك وعيالك ومتشغلش بالك بينا. وكنا ساعتها في بيته اللي في المرج، وكان البيت لسه ماتشطبش، وكانت الحيطة طوب احمر.

وكأن الأب تذكر شيئًا، كأن ذكرى البيت غير المتشطب خطرت على باله، وجم قليلًا، ثم سأل، وبعدين؟ سكتت الأم، ثم بصوت منخفض، وبعدين حصل اللي قلت لك عليه. في هذه اللحظة نظر كلاهما إلى حرنكش بجانبي عينيه، وعندما لاحظ الأب أن ابنته أزاحت سماعة الووكمان شخط فيها وأمرها بدخول الغرفة. ارتعبت حرنكش وهرولت نحو الغرفة بسرعة، ولكن الأم كانت أسرع منها، قبل أن تغلق باب غرفتها زعقت الأم، لو البلد فيها عدل كان حقهم يسموكي حورية ناجي. توقف الباب لبرهة في يد البنت. دق قلبها بسرعة ولم تعرف ماذا تقول، وصرخ الأب في زوجته، انتي مجنونة، انتي لازم تتعالجي عند دكتور.

لم تستطع البنت المقاومة، عادت إلى الصالة حيث يجلسان، ولمحت بوضوح عيني الأم الثابتتين، والابتسامة الساخرة الخفيفة المعلقة على شفتيها وهي تقول للأب، لأ مش مجنونة. قالتها وسكتت، كأن في قولها وحده دليلًا كافيًا على ما تقوله. قالتها وعادت إلى متابعة التلفزيون. وضحكت على مشهد الأسد وهو يطارد عادل إمام، ضحكة صافية ورائقة ومميتة.

٦

بعد اعتزال قمر الغناء، بدأت تدرس ما تسميه «العلوم الروحانية». سافرت التبت أكثر من مرة، وأسست مدرسة للتوجيه الروحي في ستوكهولم. كانت تتكلم مع حرنكش من منطلق أنها تعرف، وأن

حرنكش تعرف ولكن لا تعرف أنها تعرف. قالت هذا مرة باستخدام الكلمات نفسها.

ضاقت حرنكش ذرعًا بالبيت، حتى ونحن لم نصل إلى نهاية فبراير، قررت أنها تريد الرحيل الآن، في الحال والتو. ذكرى هند كانت تلح عليها، وهي تريد التخلص منها والطيران بعيدًا. وكلمت عم ناجي وسألته هل وجد لها شقة. فقال لها لسه شوية، انا عاوز الاقيلك حاجة لقطة.

وضبت كل أشيائها في شنط كبيرة، باستثناء الأشياء التي تحتاجها بشكل عاجل، ركنتها بجانب الباب، وجلست في انتظار الحاجة اللقطة. جلست يومًا ويومين وثلاثة، إلى أن أرسلت إليها قمر إيميل طويلًا ذكرت فيه اسم «عسكر كاذبون»، بتروحي مظاهرات «عسكر كاذبون» يا حرنكش؟

بعد موت هند أخذ اهتمام حرنكش بالسياسة يخفت بالتدريج؛ راح دليلها في عالم المظاهرات والثورات وتبقت هي وحيدة أمام نفسها ولابتوبها، ولكن سؤال قمر حفَّز ذهنها، انكسفت من نفسها لأنها، هي من تعيش في القاهرة، تترك قمر ترسل إليها من ستوكهولم أسماء الحركات الثورية في الشارع. عسكر كاذبون عسكر كاذبون يا قمر. نروح ونشوف دول إيه كمان.

في أحد أيام الجمعة نزلت إلى جامع مصطفى محمود، حيث انطلقت من هناك مسيرة لـ«عسكر كاذبون».

مشت في ذيل المظاهرة، وكان المتظاهرون يلبسون أقنعة فانديتا، مع سقفة دائمة من أربعة مقاطع، تك تك تكتك، يليها رفع الأصابع

بعلامة النصر وهتاف «حرية». وعندما ينبسطون أكثر، عندما يفرحون بشبابهم ويظنون أنهم قادرون على اقتحام البيوت المحيطة الغارقة في الهدوء والسكينة، كانوا يشيرون إلى الشبابيك والبلكونات ويصرخون، دي مش فرجة، دي مشاركة.

التزمت حرنكش بخط المسيرة غالبًا، ما عدا في اللحظات التي كانت الشرطة والمواطنون الشرفاء يهجمون فيها، وكانت المسيرة تتفرع وقتها تلقائيًّا في عدد من الشوارع الجانبية. وهي، التي سبق أن تعلمت عدم الفصل بين الهم السياسي والهم الشخصي، كانت تستغل هذه اللحظات لتبحث عن شقة لها. سألت بوابًا عن شقة للإيجار وكان متحفزًا ضدها فقال، لأ ماعندناش يا حاجة. وذهبت مرة ثانية إلى بواب ثانٍ وسألته، فقال لها مافيش. ومرة ثالثة قال لأه، وظل يكرر لأه لأه لأه حتى غضبت. أرادت أن تشير إلى المتظاهرين وتقول، أنا مش تبعهم على فكرة. ولكن أنى له أن يصدقها، تساءلت في نفسها، وهو يراها ملوثة بكل هذا العرق والتراب والبيبسي الذي دلقته على وجهها ليقيها الغاز المسيل للدموع؟

كانت المسيرة تتوجه نحو الدقي، وحرنكش يائسة، طول الوقت تجد نفسها في أحد الشوارع الجانبية، وعندما لا يحدث هذا، كانت تندفع من ذيل المسيرة إلى قلبها إلى مقدمتها، رغمًا عنها كانت تفعل هذا، وعندما تجد نفسها في المقدمة، تحاول الاختباء والاندفاع إلى الذيل مرة أخرى، ولم يظبط هذا كل مرة، حتى وجدت نفسها وحيدة تجلس على مدخل إحدى العمارات، واضعة يدها على خدها وتسأل نفسها لماذا أنت هنا يا حرنكش؟

٧

مشت حرنكش كثيرًا في مسيرات ثورية مع هند قبل موتها. كانت المسيرات تعذبها دائمًا. كانت تريد التقدم أو التأخر عنها. لم ينضبط إيقاعها عليها أبدًا. كانت معتادة على المشي بإيقاعها هي. ولم تستطع ضبط إيقاعها على الآخرين. ولكن الشيء المرعب دائمًا كان لحظات توقف المسيرة. سواء بفعل ضرب الشرطة أو المواطنين الشرفاء أو حتى زهق المتظاهرين أنفسهم. تنفض المسيرة من حولها في شوارع صغيرة وتجد البنت نفسها وحيدة.

لم تته حرنكش في حياتها مرة واحدة من قبل. منذ طفولتها، عندما كان أبوها يسير بها، لم يكن ممكنًا أن تتوه، لأن أباها معها، وعندما بدأت المشي وحيدة، لم تته أيضًا، لأنها سبق أن حفظت الطرق التي يجب المشي فيها. والطرق التي كانت تمشي فيها كانت طرقًا بسيطة ومباشرة، شوارع رئيسية. لم تعرف كيف تخرم من قبل، واللحظات التي كانت تنفض فيها المسيرة وتتوه في متاهات القاهرة الضخمة كانت بالنسبة إليها كابوسًا مقيمًا. قالت طيب، سأمشي في المسيرة، ولكن اظبطوها على مقاسي، عرفوني أين نبدأ وأين ننتهي وأنا معكم.

كان هذا واحدًا من الأسباب التي نفرتها من شارع القصر العيني بعد امتلائه بالجدران. تذكر شرح أبيها لها، أقصر مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم، وهذا يعني أن كلما قل عدد الشوارع، وإن زاد طولها، تصلين أسرع إلى البيت. استدرك أبوها بعدها وقال إن في نفس الوقت، فإن سرنا في نفس الشارع للأبد لن نصل أبدًا إلى

أي مكان نريده، لذا ربما يتوجب علينا تغيير التكنيك بين الحين والآخر. ولم تكن هناك تكنيكات متاحة في القصر العيني، لم يكن متاحًا سوى الارتجال بين جدار وجدار.

وفي اليوم الذي هجمت فيه الشرطة العسكرية، بحماية المواطنين الشرفاء، على المسيرة المتجهة من مصطفى محمود إلى الدقي، وتفرقت المسيرة في شوارع صغيرة، وجلست حرنكش على الرصيف ووضعت وجهها بين كفيها، ولم يلحقها أحد ولا سألها أحد مالك، جلست وقالت لماذا أنا هنا، قذرة وعرقانة ومبهدلة ورائحة الغاز لا تغادر أنفي؟ وأين أنا أصلًا؟ ولماذا لا يشبه هذا المكان أي شيء عرفته من قبل؟ ولماذا يبدو شبيهًا بيوم القيامة كل هذا الشبه؟ ولماذا تبدو البيوت المريحة بأسرتها وملاءاتها النظيفة بعيدة عني كل هذا البعد؟ وهل هناك أكثر من عالم في هذا العالم؟ وانسحبت أكثر وأكثر في أسئلتها الفلسفية حتى امتدت يدٌ إليها وطبطبت على كتفها. والتفتت إلى صاحب اليد فوجدته محمود.

وضعت رأسها في حجره بلهفة ومضت تبكي وتبكي، وهو يمسح على شعرها. ومضت تكحت بأظافرها في حجره، خجلانة من قذارتها وغير قادرة بالتالي على توبيخه على قذارته، مضت تكحت في قَطع صغير في بنطلونه الجينز، تكحت وتكحت وكأنها تهدف إلى توسيع القطع، وهو لا يتكلم، حتى طال الوقت الذي ينتظران فيه الكلمة التي ستنطلق أولًا، وعندما تأكدت أنه لن يقول شيئًا، سألته، عندك فكرة عن شقة فاضية هنا يا محمود؟

لم يرد عليها. فقط نظر خلفها، فالتفتت بجانب وجهها ولمحت

عساكر شرطة قادمين. انتفضت وجرت خطوتين إلى داخل مدخل عمارة ما يزال بابها مفتوحًا رغم كل الفوضى. دخلت العمارة مرعوبة، ودقت كثيرًا بقبضتها على أول باب، وعندما لم يفتح أحد لم يثنها هذا عن الدق، ظلت تدق وتدق لعشر دقائق وهي تهتف، افتحوا، والنبي افتحوا. ورأت العساكر يتقدمون أمامها في الشارع فخفضت صوتها وإن لم تخفض صوت الدق على الباب. حتى انفتح الباب وأطلت منه امرأة عجوز بوجه بشوش، امرأة تلبس طرحة شفافة تُظهر شعرًا أبيض كله. حاولت حرنكش النطق بأي كلمة ولكن المرأة كانت أسرع منها. أشارت إلى داخل شقتها وهمست، يا أهلًا وسهلًا، يا أهلًا وسهلًا، اتفضلي يا بنتي اتفضلي.

دخلت حرنكش مذهولة ومرتعشة، وأجلستها المرأة على كنبة في الصالة. جلست محنية إلى الأمام في الأول، تكرر مرة وراء مرة، أنا آسفة، أنا آسفة جدًّا والله، والست تطبطب عليها وتقدم لها كوب ماء، خدي نَفَسك يا بنتي، شكلك تعبانة عالآخر.

لم تطلب الست إيضاحات، وحرنكش كذلك لم يكن بمقدورها تقديم أيٍّ منها؛ لم تكن هناك غير الرعشة من جانبها والطبطبة من جانب الست. وعندما بدأ جسم حرنكش يسترخي قليلًا، عندما بدأ ظهرها يرجع إلى الخلف ليسند على ظهر الكنبة الوثيرة، بدأت ترى الصالة بشكل أفضل؛ شباك كبير مغلق بشيش مغلق، مروحتان كهربائيتان لا تدوران، وتلفزيون فوق ترابيزة تحمل في الطابق الأسفل منها جرائد كثيرة، الأهرام والمصري اليوم والشروق، بالإضافة إلى صورة معلقة فوق التلفزيون لشاب في العشرينيات فوقه شريطة

سوداء. توقفت عينا حرنكش على الصورة فوضحت الست، عمر ابني الله يرحمه، من شهداء الثورة. قومي يا بنتي خدي دش وروقي نفسك. هزت حرنكش رأسها باعتذار، ولكن اعتذارها لم يكن مقنعًا للست التي واصلت، استني انا هاحضَّر لك فوطة حلوة عشان تنشفي نفسك، ودخلت غرفة جانبية وخرجت بالفوطة وقدمتها لحرنكش، وعندي كمان جلابية مرات ابني، استني هاجيبهالك.

لم تستطع حرنكش المقاومة ودخلت لتستحم. وفوق سطح البانيو جلست القرفصاء، وحاولت تكوير نفسها قدر ما تستطيع لتصل إلى وضع الجنين، وكأنها بهذا تطرد كل خوف وتعب اليوم. وظلت جالسة تحت الماء الدافئ لفترة طويلة جدًّا، نسيت أن تليف نفسها أو تمسح نفسها بنقطة صابون، نسيت ببساطة. وبعد أن مرت نصف ساعة أغلقت الحنفية وقامت لتنشف نفسها فاسودَّت الفوطة البيضاء.

أحست بالذنب لتوسيخها فوطة الست واحتاست بها قليلًا. علقتها على المنشر ولكن منظرها كان مخجلًا، كأن العار كله انفرد أمامها في لحظة. أرادت غسلها تحت حنفية الحوض وبحثت عن الصابون فلم تجده. خرجت من الحمَّام وسألت الست عن مكان الصابون. لم تسمعها الست أو لم تهتم بكلامها، فقط أشارت إلى كوبي شاي أعدتهما لتوها، تعالي اشربي الشاي بتاعك يا بنتي.

البخار كان يتصاعد من كوبي الشاي الزجاجيين، وحرنكش التي كانت تقف بالفوطة المسودة في يدها رأت في هذا البخار غواية لا تقاوم، كأنها تعود لتصبح طفلة تجلس بجانب أمها وتتكلمان حول كثير وكثير من المواضيع التي لا معنى لها. نظرت إلى الحمَّام

من خلفها، ثم حسمت أمرها ورمت الفوطة وراءها على أرض الحمَّام، وتقدمت مترددة لتعاود الجلوس على الكنبة مقابل الست، التي أخذت في الحكي مطولًا عن أبنائها وزوجاتهم. سردت تفاصيل عائلية كانت حرنكش في أمس الحاجة إلى سماعها.

بملابس نظيفة وجسم رطب من أثر الحموم، تشرب الشاي وتستمتع بلفح بخاره لأنفها وشفتيها، كان قلبها يعود ليطمئن، لا تزال هناك عائلات في هذا العالم، لا تزال هناك شقق هادئة، لا تزال هناك خلافات حول أمور صغيرة وأمهات يشتكين من جفاء أبنائهن وحموات يكرهن زوجات أبنائهن. بدا لها للحظة أن الشارع لم يعد له وجود، وأن الغاز والبرد قد انهزما أمام الدفء وبخار الشاي.

ماتآخذنيش يا بنتي، ماعنديش دفايات، ابني قالي هيجيبلي بس الأسعار بقت نار بقى انتي عارفة، وأنا واحدة ست عايشة عالمعاش.

بلطف مرهَق قالت حرنكش إن هذا لا يضايقها أبدًا، وإنها ممتنة جدًّا لكرم الست، وإن كانت توافقها بقوة على نقطة غلاء الأسعار، فما كان ممكنًا شراؤه بجنيه من سنتين أصبح الآن يتكلف خمسة. ولأن الكلام يقود إلى كلام، جاءت سيرة البحث عن شقة. قالت حرنكش إنها تبحث عن شقة وإن الشقق غالية، أو بالأصح غير موجودة، ولا أحد يعرف كيف يمكن للناس أن يسكنوا في هذه الأيام.

وقتها بدا لحرنكش أن الست مبعوثة العناية الإلهية لها، وإذا كانت هناك لحظة دقيقة للمعجزة، فقد بدا لها أنها هذه اللحظة. نظرت الست إلى حرنكش وقالت إن صاحب العمارة يرغب في تأجير شقة عنده في الدور الثالث بألفين ونُص في الشهر، فردت حرنكش بقوة وحسم

مفاجئين، كأن طاقة فجائية دبت في عروقها، خليني اشوفها. لمعت عينا الست، وقامت للتلفون وأدارت رقمًا وقالت، أيوه يا حاج، فيه واحدة تبعي هنا عاوزة تاخد الشقة بتاعة التالت وفلوسها جاهزة. وانتظرتا نصف ساعة حتى دق البواب الباب وصعد مع حرنكش إلى الدور الثالث ليفرجها على الشقة.

حلوة، قالت حرنكش، وإن كان ينقصها بعض الشمس، لكن أي شيء أحسن من شقة القصر العيني. واتفقا على أن تأتي لتوقع العقد بعد يومين، ونزلت إلى الست وهي تحس أنها تحررت من عبء حقيقي. ظلتا تتسامران حتى أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فقامت الست وجلبت لها بطانيتين ومخدة واستحلفتها أن تنام في البيت الليلة، وتروحي وقت ما تروحي بكرة.

لم تقاوم حرنكش. نامت كالقتيلة. وفي الصباح قامت مبكرًا، وذهبت إلى الحمَّام لتغسل وجهها ولاحظت أن الفوطة ما تزال في مكانها على الأرض، كأنها ممسحة للأقدام هذه المرة، فابتسمت وقالت لنفسها مش مهم بقى.

٨

في تلك الأيام، رأت حرنكش حلمًا أخافها. كانت في المدرسة تشرح لتلاميذها «قانون الفوضى»، هكذا سمَّته. كانت تقول إن كل حياتنا تعتمد على الفوضى، وهذا لأننا لا نعرف بعضنا البعض

ولا نعرف ظروفنا، ومررت سبابتها اليمنى وسبابتها اليسرى على السبورة، ومشّت الاثنتين في اتجاهين مختلفين، وقالت تخيلوا لو أن هذا الإصبع لا يعرف بوجود الإصبع الثاني، والتقيا بالصدفة، أليس هذا دليلًا كبيرًا على أن هناك فوضى؟ ورفع تلميذ يده وسألها، وماذا لو أن في كل مرة مشى فيها الإصبعان، في كل مرة كل مرة، التقيا. هل تكون هذه فوضى؟

تواصل الحلم في مكان آخر، ومع شخص آخر، رجل ناضج هذه المرة، ولكن مع النقاش نفسه. كانت ترد على احتمال التقاء الإصبعين في كل مرة بمنتهى الجدية. قالت إن ربنا وحده يعلم المصائر المتقاطعة، ولكننا لا نعرفها، ولن نعرفها، ولذلك فلا جدوى من معارضة قانون الفوضى. ثم حررت الجملة المحبوسة في حلقها وقالت إنها أحبت ثلاثة أشخاص في ثلاث مراحل مختلفة من حياتها، والثلاثة ماتوا، كل واحد لسبب مختلف، ولو كانت قليلة الإيمان لاعتبرت أن أحدًا عمل لها سحرًا أو شيئًا كهذا، ولكن إيمانها دفعها إلى البحث عن شخص رابع أحبته، وذهبت إليه في بلده وسألت عنه ووجدته ما يزال حيًا، لهذا فلقد عرفت ألا وجود للسحر وهذه الأشياء. بقاء الشخص الرابع على قيد الحياة أنقذها من الجنون. أيقنت عندها أن الأمر كله ليس إلا مجرد صدفة.

الشخص الذي بجانبها كان يسير واضعًا يده في جيب البالطو ويصفر بصوت خفيف، وبدا طول حديثها كأنه لا يسمعها أو لا يبالي بكلامها. ولكن فقط عندما نطقت الكلمة الأخيرة صدر عنه رد فعل. قال، صدفة طبعًا، أكيد صدفة، مش صدفة ليه؟ قال العبارات الثلاث

بسرعة وحسم، كأنه انتظر طويلًا أن تقول الكلمة، ثم مضى عنها متابعًا صفيره ويده لا تزال في جيب البالطو.

٩

غادر الأب البيت للمرة الثانية، غادر ولم يعد هذه المرة إلا لزيارة قصيرة. لترتيب الأوضاع مع الأم. لم تفهم حرنكش كثيرًا هذه الأيام، ولكن مع الوقت فهمت.

بقيت البنت مع أمها، وأمها لا تتكلم إلا فيما هو ضروري، لا تفتح مواضيع. متجهمة ومكفهرة، وإذا نطقت شيئًا بالغلط تلومها الأم بنظرة. إذا قالت شيئًا ليس له لزوم، شيئًا لا يعني شيئًا، شيئًا مثل المسلسل هيبدأ إمتى، تنظر إليها الأم وتغمغم، فيما يبدو وكأنه رد ولكنه ليس ردًّا، وتنكبس البنت وتحتمي أكثر داخل الووكمان.

كأن الأم كانت تحرس الموضوع، تحمي مقدسها، تحاول إبعاد من يحوم حول الحمى حتى لا يقع فيه، تقطع لسان ابنتها قبل أن تسألها عن مواضيع لا تريد الكلام فيها، كانت تحرس الكلام المهم عبر قتل الكلام غير المهم. ولكن مع الوقت فهمت حرنكش. الكل قادر على الفهم من لملمة طراطيش الكلام. فيما بعد، بعد أن يحدث الانفصال الكبير، ستقول لها زوجة أبيها، أهي امك دي زي اللي حب يغيظ مراته قام قطع الحاجات، وقال لها أبوها، عمرك شفتي حد يعمل اللي امك عملته، وقالت لها زوجة أبيها،

أمك قحبة، وسألها أبوها في مرضه الأخير، انتي بنتي يا حرنكش، صح؟ وقالت صح.

اختارت حرنكش أن تكون ابنة لأبيها. في المرة التي جاء أبوها إلى البيت وجلس مع الأم انفتح الموضوع، اضطر إلى أن ينفتح. تكلم الأب مع الأم وقال لها إنه لا يريد فتح الموضوع من جديد. فقط ليتفقا على التفاصيل وليذهب كلٌّ إلى حال سبيله. قالت له الأم إنه لا ينفع ألا يفتح الموضوع، طالما التفاصيل نفسها تتعلق بالموضوع، لأن الحاجة دي معناها ألا حق له في البنت، ونظرت في عين زوجها بقوة وقالت، وانت عارف ان كلامي صح يا اسماعيل وإني مابتبلاش على حد. ثم ندهت على ابنتها وقالت لها، انتي هتفضلي هنا معايا، مش كدا؟ خافت حرنكش من أمها ولم تعرف ماذا تفعل. تقدمت لاإراديًّا، وبتسليم، خطوتين ناحية الأم، ثم تسمرت في الأرض وقالت لا، أنا عاوزة أفضل مع بابا، مع أبويا. وكانت أول مرة تسميه «أبويا». قالتها مرتعشة وعيناها في الأرض، وبعد ثوانٍ رفعت عينيها وثبتتهما على الأم.

اختارت حرنكش أن تكون ابنة لأبيها، اختارت هذا بلا تردد، والآن، وهي تفكر إن كانت تحب أباها، حب المرأة للرجل يعني، تتذكر هذا وتقول لا. أنا أحببته لأنه بابا.

كرهت أمها جدًّا. حتى والأب يحاول الدفاع عنها قائلًا إن أعصابها تعبت في الفترة الأخيرة، وإنه يعذرها، كرهتها. لم تعرف لماذا تهين امرأة زوجها إلى هذا الحد، إلى حد أن توهمه بأن ابنته ليست ابنته، وإنما ابنة صديقه الأعز. وعندما ماتت الأم، بعيدًا عنهم، وهي وأبوها

وزوجته الجديدة في شقة المنيل، طلبت منه ألا يحضر العزاء. طلبت منه هذا بقوة، ولكن الأب ذهب إلى العزاء. وعاد وهو حزين، في الأرجح تصادم هناك مع أصهاره.

سمعت حرنكش كلمة «مجنونة» تقال عن أمها أكثر من مرة. وفي بعض الأحيان قالتها هي نفسها. بدت لها الكلمة بوابة لتدخل إلى عالم نميمة الكبار. وكان يقال في كل مرة، إنه حتى لو كان ما قالته الأم صحيحًا، وهو ليس صحيحًا أبدًا، وهو ليس صحيحًا بأي حال، نقول إنه حتى لو كان صحيحًا وهو ليس صحيحًا، فأي أم هذه التي تفضح نفسها بهذا الشكل وتدمر حياة ابنتها وزوجها؟ كان الأب يقول نفسيتها تعبت، والجميع بخلافه كانوا يقولون مجنونة. وبدا الأب أمام الجميع قديسًا وبدت الأم شرموطة.

عمومًا، ماتت الأم وحيدة في شقتها بالمنيرة، في سنة تسعين، بعد أن انقطعت علاقة البنت بها.

من ضمن الأوراق التي عثرت عليها حرنكش في السندرة، كانت رسالة قديمة لها من الأم، كانت الأم تعتذر إن كانت تسببت لها في أي مشاكل. تقول إنها عندما تكبر ستفهمها، وتسألها لماذا لا تسأل عليها، لماذا لا يسأل أحد عليها. وحتى إن كانت الرحمة انعدمت من قلب حورية، بحيث لا تعود تسأل عن أمها، فالأم يقتلها الشوق إليها. **كل الناس سابتني يا حورية وانا ببعتلك الكلام دا بس علشان احنن قلبك عليَّا. أنا ماليش حد في الدنيا، حتى اخوالك ماعادوش يحبوني. لو لسه باقية عليَّا تعالي زوريني يوم، وحياة الغاليين عليكي تعاليلي يا حورية.**

لم تعرف حرنكش شيئًا من قبل عن هذه الرسالة. لم ترها ولم يحدثها أحد عنها. حماها الجميع من هجمة حنين أمها. والآن عندما تقرأها تمتلئ بأحاسيس متناقضة. على مدار سنوات طويلة، حاولت نسيان أمها، حاولت التعامل معها وكأنها لم تكن، والذكريات تعود الآن على هيئة ورقة مصفرة داخل ظرف بالٍ.

وبجانب رسالة أمها لها، كانت هناك قصيدة أبيها، قرأتها مرات عديدة، وبدأت ترددها لنفسها طول الوقت. لم يكن هناك أي أثر لهذه القصة في قصيدة أبيها، سوى في مقطع واحد، حرص فيه الأب على قول كل شيء مرة واحدة وإلى الأبد وبشكل قاطع، وحورية دي بنتي الأصلية، مخلوقة قديمة وأزلية، وف المعركة منحازة ليَّا، وكل ما تكبر تحلو.

ما لم تفهمه جرنكش، إذا كان أبوها واثقًا إلى هذا الحد أنه أبوها، لماذا قاطع عم ناجي حتى موته؟ كان هذا السؤال يخطر ببالها أحيانًا ولكنها سرعان ما تبعده عن ذهنها. الآن يخطر لها بوتيرة أكبر. يخطر لها ولا يترك لها مساحة لتتنفس. يحاصرها وهي رايحة وهي جاية. من كان صح ومن كان غلط؟ تجتهد لتجيب وتفحص جميع الاحتمالات ولا تصل إلى شيء، ولكن الأكيد أنها بدأت تشعر بنفور من عم ناجي.

في الأيام السابقة على أول فبراير، وهي تلملم أشياءها استعدادًا للرحيل إلى شقة الدقي، فكرت أنها لا بد أن تكلم عم ناجي لتخبره أنها وجدت شقة. كلمته وشكرته على مجهوده معها، وسألته عامل إيه، فقال إن البواسير لا تزال هالكاه، الواحد عشان يشخ بقى محتاج

تلات مساعدين معاه، لدرجة أن جسمه امتلأ بالشخاخ ولم يعد يعرف ماذا يفعل، وكركع بالضحك ولم تضحك هي.

وبعد أن أغلق التلفون شعرت كأنها تريد التقيؤ. وطول الليل ظلت تتقلب على السرير وهي تسترجع جملته، وفقط عندما نطقت بما تفكر فيه، فقط عندما قالت داخل نفسها بصوت هامس، إنت مقرف يا عم ناجي وكل كلامك مقرف، فقط عندها أتاها النوم.

١٠

في الواحد والثلاثين من يناير، قبل انتهاء عقد شقتها بيوم، صحت حورية مبكرة. كانت الشنط مضبوبة كلها بجانبها، ثلاث شنط ثقيلة، الواحدة بجوار الأخرى، كأنها بيت صغير، وبجوارها كيس ضخم وضعت فيه لوحة هند، المرأة بشعرها المفرود التي ترفع قبضتها عاليًا.

صحت في السابعة صباحًا، وحملت الشنط واحدة واحدة، لأن العمارة كانت بلا بواب يساعدها، وانقطع نفسها وهي تنزل بالشنط ما بين الروف والطابق الأسفل، حيث يقع الأسانسير. تواصلت المهمة على مدار نصف ساعة. وصحيح أنها في الشنطة الأخيرة قرفت من نفسها ومن وحدتها ومن قلة حيلتها، ولكنها عرفت أنها، وإن كانت وحيدة تمامًا هكذا، فهذا ليس شيئًا سيئًا بالضرورة. قد يكون جيدًا وقد يكون سيئًا، لست متأكدة، أن أتحدى قدري هكذا بصدر عارٍ.

القصر العيني لا يزال مقفرًا، والعثور على تاكسي فيه أصعب من أي شيء آخر. ظلت جالسة على الرصيف في انتظار تاكسي، ولأول مرة تحس بكل هذه الوحدة وبكل هذه البطولة. قبل أن تركب التاكسي ألقت نظرة خاطفة على البنزينة المقفرة، حيث سقط هيثم قبل شهور، ونظرة على الرصيف المقابل، حيث انطلقت الرصاصة التي أسقطته. وركبت، ومضى السائق يقوم بأفعال بهلوانية للخروج من القصر العيني. وعندما أصبحا على كوبري قصر النيل، حكت له أنها قتلت طفلًا في المكان الذي أخذها منه، فقال سريعًا، يبقى ليكي الجنة من غير حساب، ومضى يضحك على نكتته.

لحسن الحظ كان هناك بواب في بيت الدقي، ساعدها على حمل الشنط إلى أعلى. كانت الشقة نظيفة في الدور الثالث، بعد أن طلبت واحدة تنظف لها الشقة قبل يومين، وإن لم يكن هناك عفش كثير؛ فقط سرير وفوتيهان وكنبة وثلاجة. وضعت الشنط ونزلت إلى الدور الأول.

خبطت على باب المرأة العجوز ففتحت لها هذه. أدخلتها وعملت لها شايًا بالنعناع، وسألتها إن كانت الشقة أعجبتها، فقالت إنها حلوة ولكن العفش الذي فيها قليل. ردت الست أن هذه مهمتها إذن، دلوقتي انتي عندك الضروريات. الكماليات بقى انتي وشطارتك.

كانت حرنكش تجلس على الكنبة وتحضن إحدى المخدات بين ذراعيها، وكانت الست تحكي عن زوجة ابنها طارق التي تفتعل معها الخناقات في كل مرة تزورها، وبدأت حرنكش تفعِّص في المخدة وهي مستندة إلى ظهر الكنبة تضع ساقًا على ساق، وكانت

المخدة شديدة الطراوة والنعومة، وخيل لحرنكش أنها محشوة بالريش. وتحت تأثير الاسترخاء طيرت المخدة في الهواء لسنتيمترات معدودة ثم قبضت عليها، وطيرتها مرة أخرى ولم تستطع الإمساك بها فهتفت، يوووه، وضحكت. والست تراقبها بابتسامة، وإن لم تتوقف عن الحكي.

الست عندها ثلاثة أولاد، وكان هناك ابن رابع، ابني عمر الله يرحمه. وقليلًا جدًّا ما يزورها أحدهم. ربتهم وعلمتهم وكبرتهم ثم استكبروا عن زيارتها. وحتى عندما يزورها أحدهم، آديكي شايفة، ينتهي الموضوع بغم. خناقات ومرار وجدالات لا تنتهي.

أضافت الست، مرات ابني دي أصلها بتحب الجيش أوي وبتقعد تدافع عنه عالفاضي وعالمليان، أنا أقولها طيب ما هو مين اللي موت عمر ابني، مش هو الجيش؟ تقولي لأ. أصل دا كان مضحوك عليه. حاجة آخر غلب والله يا بنتي، وجدل جدل جدل مابيخلصش.

الكلام كان متواصلًا من جانب الست، وكانت حورية تقطعه بأن تقوم إلى المطبخ وتعد لها ولنفسها الشاي والبقسماط، وتعود ثانية إلى الكنبة لتسمع وتلعب بالمخدة. وعندما انتصف الليل، بدأت تتثاءب وعيناها تثقلان، فقالت إنها ستطلع إلى شقتها، ولكنها تستسمح الست في بطانية لأن السرير فوق ليس عليه إلا ملاءة واحدة، فقالت الست، لا يا حبيبتي، انتي تباتي هنا عالكنبة دي وبكرة تروقي بيتك وتنضفيه وتجيبي حاجتك.

كان المبيت في شقة الست هو ما تسعى إليه، وإن لم تجرؤ على التعبير عنه مباشرة. تمنعت في الأول ثم وافقت. تغطت بالبطانيتين

وسندت رأسها على المخدة ونامت، وفي نومها رأت نفسها طفلة، مع واحدة أخرى في البيت نفسه، طفلة أخرى، ولكن كان ثمة تلميح من الحلم بأن الطفلة الأخرى هي الست العجوز نفسها، لأن وجودها كان يشير إلى عقبة تذللت وإلى بيت انفتح لها أخيرًا. ومضت حرنكش تلعب بالمخدة مع الطفلة العجوز، تطيرها لها فتطيرها هذه لها، وتنخرم المخدة ويتطاير منها ذيل، عبارة عن ريش ملون كثير يملأ جنبات الشقة، فتشيران إليه وتتابعان مساره وتضحكان كثيرًا.

١١

الليالي الأولى لحرنكش في شقتها مرت بلطف. كانت تنزل في الصباح لتتابع تأثيث شقتها، تشتري أجهزة كهربائية وملاءات وأغراضًا للمطبخ والحمَّام وطلبات للبيت، ثم تنزل إلى الست اللي تحت لتتجاذبا أطراف الحديث، وتبيت هناك غالبًا. أحبت بيت الست بدفئه وامتلائه بالأغراض. وكانت ترقب في الوقت نفسه امتلاء شقتها هي الأخرى بالأغراض وتحولها إلى بيت حقيقي.

الست كانت أم شهيد، وأم الشهيد غالبًا ما تكون امرأة وصلت إلى ذروة الأمومة وزرعت علمها عليها ولم يعد من الممكن المزايدة على أمومتها، وهذا كان دور صورة الابن المعلقة فوق التلفزيون. كانت الست تتكلم، وكانت حرنكش تسمع، وتشرد في كل أنحاء

الشقة، ولكن ما إن يتوجه نظرها نحو الصورة فوق التلفزيون حتى تنقطع سلسلة الكلام. تعلق الست، ابني عمر، ثم تسرد حكايات عن ابنها شهيد الثورة الراحل في ريعان شبابه. مرة أثناء الحكي ارتجف جسمها وبدا أنها على وشك البكاء، وقامت حرنكش وطبطبت عليها، ولكن في أغلب الأحوال كانت متماسكة.

سيرة عمر كانت تقبض قلب حورية. أرادت أكثر من مرة الحكي عن محمود ابنها، الذي مات هو أيضًا في الثورة، ولم تحكِ. لم تجرؤ على قطع تدفق كلام الست. بدا كأن الصورة الصغيرة المعلقة فوق التلفزيون تكبر وتكبر لتستحوذ في النهاية على جميع الحوارات الدائرة في الشقة. مع الوقت بدأت حورية تحرص على عدم النظر إلى الصورة. نجح هذا مرة ومرتين، ولكنه ربى عندها بعض العادات العصبية، مثل خفض النظر سريعًا وبلا مبرر، أو التردد قليلًا قبل الوصول بعينيها إلى فوق، أو الخوف من النظر إلى الجدران بشكل عام. أنا مش ناقصة كآبة يا عالم أبوس إيديكم، كانت تقول لنفسها وهي تسرع من وتيرة تأثيثها لشقتها.

١٢

ولأنه لا تنقصها الكآبة، فقد قررت البدء بتبييض الشقة. أرادت ألوانًا مبهجة. اختارت البمبي لغرفة النوم والأصفر للبلكونة، الأخضر الفوسفوري للصالة والأزرق الفوسفوري لغرفة المكتب.

ولأنها لم تعمل حسابًا لعملية البياض من قبل، ولأنها لم تسأل نفسها أين ستبيت عندما يحدث البياض، ولا كيف ستحتمل رائحة الدهان، فقد نزلت إلى الست اللي تحت لمواصلة قضاء الليالي عندها.

والست من جانبها لم تبخل عليها، بل قادتها خطوة إلى الأمام. إلى غرفة النوم، وإلى سريرها الشخصي حيث تنام هي. بعد أن كانت تنام على كنبة الصالة، نامت حرنكش هذه الليالي على سرير الست. كانتا تفرشان لحافًا واحدًا، تتسامران قليلًا، ثم تروحان في النوم.

وبصفتها أمًّا حقيقية فقد سألت حرنكش عن أمها. كانتا تهمسان على السرير عندما بدأت حرنكش تحكي وتتذكر، وتستعيد مشاهد وجملًا وشخصيات، تسترجع جملًا من الكراسات التي بحوزتها، وتحلل شخصيات من عاصروا الأحداث. حكت عن أبيها وعن زوجة أبيها وعن عم ناجي، ولم تُخف إلا ما لا تعرفه. بدأت من لحظة زيارتها مع خالتها لقبر أمها، وصولًا إلى صاحبك بيعاكسني وانتي لازم تتعالجي عند دكتور. قالت إنها لا تعرف الحقيقة، ولكها تحب أباها، وفي همسها على السرير مررت معلومة أنها تملك غمازتيه نفسهما. وكان الكلام هامسًا ولم تثق أن الست كانت تسمعه كله.

وأجلت الحكي عن محمود، حتى في الدقائق الأخيرة قبل النوم، والهمس دائر والأرواح هادئة، كانت تخطط لهذه اللحظة. قالت لنفسها، ذات يوم، والست تحكي وتحكي عن ابنها الشهيد، سأذكر لها اسم محمود. ستعرف فجأة أن في الدنيا أبناء آخرين وشهداء آخرين.

كانت تقضي النهار تتابع الصنايعية في بيتها، تحضر لهم الطلبات، وتنزل لتتكلم مع الست على خلفية التلفزيون الشغال، وتمسح الأسطح الزجاجية للطاولات وهي تتكلم، وتحضر الشاي ووجبات الزبادي والبيض المسلوق للست، ثم تعود إلى بيتها، وعندما ينصرف العمال تلبس ملابس نومها وتنزل، تفرشان اللحاف نفسه وتنامان.

كانت أيامًا مريحة لها، عرفت فيها دفء البيوت ومعنى الدردشة.

كانت الست مثقفة، تشاهد برامج التوك شو وتقرأ الجرائد، وكانت نافذة حرنكش على ما يحدث في البلد، كانت هي من تثقف حرنكش. بعد أن عرفت الأخيرة أخبار البلد كلها من ميدان التحرير نفسه في طوافها مع هند، أتت الست أم سبعين عامًا لتثقفها. لم تتوقف الست عن سب الداخلية والمجلس العسكري، وردًّا عليها، ولمنعها من التعميم، كانت حرنكش تحكي عن أبيها، انتي مزوداها يا طنط بصراحة في موضوع المجلس العسكري، أنا بابا مثلًا كان ظابط في الجيش وكان إنسان محترم جدًّا، وكل اصحابه هناك محترمين جدًّا كمان.

بشكل ما، كانت تحس كأنها الأم والست هي الابنة. الست تحكي بحماس وحرنكش هي العاقلة التي تبصرها بحقائق الحياة.

كانتا تتوددان على السرير، في الليلة الأخيرة أو قبل الأخيرة أو قبل قبل الأخيرة لانتهاء البياض في الشقة، عندما قالت حرنكش إن بتوع الثورة دول كؤبا. سألتها الست عن معنى الكلمة فقالت كئيبين. ردت الست أن ابنها لم يكن هناك من هو أمرح منه. فقررت حرنكش

النطق بالكلمة المؤجلة، كانت هذه لحظتها، على فكرة يا طنط انا عارفة أنا بقولك إيه، أنا ابني كمان من شهداء الثورة، وبكل موضوعية أقدر أقولك إنه ماكانش مرح على الإطلاق.

لم ترد الست، أدارت وجهها إلى الناحية الثانية، ومر وقت طويل وحورية راقدة على ظهرها تتساءل عن سبب تأخرها في الرد، حتى أدارت هذه إليها رأسها نصف دورة وسألتها، إوعي يا حورية يكون ابنك دا هيثم كمال؟

تغير لون حرنكش كثيرًا، ولكن النور كان مطفأً في غرفة النوم، فلم يرَ أحد وجهها. قالت، لا مش هيثم كمال يا طنط. وأدارت وجهها إلى الناحية الثانية، ثم عادت لتميل رأسها على رأس الست، فوق أذنها مباشرة، وتهمس، أنا ابني اسمه محمود صبحي يا طنط، ماسموش هيثم كمال.

١٣

استغربت من نفسي قليلًا عندما نطقت باسم محمود صبحي. أنا تعودت عليه بوصفه محمود، وليس محمود صبحي.

الست هي من دفعتني لنطق الاسم الثنائي، أردت أن أخبرها أن هناك أطفالًا آخرين وشهداء آخرين، لم ينبتوا من العدم، وإنما لهم أسماء وصفات وبيوت وآباء وأمهات.

هل أخذت الست بالها من هذا؟ لا أعرف. ولكن غاظني أن يحتكر

هيثم كمال لقب «شهيد الثورة». كان يمكنني أن أقول لها، لا، ابني ليس هيثم كمال، ولكني فكرت بعدها أن النطق باسم محمود كان إنجازي في تلك الليلة، كأني دافعت عن ابني الصغير، أعدت له اسمه ومكانته، هناك، في قلب الغرفة المظلمة، على سرير أتشاركه مع الست العجوز، ولا أحد يرانا غير ربنا والأرواح الهائمة.

على العموم، لم يقدر لنا أن نستكمل الحوار عن هذا فيما بعد، كما لم يقدر لنا أن نبيت على نفس السرير معًا مرة أخرى.

تلك الليلة كانت الأخيرة قبل انتهاء البياض في شقتي، أو، أتذكر الآن، بعد انتهاء البياض ولكن قبل جفاف الدهان من على الجدران وطيران رائحته الثقيلة. في اليوم التالي طلعت إلى شقتي الجديدة، وضحكت كثيرًا عندما رأيتها، كأنها غرفة أطفال، كلها ملونة وفاتحة ومبهجة وتبرق. قلت لنفسي هذه أحلى شقة سكنتها في حياتي.

قررت أن أدهن العفش أيضًا بألوان مختلفة. ونزلت الأزهر وأتيت بأغطية ومفارش كثيرة وملونة للثلاجة والغسالة. ودعوت الست اللي تحت لأريها الشقة، وضحكت هذه عندما دخلت، ضحكة قصيرة متحشرجة ولكنها بسطتني. أمسكت بيدها وقدتها في أنحاء الشقة، شفتي اللون دا؟ الدرجة دي احترت عليها. أنا دهنت بنفسي الترابيزة دي، واللاكيه طرطش على الأرض وعمل جو، حتى شوفي، ومضيت أريها البقع الملونة على البلاط. كنت فخورة بعملي، فخورة أني حولت الشقة من مكان مقفر كالبلاعة إلى بيت شديد الإبهاج كهذا، إلى جنة أطفال.

وصورت الشقة بألوانها الجديدة، صورت كل حجراتها وكل

ألوانها، أنشأت ألبومًا من ثلاثين صورة ورفعته على الفيس، على صفحة هند بالتحديد. وكتبت تعليقًا لهند، أنا قلت اجي عندك عشان اغيظك شوية. وجاءتني المئات والمئات من اللايكات على الألبوم. وقال لي كثيرون إن الألبوم يذكرهم بهند، وإن فيه من روحها الكثير. فعدت وكتبت لهم تعليقًا، إنتو ضايقتوني على فكرة، أنا كنت عاوزة هند تتغاظ فعلًا، ووضعت وجهًا يخرج لسانه. ومرة أخرى، العشرات والعشرات من اللايكات.

لأيام طويلة فكرت في كتابة ستاتوسَ على الفيسبوك، حضرت له بداية ونهاية ووسطًا وحبكة وزمنًا وشخصيات. كتبته على ملف وورد وحفظته، فيه ناس عالفيس بيبقوا عاملين زي واحدة لسه متطلقة ولابسة ألوان كتير وبتضحك ومش حاسة بالمصيبة اللي هي فيها، عشان عاوزة تبقى لذيذة والناس كلها تحبها، بس من جواها، أعوذ بالله، سواد السواد، ومحدش يعرف دا غير اللي عارفها كويس أوي. كتبتُ التعليق على ملف وورد وغيرت كلمات كثيرة وصياغات كثيرة ثم مسحته في النهاية. فكرت أنه ليس عليَّ أن أخبر العالم بكل شيء، وإن عليَّ ترك أشياء للناس ليستنتجوها بنفسهم.

١٤

الألبوم الذي أنشأته على الفيس كان من ثلاثين صورة. هل تصدقني لو قلت إنه، بالإضافة إلى لايك على الألبوم الأساسي، كانت كل

صورة تحمل لايكًا من عاطف؟ كان عندي واحد وثلاثون لايكًا من شخص واحد، بلا كلمة ولا تعليق، واحد وثلاثون لايكًا صامتًا من نفس الشخص.

الحق أني بدأت أهتم بعاطف قليلًا في هذه الأيام. أفكر فيه وأتلصص على صوره.

هذه لم تكن صدفة. أفكر الآن أني بدأت أهتم به فور ما أصبح لي بيت يخصني، بيت جميل دافئ أنام فيه. أردت الطلوع درجة أخرى باتجاه الشمس والنور والحب.

وأرسلت لقمر، لففت ودرت حول الموضوع، قلت إني وحيدة، وإني، بصفتي أكثر شخص في الدنيا تآلفًا مع الشوارع، أصبحت أخاف الشوارع، خاصة عندما تكون مظلمة، وإن محمود يوحشني بشدة، وإني أقرأ قرآنًا كثيرًا، ولكن هذا، أستغفر الله العظيم أستغفر الله العظيم أستغفر الله العظيم، لا ينفعني.

وانتظرت يومين حتى ردت قمر، قالت إنها تفهمني جدًّا، أكثر واحدة في الدنيا تفهمني ربما، وقالت إنها متأكدة إن محمود في مكان آخر ينظر إليَّ ويتابعني ويتمنى لي الخير.

عارفة يا حورية؟ زمان زمان زمان، أيام ستي وستك والناس الطيبين بتوع زمان، كانوا لما بيفرحوا بيحمدوا ربنا ولما بيزعلوا بيستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. الشيطان عاوزنا نزعل جامد عشان يسحبنا عنده. ولو دا حصل يبقى نجح في الاختبار. دي دوامة يا حورية وانا مش عاوزاكي تدخليها.

كلام قمر لم يكن ذكيًا. كان كلامًا عاديًا تقوله أي امرأة لأي امرأة

في أي مكان، ولكنه كان غريبًا على أذني، لا يطابق تصوري عنها. كانت صورة بروفايلها على الفيسبوك عبارة عنها وهي تقفز في الهواء في ستوكهولم مرتدية فستانًا قصيرًا يظهر فخذيها. لم أتخيل من قبل أن تكون لها علاقة بربنا. لم أتخيل أن تقول كلامًا عاديًّا مثل هذا.

هذا بالتحديد، أي عدم ذكاء الكلام، أو طاقة تطييب الخواطر التي فيه، هو ما أراحني.

بدأ قلبي ينبسط بعد انكماش طويل. كانت الثالثة فجرًا، والدنيا رايقة والجو مناسب للدخول في الموضوع. قلت لقمر إني أريد أن أحب. الرجالة وحشوني أوي.

كل الرجالة؟

أيوه، بس أنا بتكلم كمان على عاطف تحديدًا. ووضعتُ وجهًا مكسوفًا.

أنا أفرح بشدة يا قمر عندما أرى نوتيفيكيشن منه، ولكني لا أكلمه، وابن أخيه مات ولم أذهب لتعزيته، وأشعر بالذنب لموت أمه وابن أخيه، لأني لم أقف بجانبهم في هذا الوقت، الولد يا قمر كان وحش أوي، كان ولد مش محترم وكنت مابحبوش، وعشان كدا محبتش اروح اعزي فيه.

طيب يا حورية، الولد مات، الولد وحش وشرير، ولكن ما ذنب عمه يا حبيبتي، ما ذنب الملاك الذي تحكي لي عنه الذي اسمه عمه؟ روحي زوريه واطمني عليه وقوليله كلمة حلوة تعرَّفيه بيها إن الخير لازم يبقاله مقابل.

انبسط قلبي أكثر وأكثر. علت روحي في السماء، كأني أخذت الإذن من صاحبة الإذن.

كدت أن أودعها وأنهي الحوار عند هذا الحد، ولكنها بادرت، ومبروك يا كلبة عالشقة، معقول مااعرفش غير من الفيس؟ ولقيتيها ازاي دي؟

كان مزاجي جيدًا بشكل لا يصدق، فأخذت راحتي قليلًا.

مش هاتصدقي يا قمُّور، فاكرة لما سألتيني عن مظاهرات «عسكر كاذبون»؟ أنا نزلت يومها ومشيت في المسيرة واتضربت واتبهدلت، وفجأة لقيت محمود بالصدفة وقعدت معاه، ولقيته بيشاورلي على الشقة وبيقولي روحي دوري ف العمارة دي. والله بالصدفة زي ما بقولك كدا. انتي زي ما تكوني كنتي عارفة ان المسيرة دي هلاقي فيها حاجة كويسة، وهو زي ما يكون عارف ان العمارة دي فيها شقة فاضية. سبحان الله والله. مش هاتتخيلي يا قمر انا باحبكو انتو الاتنين قد إيه.

محمود مين يا حبيبتي؟ سألتني قمر. محمود ابني، أجبت.

أخذت قمر تحاول كتابة رد طويل، وبدا أنها تكتب وتمحو، لأن الرد الذي أُرسل إليَّ في النهاية لم يكن غير ابتسامة.

بادلتُها بابتسامة فقالت، أنا لازم اروح انام دلوقتي بقى يا حبيبتي. تصبحي على خير ونتكلم بعدين.

١٥

اتفقت حورية مع عاطف على ميعاد في عيادته بالمقطم، ووقفت أمام المرآة ساعة ونصفًا. كانت تريد أن تبدو جميلة في عينه، ولبست

البلوزة الزرقاء الضيقة التي سبق ورآها بها في المطعم بالمقطم. ووضعت ميك أب أيضًا، كانت فرحانة أنها ستلتقي به أخيرًا.

في عيادته قالت له إنها سكنت في الدقي وأصبحت جارتهم، وإنها حزينة جدًّا لما حدث لهيثم، والله يلعنهم من فعلوا هذا. وترك مكتبه وجاء ليجلس على الكرسي أمامها. وانبعث من الشباك ما تخيلت أنه الموسيقى الافتتاحية لـ«نبتدي منين الحكاية» لعبد الحليم، فضحكت وقالت، بلاش الأغنية دي. ونظر إليها كمن لا يفهم النكتة. وقالت له إنها آسفة جدًّا، وسألها آسفة على إيه فقالت له إن ضميرها يؤنبها بسبب موت الأم، أم عاطف، أنا عارفة ان ماليش ذنب بس مش قادرة بصراحة مالومش نفسي. باقول لو كنت عرفتها أكتر يمكن كنت حبيتها، بس انا عارفة اني وحشة. ونظرَت بقوة في عيني عاطف وقالت له إنها مش عارفة تعمل ايه ف نفسها، يمكن أحسن لو كنت أنا اللي اموت؟

نظر عاطف إليها طويلًا طويلًا، نظر إليها وكأنه كان ينتظر منها هذا الاعتراف. وهي من ناحيتها دق قلبها بوجل. كأن هذه اللحظة ستحمل حكمًا على حياتها كلها، ولكن الانتظار لدقيقة حمل لها مفاجأة غريبة، أغرب مفاجأة في قصة حياتها، أو لنقل واحدة من أغرب المفاجآت. هل تصدقن هذا؟ هذا يحدث، ورحمة ابني هذا يحدث.

قال عاطف لأه. وسكت مرة أخرى، ثم كرر، لأه. وبدأ يصوغ الكلام في عقله حتى ينطقه، وهي تعلقت بعينيه بشدة، كانت تريد معرفة ما الذي يجري هناك، داخل جمجمته. وكان الحائط من ورائه مكدسًا بأشكال ورقية لأرانب ومراكب مثبتة بدبابيس، تحين منها

التفاتة إليها فتنزل عينيها من فورها لتعلقهما برأسه. ارتعشت أصابعها وهي تحاول رمي شبكة الصيد داخل عقله، ولاحظ هو هذا. في النهاية نطق وخرجت منه كلمة واحدة، الحقيقة، ثم تعطل الكلام لثوانٍ، قبل أن يتدفق مرة واحدة.

الحقيقة إن كمال كان حكالي كتير عنك، وكان بيحبك فعلًا. قال لي عنك كلام جميل أوي، وأنا باثق في كمال. كان عصبي بس كان بيفهم ف الناس.

الحقيقة انتي ماتعرفيش ايه اللي حصل. ماتعرفيش ان ماما الله يرحمها قعدت مع كمال اخويا وملت دماغه من ناحيتك، قالت له انه مش هيستريح معاكي ولا مع ابنك، وأنا كنت معاه يومها، وكانت بتتكلم وتتفتف، وكمال شخط فيها عشان بتتفتف، فقالت له بكرة يجيلك اللي يشخ عليك وهو مش دريان. كمال كان كلمة توديه وكلمة تجيبه، لدرجة إنه... وسكت لثوان.

الحقيقة إن وانا وكمال مروحين قال لي حاجة مش هانساها. قال لي انه عاوز يموِّت امه، قال لي كان نفسه يقعد قدامها ويحرق دمها لغاية ما تطب ساكتة. هو قال كدا، قال كنت هاقولها القديم والجديد، دا بالظبط اللي قاله. وكمان قال لي حاجة فظيعة.

وسكت لأن الكلام كان أقسى منه ثم نطق، قال لي قعدت اتخيلها وهي مرمية عالكرسي بعجل ومخنوقة وإيديها بترفَّص ف الهوا لغاية ما تقطع النفس، قال لي كدا وقعد يضحك، وانا طبعًا معرفتش اقول له ايه. الموضوع بالنسبالي كان مابيضحَّكش.

الحقيقة يا حورية، وكانت أول مرة يناديها باسمها مجردًا من

الألقاب، إن دي ماكانتش أول مرة، مرة واحنا صغيرين، ماما صحيت ولقت كمال واقف قدامها وف إيده سكينة. كان واقف مابيعملش حاجة، بس ماسك السكينة ف إيده ومحتاس بيها، وهي قعدت تصرخ، وهو قعد يعيط لما لقاها بتصرخ. كنا عيال. لغاية دلوقتي منعرفش كان عاوز يعمل إيه.

واحنا مروحين يومها بالعربية وقال لي انه عاوز يموتها، فكَّرته بدا، وقلت له انه طول عمره كان بيكرهها، فما أنكرش، بس قال لي إنها هي اللي كرهته الأول.

أنا معرفش إيه اللي حصل بعد كدا، بس اللي متأكد منه إن ماما رغم إنهم كانوا بيكرهوا بعض لكن كانت بتعرف تقنعه، هو كان بيحبك صحيح، لكن كمان ماما ملت دماغه ضدك. ودي حاجة مش هنساهالها، أنا بعتبر إنها المسؤول الأول عاللي حصل. كان يتكلم وهو يلعب في ورقة أمامه من دفتر الروشتات، وعندما خلص كلامه قدم لها نتيجة لعبه، مركبًا ورقيًّا ملونًا. وكانت تسمع ساهمة تمامًا، وفي النهاية سألته:

- هو قال لك انه كان عاوز يحرق دمها لغاية ما تموت؟

فقال:

- أيوه، بالحرف.

- وتقعد ترفص برجليها وهي عالكرسي؟

- أيوه، وكان شايف دي حاجة بتضحَّك.

ختم عاطف كلامه، وسكتت حرنكش.

نظرت في الأرض وغمغمت بأشياء لا معنى لها. كانا في العيادة،

وأم كلثوم، وليس عبد الحليم، هي من تغني من الشباك، خاصمتك بيني وبين روحي، وصالحتك وخاصمتك تاني، كانا يشهدان معجزة حرنكش، يشهدان لها بأثر رجعي بتنفيذ الإرادة الإلهية، بسيفها ودرعها وكلمتها، ولكن من دون وعي منها. وهي من جانبها امتلأت بالإيمان. امتلأت به ولم تعرف كيف تتكلم. كان قلبها يدق بجنون، مدت يدها لتلمس كف عاطف، نقرت بأصابعها على أصابعه، وأطلقت نَفَسًا ساخنًا، ولمحت بتاع عاطف يبرز من تحت البالطو الأبيض، ورأته محتاسًا على كرسيه لا يعرف كيف يأخذ الخطوة الأولى، وضحك بارتباك، وضحكت بارتباك، ونظرت إلى المركب الورقي وقالت له، كتكوتة خالص. واستأذنت منه ومشت.

نزَّلها التاكسي في ميدان الجلاء، وأكملت الطريق حتى البيت مشيًا. كانت الدنيا ظلامًا، واختارت هذه المرة الشوارع الضيقة لأنها شعرت بنفسها أكبر من الشخص الذي يلاحقها، وأكبر من الست العجوزة، وأكبر من كل شيء. ولأنها عرفت أنها هذه المرة بالتحديد، في قلب الشارع الصغير المظلم، ستجد محمود، ووجدته.

وصَّلها محمود إلى البيت. سألته عن رأيه في كلام عاطف، فقال إن الكلام جميل ولكنه معروف. إنت كنت تعرفه يا محمود؟ أيوه يا مامي. وماقلتيليش ليه؟ عشان ماسألتينيش، قالها وهز كتفه كأنه يتكلم في أكثر البديهيات بداهة. ومن بعيد مرت بنت ببنطلون ضيق، وبرزت مؤخرتها محبوكة كالكمثرى، ولمحت حرنكش ابنها يسترق النظر إليها. ولم تستطع أن تكتم تعليقها، سألته هو عنده كام سنة

دلوقتي فقال أربعتاشر. وعجبتك البنت؟ أنهي بنت؟ البنت اللي عدت من شوية. لا أنا معرفهاش، بس طيزها حلوة. قالها وهز كتفه مرة أخرى. وهي غضبت قليلًا من رده، فشب على قدميه وباسها في خدها وقال لها، باهزر يا مامي الله! فابتسمت وقرصته في خده، المهم ان مامتك طلعت جدعة! سيبك بقى م البنت والكلام دا.

قبل أن يصعدا إلى البيت كانت حرنكش عرفت أن ابنها لن يطلع معها. وفي الغالب لم ترد أن يطلع معها. كان محمود يحميها من الاكتئاب، واليوم هي أبعد الناس عن الاكتئاب، اليوم هي مصفحة كما لم تكن من قبل ولن يتمكن أي من كان من النيل منها. في هذا اليوم طلعت إلى شقتها وفكرت أنها تريد أن تعيش طويلًا، طويلًا جدًّا، حتى ينتهي العالم ويفنى أعداؤها وتتساقط المياه من السماء لتتشكل في جداول صغيرة تعود لتعمر العالم من جديد.

١٦

عندما درست حرنكش في حصة البيولوجي بالإعدادية عن جسم الإنسان صخبت البنات وهللن، ولم تفهم هي سبب كل هذه الدوشة، بالأصح لم تفهم شيئًا من الدرس. وعادت إلى البيت، وكان الأب والأم ما يزالان أبًا وأمًّا، زوجين جميلين متحابين، وسألت أمها عن البيبيهات. اشرحي لي مرة واحدة وبوضوح موضوع البيبيهات. أخذتها الأم بعيدًا وقالت لها إن كتكوتة الولاد ليست مثل كتكوتة

البنات، وإن كتكوتة الولاد طويلة، وإنه عندما تدخل في كتكوتة البنات يأتي الأولاد الصغيرون. ثم شدتها من أذنها وقالت لها إنها لو سمعتها تكرر هذا الكلام على أحد فيما بعد ستقطع لسانها، وخافت حرنكش، فذهبت إلى أبيها وسألته. قالت إنها تعرف أن كتكوتة الأولاد طويلة، ولكن هل بمجرد دخولها لكتكوتة البنات يأتي الأولاد؟ يعني ألا تترك أثرًا في كتكوتة البنات؟ ونظر الأب إليها خائفًا من ذكاء ابنته. ورد أن كلامها صح، وهو يستغرب كيف استطاعت تخمينه لوحدها. ولكن لا ينفع أن تقول هذا الكلام لكل أحد، ولو سمعها تقوله مرة أخرى سيعاقبها عقابًا شديدًا. واتخذ وجهه شكل الغضب، الغضب المفتعل كما تعرفه حرنكش.

هكذا، بعد أن تخلى عنها الأب والأم، مضت البنت في طريق المعرفة الجنسية وحدها، سمعت من زميلاتها العشرات من النكت القبيحة، ومضت تركب المنطق في جميع النكت على المعلومات القليلة التي تملكها. بل، وأخذت تكتب بعض هذه النكت في كراسة خواطرها لتقارنها ببعضها وتفهم أكثر. وكانت إحدى النكت تتكلم عن رجل له كتكوتة صغيرة جدًّا يحاول إدخالها في امرأة لها كتكوتة غويطة جدًّا.

رأى الأب كراسة خواطرها هذه، واستدعاها إلى غرفته ليسألها عمن كتب هذه الأشياء الوسخة، واستخدم اللفظ «وسخة»، وكان غاضبًا جدًّا، لأول مرة يكون غاضبًا لهذه الدرجة. وجهه أحمر ويطفو زَبَد أبيض على شفتيه. وارتعبت حرنكش، ووقفت أمامه تنشج بالبكاء، وتقدم باتجاهها ومضى يشير نحو صفحة مفتوحة من

الكراسة، وكانت الصفحة التي فيها النكتة عن الرجل ذي الكتكوتة التي لا تُرى. وكانت متأكدة أنه سيقتلها هذه الليلة. وارتعشت، وفجأة عندما واتتها الجرأة هربت من وجهه، ومضت تجري في أنحاء الشقة كالمجنونة، إلى المطبخ ثم الحمَّام وتعثرت وقامت وعاودت الجري إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب بالمفتاح ومضت تسمع من وراء الباب، وهناك أدركت أن الأب لم يتحرك من غرفته أصلًا.

هكذا، قبل دخولها الكلية، كانت قد عرفت أغلب الأشياء عن العملية الجنسية، عرفت أعضاء الولاد والبنات، وعرفت كيف تقف أعضاء الولاد وكيف لا تقف، وعرفت السبعة ونص وعرفت ضرب العشرة، وكيف تحبل يد ضارب العشرة فتنتفخ بمولودها الجديد. كتمت معرفتها بعيدًا عن أبويها، تنازلت عن معرفة تأتي عن طريقهما، وأكملت طريق النكت والتلميحات مع زميلاتها.

والأب ظل شكاكًا فيها. جلس مع أخويه وأصدقائه وكلموه عن الثانوية العسكرية، وقالوا إن الدنيا تنضبط هناك تمامًا، وألا داعي للقلق عليها. ومضى الأب يسأل عن الثانوية العسكرية حتى اقتنع مئة بالمئة بالفكرة، وكانت النتيجة أنه طلع دين بنته لشهور متتالية.

لا تذكر حرنكش أباها سخيفًا، زنانًا ولحوحًا ويلقح بالكلام، مثلما في هذا الوقت؛ جالسًا على الكنبة وتكلمه وتقدم له الحجة وراء الحجة لتقنعه أن الثانوية العسكرية هذه لن تنفع معها، وهو جالس أمام التلفزيون بالبيجامة ويبدو كمن لا يسمعها، فقط يشير لها بعنجهية أن الكلام خلص. ويختنق الكلام في حلقها وتبدأ تزعق وتقول إنه لم يخلص، وإنه لا بد أن يسمعها، وتخبط

على الترابيزة، وينظر إليها بلامبالاة ثم يذهب إلى غرفته ويغلق الباب عليه.

وكلمت عم ناجي، وقالت له إنها تعبانة وإنها استحالة أن تدخل العسكرية التي يريدها لها أبوها، ورد عم ناجي بأن باباكي صعب يا بنتي، وانا بصراحة مش هقدر عليه. وكتمت البنت الغضب في نفسها مرة ثانية، ثم ذهبت إلى أمها وقالت لها إنتي اقنعيه. وقالت الأم، التي لم تعرف بمكالمة بنتها لعم ناجي، إنها لن تقدر على زوجها، ولكن الوحيد القادر على جعله يغير رأيه هو عمك ناجي، وكتمت البنت تعليقها وقالت لمامتها آه والنبي يا ماما. وكلمت الأم عم ناجي وقالت له تعال يا ناجي وحياتك في البيت عشان اسماعيل منشف دماغه عالآخر ف موضوع الثانوية العسكرية دي. ولم يأخذ الأمر دقيقة حتى سمعت الأم تقول بابتسامة وعينين لامعتين، يحضر لك الخير يا ناجي.

بعدها بساعات أتى عم ناجي إلى البيت وتكلم مع أبيها واقتنع الأب، هكذا، بكل سهولة. لم يتكلف الأمر سوى مكالمة من الأم ووحياتك وحاضر ويحضر لك الخير.

١٧

بعد سنتين من مجيء الدورة، كانت حرنكش أتقنت اللعب في نفسها. كانت زميلة لها هي من سألتها إن لم تكن جربت الوصول بنفسها

قبل هذا، وقالت لا وما هذا. ومسكتها زميلتها من يدها وقالت لها تعالي وبابا وماما مش في البيت. وفي البيت فرجتها على شريط فيديو سكس، وهناك، بعد أن كانت كونت فكرة غامضة عن آلية عمل الأزبار، بدأت صاحبتها تشير نحو كسها بأظافرها، تشير لحرنكش ثم تشير لكسها، وتبدأ تقرب إظفرها من الكس من وراء البنطلون، وقرفت حرنكش ورجَّعت. ولكنها في البيت لم تنسَ المشهد. وبدأت تنجذب هي الأخرى للفعل. وحيدة وعلى السرير في غرفتها المظلمة، بدأت تتخيل أشكالًا غريبة لرجال طوال بصدور عارية وعيون حلوة ورموش طويلة. تعلمت كيف تصل وتعلمت كيف تصعد رغبتها متوحشة ثم تنفجر ثم تهدأ بشويش.

ولكنها ظلت تشعر بقرف من العادة السرية، قرف حقيقي، كان قاع القاع وحضيض الحضيض بالنسبة إليها. ولكن الموضوع ليس بهذا السوء، قالت زميلتها إن هذا مجرد ترويح عن النفس، بعكس العادة السرية للولاد. واستفاضت الصديقة وهي تشرح لها وقتها، إن شهوة الأولاد أكبر من شهوة البنات أربعًا وعشرين مرة، وإن شهوة الأولاد شيء غير مفهوم بالمرة، وإن الولد الذي يمارسها يأتي أمام ربنا يوم القيامة ويده منتفخة، حبلى من فرط ما قذف الولد فيها، وهذا الكلام ليس من تأليف البنت وإنما هو مذكور في كتب الدين.

حرنكش جامعة المعلومات وقتها سألتها كيف يمارس الأولاد العادة السرية وليست لديهم كتكوتة مثلما للبنات، فضحكت البنت وبدأت تشرح نظريًّا، إلى أن أتى الدرس العملي بعد سنتين، عندما غرس فيها حسين مسماره، وقبلها عندما سمح لها بلمسه ورأت كيف يتمدد

الحيوان النائم وتنبت له حراشف وأنياب، فقط تحت تأثير أصابعها. جفلت لملمسه ولكنها عرفت جانبًا جديدًا من الصورة.

نشكر الظروف التي وضعت في طريق حرنكش كل هؤلاء البنات الرائعات، كل واحدة علمتها معلومة، وكل معلومة أنقح مما قبلها، ولأن حياة الإنسان مثل غابة كبيرة أو مدينة كبيرة، فقد قصَّت حورية المعلومات ولزقتها حتى وصلت إلى صورة أوضح، ثم كان لا بد أن تلتقي بهند حتى تعرف جانبًا جديدًا من الصورة، حتى تعرف كيف تحب النساء النساء، ولم تكن هذه النهاية. لا أحد يمكنه الجزم أنه انتهى من معرفة كل شيء حول النساء والرجال.

١٨

تصبح الطفلة امرأة عندما تأتيها الدورة، ولكن متى يصبح الطفل رجلًا؟ حاولت أن أتذكر ونسيت. هكذا بدأ الأمر.

كتبت لقمر على الفيس أسألها، فسألتني إشمعنى؟ قلت إنه مجرد فضول، فأجابتني بأنه عندما يحتلم الطفل، أي عندما ينام ويحلم بالسكس، أو بشيء شبه السكس، ويصحو ليجد نفسه قذف وهو نائم، يكون قد أصبح رجلًا.

يعني وهما نايمين بيتحولوا لرجالة؟

حاجة زي كدا، بس ليه السؤال برضه؟ وأرفقت سؤالها بإيموشن لوجه بعين مفتوحة تعبيرًا عن الربكة أو الفضول.

أرسلت إليها وجهًا أحمر بقرنين كأنه الشيطان لأعاكسها، فأرسلت إليَّ وجهًا غاضبًا بعينين كسهمين متباعدين، فأرسلت إليها وجهًا يخرج لسانه، فسألتني، لا بجد ليه يا حورية السؤال الغريب دا؟

كان سؤالي ليمضي بشكل عادي، ولم يكن ليثير أية تداعيات خطيرة، لولا أنها ألحت عليَّ.

أخذت راحتي قليلًا، للمرة الثانية آخذ راحتي معها على الآخر. حكيت لها أن محمود ابني مضى في الآونة الأخيرة يتصرف كرجل، بامشي جنبه الاقيه بيبص عالبنات اللي في الشارع وبيعلق تعليقات مستفزة عليهم، وأنا مش متضايقة من دا، أنا بس عاوزة اعرف ازاي اتعامل في المواقف دي.

في الحقيقة لم أكن متضايقة أبدًا. بشكل ما، كنت مزهوة بابني الذي يكبر أمام عيني. ولكن هذا كان مربكًا بعض الشيء، كيف تتعامل الأم مع ابنها الذي أصبح رجلًا؟

سوري عالسؤال، بس مش ابنك ربنا افتكره من سنة وشوية يا حبيبتي؟

توترت ولم أعرف كيف أرد. بعد دقيقة كتبتُ، وافرضي يا قمر، هو اللي مات مش ممكن يصحى؟ وانتظرت خمس دقائق قبل أن ترد، معاكي حق، ووضعت وجهًا مبتسمًا كالملاك.

رغم وجه الملاك، انتهت المحادثة وأنا غير مرتاحة، كأن شيئًا وخزني فيها، وانتظرت أن تكتب قمر لي مجددًا، ولم تكتب، ولم أستطع تحمل الشيء الذي يخزني، لم أكن على بعضي وكنت كمن تهرش بحثًا عن إجابة عن سؤال لا تستطيع صياغته، فكتبت لها بعد ساعة، انتي فيه حاجة عاوزة تقوليها لي يا قمر؟

أيوه يا حبيبتي. ويا ريت تتفهمي كلامي، بس إيه رأيك تروحي تشوفي واحد دكتور صاحبي، لطيف جدًّا وعنده أسلوب مختلف تمامًا عن كل الدكاترة النفسيين؟

رددت عليها بثلاث ابتسامات متجاورة، ولم أوجه ضدها أي كلمة، سألتها عن اسمه وعنوانه ووعدتها بأنني سأفكر في الموضوع بجد. وأنهيت المكالمة وأخذت أحكم قبضتي على اللابتوب كأني أعصره فتترك أصابعي على الشاشة إشارات ضوئية سرعان ما تروح، أوكي يا قمر، سأذهب إلى صاحبك الدكتور الظريف اللطيف صاحب الأسلوب المختلف، على جزمتي، أنا لست خائفة منه، ولكن أنتِ، أنتِ من لا تفهميني، من يعوضني عنك إذا لم تفهميني يا قمر؟

وأخذت أرتعش وأنا على السرير وأهتف بحرقة، يا جزمة يا قمر، يا جزمة يا كلبة يا قمر. وشعرت بخذلان لم أشعر بمثله من قبل وبانقباض يجثم على صدري، وكنت تارة ألوم نفسي وتارة ألوم الآخرين حتى نزلت دمعة أخيرًا فاسترحت قليلًا ورحت في النوم.

١٩

ولكن قبل أن تذهب حورية إلى الدكتور النفسي، ألا يلزم أن تحدد مشكلتها هي أولًا؟ تعالي إذن يا حلوة، وواحدة واحدة، بشويش بشويش، قولي لي ما مشكلتك؟

وبدأت حرنكش تهمس بتردد، أنا عارفة إن حكايتي صعبة، أصعب مما أي حد يتخيل. كان عندي أهداف كتيرة في حياتي، ولسه ماحققتهاش لإني لسه ماعرفتش إيه هي، ومجرد ما اعرفها كلها، هحققها كلها، عارفة دا.

أنا صادفت أشرارًا كثيرين في حياتي، قتلتُ وانقتلتُ، طول الوقت قتلتُ وانقتلتُ، ولكن لم أترك حقي، حتى هذه اللحظة لم أترك حقي، ولكني بمجرد أن أكتشف شريرًا يظهر تحته عشرة. كأنهم يبيضون. ماذا نفعل في بيض الصراصير يا محمود؟

كان هناك شخص يمشي ورائي، منذ قديم الأزل وهو يمشي ورائي، أسمع صوت خطواته وألتفت ويهرب القحب ابن القحب، وكان هذا الشخص يملأ أحلامي، ويقول لي أشياء بلغات مختلفة وأنا لا أعرفه، ويكون الحلم ناعمًا، ولكن عندما أعرف من هو، يصبح الحلم خشنًا كسجادة، لدرجة أنني أصحو من فرط خشونته وتشويكه لجسمي.

أنا مؤمنة بالله، وأعرف أن هناك الخير وهناك الشر، ولست ممن يخلطون بينهما، أو لنقل أني أخلط بينهما، ولكني أعرف بوجود كليهما، قمر نفسها أخبرتني بهذا. الدنيا مثل البيضة، إذا قلبتها على جنبها اليمين ستجد شيئًا وإذا قلبتها على وجهها الشمال ستجد شيئًا. أو بالضبط، لأنني تذكرت أن الأشياء لا تختلف بين الجنبين اليمين والشمال من البيضة، فأحيانًا يكون من الصعب جدًّا جدًّا التمييز بينهما. ولكن الأكيد أن هناك جانبين، أعني أن الواحد يكون أحيانًا فرحانًا وأحيانًا يكون زعلانًا، وأنه أحيانًا كثيرة يتمكن من التمييز بين

الفرح والحزن. صحيح أنه أحيانًا ما لا يتمكن، ولكن الأكثر عندما يتمكن.

وتعبت حرنكش من الكلام أمام نفسها في المرآة. أو شعرت أن مثال البيضة الذي استخدمته أفقدها حجتها، فاكتأبت وذهبت لتجلس على الكنبة الخضراء. وهناك واصلت الكلام مع نفسها. قالت إنها كانت مبسوطة جدًّا، جدًّا، قبل أن تأتي قمر وتكلمها عن الدكتور النفسي، لتبدأ الاكتئاب. وهنا نطت من على الكنبة، وجرت نحو المرآة في الحمَّام مرة ثانية، وأشارت إلى نفسها بإصبعها وقالت، شفتي بقى، عشان بقولك ان فيه حاجة اسمها سعادة وحاجة اسمها حزن، عشان تعرفي ان موضوع البيضة كان صح.

قمر تعيش في ستوكهولم، في السويد، في قلب العالم الأول، وتقبض باليورو، وتأتي لتعطيها نصائح، هي التي تعيش في القاهرة في قلب قلب البلاعة. قد يكون معها حق بالمناسبة، وذلك بالمناسبة لأنها تعيش في السويد وتقبض باليورو، ولكن أيضًا قد تكون هي، حرنكش، من معها الحق، لأنها هي من تعيش في البلاعة وتكح ترابًا ويطلع دينها في الشارع والمواصلات. وفجأة خطر على بالها أن هذا بالضبط ما أرادت التعبير عنه، وجهي البيضة المتماثلين المتشابهين. الأرض كروية، أو شبه البيضة، والله يقول وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، ولكن هل يعني هذا أن القاهرة شبه السويد؟ لا، هناك قاهرة وهناك سويد. بكل تأكيد هناك القاهرة وهناك السويد. وارتاحت قليلًا وأرخت جسمها على الكنبة وبدأت في ممارسة العادة السرية.

فتحت رجليها ومضت تلعب بإصبعها في كسها، ومضت تتخيل عاطف ببتاعه البارز من تحت البالطو، وتنهدت، ثم أسرعت من دوران الإصبع، داير ما يدور، ولما لم تسعفها خيالاتها بدأت تتخيل رجلًا آخر، لا تعرفه، طول بعرض وشعره ضفاير وجسم مليان بالوشوم وحلق في أذنيه ومنخاريه، رجلًا كالبغل، عملاقًا، في عينيه نظرة غضب، يضرب صاحبته بالقلم ويخبرها بأنها متناكة، وبنفس الغضب يغرز ذبه العملاق فيها، مرة وراء مرة كأنه ينتقم منها، وأخذت تغرز القضيب البلاستيكي الذي ورثته من هند في كسها وهي تدعك بزازها بقوة، وتتأوه وهي تقول أيوه وراء أيوه. وعندما خلصت تسلطحت على الكنبة وقررت النزول إلى درجة أسفل من درجات التعاسة، أو درجات الوجه المظلم من البيضة.

نزلت بحذر، خطوة وراء أخرى، وكانت الدرجات من فوقها تتآكل بمجرد خطوها عليها، وتتفتت ويحملها الهواء فيلامس فتاتها وجهها ويتسلل إلى ما تحت قميصها ويلتصق بجلدها ويبردها كمسامير من الثلج، والهواء يصفّر والدنيا ظلام، وتنظر حرنكش إلى أسفل فترى قمر من تحت ترقص وحدها، بفستان أسود مقطع، وتهتف حرنكش بصوت عال، يا متنااااااكة، وتضيع صرختها في الظلام المحيط بها، يحملها الهواء مع فتات درجات السلالم وتتبدد في الفراغ، أو أنها لا تنطلق أصلًا، وقمر التي ترقص بالأسفل تتبدد هي الأخرى في الهواء مع تبدد صرختها، وفي الوقت نفسه تظهر صورة هند، كاملة متكاملة، وهي تخفي وجهها بين كفيها وتنوح على حظها، وتهتف حرنكش، بصوت منخفض هذه المرة، فيما

يشبه الهمس، ينعل كآبة شكللك يا شيخة. وهذه المرة تسمع صوت همسها بوضوح، كأن كل الأصوات سكتت من حولها بهدف أن تجعل صوت همسها مسموعًا، وترفع هند رأسها إليها، تنظر إليها بقوة، لا تختفي ولكن وجهها يتغير بشكل جذري، تحمر عيناها ويبدو أنها على وشك أن تفعل شيئًا لا يخطر ببال، أنها ستفعل في حرنكش شيئًا لا يخطر ببال. ولا يتأخر الشيء، تتآكل درجات السلم أسفل منها أيضًا، بوتيرة أسرع وبقوة أشد، وتجد حرنكش نفسها تسقط نحو الهاوية.

ولكن، خلافًا لجميع التوقعات، خلافًا لتوقعاتها هي نفسها، فأسفل منها، لم تكن الهاوية هاوية، كانت بالضبط نقيض الهاوية، براعم صغيرة تبدأ تزهر، وتيارات صغيرة من الماء تبدأ في التحول إلى شلالات، وندعة مياه خفيفة تنزل وتتشكل في جداول رفيعة سرعان ما تنضم لبعضها وتشكل أنهارًا كبيرة، تروي الأرض وتحول البراعم إلى أشجار، وهكذا، وأنا أجلس بين الجميع كالبرنسيسة، أطبطب على السناجب وأصفر للغزلان فتأتيني ركضًا وتقول لي أمرك يا برنسيسة.

٢٠

مع الوقت، ومع تكرر زياراتي للست اللي تحت، بدأت بالتدريج ألاحظ عيوبها. ببساطة، هي تحب أن تكون لها الكلمة الأخيرة.

أحيانًا كنت أتنازل لها عنها، وأحيانًا كنت أقفش ولا أدع هفوة تمر. أنا أعرف هذا الطبع جيدًا، وبفضل أناس آخرين غالبًا؛ كيف يدمن المرء الجدال، ويحسب أحداث حياته حسب انتصاراته أو هزائمه الفكرية.

كانت الأيام حزينة في عينيَّ. بعد أن بدأت أتضايق من قمر، بعد أن انفتح أمامي باب الاكتئاب على وسعه، احتجت إلى شخص آخر أتكلم معه، ومع الوقت بدا لي أن أي شيء كان ليصبح أفضل من الست وأقدر منها على تحقيق هذا الغرض.

عندما أخبرتها أن لديَّ ابنًا استشهد في الثورة، عاملتني باحترام، بهيبة واستغراب، ولكن ليومين فقط، وانتهى بعدهما كل شيء، أو عاد إلى سابق عهده، هي أم الشهيد التي يحق لها وحدها الإفتاء في أمور الحياة والموت وأنا البنت الآتية من الشارع التي لا تعرف شيئًا.

لم أحكِ لها عن هند. قلت فقط إني أعرف الشهداء جيدًا. وإني كنت أسكن مع واحدة في شقتها ورأيتها وهي تموت أمامي برصاص الداخلية، وقلت إنها كانت أوفر في كل شيء، عندما تزعل تزعل أوي وعندما تفرح تفرح أوي، ولم أضف. ولكن الست ردت عليَّ بأن هذا لا يمثل شيئًا أمام ألم من مات أبناؤه. لماذا قالت هذا؟ لماذا أصرت على أن تتحداني وتضع معاناتها في مقابل معاناتي على الميزان لتقيس وزن كل منهما؟ الآن أفهم خناقاتها التي لا تنتهي مع زوجات أبنائها، أفهم من أين جاءت وكيف تسير وإلى أين تنتهي.

امتلأ البيت بالكلام، كلام مثل مباريات البينج بونج بيني وبينها. ربما يكون هذا ما جعلني أضيق ذرعًا بها.

كانت الست كالعادة تحكي عن ابنها الشهيد، وجاملتُها، مجرد جاملتها، وقلت إن الشهداء عند ربهم أحياء يرزقون، فتنهدتْ وقالت إن عمْر اللي راح ما بيرجع تاني. ولم أستسلم، حكيت حكاية القطة التي عادت إلى الحياة. أنا زمان كنت مع ماما في العربية، ودسنا قطة صغيرة، وكله قعد يقول القطة ماتت القطة ماتت. لكن أنا خدتها وطبطبت عليها وطلعت لسه عايشة. أنا دلوقتي عاوزة اسأل مين إدى للناس الحق إنهم يقرروا ف أمور الموت والحياة؟ وكنت أقصدها هي، مش الروح دي من أمر ربي؟ وقالت الست أيوه. طيب خدي عندك دي، أنا كان عندي صاحبة جميلة، كنت بعتبرها زي أختي واكتر والله. وقلتلها الكلام دا فقالت لي انتي لازم تتعالجي عند دكتور نفسي. تصدقي ان الكلام دا يطلع من واحدة زي أختي، واحدة بعتبرها زي أختي. لو انتي عندك أخت، هترضي تقول عنك كدا؟ وقالت الست إن ليس عندها أخوات.

هذه الجدالات التي لا تنتهي لم تتركني في حالي، أنا لست جبلًا ولا حجرًا لا يحس، وإنما كان لها الأثر أيضًا في دفعي لحسم صوتي في الانتخابات المقبلة.

كان محمد مرسي الإخواني يتنافس مع رئيس الوزراء السابق أحمد شفيق على رئاسة مصر، وكانت الست منحازة لمرسي بكل وضوح، أو دعنا نقول بشكل أدق إنها كانت منحازة ضد شفيق.

تجلس بالساعات لتحكي لي عن فساده وعن فساد نظام مبارك الذي لم يسقط أبدًا.

في الأول كنت أسمع وأسكت، ثم قررت البدء بالهجوم. مرسي أيضًا فيه كل عبر الدنيا؛ لا يعرف شيئًا عن البلد، أهبل سيحكم مصر، سيحولها إلى أفغانستان جديدة، كنت أتكلم وأتكلم وأتكلم، ولا يخرج منها في النهاية سوى دفاع ضعيف عن موقفها، والله يا بنتي كلهم أسخم من بعض.

لا يا طنط، ليس هناك شيء اسمه كلهم أسخم من بعض، أنا فكرت كتير ووصلت لنتيجة، إن فيه خير وفيه شر، عشان فيه ناس بتقول مافيش، لكن فيه. ومش شرط إن كل الناس تعرف تلاحظهم. وانتظرت حتى ترد الست، ولم ترد، فواصلت، أنا وصلت للنتيجة دي بعد دراسة طويلة. أقول لك على حاجة تانية، انا قلت لك محمود ابني مات إمتى صح؟ وهزت رأسها بلا معنى، مات في الثورة يا طنط. وتقولي لي صدفة؟

ظاهريًّا، ونظريًّا، كنت أنا المنتصرة في الجدال، أنا من أقتحم دفاعاتها الحصينة وألقي الحجة تلو الحجة لتفنيد منطقها كله، ولكني عندما أتذكر هذا الآن، أتذكر أني كنت مبضونة وأنا أتكلم، كنت أتكلم وكأني فاقدة الرغبة في الكلام وفي الدخول في هذه المعركة التافهة المفروضة عليَّ فرضًا. فور انتهائي حاولت إشعال سيجارة بأصابع مرتعشة فلسعت النار إصبعي وضحكتُ، أصل مش معقول يا طنط! هما بيقولولي صدفة، وانتي بتقولي لي صدفة، والدنيا بتقول لي صدفة، هو فيه إيه يا جماعة، مش كدا يعني!

بعد أن غادرت الست طلعت حرنكش إلى شقتها، ورأت ابنها يجلس على الكنبة الخضراء، كان غائصًا بأغلب طيزه على الكنبة ومحدقًا في السقف، ملابسه متسخة كالعادة، ونظرته غبية ولا تقول شيئًا. نادته فانتفض عندما رآها وأخفى يده اليسرى خلف ظهره. نظرت إلى الطاولة ووجدت عليها قطعة حشيش ومطفأة معمرة بالرماد. سألته، بتشرب حشيش يا محمود؟ هز برأسه أن لا. كان دائخًا وغير قادر على الكلام. قالت له ومخبي إيدك ليه؟ وريني إيدك.

تمسَّك الولد بيده وراء ظهره. فأزاحتها بالعافية وهي تقول، طلع الجوينت دلوقتي أحسنلك. وأمام إلحاحها خفتت مقاومته واستطاعت أن تلمح كفه، وشهقت عندما لمحتها؛ لم يكن ممسكًا بجوينت كما خيل إليها، ولكن الكف كانت متورمة تورمًا ضخمًا. في عدة مناطق بمنطقة فخذ الكف، منبت الإبهام، تظهر دمامل ضخمة متكورة، كأن اليد الواحدة تحمل يدًا أخرى بداخلها، كأنها حبلى بأياد أخرى.

حبست حرنكش أنفاسها مطولًا ثم نظرت إليه، كنت بتعمل العادة السرية يا محمود؟ نظر إلى الأرض فصفعته على خده، بتضرب عشرة يا خول؟ قاعد ف البيت بتاعي وعلى الكنبة بتاعتي بتضرب عشرة؟ وريهاني فين هي؟ ومضت تبحث على البلاط أمام مكان جلسته على الكنبة، حتى وجدت بقع المني المتجاورة، طازجة وعارمة، على البلاط.

قرصته من أذنه بعنف وصرخت، وإيدك دي هنعمل فيها إيه،

مفكرتش يا حيوان قبل ما تعمل القرف دا هنعمل ف إيدك إيه؟ وهتقول لربنا إيه يا زبالة؟ وكانت تواصل القرص على أذنه بأظافرها الطويلة وهو يبكي وأذنه تحمر، يا زبالة انت نسيت عمايلك؟ نسيت موتلي جوزي ازاي؟ نسيت كفرته ازاي ف عيشته لغاية ما راح؟

وانهارت على الأرض، قبالة بقع المني بالضبط، ومضت تكحت وجهها بأظافرها، وتصرخ، يا ابن الوسخة انت عاوز مني إيه؟ هو أنا عملتلك إيه؟ مش كفاية بقى؟ موتلي كل الناس؟ كل الناس كدا؟ مايبقاش باقيلي حد خالص؟ وبدأت تنشج، غاصت ملامحها داخل وجهها وهي تنشج وارتعشت وبربرت، والنهاية إيه، تيجي وتقولي لي لازم اروح عند دكتور نفسي؟ ليه؟ ولما كنتي ماشية ورايا يا كلبة تموتيلي جوزي وابني وصاحبتي أنا كنت قلت لك حاجة؟ كنت قلت لك روحي عند دكتور نفسي؟ ليه بتعملي فيا كدا؟

ارتاحت بعدها حرنكش، كأن روحها تخلصت من كل السموم التي ملأتها سابقًا. ولبست ونزلت.

بعد تخلصها من قمر، أستاذتها لفترة قصيرة في حياتها، بعد أن داست عليها ولعنتها ورمتها في سلة المهملات، قررت العودة إلى الأستاذة الأصلية، السيدة زينب. أخذت تمشي وتمشي، ولم يفارقها للحظة الشخص الذي كان يمشي وراءها، وكان يصفر صفيرًا خافتًا ويهتف بين الوقت والثاني، صدفة يا حورية، صدفة يا حلوة. وتوترت أعصابها قليلًا، ولكنها لم تلتفت، قالت لن ألتفت خلفي يا بابا، لن ألتفت خلفي يا ماما، وأخذها التفكير في أمها عن متابعة الشخص الذي يمشي خلفها.

لماذا غضب أبوها من نكتة الرجل الذي بتاعه صغير، وماذا تفعل امرأة تزوجت حديثًا وامتنع زوجها لأشهر عن معاشرتها، ماذا تفعل غير اللجوء إلى الرجل الوحيد الذي تراه بعد زوجها؟ وماذا تفعل امرأة عادت لزوجها بعد أن حملت من غيره؟ اتصلت حرنكش بعم ناجي، أرادت أن تشتمه وتصرخ فيه وتخبره أنه ابن كلب جدًّا، ابن كلب فوق ما يتوقع أي أحد، ورنت عليه كثيرًا ولم يرد. فرمت التلفون على الأرض فانفتح وخرجت أحشاؤه، ووطت لتلمه وتركب البطارية فيه من جديد، وكان الشخص من ورائها يردد بهدوء، صدفة طبعًا.

كانت وحدها، تمشي بحذاء النيل، والماء مظلم من تحتها، والشخص من ورائها لا يفارقها. ولكنها لم تخف. كانت تمشي في مارش عسكري محتضنة شنطتها على صدرها وعلى وجهها ملامح العزم والتصميم، وعندما رأت مئذنة السيدة زينب تلوح أخيرًا شهقت شهقة فرح وطلعت على الرصيف، ولكنها تعثرت هناك، عثرة خفيفة قررت التمادي فيها لتقع على الأرض وقوعًا كاملًا، بالركبتين ثم الذراعين ثم الرأس، ثم تخور قواها تمامًا، وترقد لدقائق ترى فيها كل شيء.

٢٢

بعد موت ابني مباشرة، رقدت في الشارع لأسبوعين، ولم أخبر أحدًا. أنا فقط من كنت أعرف.

أتذكر هذا بين الحين والآخر، ولكني تذكرته بشكل أوضح يوم غفوت على رصيف جامع السيدة.

في غفوتي الأخيرة هذه رأيت كل شيء، قبورًا تُفتح وقبورًا تُغلق، رأيت السيدة زينب ومحمود وكمال وقمر وناجي والتربي الذي سبق أن حكى لي زمان عن أمي. كان الموضوع مثل يوم القيامة. كل الناس ظهروا فيه. ولكني عندما أفقت لم أكن أنا من أفقت نفسي، وإنما الناس. كنت نائمة على الأرض، وامرأتان تلطشان وجهي. تساندت عليهما لأعاود الجلوس على السور، وأناس كثيرون، رجال ونساء، كانوا حولي، ومن ضمنهم شخص بجلباب، نظر إليَّ مطولًا وابتسامة ساخرة تظهر من تحت شنبه الغليظ، إنتي تاني؟ كل مرة عانشيلك كدا؟ قالها بالصعيدي. ونظرت إليه وقلت له أنا آسفة، وقلت له سوري بجد. كنت أريده أن يسامحني، وأحسست أني سأموت لو لم يسامحني. وعندما لم يرد شاورت لأول تاكسي وروحت البيت.

وفي البيت كان محمود قد ذهب، وكانت بقع المني قد نشفت وتركت مكانها أثرًا خفيفًا على البلاط. ربعت وجلست بجانبها وحسست عليها. قمت وأخذت التلفون وولعت أنوار الصالة كلها وأخذت لها صورة. وأرسلت الصورة لقمر على الإيميل، بلا تعليق، بلا عنوان للرسالة. فقط الصورة لتفقأ عينيها. ولم ترد، بالضبط كما توقعت.

وفي اليوم التالي زرت الست التي تحت وأريتها الصورة وسألتها ماذا ترين فقالت لا أرى شيئًا وسكتُّ ولم أعرف كيف أرد عليها وكتمت الكبسة في نفسي.

٢٣

كان الأب في مرضه الأخير، وكانت حورية تجلس بجانب السرير. تكلم كثيرًا، ولكن ببطء. كان شعره قد وقع ووجهه شاحب، وشمت البنت رائحة فساء في الغرفة ولم تتكلم. قال إنها صعبانة عليه، وإنه تمنى لو كان حظها أحسن من هذا، وكانت وقتها أرملة توفي زوجها الأول وتعيش مع ابنها في بيته، كانت وقتها في قلب قلب البلاعة. وكان يجتهد لتحرير كلمة من حلقه إلى أن انطلقت، انتي بنتي يا حورية صح؟ وقالت له صح. فابتسم ابتسامة شاحبة.

قال الأب، فيه ناس لازم تسامحيهم، وفيه ناس مش لازم. نشني صح. ومد إبهامه وسبابته على هيئة مسدس وقال بوم. وضحك، وكح وهو يضحك.

واقتربت يدها من يده اليسرى، فحضنها بأصابع مرتعشة. قال، اوعي تفتكري اني هاموت يا حورية. انا هاقوم وهابقى كويس، وهنصلح كل حاجة. هنروح لامك ف تربتها ونزورها، وهنروح لعم ناجي. وخيل لها أن يده اليمنى تعيد حركة المسدس من جديد.

توقع الأب أن يقوم من مرضه، ولكنه لم يقم.

٢٤

نظرة خاطفة ألقتها الست باتجاه الصورة المعلقة على الجدار حسمت مصيري ومصيرها.

كانت سألتني ماذا سأفعل في اليوم التالي في الانتخابات، عرصت قليلًا، قلت لها إني مترددة قليلًا، ولكني ربما أفكر في انتخاب أحمد شفيق. حاولت تخفيف الكلام بأقصى قدر ممكن، ولم ينفع هذا.

لا أذكر تفاصيل الخناقة، ولا كيف تطور البينج بونج بيننا هذه المرة، فقط أذكر أني بالتدريج في الجدال كنت أخلع قناع المترددة وألبس قناع من حسمت قرارها، من ترى الأشياء بوضوح وبلا ارتباك، أيهما أحسن بالذمة، واحد يفهم عمل الدولة ويعرف كيف تُتخذ القرارات أم واحد لا يعرف شيئًا، وأذكر أيضًا أن بنت الكلب شتمتني، قالت عليَّ فلول، وقالت إن أمثالي هم من قتلوا عمر ابنها.

ربما كان مزاجها سيئًا في تلك الليلة التي تخانقنا فيها، ولكن كلامها كان جادًّا، لأنها وهي تذكر اسم ابنها، أشارت إلى صورته أيضًا، إشارة واضحة ولا تحتمل التأويل. أنا قتلت ابنك يا طنط؟ طيب شكرًا خالص. ثبَّتُّ عينيَّ في الأرض وقلت لها سأمشي الآن وشكرًا على الشاي والقهوة والبيتيفور. وفي البيت مضيت أقلي بلح الشام، وأغرقه بالشوكولاتة، وأنا أتخانق معها في ذهني.

يا طنط أنا احترمتك، واحترمت كل ما تقولينه، واستحملت كل كلامك لساعات، واستحملت أسئلتك، وعاملتك كأنك تفهمين وأنا لا أفهم، وقلت لك يا طنط، وقلت لك يا ماما، وقلت لك يا حاجة، وكان كلامك يضغط على أعصابي ويؤذيني ويجرحني ولم أتكلم، ثم في النهاية، في آخر كل شيء، تقولين لي إني قتلت ابنك؟ طيب كسمك يا طنط. مثلما كان كسم طنط عدالة من قبلك.

علاقتي بالست اللي تحت كانت أسرع علاقة عملتها في حياتي، قالت حرنكش وضحكت.

لا أحد يفهم كيف ينفجر الغضب؛ لماذا يكره إنسان إنسانًا، وتتصاعد الكراهية فتحرق معها كل شيء. كنا في أول سنة، ومعركة حامية الوطيس تدور تحت البيت. «حازمون» غالبًا. بعد فترة سكون، وفي محاولة أخيرة للتشبث بالحياة، أقامت «عسكر كاذبون» مسيرة في شارع التحرير، وتدخلت الشرطة بعنف هذه المرة، ومعها المواطنون الشرفاء، وضُرب خرطوش من جانب الداخلية وانحدف مولوتوف كثير، وانضمت حركة «حازمون» إلى المعركة. أغلقت حرنكش الشباك جيدًا وجلست مع محمود. كانت وضعت بينهما طبق بلح الشام بالشوكولاتة، وكانت متشوقة لمعرفة رأيه فيه.

ثقة الست بنفسها كانت أكثر من اللازم. هكذا فهمت حرنكش الموضوع في الأيام الأخيرة من حياة الست. هي تتكلم عن الموت ولا تفهمه، تعتقد أن كون الله أعطاها ابنًا شهيدًا يجعلها جديرة بأن تحكي عن الموت، وتُعلم حرنكش ما تتصور أنها لا تعلمه. وتفتري عليها أيضًا. أنا فلول يا محمود؟ بعد كل دا واحدة زي دي تقول عليا فلول؟

ولكن محمود كان له رأي آخر. كان متسامحًا بشكل استفز أمه. فكر قليلًا وتساءل في حيرة، يمكن هي ست غلبانة؟ وواصل، خذي بالك، أنت فقدت ابنًا وهي فقدت ابنًا. أنت ضعيفة وهشة، وهي ضعيفة وهشة. يمكن أحسن تحبوا بعض؟

حورية من جانبها لم تيأس، سألته إن كان لا يزال يضرب عشرة، فرفع يده أمامها بانتصار، وكانت نحيفة كما كانت دومًا. قال لأ، وماتغيريش الموضوع، فابتسمت حرنكش، فابتسم هو، وقضم قضمة من بلح الشام وسالت الشوكولاتة على شفتيه، الله، جميل أوي أوي، ياللا بقى خدي شوية وانزلي للست ودوقيها هي كمان.

٢٦

كانت الشوكولاتة تسيل من على حبات بلح الشام وتغرق قعر الطبق.

ذهبت الست إلى المطبخ لتجلب شوكًا وأطباقًا. ناديتها من الصالة وقلت إنهم تجننوا في البلد، من دون أن أحدد من الذين تجننوا بالضبط، ولا عن ماذا أتكلم بالضبط. وعادت مبتسمة. قالت، وأي جنان يا بنتي! حد يصدق اللي بيحصل دا؟

أحبت الست بلح الشام. ذاقت واحدة وقالت إنها جميلة، واكتفت بهذا لأن السكريات ممنوعة عليها. ثم أسندت رأسها إلى المخدة وراحت في تعسيلة. أنا ارتبكت قليلًا ولم أعرف ماذا أفعل. كانت أصوات الضرب تقترب ساعة وتبتعد ساعة. والست يتصاعد شخيرها. فكرت في القيام والتسحب على أصابعي والعودة إلى البيت.

ولكنها صحت فجأة، فتحت عينيها على اتساعهما، كأنها لم تكن نائمة منذ ثوانٍ، وقالت لي، ناوليني الجرنان اللي تحت التلفزيون دا وحياتك.

وقمت وأتيت لها بالجرنان، ففتحت الصفحة التي في المنتصف. فتحتها أمامي، بحيث أصبح وجهي في مقابلها، وكانت عبارة عن ثبت كبير بالصور لشهداء الثورة. تمتمت، ماحطوش عمر ابني وسطهم. معلش.

هناك مشهد في مسرحية لعادل إمام يزور فيه الأخير حديقة الحيوانات في الوقت الذي يهرب أسد من قفصه هناك. يجلس عادل إمام فيجلس بجانبه الأسد. يقوم فيقوم، يمشي فيمشي. يقول عادل إمام، دا جايلي أنا بقى، ويضحك المشاهدون ويضحك الجميع.

شاورت لي الست لكي أقترب، فاقتربت. طلبت مني أن أغطي بأصابعي على اسم الشهيد وهي ستخبرني بالاسم غيبًا، ففعلت. كانت لعبة مثيرة ولكنها أقلقتني.

أخذ إصبعي يتوتر كلما اقترب من الهدف، يرتعش وتنبت عليه حبات عرق، حتى وصل إليه وثبت عنده. رددت الست الاسم كاملًا، هند سعودي. ولم تكتف. قالت، مواليد ١٩٨٣ واستشهدت في أحداث محمد محمود.

تحرك إصبعي للوصول إلى الهدف التالي، ولكن الست لم تسمح بهذا. نحت الجرنان، نظرت إلى الشباك وتمتمت، أما دي كانت حتة بنت!

ابتعدتُ خطوتين، بينما الست تنفتح في وصلة مديح في هند سعودي. وكانت تنظر إليَّ بين الحين والآخر، لترى رد فعلي على ما يبدو. وأنا انكتمت تمامًا. فقط كنت أهز رأسي لأوافقها.

بنت زي الورد. وحلوة وقمر تقوليش أجنبية، ووشها بيضحك

وبيخلي الدنيا بحالها تضحك، والحياة كلها قدامها. دي يموتوها دي؟ تعرف إيه دي في دنيتها عشان يموتوها؟

عدت للفوتيه، وحاولت قدر استطاعتي الانحناء للعاصفة حتى تمر. هززت رأسي ستين مرة، وغمغمت بأيوه ستين مرة. حتى فاقت الست من مونولوجها والتفتت إليَّ:

- بت يا حورية؟

- أيوه يا طنط؟

- إنتي قلتِ لي زميلتك اللي كانت ساكنة معاكي واستشهدت هي راخرة دي اسمها إيه؟

دق قلبي بشدة. حاولت البحث عن إجابة ولم أجد. في النهاية نطقت باسم عدالة. عدالة، اسمها عدالة يا طنط، وخرج صوتي كاذبًا وضعيفًا جدًّا.

وكأني لمحت في عيني الست نظرة خبيثة، نظرة خاطفة لم تستمر سوى لثانية، قامت بعدها وقالت، أما اعملك كباية شاي ونرجع نتكلم في الموضوع دا.

راحت إلى المطبخ، وأنا مر عليَّ الوقت كأنه سنة. أردت أن أطلع إلى شقتي وأستشير محمود فيما عليَّ فعله، ولكن لم يكن هذا ممكنًا. كنت محبوسة والأسد قادم لالتهامي وعليَّ اتخاذ القرار منفردة.

في النهاية حسمت أمري وقمت. تبعت الست إلى المطبخ، وهناك، خلفها بالضبط، قررت الاعتراف:

أنا قتلت هند سعودي يا طنط.

كانت تضع براد الماء على النار، وتحاول التظاهر بالانشغال

للدرجة التي لا تجعلها تسمعني أو تبالي بكلامي، ولكني كنت أعرف أنها تسمعني جيدًا. باختصار، كنت أعرف أنها ستموت اليوم، وأن القرار قد اتُّخذ خلاص، وألا ضير من أن أقول أمامها كل ما أفكر فيه.

عارفة ليه قتلتها؟ عشان كانت قحبة برضه. دي واحدة اتطلقت وبعدين نزلت لابسة ألوان وقالت للناس باركولي، عشان الناس تحبها، يبقى دي إيه؟ مش كتير بياخدوا بالهم من دا، بس انا باخد بالي كويس أوي. وماحدش كان بيحبها عشان تبقي عارفة. كله كذب في كذب...

قاطعتني قبل أن أكمل. كان الماء يغلي في البراد، أمسكته وصبته في الكوباية وهي تلتفت إليَّ، الداخلية قتلت هند سعودي. وأشارت إلى شباك الصالة، حيث ينبعث صوت الخرطوش والهتافات. أضافت، قتلوها زي ما بيموتوا العيال دي دلوقتي. ونظرت إليَّ بكراهية.

لولا تعليقها الأخير هذا، لأمكنني الصمود وتمالك نفسي حتى النهاية. فجأة رأيت أنها تجادل من أجل الجدل، هي الجالسة في بيتها ولا تعرف شيئًا، تجادلني أنا التي رأيت الواقعة ولوثت ملابسي دماء الشهيدة، فقط لأنها مسلحة بكل هذه الثقة في النفس. يا طنط، يا حاجة، يا حبيبتي، الحقيقة ببساطة أنك تجادلين من أجل حرق دمي وخلاص.

أردت تحديها وإرباك ثقتها المتناكة في نفسها، الداخلية لا يقتلون العيال دلوقتي، وأنا كنت في الثورة وأعرف، وأنت يا حبيبتي من لا تعرفين شيئًا عن أي شيء.

قالت تعالي، وجرتني من يدي وانسحبت وراءها. فتحت

الشباك وشاورت على المعركة، شايفة دا، شايفة دي؟ مين بيموتهم دلوقتي بقى؟

من تحت انطلق صوتان غليظان متداخلان وملضومان في بعضهما كأنهما شجرتان، اقفل الشباااك. ادخل جوا!!!!. ولكن الست لم تخف. لابطت وزعقت، هو إيه حكايتكو، ما تتمسى انت وهو بقى!

ربما كان هذا أغرب مشهد أراه في حياتي، والمؤكد أني حلمت به كثيرًا بعدها، زارني في خيالاتي وأربك لي كل ما أعرفه عن قوانين الفيزياء، حتى وإن لم أكن متأكدة مئة في المئة من مسار قنبلة الغاز؛ هل ارتطمت بالشيش وارتدت منه إلى داخل الشقة، أم دخلت مباشرة كطلقة محكمة، أم هبطت مثل الصدفة من السماء إلى داخل الشقة الآمنة للست العجوز؟ فجأة وجدت نفسي مع الست وبصحبتنا القنبلة.

جريت بسرعة، وفتحت الباب ووقفت على بسطة السلم وأخذت أستغيث. تعالوا الحقوني، تعالوا انظروا وشوفوا. وهرع البواب لنجدتي، وهرعت مراته، وهرعت جارتان، وذهلوا لمرأى الدخان المتصاعد من شقتنا، وكحوا كثيرًا وكحت كثيرًا. ولم يقدر أحدنا على دخول الشقة. وقفنا بعيدًا عن الباب بثلاثة أمتار، ولم يسألني أحدهم عن مصير الست بالداخل.

فقط بعد عشر دقائق كاملة، وبعد أن بدأت سحابة الغاز في الانقشاع، دخلنا، وكان ما توقعناه. على ضوء الكشاف الكهربائي رأينا جثة الست واقعة على الأرض وتحتها السجادة مطوية كأنها

تعثرت فيها، وجهها أزرق وذراعاها تحتضنان رجل الفوتيه، وبجانب ساقها اليمنى ترقد قنبلة الغاز.

ووسط كثير من تمتمات لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ذهب البواب ليعاود إغلاق الشيش والشباك، وكانت المعركة قد هدأت، كأنها لم تحتج إلا لجثة الست قربانًا لينتهي الأمر.

وبدأت أنهنه. كانت الست معي، كنت أنتظرها لنشرب الشاي، غدرت بي وماتت. وطبطبت عليَّ النساء، ونادى البواب ابنيه وأخذوا الجثة ولفوها في ملاءة ووضعوها على السرير. وكلمنا الإسعاف ولم ترد، وكلمنا ابنتها الكبيرة، وكلمنا ابنيها الأصغر، وقالوا سيأتون، ولم يأتِ أحد، وكنا نعرف هذا، خافوا من المعركة الدائرة تحت. ولم نتمكن من التحرك بها، نحن أيضًا خفنا من النزول؛ لم نعرف أين نذهب بها الآن.

بدأ الجميع ينصرفون تباعًا، متفقين معي على المبيت معها حتى يطلع النهار، وقالوا لي ربنا يباركلك، وقالوا لي ربنا أكيد سيكافئك مكافأة كبيرة جدًّا. وأتيت بكرسي ووضعته جانب سريرها، وشغلت كل المراوح من حولها لتهوي على جثتها.

وفي ظل رائحة الغاز الخفيفة المتبقية ظللت أحدق فيها وأسترجع كل الأشياء، كل الكلمات والمواقف، ولا أحسم شيئًا، وكل حجة ولها نقيضها، وحيرتي كانت تتضاعف، أضعافًا أضعافًا في مربعات صغيرة تظهر وتتوالد أمامي في صور، إلى أن انتبهت لمحمود وهو يجلس بجواري. سألته متى نزل هنا فقال من شوية. رأيته وهو ينظر إلى جثة الست مرعوبًا، وكانت عيناه حمراوين جدًّا. وقلت بصوت

خافت، أنا آسفة. وكررت أنا آسفة أنا آسفة، ولكن عينيه لم ترحماني، كان الخوف يلتمع فيهما وهو يتأمل وجه الست المغطاة بالملاءة، لأول مرة من زمان أراه مرعوبًا بهذا الشكل، ونزلت على الأرض وكررت، أنا آسفة. وحاولت البكاء على حجره ولكنه انتفض وجرى ليجلس في ركن الغرفة متكورًا على نفسه.

في هدوء الليل كنا ثلاثة أجساد بعيدة عن بعضها تجلس في نفس الغرفة، جسد ميت واثنان حيان، وكان كل شيء حزينًا، ومعه أغنية خافتة، تتردد من راديو أحد الجيران، وداري عالجراح، زي ما بتداري يا حبيبي عالحب والأفراح.

٢٧

صحيح أن كل شيء كان حزينًا وهي جالسة مع محمود يتأملان جثة الست، ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال.

رن جرس الباب ففتحت، وكان الواقف خلف الباب ضابطًا شابًّا بالملابس الميري. عرَّف بنفسه على عتبة الباب، الرائد أحمد بدر، قوات خاصة. سألها إن كانت صاحبة الشقة فقالت إنها جارة صاحبة الشقة، وماتت وهي عندها، وإنها محتاسة ولا تعرف ماذا تفعل.

طلب منها فتح الشباك لأن الجو حر. وأردف بابتسامة، ماتخافيش يا افندم مش هيحصل حاجة وانا هنا.

قادته إلى غرفة النوم حيث ترقد الست. جلس على طرف السرير الذي ترقد عليه الجثة، وأشار إليها وقال، هي اللي بدأت يا افندم. صحيح الهدف مكانش هي، احنا كنا بنضرب في اتجاه تاني خالص، لكن الولاد لما لاقوها بتزعق اتوتروا وحبوا يسكتوها، في الحقيقة أنا باعذرهم، مش بابررلهم، لكن باعذرهم. طبيعي إن يحصل رد فعل عنيف. وردت بصوت خافت، أنا فاهمة دا.

أومأ برأسه مهمهمًا، ثم قام فجأة في حركة فروسية وقال لها، اسمحيلي يا هانم اقدملك اعتذاري واعتذار جميع زملائي عن هذا، وأوعدك إن هذا الأمر مش هيتكرر تاني. وكان يحني رأسه إلى الأمام ويضع كفه على صدره. فقالت لا أبدًا.

ومشى خطوات ثم لمح فارغ قنبلة الغاز ملقى على الأرض فانحنى ليلتقطه. نظرت إليه ثم إلى القنبلة في يده. قال إن الفوارغ عهدة ولا بد من إعادتها للوزارة قبل أن يطلع نهار اليوم التالي. كانت تعرف أنه يكذب أو يستهبل، وأنه لا يريد دليلًا معها على أن القنبلة اقتحمت صالة البيت، فعاودت النظر إليه وإلى القنبلة.

مال على ترابيزة الصالة، وكتب على ورقة اسمه ورقم تلفونه ثم أعطاها الورقة وقال، دا دين عظيم في رقبة الداخلية ليكي، ولو عزتي أي حاجة أرجوكي ماتترددديش تتصلي بيا عالرقم دا. وتوقف أمام طبق بلح الشام على الترابيزة. التقط واحدة وقضمها ثم ابتسم بتهذيب، بعد إذن سعادتك. أومأت برأسها ففتح حوارًا، شغلك يا هانم؟ قالت أيوه. قال بابتسامة، شيء في منتهى الرقي، بيدل على

روح حساسة. تقبلي تحياتي يا أفندم. وأحنى رأسه وأخذ معه واحدة أخرى أكلها وهو خارج.

ظلت هي ومحمود ينظران لبعضهما بدقائق بعد خروجه. ثم ابتسم محمود وقال، غريب جدًّا الظابط دا. هتفت فرحانة بابتسامته المتأخرة، مش كدا؟ أنا مش فاهماه خالص على فكرة! وضحكا معًا أخيرًا، على الضابط وعلى طريقته، وضحكا على ضحكِهما، وذاب الاحتقان، وحضنته وقالت له، ماتزعلش مني يا محمود، وحياتك عندي ما تزعل مني أبدًا. فأومأ وحضن يدها بدفء وهو يهمس، حاضر. وقبل أن يفترقا قال، ابقي نضفي الشقة شوية والنبي. إيدي اتملت تراب وانا قاعد فوق. فأشارت بإصبعها إلى عينها. وسلم عليها ونزل وطلعت هي إلى شقتها.

٢٨

أنا سمعت الست تشهق قبل أن تموت. أنا سمعت صوت طلعة روحها. أنا رأيت القنبلة.

كانت القنبلة تسير في سمبوكسات، ترتطم بالشيش ثم ترتد إلى الجدار داخل الشقة، ترتطم به ثم ترتد إلى السقف، تنزل من السقف إلى الجدار مرة ثانية، ثم إلى الجدار المقابل، ثم تنفجر على الأرض، مصحوبة بسحب الغاز الكثيفة. علبة صفيح بحجم الكف تجرُّ إعصارًا. مصباح علاء الدين. ريش ملون يطير من مخدة ناعمة.

وكانت الست تتلوى وتكح، تركض هربًا من القنبلة فتتكعبل فتعاود القيام فتتكعبل ثانية. كيف استقرت جثتها بجانب جثة القنبلة على الأرض، الست وعدوتها، الوحش وفريسته؟ قال أبي نشني صح. وأحيانًا أفكر أني أخطأت التنشين. أو أني نشنت بدقة ولكن في الاتجاه الغلط. هل كانت الست طيبة أم شريرة؟

أنا رأيت رعبًا كبيرًا. رأيت الغاز يتصاعد في صالة مساحتها أربعون مترًا، وعلقت بأنفي رائحته. رأيت الحرب المندلعة في الشارع وهي تخرق جدار البيت وتدخل. رأيت الشارع في البيت، ورأيت الحدود تذوب بين ما هو بالخارج وما هو بالداخل.

الكل يعترفون أن هناك أشرارًا، لكن الكل أيضًا ينكرون على حورية المسكينة حقها في الإيمان بالأشرار. يعلقون لها المشنقة ويقولون روحي اتعالجي عند دكتور. لا، لن أتعالج عند دكتور. وقبل أن تتكلمي عني تكلمي عن نفسك يا وسخة، واحدة غنت أغنية فجاءها الأشرار وشتموها فاعتزلت الغناء وتشردت في الأرض. كونك قبلتِ مصيركِ ووضعت يدك على خدك فهذا لا يلزمني. أنا أبي علمني العند يا قحبة وأنت تعلقين لي المشنقة؟

ـ ولكنك تخطئين يا حورية.

ـ أخطئ لأني غير محددة. بمجرد أن أحدد هدفي ستفاجئك مهارتي.

ما إن قلت هذا، وكنتُ في الحمّام، حتى بكيت بشدة، تشنجت وبربرت وتقشرت مناخيري من فرط اعتصارها بالمناديل، ثم قلت لنفسي الله يلطف بنا.

صبيحة إعلان نتيجة الانتخابات كلمني محمود في التلفون وقال لي إنه سيكون موجودًا في التحرير ليسمع النتيجة هناك، لم ينم من أسبوع في انتظار سماع النتيجة. تعالي نتقابل يا مامي، انتي واحشاني جدًّا. غيرت هدومي ونزلت.

كانت جموع المتظاهرين تنتظر إعلان نتيجة الانتخابات في التحرير تحت الشمس الحارقة، مهددين بحريق ضخم إذا لم يُعلن فوز مرشحهم. كانوا رجالًا ونساء، يلبسون طرحًا فوق رؤوسهم لتقيهم الحرارة، مع هتافات غاضبة وماء كثير يسكبونه على بعضهم البعض.

من بين الحشود اهتديت لمحمود على الفور. فور ما رأيته أمسكت يده وتأملت فيها، لأتأكد أنها لم تعاود التورم. فطبطبت على ظهره وقلت له، مش كدا أحسن بالذمة؟ ولكن بالمقابل كانت هناك حلقتان سوداوان حول عينيه من أثر قلة النوم. طلبت منه ألا يترك نفسه فريسة للقلق، لأن أعصابه قد تتدمر بهذا الشكل، فأخذني من يدي وقادني وتمشينا بين المظاهرات، وأشرت له إلى جميع الكروش والذقون والأنقبة والأزبار الظاهرة من تحت الجلاليب وسألته، هما دول صحابك دلوقتي يا محمود؟ وناوي تعمل إيه إن شاء الله لو الإخوان كسبوا؟ هز كتفيه، لو الإخوان كسبوا سيكونون أعداءه، والصراع القادم سيكون ضدهم هم. لن يسكت ولن يعرِّض عليهم، ببساطة شديدة. أمسكت بيده وقلت له إنه الوحيد الذي يجعلني أتفاءل في هذه الأيام الصعبة.

أنا مررت بأيام قاسية يا محمود، وأنت تعرف، ولكن ماما الجدعة لن تترك شيئًا يحبطها، لأنه ما دام هو موجودًا فلن تترك للأشرار فرصة، مش انت الراجل بتاعي يا محمود دلوقتي؟ لم يقتنع وسألني بتشكك، وعاطف؟ ارتبكت قليلًا، قلت لنفسي ابنك كبر يا حرنكش ويحتاج إلى أحد يفهمه أن الحياة معقدة. قلت له، مامي دلوقتي لوحدها يا حبيبي، والست عندما تكون وحدها تحتاج رجلًا. خاصة عندما تجد الجميع ضدها. قال لي إنه سمعني بالأمس وأنا أكلم نفسي أمام المرآة. وقال إني صعبت عليه كثيرًا، ثم سألني لماذا كنت أتشنج. قلت له إن فيه واحد وحش أوي، واحد مش بيحب مامتك يا حبيبي. وطول الوقت عمال يأذيها. تفتكر أعمل فيه إيه؟ قال لي موتيه. قلت له إني أموته ولكنه لا يموت. يكون قد باض بيضات كثيرة قبل أن يموت.

فكر محمود طويلًا، ثم قال لي إن الحل هو السم. لو ظللت وراء كل صرصار أطارده بالشبشب فلن أتمكن، وسأموت قبل أن تنتهي الصراصير. ولذلك فوضع سم كثير في عش الصراصير هو الحل المثالي. أو أن أطلب الشركة لترش الشقة. قلت له إنه ليس هناك شركة ولا يحزنون، وليس هناك إلا أمك البطلة تقف أمام الجميع وتحاربهم، تحارب هذا الذي لا تاريخ ميلاد له ولا شكل ولا اسم.

لم تقنعه الجملة الأخيرة، أو كأنه انتظر طويلًا حتى أنطق الجملة كي يُظهر عدم اقتناعه. غمز بعينه وقال، له اسم يا مامي وانتي عارفاه. فتجاهلت وكأني لم أسمعه. فكررها، بقول لك يا مامي له اسم وانتي عارفاه، بس مابتحبيش تقوليه.

قلت، مالوش. فقال، له.

أمسكت بيده، يده التي كانت حبلى وأجهضت، وقرصت عليها بقوة، لتذكيره بأني أعرف وساخاته، وقلت، بقول لك مالوش. ظل ينظر إليَّ بثبات ويضع عينه في عيني إلى أن زهقت وتركت يده. فجلس على الرصيف ومضى ينظر إليَّ. هربت من نظرته وقلت بصوت ضعيف، بقول لك مالوش. ولم يرد وظل ينظر إليَّ. وكانت كلمة المستشار التي سيعلن بها فوز الرئيس القادم لمصر، قد بدأت تتردد من آلاف مكبرات الصوت في التحرير. ووجدتها فرصة للانشغال بشيء آخر. فهتفت، بص يا محمود، هيقولوا اسم الريس اهو. فوقف وتقدم خطوات ليصبح وجهه مقابلًا لوجهي. وقال لي، ماميبي، قالها بنبرة منغمة كأنه يغمز. فقلت له، اسكت خلينا نسمع، فكرر وهو يتقافز أمامي وجنبي، مامي، ماما، ماماتووو.

هنا كنت انهرت تمامًا، ولم أجد مفرًا من الاعتراف أمامه، الاعتراف أمام نفسي بالأساس، بعد أن قضيت ليلة طويلة بالأمس أحاول نطق اسمه ولا أستطيع، وأخربش جلد وجهي حتى أصرف نفسي عن نطقه. قلت له، أيوه يا محمود، الشخص اللي منكد عليا حياتي دا أنا بسميه الشيطان، عشان هو فيه كل الخصائص بتاعته. دا اللي مسود الدنيا ف وشي ومش عاوزلي لحظة فرحة. لحظة واحدة بس.

سألني، وهتعملي فيه إيه؟ فقلت، هاموته. إزاي؟ بالسم. وحضنني محمود، قال لي، إوعي تتكسفي، إطلاقًا، مهما حصل، دائمًا أبدًا، تقولي اللي انتي حاسة بيه، حتى لو كنتي حاسة ان محدش هيصدقك، إنتي الجماعة ولو كنتي وحدك. دي الفكرة من الثورة أصلًا يا مامي.

وبكيت وسالت دموعي بغزارة على كتفه، تخيل يا محمود، دا بيتجنن لما افرح، عارف يعني إيه بيتجنن، أنا نفسي أقول له انت زعلان ليه، نفسي يفكه مني شوية. خمس دقايق بس يا محمود.

وتمشينا معًا، اخترقنا الناس، وكنت مكسوفة منه، لم أحب أن أواجه عيني بعينه. كنت متوترة وأشيح بوجهي عنه محاولة إبداء الاهتمام بالكلمة التي ستُعلن فيها نتيجة الانتخابات. وكان الناس صامتين تمامًا وهو يسرد أعداد الناخبين واللجان الانتخابية. إلى أن حل الصمت الرهيب على الميدان، تقطعه بعض الهمهمات والهتافات غير المكتملة والزومات الصادرة عن خراتيت تضرب عشرات جماعية وتوشك أن تنطرهم في سماء الميدان، حتى أعلن المستشار فوز محمد مرسي برئاسة الجمهورية، وتوحدت الزومات كلها في هتاف واحد «الله أكبر». ثم تكرر الهتاف بإيقاع مجنون.

كنت منحازة لشفيق صحيح، وكنت أريد التصويت له، لكن ما إن علا هتاف الله أكبر ورأيت الرجال ترقص والنساء تزغرد حتى زغرد قلبي هو الآخر. قلت مش مهم، أهو أي حد ييجي يمسك البلد وخلاص، خلينا نخلص بقى. ورأيت نفسي أندفع في هتاف موحد مع محمود، أول هتاف أهتفه يكون متناسقًا هكذا. لم يكن هتافًا بالضبط، كان كلمة عبيطة، قلنا نحن الاثنين «يوهووووو» طويلة وقوية وصادرة من الأعماق، وكانت عينا محمود ملتمعتين بالفرحة.

وتمشينا نصف ساعة في الميدان. خطف قلبي رجل بلحية يرقص وعلى كتفيه طفلة شقراء ترقّص ساقيها هي الأخرى، وشاورت عليهما لمحمود، فسألني، مبسوطة يا مامي؟ أومأت برأسي، فأضاف أن

الهم العام كدا خلص خلاص، ولم يعد علينا الآن سوى التفرغ للهم الخاص، فشاورت له بإصبعي، الاتنين واحد يا محمود. دا كلامك انت. فصفق بيديه، شطورة مامي شطورة.

كنا نمشي بصعوبة، وصلنا عند مدخل كوبري قصر النيل مخترقين المجموعات الراقصة والمجموعات الساجدة والمجموعات المتحرشة، رأيت هناك حوالي عشرة مراهقين يحيطون بواحدة يبدو أنها أجنبية، ويمدون أيديهم على جسمها ويصرخون بكلمات لم أتبينها، وأحدهم يرقص بتاعه أمامها ويكركع بالضحك. بدأ جرس الإنذار يرن في عقلي معلنًا عن خطر يقترب، فالتفتُّ إلى محمود وسألته، مش ياللا؟ فقال ياللا. وشاورت لتاكسي وركبنا. وقلت له، كان لازم نمشي دلوقتي، لو استنينا ماكناش هانعرف نمشي. فقال، احنا مش عارفين نمشي دلوقتي أصلًا. وكانت العربيات تمشي عكسي وتكسر على بعضها فوق الكوبري، ومجموعات بجلاليب وأنقبة تمر بين العربيات وتعطلنا عن المرور، وكلاكسات تهدر، وبداخل التاكسي نفسه كان عبد الوهاب يغني، مسافر زاده الخيال، والسحر والعطر والظلال. وكان سائق التاكسي عجوزًا ضئيل الحجم يصفر بصوت خافت مع الأغنية.

عند أسدي قصر النيل أدخل شخص جمجمته، صلعاء كاملة، من شباك التاكسي وأشار إلى صدري وقال، جالك اللي هيلمهملك. قالها ومشى، وصرخت واقتربت من محمود محتمية فيه، وحاولت إغلاق شباك العربية ولكنه لم يُغلق، فطلبت من السائق إغلاقه من عنده، ولكنه كان مشغولًا بالدندنة، والناس في حبه سكارى، هاموا

على شطه الرحيب، ثم أشار إلى النيل وقال، نهر النيل يا أستاذة. أعظم أنهار العالم.

عليت صوتي وصرخت فيه، الشباك يا اسطى من فضلك. فانتبه وأغلقه وسكت دقيقة ثم بدأ يردد بصوت منخفض كأنه يكلم نفسه، إحنا قلنا لهم قبل كدا، شوفوا المجتمع المصري، اعرفوا احتياجاته. ووجه رأسه نحوي قليلًا وقال، احنا ماطلبناش حاجة لنفسنا أبدًا يا مدام. والله العظيم يشهد، احنا ماعملناش حاجة إلا عشان خاطر الخير، يبقى نُهان كدا؟ يبقى مين مسؤول عن حزننا لهذه الدرجة؟ وكان صوته متحشرجًا وهو يتكلم، وكأنه يبكي. وكنا وصلنا إلى ميدان الجلاء، والدنيا أهدأ، فمددت يدي وطبطبت عليه، وظلت يدي على كتفه حتى وصلنا. وكنت أبكي لأجله في قلبي أيضًا. وعندما ابتعد التاكسي لوحت له بيدي فلوح لي. وناديت بصوت ضعيف، سلام يا حبيبي.

أحسست نفسي تمتلئ بنعمة الله. حزن مع فرحة.

صعدت إلى البيت مع محمود. استحممت وأصررت أن يستحم هو أيضًا. وبدأت أقلي بعض البيض بالبسطرمة لنتعشى وأنا أدندن لحن «النهر الخالد»، وعندما خرج من الحمَّام جلسنا على الكنبة الخضراء، نغمس البيض بالعيش ونبدأ نقاشًا مطولًا حول خصائص الشيطان والسبل المختلفة للقضاء عليه.

الفصل الخامس

قتل الموتى

«يقال إنه إذا زارك الموت هذا العام فاطمئن
لأنه لن يزورك العام القادم. هممم. مش عارفة»
هند

١

رأت حرنكش، في زيارتها الأولى لعيادة عاطف، ومن خلال شبكة من السلك تحيط بالنافذة، كورنيش المقطم لأول مرة. عبر ثقوب الشبكة المحشوة بالتراب أخذت فكرة عن كيف تبدو القاهرة من فوق.

تنحت طويلًا. حاولت تمييز النيل، ومن خلاله تحديد مكان شقتها في الدقي، ثم سائر البيوت التي سكنتها من قبل.

يومها عادت من عند عاطف وكتبت لقمر: كإني شفت حياتي من فوق.

كانت القاهرة قد تحولت في عهد مبارك إلى مدينة متعددة

الطوابق، أنفاق تحت وجسور فوق. ولكن حورية، كمشاءة أصلية، لم تكن لديها الخبرة إلا بسطح الأرض، تحفظ تضاريسه ولا تتجاوزه، لا لتحت ولا لفوق.

وبالتالي لم يكن المقطم يعني لها كثيرًا سابقًا. كانت تراه وهي ماشية في شارع الروضة قاطعة النيل باتجاه الشرق، مجردًا وغامضًا وغارقًا في الضباب. ولكن في زيارتها لعاطف رأته على حقيقته.

لم تكن ساذجة. كانت تعرف أن المقطم يسكنه ناس ومحلات وعربيات وبيوت. ولكنها رأتهم الآن مثلهم مثلها. ساكنو الجبل الذين بدوا لها من قبل عمالقة مخيفين، رأتهم بشرًا مثلها، أقصر منها وأقبح منها ويتفتفون وهم يتكلمون.

درجة في سلم القاهرة، ودرجة في سلم نفسها، صعدتهما حرنكش يوم زارت عاطف.

٢

بعد فوز الإخوان برئاسة الجمهورية، أصبحت القاهرة مدينة مخيفة. ظلت الشوارع يومين كاملين تحترق. انطلق الشباب على الفِسَب يهددون كل من يلمحون خصلة من شعرها، كل من تظهر ذراعاها، كل من تلبس فستانًا، بأن القادم أسوأ، جالكم اللي مش هيرحمكم. هبطت سحابة سوداء على القاهرة، وتزامنت مع انقطاع الكهرباء في كل الأماكن، وكانت الدنيا سوادًا.

خافت حرنكش بشدة من المشي في شوارع الدقي. كوبري الجلاء، بوصفه أحد مداخل الدقي ومنطقة من مناطق تماسه مع الزمالك ووسط البلد، كان مسرحًا لهجمات قطعان الإسلاميين القادمين من التحرير. لأكثر من مرة ناداها راكبو السيارات لتركب معهم، وحاول أحدهم مرة أن يمد يده على ظهرها، وظنًّا أنها مسيحية، لأنها لا تلبس حجابًا، هتف فيها أحدهم بشيء ما عن الكنيسة، وخافت جدًّا.

كان العالم الذي نشأت فيه، على ضفتي النيل، العالم الذي قضت فيه حياتها، ينهار. حبست نفسها داخل البيت. طبخت كثيرًا وأكلت كثيرًا وسمنت قليلًا. عانت الوحشة والقلق وأغلقت الأبواب بالترابيس، ثم انشغلت بالفيسبوك عن كل شيء.

زارها محمود مرتين، وفي المرتين جلست على اللابتوب ولم تعطِ لما يقوله كامل عقلها. وتنرفز في المرة الثانية وبان عليه هذا.

ولكن الحبسة في البيت، الزهق والاكتئاب وإدمان الفيسبوك، لها فوائدها أيضًا. أشياء أكثر وأكثر في العالم أصبحت تبدأ من الفيسبوك.

جاءها لايك من عاطف على إحدى صورها، فأطلقت عليه سلاسل من اللايكات على مدار الأيام الثلاثة التالية. كتب لها يقول، انتي وحشتيني، فاتفقت معه على ميعاد في عيادته.

وفي الطابق الثاني عشر من العمارة في المقطم، نامت حورية مع عاطف لأول مرة.

كاد لقائي بعاطف أن ينهدم من دقائقه الأولى. لم تخطر على بالي مواضيع جديدة عندما رأيته. بحثت عن الكلام اللطيف ولم أجد إلا الأحمق، إنت عارف انك زعلتني جامد قبل كدا؟ نظر إليَّ بدهشة فأكدت على كلامي، أيوه، لما قعدت تزعق فيا وانا مع محمود عندك في البيت.

ارتبك أمام الهجوم غير المتوقع، وواصلت أنا، انت قلت اللي انت كنت فاكره صح. أنا فاهمة دا، بس انت ماحطيتش ف بالك أنا كنت ممكن أتأذي قد إيه.

ثم بدأ الكلام الأحمق ينسحب إلى الخلف، ويفسح طريقًا لتيار الكلام اللطيف. نظرت إلى عينيه مباشرة: أصل دي كانت أول مرة نقعد مع بعض فيها.

قام من مكتبه وطبطب بكف يده على قفايا، وبإصبعين من كف يده تحت قفايا، تحت ياقة البلوزة، وطبطبت أنا على كتفه أيضًا. ثم عاد إلى مكتبه. طلبت قهوة، وكان الساعي مشي، فذهب ليعمل لي القهوة بنفسه. شربتها على مهل وكانت الساعة الخامسة، ثم قلت إني أريد أن أمشي ولكني أصبحت أخاف أكثر بعد أن أتى الإسلاميون. قال، لا مينفعش تمشي.

سأعرف فيما بعد أنه أيضًا كان خائفًا من النزول، وأنه هو أيضًا أصبح يخاف أكثر بعد أن أتى الإسلاميون، وأنه تعود لو بقي في العيادة بعد الخامسة أن يبيت هناك، هو تعود ومراته تعودت وأولاده تعودوا.

قلت إني مابحبش أزعل منه، ولكني زعلت منه لإنه غالٍ على قلبي، وإنه لا يعرف مقدار غلاوته على قلبي، وإني وحيدة جدًّا، وحزينة جدًّا، وإني أفكر فيه كثيرًا، ودمعت وأنا أتكلم. قلت إني زعلانة منه وقلت له شكرًا وقلت إنت خليتني احس إن الدنيا فيها أمل. كنت أقول الشيء وضده ولم أكن أكذب. أنا لم أكذب على عاطف.

وعاد مرة أخرى إليَّ، وقف بجانب كرسيَّ وحضنني من ظهري، في نوع من الطبطبة الأخوية. ووقفت أنا ودفنت رأسي في صدره وواصلت البكاء وكان يقول لي، طب بس بس. طب سد سد، اجيبلك شوكولاتاية؟ وفتح درج مكتبه وأخرج شوكولاتاية فعلًا وقدمها لي. وضحكت، ضحكت في قلب الدموع ضحكة طويلة وملونة وبسته على خده وباسني على خدي. وأكلت الشوكولاتاية وسألت عن الزبالة لأضع ورقتها المفضضة فيها، فأشار لي بإصبعه أن هاتيها، وتناولها مني ومضى يلعب فيها حتى صنع منها فراشة صغيرة علقها في شعري، وراء أذني بالتحديد.

يصعب تحديد من بادر أولًا، صحيح أني كنت أنا من بدأت المُحن، ولكنه هو من بدأ الطبطبة. أنا من هجمت عليه وبسته على شفتيه، وهو من أخرج لسانه ومضى يلعّبه مع لساني. أنا من أكدت الموضوع عندما همست في أذنه، لازم كوندوم على فكرة، وهو من نزل ركضًا من العيادة وعاد ومعه الكوندوم.

كأن الكوندوم كان تصريحًا لنا بأن ننسعر على بعض، وجدنا أنفسنا على الكنبة الضيقة، نتشقلب على قدر ما أتاحت لنا الكنبة، ويقع هو أحيانًا وأنا أقع أحيانًا. كنت هائجة جدًّا واستعجلت وأنا أفتح له

رجليَّ، ولكنه لم يكن مستعجلًا. أغلق رجليَّ ومضى يواصل تفعيص صدري وفرك حلمتيه ببعضهما، وملاعبة بتاعه في سرتي وأسفل بطني وكسي وأنا أصرخ وأضحك وأتأوه، وملأت عينيه نظرة شرسة لم أرها من قبل، التمعتا بشدة وهو يعض بصفِّ أسنانه الأعلى على شفته السفلى، كأنه حيوان، كأنه سيأكلني الآن، وهيجني هذا على قدر ما فاجأني، حتى أني صرخت فيه في عز النيك، إنت ازاي كدا؟

بعد أن انتهى رقد بجانبي ونظرنا إلى بعضنا وحضنا بعض كثيرًا وضحكنا كثيرًا. فيما بعد، سأفكر أن العلاقة ظلت محشورة في زوري لأشهر طويلة حتى انطلقت مرة واحدة مثل العطسة معه على الكنبة في عيادته.

نمت في حضنه. لم نتكلم عن مراته وأولاده، لم نتكلم عن أولاد الكلب في حياتي. أجلنا المواضيع الصعبة واستمتعنا بسخونة بعضنا. رغم البنطلون الذي أصر على لبسه وهو نائم ورغم التيشيرت والكيلوت اللذين أصررت أنا أيضًا على لبسهما.

في السابعة صباحًا رن منبه تلفونه. صحوت وسألته فيه إيه، فقال خلاص هاروَّح. وبدأ يلبس أمامي وأنا لا أزال أتقلب على الكنبة. لبس قميصه وجزمته وهو يوجه نظره بعيدًا. شعرت بالحرج قليلًا، وكأنه فجأة أصبح رجلًا غريبًا أمامي، فقمت وبدأت ألبس أنا أيضًا. بعد أن انتهينا، وجه عينيه إليَّ للمرة الأولى وقال، أحسن لك تنزلي انتي قبلي بخمس دقايق عشان محدش يشوفنا مع بعض. قالها بصوته الجاد العادي الذي لا يعتذر ولا يلاطف. قلت له طيب، ونزلت. كنت محرجة قليلًا ولكن بعدها فكرت أن هذا هو عاطف.

طيب، أعطاني عاطف أملًا في المستقبل، صحيح أنني كنت واعية بعيوبه، وأنه في النهاية شخص بنضارة ولغد ويرتدي بالطو الدكاترة، ولكن يكفي أنه كان يعاملني بكل هذا التفهم، بكل هذا الحنو. لم أكن أريد شيئًا من العالم أكثر من هذا، لم أكن حتى أرغب في البقاء معه إلى الأبد. هو متزوج وعنده طفلان، وكنت أعتذر في سري لشاهندة مراته. كنت أقول لها، أنا لا أريد مزاحمتك فلا تغضبي عليَّ، فقط أعطني إياه في الأوقات التي لا تحتاجينه فيها. أنا راضية بأكل زبالتك عندما ترمينها، لأن طعمها يعجبني ولأني امرأة عادية ولا أسعى للمنافسة أو لإثبات شيء.

٤

حب الرجال يعلمنا حب أنفسنا أيضًا.

يُحسب لعاطف أنه جعل حورية تهتم بشقتها في الدقي قليلًا. ستة أشهر فقط هي مجموع ما قضته حورية في هذه الشقة، ولا تذكر في آخر شهرين سوى تنظيفتين للبيت. جاءت واحدة وفاصلت في الأجرة، ولم يجرحها هذا قدر ما جرحها تلميح الست إلى الاتساخ المبالغ فيه للبيت، فطردتها. وجاءت ثانية وسرقت فلوسًا من الكومودينو وقد تكون حاولت فتح الشكمجية أيضًا، فمع السلامة إذن، قالت.

من ساعتها وطبقات من التراب تحتل الأسطح. كانت حورية تحاول ملء الفراغات هنا وهناك، تكنس الصالة مرة وتمسح الحمَّام

مرة وما إلى ذلك، ولكنها سرعان ما تكسل وتعود إلى الفيسبوك. حتى حاولت الجلوس على الفوتيه الأحمر فوجدته ممتلئًا بالتراب.

ـ ماذا حدث لك يا حورية لتتركي شقتك تتسخ هكذا؟

ـ ما حدث لي هو أني دومًا كنت أنظف بنفسي. ما حدث هو أني، ما عدا في شقة السيدة، لم أعرف الشغالات أبدًا. وحتى في شقة السيدة كنت أنظف بنفسي أحيانًا. ولكن الآن لا. سأستجمع همتي وأنظف شقتي. أنا أحب أن أصور بيتي ويرى عاطف الصور.

ونزلت حورية واشترت أدوات تنظيف جديدة.

٥

تتكون شقة الدقي من غرفتين وصالة ومطبخ وحمَّام وبلكونة. منذ شقة السيدة، كان هذا أكبر مكان سكنته حرنكش، وربما كان هذا هو سبب تكاسلها الدائم عن التنظيف.

حتى في اليوم الذي رأت فيه برصًا يتمشى على الحائط، كان كل ما فعلته أنها قتلته بالشبشب ثم بدأت تنظف الحيطة، ثم ربَّعت أمام اللابتوب.

الآن، بعد أن داهمتها حمى النظافة، نجدها تنفض جميع المخدات، تضع الملابس في الغسالة، ومعها الملاءات وأغطية المخدات، تجاهد بمقشة طويلة لإزالة العناكب. تطارد عشش

الصراصير من وراء البوتاجاز، تكحت بقع الوساخة على الأرض بالديتول، تنظف حتى نقوش الشكمجية بقطنة مبللة، وتزيل التراب عن لوحة هند وبروازها. كثير وكثير من التراب تجمعه في كتل، والماء تدلقه على الأرض، والرائحة الحمضية تنتشر في الجو، وصوت منير ينبعث من التلفزيون، ازاي ترضيلي حبيبتي ومانتيش حاسة بطيبتي ازاي.

بينما الغسالة دائرة والمخدات عارية من أغطيتها، تجلس حورية على الفوتيه الأحمر، زاهي اللون الآن، وتمد رجليها وتقبضهما وتضع رجلًا على رجل وتنجعص داخل الفوتيه، ثم تقف وتصور بالموبايل كل زوايا البيت وترفع الصور على الفيس وتكتب تعليقًا، النضافة حلوة برضه. وتبحث عن وجه يتنفس الصعداء ترفقه مع تعليقها، ولما لا تجد تضع وجهًا يضحك.

٦

الذباب يفسد فرحتنا دائمًا.

بعد أن أغلقت الشبابيك وباب البلكونة، خوفًا من تسلل التراب وإفساده لوحتي الفنية الكبيرة، رأيت ذبابة تطير في الجو ثم تحط على الموبايل المتروك على ترابيزة الصالة، وتمضي تهز طيزها أمامي. أتيت بالمضرب ووضعته بجانبي في حالة استعداد. قلت سأضرب ضربة واحدة وتموت وأترك نفسي لأستمتع بجمال البيت وبرائحة

الديتول، وطارت الذبابة ثم عادت وحطت على خدي. هششتها بعيدًا، فطارت، ثم عادت مرة أخرى.

طيب، من عادت لم تكن نفس الذبابة، أدركتُ فجأة أنهما اثنتان. كانت هناك ذبابة على الترابيزة، وأخرى على خدي. والضربة التي أتوقعها أصبحت ضربتين. قررت التضحية بضرب الذبابة التي على خدي، والبدء بتلك التي على الترابيزة. أمسكت المضرب وحبست أنفاسي ومددت يدي ولكنها طارت قبل نزول المضرب على السطح الأملس. عادي، كل الناس، حتى الأشطر منهم، يخطئون التصويب أحيانًا. لم ألم نفسي كثيرًا.

ثم ظهرت الثالثة، كانت الأولى والثانية تدوران حول بعضهما في سماء الصالة. ترقصان وتئزان، وأضيفت إليهما ثالثة رأيتها تقف على الشباك. في الأول قلت في نفسي إنها ربما تكون واقفة خارج الزجاج، وبالتالي خارج البيت، وبالتالي لا حاجة لي لاصطيادها. ورددت على نفسي بأنها لو كانت تقف خارج الزجاج فعلًا لرأيت سيقانها ثم بطنها من ورائها، لأنها بالتأكيد تحتاج سطحًا لكي تتمشى عليه، ولكني أرى الآن ظهرها ثم سيقانها من خلفه.

هكذا تيقنت من وجود الذبابة الثالثة حولي في البيت. وتبقى التيقن إن لم تكن هناك واحدة رابعة.

فكرت ببساطة، إذا اكتشفت أن الذبابات تزيد عن ثلاث، فسأطفئ أنوار البيت وأفتح الشباك وأهشها بعيدًا بالفوطة باتجاه الشارع، كما كانت تفعل طنط سميحة. وإذا لم يزد، فسأستعمل مضرب الذباب. لذلك كان أهم شيء هو الاسترخاء وترك الوقت يمر.

فتحت الموبايل وتابعت اللايكات على صور البيت. ومن ضمنها كان لايك وتعليق من عاطف، قال فيه، البيت جميل جدًّا، فأرسلت له رسالة، طيب ما تيجي، فقال، أنا جاي.

قمت لأقلي بعضًا من بلح الشام لاستقبال عاطف. وفي المطبخ، أخذت قرارًا بأن عدد الذبابات الموجودة في الشقة الآن هو ثلاث فقط لا غير. الأولى اختفت ولم تعاود الظهور، والثانية ضربتها بينما كانت تقف على الرخامة ساعية للوصول إلى العسل في الطبق، والثالثة ضربتها على الشباك. ثبتت قليلًا ثم سقطت قتيلة تاركة أثرًا من دمها على الزجاج.

التقطتُّ الجثة بالمنديل ورميتها في الزبالة. قلت حلو، ذبابة واحدة في الشقة ليست مشكلة ولن يكون وجودها محسوسًا. الآن يأتي عاطف ويرى البيت نظيفًا كما لم يكن أبدًا.

٧

في هذا اليوم، سيقدر لحرنكش أن تعلم عاطف شرب الحشيش لأول مرة، وفي المقابل سيعطيها هو درسًا عن كيفية لف الجوينت.

جاء عاطف، وانبسط بألوان الشقة، وأعجبته لوحة هند المعلقة في أودة النوم، لوحة المرأة التي يسبح في شعرها الرجال. قال لها إن جواها فنانة كبيرة، فردت بأن من رسمتها واحدة صاحبتها، وستحكي له عنها يومًا ما. فور جلوسهما على الكنبة حاولت حك

جسمها في جسمه ولكن ذبابة ظلت تناوشها ضايقتها، وارتبك هو وارتبكت هي لكونها صاحبة المبادرة. وأرادت أن تداري ارتباكها، فقالت له تعال لأعلمك شيئًا جديدًا، وجلسا بجوار بعضهما وبدأت تلف سيجارة حشيش.

كان جنتلمان كعادته، لم يصدر ضدها أحكامًا، في الأول قال وماله، ثم قال هاتي نفسًا. وصحيح أنها كانت مرته الأولى، وصحيح أنه كح بشدة وهو يشرب، وصحيح أنها هي من كانت تقوم بدور الخبيرة، إلا أن لفتها للجوينت من اللحظة الأولى لم تعجبه، وفي الجوينت الثاني قال لها سأعلمك أنا شيئًا جديدًا، مضى يساوي كتلة التبغ في ورقة البفرة، حتى أعطاها سيجارة شديدة الدقة والتساوي. عدل نظارته وقال لها، أهم شيء الانضباط. ولم تفهم إن كان ما قاله نكتة.

كانت أول مرة يشرب، ولذلك كح كثيرًا، وانقطعت الكهرباء، نظر إليها وسألها بلا مقدمات، إنتي بتصنَّفي نفسك إنسانة سعيدة ولا تعيسة؟

ارتبكت ثم قالت تعيسة. قال، وأنا كمان تعيس، ولم يكمل.

توقعت طويلًا أن يكمل الجملة ولم يكمل. ولم تستطع التأكد من ملامح وجهه لأن الشقة كانت غارقة في الظلام. كانت المرة الأولى له التي يشرب فيها حشيشًا، ولذلك ربما أراد أن تمتلئ القعدة بالدراما قليلًا.

- طيب أنا عندي أسبابي، وانتَ؟

- إيه أسبابِك؟

ضحكت حرنكش عاليًا، وأخبرته إن عندها ابنًا توفي لو كان ناسيًا.

فغمغم ولم يرد إلا بعد دقيقة. قال إن ابن أخيه مات، وإن أخاه مات، وإن أمه ماتت، لو كانت ناسية.

- كل دا مابيعوضش فقد الابن على فكرة. دا أصعب حاجة في الوجود.

- ازاي؟ أنا كدا يبقى عندي تلاتة ماتوا. والتلاتة أكتر من الواحد طبعًا.

حاولت أن تخبره أن أكثر من واحد مات لها، وأن الموضوع ليس بالعدد، ولكن لسانها كان قد خمل قليلًا.

كان نور خافت يضيء الغرفة بين الحين والآخر، كان تلفونها يضيء كلما أتاها نوتيفيكيشن جديد على الصور التي وضعتها على الفيس. وبينما عاطف جثة ضخمة راقدة بجانبها، كانت مشغولة بوضع لايك على كل تعليق معجب يأتيها، إلى أن أتاها أول تعليق غير معجب. سألها أحدهم، مش اللوحة المتعلقة دي بتاعة هند سعودي؟ فردت بالإيجاب، هند سابتهالي قبل ما تستشهد.

التفتت إلى عاطف وقالت له إنه لن يصدق، جاءها حالًا تعليق بخصوص اللوحة التي أعجبته في أودة النوم.

- صدفة تضحَّك جدًّا، صح؟

عاطف من جانبه تململ جسمه قليلًا، فتح عينيه ثم سألها:

- انتي مثلًا تعرفي ان فيه جد من جدودي اسمه مصطفى؟

- لأ مااعرفش.

عاد إلى رقدته وقال بصوت خافت:

- معظم الناس مابيبقوش عارفين المعلومة دي.

كانت حرنكش تعي جيدًا أن عاطف ثقيل الدم. كانت تعي هذا وبشكل ما فهذا كان يطمئنها. ما حاجتنا إلى خفاف الدم إذا كانوا ينوون الغدر بنا؟ هل هناك من هو أخف دمًا من هند؟ وهل هناك من هو أكذب من هند؟

في الغالب يكون ثقيل الدم طيبًا، قالت حرنكش، شخصًا يمكن الوثوق فيه، حائط صد أمام صفعات الزمن، حتى وإن كان غير قابل أحيانًا للكلام معه، وإن كان يلقي الأوامر بلا انقطاع.

كشخص ثقيل الدم، لم يخيب عاطف أملها؛ وقف بجوارها في كل مشاكلها.

هذا شيء يشبه الفرق بين السباكة والنقاشة، هكذا تقول لنفسها، الشقة ذات النقاشة الجيدة لذيذة ومبهجة ولكن لا نثق فيها، والشقة ذات السباكة الجيدة نثق فيها مع أن منظرها يبعث الغم في القلب.

المصريون مثلًا يقولون «خفيف الدم» أي مرح، و«ثقيل الدم» أي كئيب، والخفة والثقل هنا لا يُحسبان بالوزن وإنما بالكثافة. دمه خفيف أي شديد السيولة، كأنه مخلوط بالماء، ودمه ثقيل يعني كثيف ومركز.

لا نثق في خفيف الدم، تهمس.

تأخذ المفارقة بعدًا آخر عندما يقول المصريون، بدون الإشارة إلى الدم هذه المرة، «شخص خفيف»، أي مطيور، أي تافه، و«شخص ثقيل»، أي محترم، صموت ومهيب. في جوهرهما، يتشارك الثقيل

وثقيل الدم في صفات كثيرة، مع أن الأولى للمدح والثانية للذم. وكذلك يتشارك الخفيف وخفيف الدم في صفات كثيرة، مع أن الأولى هنا للذم والثانية للمدح.

ولكن في هذه اللحظة، عندما رد عاطف على كلامها عن لوحة هند بأن حكى لها عن جده الذي اسمه مصطفى، سهمت قليلًا، ومن زاويتها على الكنبة بجواره، وفي ظل الدماغ التي عملتها معه، رأت رأسه نحيلًا وحزينًا. كأنه فقد خمسة كيلوجرامات من وزنه. كان عاطف يصبح أكثر وأكثر خفة، لا بمعنى خفة العقل، ولا بمعنى المرح، وإنما للحزن الذي اعترى وجهه للحظة سريعة، كأنه يعترف بانكسار طويل طالما أنكره.

نفضت رأسها ثم أطلقت ضحكة مسرسعة شديدة الصخب والعنف، وعندما لم تجد منه استجابة سوى مواصلته نظرته الحزينة لها، قربت وجهه من شفتيها بالعافية وطبعت عليه بوسة كبيرة وصاحت، لزمتها إيه بس الكآبة دي دلوقتي يا عطوفة؟

٩

التعليق الذي جاء حرنكش على اللوحة لم يمر بسلام. في صباح اليوم التالي، علق على بوستها عم ناجي، وكان اسمه على الفيس الظابط ناجي عبيد، سائلًا إياها، مش هند سعودي دي الشرموطة اللي الجيش فتحها؟

ارتبكت وفكرت في كذا رد عليه، ولما لم تجد ردًّا مناسبًا تركت التعليق، ولم تكن تعرف أنه سيكبر ككرة الثلج وسينفجر. دخل بعض المعلقين ليشتموه شتائم سافلة. نيران من الوساخات توجهت إلى عم ناجي على صفحتها، وأحست بحرج كبير. صحيح أنها قرفت كثيرًا من عم ناجي مؤخرًا، ولكنها قرفت أكثر من المستظرفين المتساخفين.

تعطلت تمامًا. لم تعرف ماذا تفعل.

بعدها بساعتين كلمها هو نفسه. قال لها أنا في التحرير دلوقتي. مستنيكي في العربية. إوصلي عند كنتاكي هتلاقيني هناك. عاوزك تكوني هنا ف خلال نص ساعة.

أخذت تاكسي ووجدته يجلس في عربيته اللادا البيضاء. دخلت فسألها لماذا تأخرت. قالت إنها جاءت في تاكسي. وسألها، تاكسي ليه، مش انتي ساكنة هنا؟ ولوى شفتيه قرفًا من الكذب، من كذب كل العالم.

لأيام طويلة سابقة، فكرت حرنكش أن تكلمه، أن تسأله عن قصة أمها، وأعدت في رأسها سيناريوهات تخيلت فيها كيف تبدأ. وعطلها شعورها بالقرف منه. والآن، عندما رأته مكفهرًّا هكذا تلبشت. أدار السيارة فور ما دخلت وسألها انتي تعرفي هند سعودي؟ لم تستطع الكذب. قال إن هند شرموطة، تشتم الجيش والشرطة، وإنها شتمت مرة لواء في القوات الخاصة كان يعرفه منذ كان عقيدًا، اللوا سمير عجة، واحد من أجدع الناس الذين عرفهم في حياته، أنا مقدرش اقول لك هو خدمني قد إيه، مقدرش أقول لك هو خدم كل الناس اللي اعرفهم قد إيه، أبوكي يعرفه كويس أوي ويحكيلك عليه كويس

أوي. إنسان محترم، قالها بصوت خفيض، ثم نظر إليها وقال، لأ، مش إنسان محترم، إنسان نبي، هو كدا، إنسان نبي.

فإذن دلوقتي، هل تيجي واحدة زي دي، جاهلة زي دي، وضيعة زي دي، تشتمه؟ طب انتي واحدة شرموطة متعرفيش حاجة، بتشتمي ليه في الراجل دا؟ ماتخليكي في الناس اللي تعرفيها، في اصحابك الجرابيع تشتميها، إنما مالك ومال الناس المحترمة دي؟

وأضاف، شوفيه عالإنترنت المشهد دا، اسمه هند سعودي تهدد ضباط كشوف العذرية، كشوف عذرية قال، شيء قذر حقيقي.

إوعي تفتكري إني زعلان علشان شوية اصحابك الخولات شتموني على الفيسبوك. أنا زعلان على الراجل المحترم دا. لإني قعدت أفكر، طيب إذا كان الراجل العظيم دا بيتهان كدا، وولاده يتهانوا كدا، يبقى إيه معنى الحياة مثلًا؟

عند تساؤله عن معنى الحياة سكت قليلًا. سكت كثيرًا. بعد دقائق تمتم بينه وبين نفسه، أستغفر الله العظيم. ثم التفت إليها وقال، انتي كمان ما تتصوريش أنا زعلت قد إيه إنك تعرفي البت دي، أنا مش عاوزك تفضلي ساكنة هناك في التحرير، أنا عاوزك تيجي تعيشي معايا، أنا بخاف عليكي، وبخاف يحصلك، لا قدَّر الله، حاجة وحشة.

قالت إن هند ماتت خلاص، فرد أنها إن ماتت فهناك غيرها، هم لا ينتهون، كإنهم بيبيضوا.

ونزلا من العربية في باب اللوق. قرر أن يعزمها على فطير هناك. دخلا مطعمًا باسم «فطير الثورة»، وكان مكتوبًا تحت اسمه «فاطر السماوات والأرض»، وكان الرجل يقف على نصبته يفرد العجينة

بالنشابة ثم يطيرها في الهواء. وتساءلت حورية ماذا لو كان الله فطر السماوات والأرض مثل هذا الفطاطري، مثل هذا الساحر، شكَّل العالم بيديه ثم أطلقه في الفضاء.

جلسا وطلبت فطيرة بالسجق وطلب فطيرة مشكل لحوم. واستأذن الرجل ليصلي وترك ابنته الصغيرة، ١٣ أو ١٤ سنة، تعد لهما الوجبة. وجاءت وطلبت من ناجي أن يفتح لها علبة البيفي. ونظر ناجي إلى حرنكش وضحكا بشدة أثناء فتح العلبة. سألها، فاكرة؟ فقالت فاكرة.

كانت هذه هي اللحظة التي انكسرت فيها حدة اللقاء.

أبوكي كان بيقفش على حاجات ماتستاهلش. كان طبعه كدا. ياما قلتله بالراحة يا اسماعيل. يسترجع عم ناجي الذكريات وهو يكور لقمة الفطير ويحدفها في فمه، وانتي طالعة لابوكي كمان خلي بالك.

١٠

كان الأب، إسماعيل عبد المولى، مع بنته وحدهما في البيت عندما قرر أن يخترع لها وجبة فول بالسردين ليتعشيا بها. وأثناء محاولته فتح علبة السردين بالمفتاح انقطم المفتاح، وبدا أن محتوى العلبة، السردين العائم وسط الماء، قد ضاع إلى الأبد بالداخل. إلا أن الأب، الذي لا ييأس ولا يتسامح، أتى بشاكوش ومسمار ومضى يدق المسمار في سطح العلبة دقات كثيرة يطرطش مع كل منها الماء من قلب العلبة، ثم أتى بسكينة حامية ومضى يصل بين الثقوب على

السطح، حتى انفتحت العلبة وخرجت السردينات، حشرات فضية لامعة وسمينة.

في اليوم التالي كان عم ناجي عندهم. حكت له البنت هذا، فضحك كثيرًا ومضى يريها كيف تُفتح علبة السردين، كدا، وزَّعي الضغط بين صوابعك والمفتاح، بالراحة، ماتتعافيش على المفتاح. كان يقول لها هذا وكان ينظر بطرف عينه إلى إسماعيل، كأنه يعلمه هو أيضًا.

كان هذا هو أصل النكتة المتبادلة بين حرنكش وعم ناجي. ولكن الحقيقة كانت لها تجليات أخرى.

لسنوات طويلة، ظلت حرنكش عاجزة عن تسمية الشخص الذي يلاحقها، ومارست تمرينات مرهقة من أجل دفع نفسها لمواصلة العجز عن تسميته.

حكت أمام مرآتها عن الحشيش، كيف أنها، عندما تنام، الأدق قبل أن تروح في النوم، وهي محششة، تغمرها كآبة لا مخرج منها، ترى كل حياتها سوادًا بلا أمل، مع الوقت والتكرار كانت تقول، هأنذا أخرج من عالمي وأدخل عالمه. وكانت تكره نفسها وحياتها وكان ينظر إليها ويغمز لها ويقول لها، تعالي هنا، وكان قبيحًا، أو أن هذا كان مركبًا، يكون في الأول قبيحًا قبحًا حلوًا ثم يصبح بعدها حلوًا حلاوة قبيحة. يبدأ في التحول بالتدريج، من أول بدء حرنكش في الانتباه له، ثم وهي تفهم كل مرة شيئًا جديدًا عنه. سألت حرنكش صورتها في المرآة، صح؟ أليس هذا ما يحدث؟ ونظرت إليها صورتها بحنان، مؤمنة على كلامها.

أسرَّت حرنكش للمرآة أنه يخيفها وأنها ليست متأكدة من ملامحه

مئة في المئة. أحيانًا يبدو كعم ناجي، وأحيانًا مثل هند، وأحيانًا مثل أمها وأحيانًا مثل حسين عبد الرحيم شحاتة، أحيانًا، طبعًا، مثل هيثم، أحيانًا مثل قمر، وأحيانًا مثل طنط ما تجلس على كرسي بعجل ولا ترغب سوى أن يغرق العالم كله في السواد الغارقة هي فيه. في كل هذا تاهت الأسماء، لم تعرف كيف تناديه. كانت تعوزها الكلمات. كانت تقول لنفسها «هو»، ثم بدأت تتحول إلى صيغة الجمع وتقول «هم»، كل هذا لتجبر نفسها على تجنب النطق باسمه، أي بالاسم الذي كان محشورًا في زورها طول الوقت وعلى أهبة الانطلاق. كانت تشيح برأسها، أو تهزه هزًّا عنيفًا، أو تئز أزيزًا متواصلًا يغطي على صوت أفكارها، أو تعلي صوت الموسيقى في أذنها إلى أقصى حد، وكان هذا ضاغطًا ومتعبًا.

الأب علَّم حرنكش العند، ولكن إلى أي مدى يمكن لهذا أن يستمر؟ فجأة تنهار الدفاعات ويُغرق الطوفان كل شيء ونرتاح.

بعد انكسار موجة العند الأولى، بعد أن نطقت باسم الشيطان لأول مرة، هجمت موجة ثانية.

في يوم إعلان نتيجة الانتخابات، وكانت حرنكش قد تطبعت على اسمه خلاص، سألها محمود في الميدان كيف تفكر في القضاء عليه، بالسم أم الرصاص، وقالت بالسم. ولكن على آخر الليل، وهما الاثنان في شقة الدقي يحتفلان بمعرفة عدوهما، وبالتالي بمعرفة ذاتهما، ثار الجدال مرة أخرى، وغيرت رأيها وأعلنت أمام ابنها أنها تفضل الرصاص.

كانت لكل منهما حجته. كانت تتكلم بوصفها القناصة القديمة، قناصة الأطباق البلاستيكية الطائرة، وهو كان يسعى للإنجاز السريع. السم بيخلَّص يا مامي. لو مشيتي تضربي نار عليهم كلهم مش

هتخلصي. لم تستطع كتمان شعورها بعدم الارتياح. قالت له إنه يعرف كم تحبه وكم تقدره وكم يصعب عليها أن تكسر بخاطره، ولكن موضوع السم هذا صعب جدًّا، بصراحة يا محمود، مش مرتاحاله خالص، وفيه احتمال كمان ياخد ناس مالهاش ذنب.

قال محمود:

- انتي شكلك قفشتي على فكرة.

ردت حورية قاطعة الجدل، بنبرة متوسلة ولكن حاسمة:

- سيبني كدا عشان خاطري. احنا متفقين في حاجات كتير. مفيهاش حاجة لو اختلفنا في حاجة.

من كان الصح هنا؟ حورية أم ابنها؟ لا أحد يعرف، لا أحد يملك دليلًا موثقًا، لأن التاريخ لا يظهر في نهاية المطاف ويقول لفلان أنت صح ويقول لفلان أنت غلط.

مشَّت حرنكش ما في رأسها، وحتى النهاية، حتى نهاية النهاية من قصتنا هذه، ستظل حرنكش تمشي ما في رأسها، توحد التكنيك وتقفش على أشياء يعتقد البعض أنها لا تستاهل.

ولهذا ارتعشت عندما أخبرها عم ناجي أنها طالعة لأبيها.

١١

كانت هذه فرصتي، عندما أخبرني عم ناجي أني طالعة لأبي، أن أسأله عن الحقيقة، حقيقة أبي، حقيقته هو، وحقيقتي أنا.

كان يأكل واقفًا أمامي. باريَّح طيزي شوية، قال. وأعطاه هذا أحيانًا سمت المحاضِر وأحيانًا سمت المصلوب المعترف بخطاياه.

سألته، أبويا؟ فتوقفت لقمة الفطير قبل أن تصل فمه. قال، آه أبوكي. إيه مالك؟ ثم كأنه غيَّر الموضوع، منشفة دماغك ومش عاجبك كلام حد. بقالي قد إيه بقولك تعالي اقعدي معايا في المرج وانتي مش عاجبك كلامي؟ شاور لي بإصبعه من فوق، من حيث يقف.

لا أنا مش بسأل على دا. وتوقفت برهة، وتوقفت برهتين، ونفضت رأسي، ونطقت بكلمات مبتورة، وهو ينظر إليَّ بعينين نفاذتين، كأنه يريد معرفة كيف سأصوغها.

ولكني صغتها. بعد تردد طويل دلقت ما بجوفي.

- إنت عارف ماما كانت بتقول إيه قبل ما تموت؟

- إيه؟

- إنت عارف يا عم ناجي.

استسلم:

- طيب لنفرض جدلًا، بس انتي مالك ومال الكلام دا؟ دا كلام مش صح.

- لأ صح!

قلتها وأنا أنظر مباشرة في عينيه. لم أكن أعرف، ولكني أردت اختبار وقع نظراتي عليه.

- لأ مش صح يا حورية، وبطلي تلعبي معايا. انا هنا بس اللي اعرف الصح واللي مش صح. أمك ماتت وابوكي مات وأنا بس اللي عايش. خليكي مؤدبة معايا أحسنلك!

كان بدأ يتنرفز. استغللت هذا فرققت نظرتي، طيب إيه الصح؟

لست متأكدة من التواريخ، ولكن يبدو لي أنه منذ سهرتي مع محمود في البيت، بينما نحن نتناقش بخصوص الشيطان وكيفية القضاء عليه، وأنا لا أخاف من المواجهة. بدا الأمر كأني طورت قدرة خاصة، كأني جمدت قلبي. ولكن للحق، على الناحية الثانية، كان هذا موجودًا عندي طول الوقت أيضًا. صحيح أني أسكت كثيرًا، ولكن بين الحين والآخر أنطق الكلمة المحشورة ولا أخاف. في الماضي كان هذا يحدث كل سنتين أو ثلاث، الآن تسارع المعدل. الآن أنا فخورة بنفسي أكثر.

ما حكاه ناجي كان صعبًا، كسر قلبي، ولكن لم أندم أني فتحت الموضوع. هذا أفضل من الحيرة عمومًا. يقول محمود إن الثورة جميلة لأنها جعلت الجميع يتكلم، حتى لو كان كلامهم قبيحًا.

أنا لا أزال ابنة المقدم إسماعيل عبد المولى، أشار عم ناجي إلى قطعة الفطير وحلف، والنعمة دي، ثم أخرج من جيب قميصه مصحفًا صغيرًا، ولا اقول لك، والقرآن دا.

أنا مش هكدب عليكي. مش هقولك ان مفيش حاجة كانت بيني وبين امك. لأ، كان فيه. احنا كنا صغيرين، وانتي كبيرة دلوقتي وهتفهمي. ومال على الطاولة مستندًا بيديه عليها، ليتمكن من الهمس براحته.

صحيح ناجي عمل مع ماما، ولكن من برا، هذا ملخص القصة.

أكتر من كدا، أنا اللي ابتديت. هي صحيح طاوعتني، لكن أنا اللي ابتديت. ولم يحدث حَمْل، هو يعرف ماذا فعل، كان سهلًا أن يقول

وماله ويالللا والست اهي معاك ومش هيحصل حاجة، لكن ضميره صحي، قال خليها كدا طياري طياري.

أنا مش وحش يا حورية. بس الشيطان شاطر. الشيطان وحش أوي. ربنا يسامحه بقى. انتي ماكانش لازم تعرفي حاجة عن دي، ولا ابوكي كان لازم يعرف. ليه هي عملت كدا؟ ومسح دمعة غارقة في شعرات شنبه.

أبوكي سألني وحكيتله عاللي بقوله لك دلوقتي. من ساعتها ماتكلمناش، الله يرحمه، ويرحمني كمان.

كان يشعر بنفسه صغيرًا وهو يحكي لي، وأنا شعرت به صغيرًا أيضًا. بدأت دموعه تنزل على اللحم المفروم، قاطعة طريقها من فوق إلى تحت، فتغمره بالملوحة، وتوقف عن محاولة إيقافها. وأحسست بنظرات البنت التي تعمل في المحل مثبتة في ظهري. وهو أمامي لا يرى شيئًا. فقط يسحُّ بالدموع ويقول أنا آسف.

حدث هذا في الأشهر الأولى للزواج، مرتين أو ثلاثًا ربما، وفي كل المرات طلبت أمها منه ألا يُدخله. هو يذكر هذا جيدًا. وهي، كيف نسيت هي شيئًا كهذا؟ كيف نسيت أنها كانت تعتذر له بعدما يخلصان؟ كيف نسيت أنها كانت تطلب منه مسامحتها لأنها لم تتركه ينبسط للنهاية؟

أنا عاوزك تكوني فاهماني. أنا بحكيلك اللي حصل، أنا مش عاوزك تسامحيني، مش مهم تسامحيني، أنا عاوز اقول لك انا آسف، وتقبلي أو ماتقبليش دي حاجة ترجعلك انتي. بس انتي لازم تبقي عارفة ان محدش يقدر يقولك تلت التلاتة كام على ابوكي.

كان يشهق ويبربر وهو يقول أنا آسف.

أنا أحب عم ناجي، وأنا متصالحة معه، وأنا أسامحه، مقابل ألا يبكي الآن.

ونحن خارجان لاحظت أن القميص الذي يرتديه متهدل عليه. سألته منذ متى لم يلبسه، بالأصح منذ متى لم يخرج من البيت، فابتسم وقال ماتعِدِّيش.

وطلب أن يوصلني حتى البيت، ولم أكن أريده أن يوصلني، لأنني لم أكن أريده أن يعرف البيت. ولكن قلت ياللا. خفت أن أكسر بخاطره. ووصلني ونزلني. وطبطبت على رجله وهو سائق. الحمد لله على كل شيء.

طلعت إلى البيت. وبعدها بساعتين جاءني تلفون، واحد من الأولاد الذين يعملون عنده أخبرني أنه انتحر. أطلق رصاصة على رأسه ووقع في الحديقة، وروت دماؤه الزرع والطين.

بكيت كثيرًا ليلتها، وقرأت قرآنًا كثيرًا على روحه.

اعتصر قلبي موتك يا عم ناجي. أنا أحبك وأحب من يحبك. ولكن الخائن يموت. الخائن يذهب بعيدًا. ليس بإرادتي وإنما هي القوانين التي تمشِّينا. اذهب الآن، بقميص كالح ومصابًا بالبواسير ولك قلب أبيض من الثلج. لا تحمل ضغينة ضدي ولا أحمل ضغينة ضدك. أنا أحبك وأحترمك وأقدرك وأوقرك كما كنت في الأول وأكثر. أهديك حضنًا ووردة. لروحك الطائرة ألف سلام.

كان صوت الشيخ في العزاء منسابًا كمركب يتهادى في النيل، بلا مفاجآت ولا طموحات. كان عاديًا مثل مركب في النيل، وأراحني هذا للغاية.

الست التي رأيتها عند عم ناجي من قبل هي من دبرت أمر العزاء. قالت أحبابه سيزورون أهله في كوم إمبو، ولكن أحبابه هنا من لهم؟ وكيف سيسمعون قرآنًا على روحه؟ وقررت إقامة عزاء آخر في المرج حيث أقام لعقود.

أحبابه هنا لم يكونوا كثيرين. لم أرَ سوى أربع أو خمس نساء، ولم أعرفهن.

كانت له زوجة في البلد لم نعرف عنها شيئًا. لم ترتبط رؤيته لدينا بأي شخص آخر. ظل ذئبًا بشريًّا متوحدًا يجول في حياتنا وله مكان لا يشاركه فيه أحد. في فيلته بالمرج، بالحديقة التي حولها، يزرع زرعته ويشوي لحمته. عرف الدنيا كلها في شبابه ولم يعد أحد يسأل عنه عندما كبر.

كانت الست هي من تستقبل المعزين. عرفتني فور ما رأتني وحضنتني، وبين الحين والآخر كانت تأتي لتجلس جنبي، تطبطب على فخذي وتقول، ربنا يباركلك يا حبيبتي. لم تصدق أني جئت. له ابن في السعودية والتاني في الكويت، ما كلفوش خاطرهم ييجوا عشانه.

فكرت في الوحدة المطلقة التي عانى منها عم ناجي. وفي ظل تصالحي مع القرآن الشغال وجدت نفسي متصالحة معها أكثر من أي وقت مضى.

يبدو لي أن عم ناجي كان هو الرجل المثالي بالنسبة إليَّ. لم يكن

أبًا، أنا اخترت أن أكون ابنة أبي، وإنما كل ما في الأمر أني لو كنت رجلًا لاخترت أن أكون عم ناجي.

١٣

لم تساعدني الظروف على تقديم عم ناجي لمحمود، وإن رغبت في هذا كثيرًا.

كنت أحيانًا أحكي عنه واصفة إياه، واحد صاحب جدك. ولا أضيف. ولهذا لم أتوقع رؤية محمود في العزاء.

حضنته وبوسته وشكرته لمجيئه فقال بابتسامة، مش انا الراجل بتاعك دلوقتي؟ مش انا اللي لازم اوصلك البيت؟

وتمشينا معًا باتجاه مترو المرج. ركبنا المترو وكان خاليًا لحسن الحظ. جلسنا معًا متجاورين.

جفناه كانا مسودَّين جدًّا. سألته فقال إنه الأرق. لم ينم من زمان، ربما من آخر مرة تقابلنا فيها في ميدان التحرير، لأسابيع طويلة لم ينم. كل ما باجي أنام بافتكر الحاجات الوحشة اللي في حياتي، واقول طيب خلاص مش هنام الليلة وهأجلها لبكرة، وبكرة نفس الحكاية، وبعد بكرة نفس الحكاية. لغاية ما الموضوع بقى عادة.

أصلًا يا محمود انت كنت البيبي الوحيد ف العالم اللي من وهو عنده يوم واحد بينام الليل كله، ستاشر ساعة متواصلة، وتيجي دلوقتي تقولي مش عارف انام؟ وضحكت وأنا أحضن كفه بحب.

حكيت له كثيرًا عن عم ناجي. ما الذي مثَّله لي وما الذي كنت أمثله له. وأخذت أحكي وأحكي، حكايات من الطفولة والمراهقة. وأخذنا الكلام لدرجة أننا نسينا النزول في التحرير، ومضى المترو قاطعًا السيدة والملك الصالح والمعادي، وأنا أتكلم بلا انقطاع، أقلد صوت عم ناجي وأسرد نكته وأخفض صوتي عندما أستعير ألفاظه، ونضحك معًا.

عند ثكنات المعادي قررنا النزول وركوب الخط العكسي رجوعًا. وتوقف الكلام لخمس دقائق ونحن في انتظار المترو، وجاء وركبنا عائدين، وكانت العربة أكثر ازدحامًا من المرة السابقة، فاضطررنا للوقوف. مد يده ليمسك بالحلقة البلاستيكية المعلقة فوق، وأنا تشبثت بذراعه. واستأنفت الكلام، ولكن عن وحدته هذه المرة. كيف أنه، شيئًا فشيئًا، بدأ يتضح لي أنه كان وحيدًا أكثر من أي شخص آخر. لغته ومنطقه ونكاته، كلها تنبئ بوحشة فظيعة، كأنه لم يعرف الحضارة ولا اجتماع الناس يومًا.

- تفتكري كان بيحب حد من قلبه؟
- كان بيحب جدك. دا أكيد.
- بس كدا؟

فكرت قليلًا ثم قفز إلى ذهني اسم اللوا سمير عجة، كيف كلمني عنه بحب لم أره من قبل أبدًا، لا لديه ولا لدى شخص آخر، حب مقدس من رجل لرجل. أخرج محمود الموبايل وبدأ في البحث عن اسمه، وكان من ضمن النتائج فيديو هند سعودي وهي تشتم اللوا سمير عجة.

افتحه، أمرته.

وضع سماعة في أذني والأخرى في أذنه، شغَّل الفيديو وشاهدناه واقفين في عربة المترو.

كان الفيديو قبيحًا جدًّا، لدرجة أني بعد انتهائه انقلبت بطني وفقدت النطق.

وطلعنا من المترو في محطة السادات. كان سيروِّح وأنا كنت سآخذ تاكسي إلى الدقي. وأثناء ما كان ينتظر معي التاكسي الذي سينقلني إلى البيت سألته:

ـ تفتكر انا اللي قتلت هند يا محمود؟

ـ أيوه يا مامي. قتلتيها عشان كانت تستاهل.

قالها بسرعة وكأنه توقَّع السؤال مطولًا.

ـ تفتكر ليه هند كانت تستاهل؟

كنت أعرف، أو كنت قريبة من المعرفة، ولكن أردت أن أسمع رأيه.

لم يرد عليَّ، ولكن قبل أن أركب التاكسي هتف، هبقى افكَّر في الموضوع دا واقول لك، وعد مني.

طيرت له بوسة في الهواء وركبت.

١٤

بداية، منذ نزل الإنسان الأول مصر، كان النيل أكثر ما يغري بالإقامة حوله. لم يكن الإنسان الأول وحيدًا في هذا، وإنما صاحبته مجموعات من البشر الأوائل على وجه اليقين، تزوجوا وتناسلوا

وأنجبوا أجيالًا أخرى. لم يكن اسم مصر قد ظهر بعد، ولا اسم النيل. في الغالب قال الناس لبعضهم، هيا بنا نسكن جنب الماء.

لاحقًا، بين جميع الأجيال التي سكنت مصر ترددت همسة سحرية، لا تترك النيل. دارت الهمسة وردتها كل الأجيال بصوت منخفض.

من يخرج من على جانبي النيل يُنبذ، يُطرد من الجماعة. قد يقال إنه مصري في نشرات الأخبار والتوك شوز، ولكننا نعرف بيننا أن هذا غلط. كانت الهمسة فعالة فيما بين المصريين وبعضهم، لا يصرحون بها علنًا، ولكن يعرفونها. كانت شديدة الدقة والفعالية والحرص على ألا تُسمع عاليًا.

لقطت حورية الهمسة أيضًا. منذ ولدت لم تبارح ضفتي النهر أبدًا. من المنيرة إلى المنيل إلى السيدة إلى وسط البلد إلى القصر العيني إلى الدقي. ظل منظر النهر يخايلها كلما راحت أو أتت، استأنست به وحنت عليه وشكت له همها.

ولكن في هذه الأيام، بينما قنابل الغاز تقتحم بيتها في الدقي، وعصابات الإخوان تدور في الأحياء المحيطة، وعاطف يصارحها أن الأفضل دائمًا أن يتقابلا في العيادة عنده، وليس عندها في الدقي، تفكر حورية أنها لم تعد تحب شقة الدقي، وتبدأ التفكير في المقطم لأول مرة في حياتها. هناك حيث ستتمكن من رؤية كل حياتها من فوق.

حلمت ببيت في الطابق الأرضي في المقطم بجنينة كبيرة وتشرق عليها الشمس وهي تشوي الكبدة وتستقبل ضيوفها القلائل، شيء على غرار عم ناجي في المرج.

هل توقفت وقتها عن سماع الهمسة؟

تذكر حرنكش جيدًا أيام البلاعة. عندما مات صبحي وقضت أيامها برفقة طفل لا يتكلم، وأب يأخذ في المرض وتملأ رائحة فسائه الغرفة. تذكر كيف صارت ترتفع من قلب البلاعة بالتدريج. منذ قابلت كمال، منذ مد يده إليها ليُصعدها من تحت، ويفرجها على الشوارع المشمسة ويعرفها على عاطف الذي يكمل معها المشوار.

صحيح أنها ظلت تمشي في طرقها المحفوفة بالموت، ولكن بين الحين والآخر كانت تسترق النظر إلى الحدائق والزرع والشمس الكبيرة، وكانت تعرف أن هذا الطريق سيوصلها إلى ذاك في نهاية المطاف.

كان صعودها المقطم يبدأ من رؤيتها للقلعة وجامع محمد علي، من ظهور المئذنتين كقلمي رصاص بحلمتين مدببتين، وينتهي بالمشهد نفسه، تطالعه وهي في الكرسي الخلفي من التاكسي، والدنيا ظلام. ترى الجامع مضيئًا وملونًا هذه المرة.

لم تتوقف القلعة أبدًا، حتى في أيام الضرب والمظاهرات، عن أن تكون مضيئة.

تكررت زيارات حرنكش لعاطف، بعد أن كانت تفعلها مرة كل أسبوع، أصبحت تفعلها مرتين، ثم ثلاث مرات في الأسبوع، وفور ما ترى القلعة تطل من فوق يبتهج قلبها، كأنها نجحت الآن فقط في الهروب من البيت. في كل مرة تطلع فيها الجبل في التاكسي تحس بأن أثقالًا ضخمة انزاحت من على عنقها، كأنها أصبحت قادرة أخيرًا على الطيران. وفي اليوم الذي طلبت فيه من عاطف

أن يبحث لها عن شقة في المقطم بجانب عيادته كانت قد اتخذت قرارها بلا رجعة.

البلاعة تبلعنا. والشاطر من يطلع فوق، كانت تردد.

١٥

بعد موت الأم بشهرين، وفي خضم خناقة حدثت بينها وبين طنط سميحة، وربما تأثرًا بمشهد من فيلم أو مسلسل، أعلنت حرنكش الغاضبة، التي تبلغ عشرين عامًا وتعيش مع أبيها ومراته، أنها تريد زيارة قبر أمها. شخطت فيها سميحة، روحيلها، مانتي زيها. تسمرت البنت، أرادت القول إنها ليست زيها، ولكنها عدلت عن القرار في اللحظة نفسها. قالت بوجه متصلب، أيوه، أنا زيها.

أخذت البنت التلفون وكلمت خالتها، امرأة تكبر أمها بخمس سنوات اسمها فاتن. وقالت لها أنا عاوزة اروح ازور أمي وأنا حلمت بها وأشياء كهذه. قالت لها الخالة تعالي نروح. ونزلتا وقادت الخالة السيارة إلى الدرَّاسة. وهناك ترجلتا ومرتا على كل التربية والحانوتية والشحاذين، وسألوا الخالة مين الآنسة؟ فقالت إنها بنت الراحلة.

وبينما الخالة تجلس بالداخل تقرأ القرآن، كان قلب حرنكش منقبضًا. لم تجرؤ حتى على مخاطبة أمها بشكل مباشر. كل ما استطاعته كان مخاطبة الله، ارحمها واغفر لها يا رب. وسكتت ولم تعد تعرف ماذا تفعل بوقفتها ولا بجسمها، فأعطتها الخالة أقراص

شوريك وجنيهات ورقية وقالت لها اذهبي وزعيها على الغلابة هنا. وأمسكت بها ودارت على التربية المتوزعين على باب المدفن، وكانت معها ورقة بخمسة جنيهات أعطتها للتربي المسؤول عن مدفن أمها وجلست معه ومع زوجته التي كانت ترضع طفلتها الصغيرة.

نصحها التربي بأن تظهر أكثر، حتى يعرفها الجميع هنا، فلو حدث شيء لا قدر الله يكون الجميع قد عرفوا أن التربة تربتها. سألته ازاي بتستحملوا المكان الكئيب دا؟ فقال لها إنهم يتونسون بالقرآن وأنفاس الموتى، وإنه ليس صحيحًا أن المكان يخوِّف، لأنه طول الوقت تظهر علامة من ربنا على أن الإنسان الراحل كان إنسانًا طيبًا، وضرب مثلًا لها بأمها. وصلت الأم المدفن منذ شهرين، وفي اليوم نفسه الذي وصلت فيه جاء الطلق لزوجته وولدت ابنته الأولى. أمك اسمها إيه؟ سألها فترددت ثم قالت، سكينة. فقال لها، أهو البت انا سميتها سكينة. وأشار إلى الطفلة الصغيرة على حجر زوجته. أمك وصلت من هنا والبت جت من هنا. وهنا التي قالها أشار إليها بيديه الاثنتين، واحدة للقبر والثانية لكس زوجته.

هذا يحدث عادة، يقضي الزوجان فترة الحمل وهما يختاران الأسماء، وفجأة، يظهر من اللامكان اسم جديد، فيختارانه ويعتبرانه علامة من عند الله. ولو كانت كل الأسماء علامات، لامتلأ العالم بالعلامات، ونبتت بدلًا من الحروب البشرية حروب أخرى، بين علامات وعلامات، ويتصارع أصحاب العلامات مع أصحاب العلامات صراعًا لا إجابة له، لأن إجابته مدونة في اللوح المحفوظ الذي لم يقرأه أحد.

التربي كانت لديه قصة أخرى، قصة عن الأصوات التي يسمعها بالليل وهو مار بجانب قبر الأم، ووُعد برزق كثير، وعقد عمل في السعودية أتاه من أسبوعين ولم يسع له ولم يبحث عنه. وتدخلت الزوجة في الحوار. قالت، كل اللي بييجوا يزوروا امك بيشكروا فيها جامد والله. ربنا محبب فيها عبيده عالآخر.

ولكن حرنكش ظلت منقبضة حتى بعد أن روحت البيت. لم تستطع تجاهل شعورها بالانقباض. وظلت طنط سميحة تتجاهلها ليومين متتاليين، لم تسألها ماذا فعلت، كأنها خافت من الإجابة. وحرنكش لم تتكلم أيضًا.

لم يعرف الأب بهذه الزيارة. فقط بعد أسبوع ذكرت حرنكش اسم خالتها فاتن وسألها الأب أين رأتها، فحكت له، واسترسلت البنت واخترعت، القبر كان مضيئًا من الداخل، ورائحة حلوة تصدر منه. وأُخذ الأب، لم ينطق إلا بعد دقائق. قال، ربنا يرحمنا برحمته.

١٦

لأيام طويلة، ومرة وراء مرة، ظلت حرنكش تشاهد فيديو هند سعودي وهي تشتم اللوا سمير عجة، وتمتلئ بالغضب على صديقة عمرها.

بقميص أصفر نصف كم، بشعر برتقالي، بوجه مليء بالنمش، وقفت هند في ميدان التحرير، يظهر من خلفها المتحف المصري.

تقول وتصيح ويتحشرج صوتها بالغضب ويتطاير رذاذ التفافة من شفتيها.

أنا عاوزة اقول للوا سمير عجة ان مش كل ظابط مراته مدياه بالشبشب عشان ماعرفش يُظبُطها يقوم جاي يطلَّع غله في بنات محبوسين قدامه ويعملهم كشوف عذرية، لا يا أفندم، لا ياللي المفروض بتحمينا. الجيش المفروض يدافع عن بنات بلده، مش يعملهم كشوف عذرية. لكن احنا وراك والزمن طويل، أيوه بنهتف ضد العسكر، يسقط يسقط حكم العسكر.

إذا كانت هناك صفة يمكن وصف هند بها، وحرنكش تعرف هذا جيدًا من تعاملها معها، فهي البرود، البرود المرح، البرود النزق، البرود الثوري، ولكنه دائمًا أبدًا برود. يتمثل برود هند في البوسة التي تطير في الهواء. تعلمتها حرنكش منها، وصارت بديلًا لها عن البوسة الحقيقية. تلصق حرنكش الأصابع الأربعة، مستثنية الإبهام، بشفتيها، تبوسهم، تنفخ فيهم، تُصعدهم من تحت لفوق، ثم تمدهم لمحدثها، فتطير البوسة مخترقة المسافات.

في منتصف الفيديو بدا أن هند رأت صديقًا لها في ميدان التحرير، فطيرت له بوسة وهي تضحك. ثم عادت لخطبتها الغاضبة ضد سيادة اللواء. ونثرت التفافة وانتفخت عروقها بالغضب وكل شيء.

هند بتمثل، أنا عارفة دا. قالتها حرنكش وهي تشاهد الفيديو للمرة المليون.

في كل مرة كانت تشاهد فيها الفيديو كانت تحس بغثيان، كأنها على وشك التقيؤ. ولكنها في المقابل انهوست بهند. كأنها تسعى

لكتابة مقال عنها وتجمع مادته الآن، وبالفعل، جلست وكتبت على الفيس، ثم محت. فاشترت كراسة وبدأت في تسجيل ملاحظاتها على هند، شيء على غرار: أنا رأيي في هند كذا وكذا والأسباب التي لديَّ هي كذا وكذا.

على صعيد آخر، فهي لم تر محمود منذ أن تقابلا عائدين من عزاء عم ناجي، ولكنها كانت تثق أنه يجلس تحت عمود النور في الشارع يذاكر شخصية هند هو الآخر، يفتح السمارت فون ويقلب في كل صورها وبوستاتها عساه يفهم شيئًا ولو بسيطًا عنها. كانت تثق أنه يكتب ويمحو هو الآخر. وأرادت أن تسبقه.

ـ هل بإمكانك أن تسبقي محمود؟

ـ أيوه، لديَّ ما ليس لدى محمود، لديَّ قمر.

كانت تثق أن محمود، على كل ذكائه، على كل شطارته، بل وعلى كل قدراته السحرية أيضًا، لا علاقة له بقمر. هو يخاف من الاقتراب منها، قالت، قمر لي وحدي.

تساءلت في نفسها عن سبب زعلها من قمر ولم تتذكر. قالت أنا رأيتها مرة واحدة، في عزاء هند، وكانت تلبس فستانًا أسود قصيرًا، هل زعلت أنها لم تراعِ العزاء ولبست فستانًا قصيرًا؟ كل كلامنا الآخر كان على الشات، فهل زعلت لأنها، عوضًا عن قول الأشياء المهمة، كانت ترسل إليَّ ابتسامات ووجوهًا تخرج ألسنتها؟ أحا حقيقي. أنا لا أذكر.

وكتبت إيميل لها، قالت لها فيه إنها وحشتها جدًّا، وإن الأيام باعدت بينهما ولا أحد يعرف لماذا ولا من المسؤول. ولكن لو

كانت هي المسؤولة، حرنكش، فهي تعتذر بشدة. تتأسف وتبوس رجلها كي لا تزعل.

اعرفي أو لا تعرفي يا قمر، ولكن لا يمر يوم من دون أن أتذكرك. أتكلم وأتجادل معك وأتعلم منك، هذا يحدث في عقلي. لا يحدث في الواقع طبعًا. أنت ذكية وتفهمين طبعًا.

ألجأ إليك في هذه الأيام الصعبة يا قمر، لأني أراك في كل مكان حولي، العربيات والسحاب وكلام النسوان في الجوامع. من حولي يقولون انتي اتجننتي يا حرنكش. بتكلمي واحدة احنا مش شايفينها، وانا اقولهم دي مش واحدة، دي ست الكل.

المهم انا باحبك يا قمر. باحبك وعاوزة اشوفك واتكلم معاكي زي زمان.

أرسلت الإيميل وفي ثوانٍ ردت عليها قمر، ردًّا مختصرًا من ست كلمات. حبيبتي وحشتيني. تعالي نتكلم على سكايب.

وتكلمتا على سكايب. اكتفتا بتشغيل الصوت لأن الكاميرا كانت تعطِّل الاتصال الصوتي. دردشتا حول كل شيء. حكت عن الست اللي تحت، وعن عم ناجي، وعن عاطف، ثم دخلت في الموضوع. أنا عاوزة اتكلم معاكي لإني متضايقة جدًّا من حاجة معينة. فاكرة هند؟ شوفي دا كدا. وأرسلت إليها الفيديو الذي شتمت هند فيه الجيش والشرطة.

حافظت قمر على نبرة محايدة، حتى بعد مشاهدة الفيديو، فتهدج صوت حرنكش، انتي تعرفي هند كويس. يمكن حتى أكتر مني. أنا اللي بسأله دلوقتي، مش هند كانت أمورة، أمورة وحلوة وطيوبة

وبتحب الناس؟ ليه بتشتم كدا؟ أنا مصدومة فيها خالص يا قمر. مصدومة وملقيتش حد غيرك أتكلم معاه.

سكتت قمر، سكتت طويلًا حتى ظنت حرنكش أن الاتصال انقطع. وفي النهاية تكلمت. قالت إن هند لم تكن كما تبدو عليه.

- إزاي يا قمر؟

- أنا جايالك في الكلام أهو، ماتقاطعينيش بليز. انتي عارفة اني كنت مصاحبة هند؟

قالت حرنكش:

- لا.

- ماقالتلكيش؟ الظاهر كانت مكسوفة من دا. معلش، ما هو أنا حاجة تكسف.

أنا تعبت كتير يا حرنكش. حصلتلي مشكلة كدا ف حياتي وعشانها بطلت غنا. كانت حفلة عملتها وفشلت، بسبب واحد ضايع قرر يعمل مشكلة مع صاحبته ف الحفلة. واكتأبت جدًا. في المقابل هند، صاحبتك الطيوبة الأمورة، عملت إيه؟ حولت الموضوع لإفيه. في كل قعدة نقعد فيها مع ناس كانت تقعد تحكي القصة وتضحك أوي. والناس يبصوا عليا ويضحكوا أوي. واكتأبت اكتر، وشربت مخدرات. وبعدين بقيت أحسن، بس كنت قررت اسافر خلاص. ماحدش في مصر بيفهم حد. إحنا ماعندناش الثقافة دي. انتي كان فيه حاجة بينك وبينها؟

قالت حرنكش آه، ثم قالت لأ، ثم آه صريحة.

- وهي حكيتلك إيه عني؟

- حكيتلي اللي انتي حكيتيه دلوقتي عن الحفلة، بس قالت انها وقفت جمبك ساعتها.

- كذابة. هند كذابة.

قالتها قمر بحسم. ثم تشوش الصوت.

أرادت توديعها ففتحت الكاميرا، وبالمقابل فتحت قمر الكاميرا. وفي مشاهد ثابتة متلاحقة بسبب ضعف الاتصال، رأتها حرنكش لأول مرة منذ بدء المحادثة، بحجاب محتشم على وجهها وبلا ماكياج. كان الصوت راح خلاص فأدارت حرنكش أصابعها حول رأسها لتسألها عن الحجاب، فرفعت قمر يديها بالتكبير، بمعنى كنت أصلي أو سوف أصلي، وأشارت إلى سجادة صلاة مفرودة في طرف الغرفة.

١٧

كانت لعم ناجي وصيتان قبل أن يموت، الأولى أن تهتم بهند، أن تنبش وراءها وتعرف عنها وعن وساختها أكثر، أما الثانية فكانت أن تبتعد عن التحرير.

كلمها عاطف وقال إنه وجد لها الشقة التي سألته عنها في المقطم. وإذا أرادت، يمكنها طلوع المقطم الآن حالًا لترى كم أنها جميلة ورخيصة. ساعتين زمن وهتلاقيني عندك، ردت.

المشوار للمقطم يستغرق على الأكثر نصف ساعة بالعربية، ولكنها عقدت العزم على طلوع الجبل على رجليها.

كان هذا مشوارًا طويلًا، لا يقدم عليه عاقل، ولكن حورية قررت تحدي نفسها وانتصرت. سارت بمحاذاة صخور الجبل وحيدة، على الرصيف الأبيض والأسود المطمور بالرمال، وعشرات العربيات تكلكس لها، مستغربة وجود امرأة تمشي وحدها تحت هذا الجبل، ولكنها لا تسمع. طلع سائق رأسه من شباك العربية وسألها على فين. فهمست له، على كسمك.

في طلعة المقطم كانت تفكر في الاعتراف لعاطف، اعترافًا يتعلق بقتل هند، كما يتعلق بعلاقتها المحرمة بهند، أرادت أن تقول له أنا لست حورية الطيبة التي تعرفها، كما توسعت وفكرت في الاعتراف بعلاقتها بحسين عبد الرحيم شحاتة، أرادت أن تقول له أنا لم أكن بنتًا عندما تزوجت، أنا ارتكبت أخطاء كثيرة. وكان الاعتراف يمثل لها أثقل شيء على قلبها، الاعتراف الذي بمجرد النطق به تثق أنها ستقطع خطوة كبيرة إلى فوق، توازي تلك المتعلقة بالانتقال إلى المقطم. كانت ترتب في ذهنها كلامًا طويلًا له، من جمل وفقرات كثيرة، من ارتباكات في الكلام، من مواقف حدثت معها تبرر ما أحسته لاحقًا، من اعتذارات وتوسلات له بأن يفهمها. وكانت تخرج الدفتر الذي خصصته لهند وتدون فيه بعض الأفكار التي تواتيها.

أنا قتلت هند يا عالم. أنا قتلت هند يا ناس.

قالتها وهي تمشي تحت الجبل باتجاه المقطم. قالتها ورمت ورقة من الكراسة باتجاه السماء، ورقة كان فيها اسم حسين عبد الرحيم شحاتة. قالت هو لا يعنيني الآن، يجب ألا أدعه يعنيني، يجب ألا أدعه يعكر لي مزاجي ويفسد عليَّ اعترافي.

منعها اسم الله الرحيم الذي كان في الورقة من رميها على الأرض، فطيرتها في السماء. هذه بضاعتكم رُدت إليكم، قالتها واستغفرت الله. رفرفت الورقة خمسة أمتار فوق، ثم اندفعت أمامها، وبدأت تتهاوى ببطء حتى سقطت على صخرة بعيدة.

لم تهتم بمصير الورقة. وإنما تابعت طريقها صعودًا.

ربما كانت هذه آخر مشية طويلة تقطعها حرنكش حتى نهاية قصتها، وأول مشية طويلة منذ زمن طويل. عرقت وهي تصعد الجبل ولكنها كانت فرحانة بنفسها. منذ زمان لم تشم هواء، كأنها تعفنت وتُعرض جسمها الآن للحياة.

وفي ميدان النافورة، أول ميدان يقابل الطالع إلى المقطم من الأوتوستراد، جلست على الأرض ونهجت وانتبهت أنها سمنت بعض الشيء. لم تعودي تنزلي الشارع يا حرنكش. مش مهم. أنا نزلت الشارع اليوم. نزلت الشارع وطلعت الجبل، وسأروح النادي وسألعب رياضة وكله هيحلو. وبدأت نسمات الهواء تلامس وجهها العرقان وتبرده، وبدأت تنتعش مرة أخرى.

ولكن عاطف انصدم عندما رآها. تغير وجهه قليلًا. علَّق على اتساخ البلوزة البيضاء بهباب الرصيف. وحاولت ألا تلقي بالًا لتعليقه وأن تهزر وأن تضحك، ولكن تعليقه كان ضايقها، نسيت الاعترافين الطويلين اللذين كانت تنوي رميهما في وجهه، سواء عن هند أو عن حسين عبد الرحيم شحاتة، وما طلع منها كان اعترافًا ثالثًا:

ـ انت عارف اني بعد موضوع محمود ابني أنا نمت عشر تيام في الشارع؟

- يعني إيه؟

- أنا أول مرة أحكيلك على الحكاية دي. أيامها كانت الثورة ومظاهرات ف كل حتة. وانا كنت تعبانة. دا عشان انت بتقول لي انك كمان تعبان. لا يا عاطف، أنا تعبانة جدًّا. وتعبت وقتها أكتر واكتر. فيه أكتر من إني أنام أسبوعين في الشارع؟

حكت حرنكش تفاصيل الأيام الصعبة، كيف طاردها المتظاهرون وطاردتهم، رموا عليها طوبًا وردت بالمولوتوف. كيف وقفت يومًا أمام مجمع التحرير وصرخت بعمق صوتها للمتظاهرين، ثورتكم فاشلة إن لم تغيروا أنفسكم.

كانا يأكلان، وكان المطعم يشغِّل «خلي بكرة لبكرة» لأنغام، وقالت إنها لم تسمع الأغنية من زمان طويل، وتبدو لها الآن كأنها من ذكريات المراهقة.

أردت أن أراقب الثورة، أراقب ما فعلته بالبشر. تعلمت من هذه الفترة كثيرًا وكثيرًا. أعددت نظرية حول الثورة وحول كل شيء، وفشلت النظرية فأعددت أخرى. إلى أن وصلت إلى النظرية النهائية يوم فاز الإخوان برئاسة الجمهورية. كانت أول مرة أقولها، إن الإخوان تجار دين، وقلتها للجميع في ميدان التحرير أيضًا ولم يصدقني أحد. ولكن أنت تصدقني صح؟ ورد وقال صح جدًّا وأفكارك كلها جميلة جدًّا. فنظرت إليه وقالت، لم تكن كل هذه الأفكار لتأتيني لولا أني بت أسبوعين في الشارع، على الرصيف يا عاطف.

وأتى الأكل، وكان ساخنًا وشهيًّا، وأتت عليه حرنكش كله في عشر دقائق، الشوربة والسلطة والمين كورس، وكان لحمة فيليه

مع بطاطس مهروسة. كانت جائعة جدًّا من أثر الطلعة إلى المقطم. وسألته وهي تأكل عن حالة طفل تعرفه، من أبناء إحدى زميلاتها في المدرسة، مصاب بأرق مزمن ولا يستطيع النوم. هل ينصحها بمهدئ معين؟ فقال لها إنه لا يثق بالمهدئات، إوعي يا حورية، سيبيه يومين وهو هينام من نفسه. وانكسفت أن تخبره إنه لا ينام منذ أشهر طويلة. منذ فاز الإخوان بالرئاسة.

أتت على الأكل كله، ولكنها تركت شريحة زيتونة في قعر الطبق لأنها انكسفت من أكلها، ولكن بمجرد دخول عاطف الحمَّام التقطت شريحة الزيتونة وبلعتها بسرعة. وعندما عاد عاطف سألها إن كانت تريد طلب شيء آخر، أنا عازمك. فقالت له لا أريد، مع أنها كانت تريد.

لماذا تأكلين كل الطبق يا حرنكش، وعندما يخلص لا تطلبين غيره؟ يعني، هل حجم الطبق، بالظبط بالظبط بالظبط، على قد معدتك؟ أيوه، هذا يحدث أحيانًا. لأه، احترمي عقلي بليز، هذا لا يحدث، وإن حدث فهو صدفة. هل تؤمنين بالصدفة؟ ونفضت حرنكش الأفكار عن رأسها وقالت لعاطف، لأ معلش. مش قادرة آكل حاجة تاني خالص.

وهما خارجان معًا من المطعم بدأ عاطف يحكي لها عن الشقة: بيت صغير تلات أدوار، الشقة في الدور التالت، واسعة وبفراندة كبيرة خالص. فين الشقة؟ جنب العيادة بتاعتي.

صاحب العمارة عاوز تلات الاف ونص، أقنعته يخليها ألفين بس. دا كويس بالنسبالك؟ أجل يا سيدي. الشقة هتكون جاهزة

خلال أسبوع من دلوقتي، من أول اتناشر. تقدري تنقلي حاجتك في خلال أسبوع؟ أجل يا سيدي. وتشيّكي عالكهربا والصيانة والسباكة في الشقة؟ أجل يا سيدي. وانحنت أمامه انحناءة واسعة ثم نطت عليه وباسته في خده أمام الناس.

١٨

سيكون المقطم المحطة الأخيرة لحرنكش، المحطة الأخيرة منذ أن تدافعت أحداث حياتها، منذ أن احتلت حنجرتها جرثومة البرد وعطست إلى أن صرخت في البوليس قائلة تعال خذني ياللا لأني قاتلة.

فراندة شقة المقطم كانت شيئًا بلا مثيل، واسعة ومليئة بالبامبو، وصحيح أنها لا تطل على الكورنيش، ولكن تكفي الشجرة الضخمة التي ترمي ظلًّا عليها من الرصيف المقابل، يكفي الاتساع الهائل لها، يكفي الشارع الهادئ والروقان والهدوء. أنا سأنهي حياتي هنا، تنبأت حورية، ولم تبتعد نبوءتها كثيرًا عن الحقيقة.

تفاوضت مع صاحب عمارة الدقي على الاحتفاظ بقطع من العفش، ودفعت له مقابلها ثلاثين ألف جنيه، وعلى مدار أسبوع أخذت تنقل العفش إلى المقطم على عربية نصف نقل. العفش لم يكن كثيرًا، مكتب وفوتيهان وكنبة ومكتبة، وثلاجة وغسالة وسخان، وكثير وكثير من الرفايع. لم يساعدها عاطف. رفضت أن يساعدها،

قالت لست عويلة ولا طفلة حتى يساعدني أحد في نقل عفش بيتي. ورافقت السواق في عربية النقل، وصعدت متربة إلى البيت، وأتى الكهربائي وأتى السباك ليتأكدا أن كل شيء على ما يرام.

وبعد أن سلمت مفتاح شقة الدقي لصاحب البيت، وبعد أن استلمت مفتاح شقة المقطم نهائيًا. نقلت الفوتيه الأحمر للفراندة ووضعت أمامه ترابيزة بامبو صغيرة وسندت رجليها عليها ونامت.

منذ انتقالها للسكنى في شقة الدقي، وهي التجربة الأولى لها في السكنى في شقة وحدها تمامًا، في شقة تملكها ـ أو بالأصح تستأجرها، لأن حرنكش لا تملك وإنما تستأجر - وهي تفضل المساحات الكبيرة؛ عفش قليل مع مساحة فاضية حوله. هذا أفضل من كركبة بلا داعٍ. حرنكش درويشة ترضى بالقليل. لا تملك سوى حساب في البنك وعفش قليل وشكمجية، أي علبة من الصَّدف، فيها مسدس وأوراق قديمة جمعتها من سندرة بيت أبيها.

رنت كلمة «شكمجية» في رأسها بينما تروح في النوم. تذكرت أنها في عز لهوجتها لنقل كل شيء من الدقي إلى المقطم نسيت أن تأتي بالشكمجية. النصف المسترخي من أعصابها أكد لها أنها جاءت بها، والنصف المتوتر، الموتور، الذي يمنعها من النوم، قال لا.

وانتصر الجزء الرايق، الجالس على الفوتيه الأحمر، من أعصابها، وراحت في نوم عميق. وفي نومها أمسك الحلم بالشكمجية بين يديه، وأخذ يعالجها طويلًا، حتى تحولت في يديه إلى سؤال فلسفي، هل هناك مفتاح صغير يفتح بابًا صغيرًا، ويليه مفتاح أكبر يفتح بابًا أكبر،

وصولًا إلى المفتاح الأكبر من الكل الذي يفتح الباب الأكبر من الكل؟ أم أن هناك مفتاحًا واحدًا يفتح بابًا واحدًا، ونقضي حياتنا كلها في البحث عنه، وقد نموت ولا نجده؟ لم يكتف الحلم بهذا وإنما انتقل بها إلى بناية ضخمة، دائرية وحديثة وواجهاتها زجاجية، كأنها مول في دبي، وبابها صغير، بابها مثل أي باب، ولكن عندما ينفتح لا ينفتح كأي باب، وإنما يسحب ما فوقه حتى سقف البناية. كأن البناية تنشق لنصفين وقت فتح الباب. كأن البناية تورتة غاصت فيها سكينة لتسحب شريحة.

صحت بعد رحلتها الطويلة مع الأبواب، وكانت كلمة «شكمجية» لا تزال تتردد في عقلها، فنزلت من فورها، وكان المغرب قد حل في القاهرة، إلى الدقي. رآها البواب فسألها خير؟ قالت إنها نسيت حاجة فوق، هل فتحتوا الشقة؟ فتحناها ولم نجد شيئًا. طيب ممكن أطلع؟ أيوه ممكن طبعًا. وطلعت إلى الدور التالت، أزاحت المراتب والمُلل من على السرير بنفسها، فوجدت الشكمجية ترقد في السحَّارة، وحيدة متألقة. وأخرجت من سلسلة مفاتيحها مفتاحًا صغيرًا وفتحتها ووجدت كل شيء، الورق القديم والمسدس ملفوفًا في سلوفانته.

حضنت الشكمجية في حضنها ونزلت. وعلى باب العمارة قابلت محمود، بعينين أشبه بحفرتين كبيرتين من عمق الهالات السوداء حولهما. خفضت حرنكش بصرها حتى تتجنب رؤيتهما، وقالت له خلاص يا محمود مامي ماشية. تيجي تشوف الشقة الجديدة ف المقطم؟

صحيح إن شقة الدقي كانت صعبانة عليه قليلًا، لأنه تعب حتى يجدها لها، ولكن خلاص، اللي يريحك يا مامي.

ركبا التاكسي معًا، وكانت الدنيا ليلًا. وتحرك التاكسي وكان محمود مميلًا رأسه على الشباك ليحاول النوم، ولكنه كان ينتفض بعد ثوان وينظر إلى مامته ويضحك ويقول، برضه مانفعش.

١٩

تذكرت أيامًا بعيدة. كان محمود فيها لا يزال رضيعًا في مهده بالكافولة، وكنت أهزه وأمرجحه حتى ينام. وابتسمت. هذه الأيام بعيدة ومحمود بجانبي الآن شحط كبير. ولكن صورته وهو بيبي على سريره الهزاز ظلت تخايلني. من قال إن أبناءنا يكبرون؟ أبناؤنا يظلون بيبيهات في أعيننا طول الوقت.

سهرنا سوا في الفراندة تلك الليلة، تبادلنا الذكريات عن طفولته. فتحت قلبي له وصارحني بأشياء وصارحته بأشياء. كنت مطمئنة في أول يوم لي في المقطم، على الجبل، وعيادة عاطف بجانبي تطمئنني أني لست وحدي، ومحمود معي يهزر ويضحك، وأنا أهزر معه وأضحك، وفقط خوفًا من شكل عينيه، لا أنظر إليه مباشرة، أهزر معه ناظرة في الأرض.

وعندما بلغ الانسجام منتهاه، وبعد أن كنت انسطلت تمامًا من أثر الحشيش، غارقة في الفوتيه الأحمر، وجدته يقول بصوت خافت، أنا عندي ليكي مفاجأة على فكرة.

لم أسمع، أو لم أهتم، حتى تكرر الصوت، يا مامي، بقولك عندي ليكي مفاجأة.

انتبهت، وهززت رأسي له بمعنى أني انتبهت. فأخرج تلفونه ومده لي، مين الولد دا تفتكري؟

نظرت إلى شاشة التلفون، وكانت فيها امرأة محجبة وسمينة تحمل طفلًا. قلت إني لا أعرف. فقال دقق كويس طيب. فقلت إني والله لا أعرف، وطلبت منه التوقف عن ألعابه. ولم يتوقف، غمز لي، طيب بصي عالكومنتات. نظرت إلى أول تعليق وكان نصه، ربنا يخليهولك يا نودا.

«نودا» كان الاسم الذي اعتدت على مناداة هند به. أعدت النظر إلى الصورة بعين جديدة هذه المرة. نظرت إلى المرأة المحجبة، وكانت بنمش برتقالي على وجهها. همست بصوت غير مصدق، هند؟ فأجاب بصوت مؤكد، هند سعودي وابنها.

- بس هند ماعندهاش ولاد.

سأل بنصف ضحكة:

- أومال مين دا بس يا مامي؟

- هند ما بتخلفش أصلًا.

كرر:

- أيوه يا مامي، أومال مين دا بقى؟

- يا محمود، هند عندها عقم، واخوها عنده عقم، ودي حاجة غريبة لإن العقم أصلًا مش مرض وراثي. وهي حكتلي دا بنفسها.

- أخوها عنده عقم صحيح، بس هي كان عندها ولد ومات من زمان.
- هي اللي حكتلي دا يا محمود بقول لك، يعني أنا عرفت دا منها هي نفسها.
- مش لازم تكون بتقول الصدق يا مامي، مش لازم أي حد يكون بيقول الصدق.
- أيوه بس إيه مصلحتها إنها تكذب عليا؟

سكت محمود لدقيقة. سند بظهره على كرسي البامبو، وقال ماعرفش. لأول مرة منذ بدأت السهرة بيننا يقول ماعرفش.

سكت محمود، وأنا ظللت أنظر إليه وفي ظني أن الجدال انتصر أخيرًا لصالحي، وفكرت في القيام والدخول إلى الشقة لأحسم انتصاري في المناقشة. ولكن محمود، العرص اللعين الذي خلفته، استدرك بعد قليل. قال بصوت خافت إنه يعتقد أن هند مدمنة الكذب، وإن هناك نوعًا من الناس يدمنون الكذب، بحيث إنهم لو رأوا كلمة صادقة وكلمة كذابة، فإن شيئًا في طبيعتهم يدفعهم لاختيار الكلمة الكذابة، شيء لاإرادي، مثل التبول اللاإرادي.

توترت بشدة، وانهدمت السهرة الرائقة التي حاولنا فيها الاحتفال بالبيت الجديد. توترت وسكتُّ مطولًا، حتى قال محمود بصوت خافت وكأنه يواسيني، هند كانت تستاهل تموت يا مامي، وانتي كان لازم تموتيها، وانتي لازم تبقي فخورة بدا.

يا أخي أنا لا عاوزة ابقى فخورة ولا نيلة...

انطلق صوتي فجأة ثم تحشرج، وحاولت إكمال الجملة أكثر من مرة ولم أنجح، فأخذت أبكي.

٢٠

لسعة البرد زارت حرنكش هذه المرة، ونحن في عام ٢٠١٢، بعد عامين بالضبط من بداية قصتنا هذه، في المقطم.

الشتاء على وشك، وما أجمل أن نستقبل شتاء جديدًا في بيت جديد.

نزلت حرنكش لتجلس على كورنيش المقطم، ببنطلون جينز كانت تجلس على الرمال ومعها حشيشها وكراستها، ترنو إلى القاهرة أسفل قدميها وتدخن وتدون ملاحظاتها. لم تخف من الجلسة وحدها على الرمال. شيء ما جمَّد قلبها. جربتها مرتين وثلاثًا ولم يحدث شيء فتشجعت.

من مكانها على قمة الجبل كانت ترى الشتاء وهو يحل محل الصيف، سحب تأتي في إثر سحب وتخفي وجه الشمس، فتلبس الدنيا وجهًا جديدًا، اسمه «الخريف» في الأول، ثم اسمه «بدايات الشتاء». الموضوع دا يا إما سحر يا إما شعوذة يا إما شيزوفرينيا ولازم تتعالج، كتبت في كراستها بخط منمق.

كانت الكراسة بالأساس مخصصة لهند، ولكن هذا لم يمنع حرنكش من كتابة أمور حول الطقس وحول السياسة، وفي مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، وجدت اسم حسين عبد الرحيم شحاتة مكتوبًا في الكراسة. لا تذكر متى كتبت اسم حبيبها الأول، تجتهد في التذكر ولا تنجح.

ساعتها فقط، وعندما كانت تفاجأ باسم حسين عبد الرحيم شحاتة

ينظر إليها ضاحكًا بسماجة وبأسنان صفراء من على الورقة، كانت تقطع الورقة وتحدفها للهواء، ليحملها على جناحيه نازلًا بها إلى القاهرة. إلى الطابق السفلي للقاهرة، حيث صلاح سالم والنيل ومدينة نصر ومصر الجديدة.

كانت ترمي الورقة وتهمس لنفسها، أنا لا أريد أن أشتت نفسي. وعندما تلاحظ أن هذه الجملة بالتحديد هي ما تشتتها، تبدأ في تكرارها بصوت أعلى وأعلى، وعندما لا يجدي هذا نفعًا، تكتب الجملة على ورقة في الكراسة، ثم ترمي الورقة هي الأخرى، لتلتحق بسابقاتها من ورق حسين عبد الرحيم شحاتة، وتتنفس الصعداء وتقوم مسطولة قليلًا عائدة إلى بيتها.

أنا الآن امرأة حرة منطلقة غير مشتتة، أمشي في طريقي ولا أحيد عنه، وأنا قادمة إليك يا هند، فخُذي حذرك.

٢١

سمعت كلمة الفيسبوك لأول مرة في دفنة زوجي الأول. أتاني أحد أصدقائه وأخبرني أن المرحوم كان يكتب على الفيس. لم أكن أعرف ساعتها أن هذا سيصبح بعدها بسنوات أهم مكان في مصر، المكان الذي يتجمع عليه الجميع ليهتفوا هتافهم الموحد ضد الأشرار. وعلى غرار الجميع، أردت أيضًا أن أكتب ستاتوس على الفيس، أردت أن أكتب أكثر الستاتوهات صدقًا على الفيس.

أنا مررت بفترات من الشهرة، أحيانًا كان عشرة يعملون لي شير، ومرة أخرى ١٥، ولكن لا يمكن القول إني نجمة فيسبوك. وأصلًا، لا يهمني أن أكون نجمة فيسبوك، أنا أكتب ما أحسه وخلاص ولا أحسب حسابًا. الكذب يقرفني. من هنا تنبع قوتي.

ولكن الوصول إلى الصدق ليس سهلًا. زمان، وأنا أمسك المسدس لأضرب على الطبق البلاستيكي الطائر، صرخ فيَّ عم ناجي، ماتفكَّريش كتير، خليكي على طبيعتك. قلت له إن طبيعتي هي إني أفكر كتير، فضحك وحكى النكتة لأبي.

ولذلك فأنا أعتقد أنه حتى التصرف بطبيعية، حتى قول الصدق، يحتاج تدريبًا، ولهذا كنت أكتب وأمحو في كراستي.

من النظرة الأولى ستبدو هند عفوية، طبيعية ومرتاحة في التعامل مع الناس. ولكن ما أردت كتابته بالتحديد هو أنها عكس ذلك تمامًا، أردت أن أقول للناس لا تأخذوا الأمور بالظاهر.

ولكن شيئًا في كلامي، فيما أكتبه في كراستي الصغيرة، لم يخرج من القلب. كأني كنت أريد القول إني أحسن واحدة، أو إني التي لا تكذب، أو لا تسمعوا إلا لي. كأني كنت أريد التباهي. ولهذا كنت أمحو. في كل يوم كنت أقول خلاص، سأنقل ما كتبته في الكراسة إلى الفيسبوك، سأصوغه جيدًا وأنشر اليوم، وتغرب الشمس ويطلع القمر وأنا لم أنشر سوى بوستات عن الأطفال والحيوانات. لا شيء إطلاقًا، مع احترامي الكامل للأطفال والحيوانات.

ولم يكن هذا معزولًا عن الثورة أيضًا، كنت أفكر في اختراع الفيسبوك الذي سيدمر الإخوان. رأيت بعيني قلبي ما سيحدث بعدها

بأشهر. سيكبر الفيسبوك، وسيتجمع الناس عليه، وسيهتفون هتافًا واحدًا ومدويًّا عليه، حتى يغور الإسلاميون بجلاليبهم التي لا سيقان فيها، وإنما ذيول موحدة طويلة يجرجرونها وراءهم. والحرب الأهلية التي بدا أنها بدأت في الاندلاع، تحت في القاهرة، ستنفثئ. ستكبر وتكبر وتكبر، إلى أن يأتي الفيسبوك ويغرس فيها دبوسًا فتنفجر وتخور خورتها الأخيرة مصدرة فساء متواصلًا وتدريجيًّا، ثم تخمد وكأنها لم تكن من الأساس.

٢٢

في مظاهرات الاتحادية التي اندلعت ضد الإخوان المسلمين خُطف كثيرون وعُذبوا في مبانٍ مجهولة على يد الإخوان. حاولت الحكومة الدفاع عن وجودها من أي احتمال قادم للثورة. وكانت النتيجة أن الحرب الأهلية لم تعد بعيدة.

ارتعبت حرنكش، لماذا يعذب الإنسان الإنسان؟ أرادت الصراخ ولم تستطع. كان أحدهم يصرخ، مين بيدفعلك يا ابن الوسخة؟ وكان الضحية بقامته الضئيلة يجلس محصورًا في الركن يحمي وجهه بيديه من الضرب ويبكي، رأته حرنكش في فيديو على اليوتيوب يبكي، وارتعش قلبها.

كانت الصورة مهزوزة، الإضاءة قليلة والصوت رديء والكلام غير واضح. مع هذا، استطاعت تمييز أشياء بعينها؛ القسوة، نظرة

الشر في العيون، توسلات الضحايا الخائفين وانهيار أجسادهم تحت وطأة الضرب.

أغلقت اللاب وقررت الذهاب للنوم، ولم تستطع. كان مشهد الرجل الذي يرفع يده أمام وجهه يعذبها، وقررت العودة مجددًا إلى فيديو اليوتيوب لتشاهد أكثر، كأن عقلها انحبس داخل أحداث الاتحادية، سخن ولم يعد قادرًا على النعاس. فتحت الفيس مرة ثانية وبحثت مرة ثانية عن فيديوهات الاتحادية. شغلت أحدها وكان طوله ربع ساعة كاملة، وأثناء تشغيله جاءها نوتيفيكيشن على صفحة الفيس، فانتقلت إليها، وعلى صوت الصرخات والآهات والجمل المتقطعة، انشغلت بقراءة تعليق، إلى أن سمعت صوتًا في الفيديو يقول، آه كويس كدا.

كانت تعرف صاحب الصوت، أو هكذا خيل إليها، ولم تصدق، وقالت يا رب لا. وعادت من فورها إلى شاشة اليوتيوب وأرجعت المشهد. وكان حسين عبد الرحيم شحاتة يقف بين ثلاثة رجال ويلعب في فمه، عملاقًا كالحًا بجسد ضخم وجلابية وشعرات متفرقة على خده المربرب. زميل الجامعة القديم وحبها الأول وقف في إضاءة مغبشة ولم تره إلا ثواني معدودة وعرفته. جرى الفيديو ولم يظهر مجددًا، مالت الكاميرا عن الوجه فتوسلت لها لتعود إليه، ولم تعد. فقط سمعت بعد دقيقتين صوته يقول، لأ لأ لأ لأ.

ثوانٍ محدودة هي مجموع ما سمعته من حسين عبد الرحيم شحاتة، وثانية وربع الثانية، أو نصف الثانية، أو ثلاثة أرباع الثانية،

هي مجموع ما شافته، ولكن كان هذا كافيًا لها لأن تتذكر كل شيء، هي التي لم تنسَ أبدًا.

سخن عقلها أكثر وأكثر، وتزاحمت عليه الأفكار والكلمات، يعني يا ابن الكلب لم تكفك وساختك معي زمان، ولا وساختك المتأصلة مع خلق الله، فتعذب المتظاهرين يا معفن؟ لهذه الدرجة أنت وسخ يا حسين، وماذا نفعل لك حتى تنضف؟ كانت قرفانة وظل قلبها يدق طول الليل.

وبدأ النوم يداعبها، وبدأت تتخيل نفسها وهي تمسك حسين من إبطيه العرقانين. تقوده بالعافية إلى الحمَّام، تدعك جسمه في الماء الساخن، والوساخة لا تروح، والرائحة النتنة تملأ جنبات الحمَّام، وتزيد سخونة الماء أكثر وأكثر ولا شيء ينفع، وتحلق شعر ذقنه بالموس ولا تروح العفانة، ثم تبدأ في كشط أجزاء من جلده بالموس، بهدف الوصول إلى جوهر العفانة، ولا تصل. يبدأ الجلد في الاحمرار ثم ينزف سوائل ثقيلة، وهي باركة فوقه في البانيو تليِّف جسمه بأمواس مختلفة. وهو يتلوى وتترجرج لظاليظ جسمه ويقول بغنج، كفاية بقى يا ماما، خلاص يا ماما، باغير يا ماما.

قبل الوصول إلى الدم انتهى الحلم أو تبدل بحلم آخر لا تذكره. صحت في منتصف اليوم التالي وحاولت استعادة صورة حسين التي كانت في الفيديو فلم تخطر لها إلا صورته في الحلم، تحت يديها في البانيو الذي يفيض بالدماء. كانت شديدة الانفعال، وقررت النزول وحدها، مع نفسها على كورنيش المقطم، لتشرب جوينتها هناك.

٢٣

وحيدة على الرمال مضيت أدخِّن وأنفِّخ. وتسلل الخدر إلى جسمي فرقدت بظهري على الأرض محدقة في السماء. ولم أنتبه إلا على أمين شرطة يقف بجانبي ويهز جسدي بحذائه. انتفضت وقمت فأشار لي بحركة لامبالية وهو يقول، البطاقة.

أخرجت البطاقة من حقيبتي بارتباك وأنا أحاول تذكر إن كان هناك جوينت آخر في الشنطة غير الذي دخنته. نظر في البطاقة وسأل: مدرِّسة؟ فقلت أيوه، وأخفيت أني مفصولة، لأني أردت أن ينظر إليَّ بشيء من الاحترام. أمرني بفتح الشنطة فأعطيته إياها، وأنا أدعو الله في سري بالستر. قلب محتويات الشنطة على الرمال ثم وطى وبدأ يفحصها واحدة واحدة ووطيت أنا معه. لم يكن في محتويات الشنطة جوينت آخر، وإنما قطعة حشيش كاملة. قربها من أنفه وشمها ثم لوح بها أمامي، وأنا ألوان الدنيا كلها تروح من وجهي. كنا مقرفصين على الرمال عندما بدأ يقرب ركبته من ركبتي فلم أمانع، ويحط يده على كعب رجلي، ويرفعها قليلًا لتدخل تحت طرف البنطلون الجينز. ولأني اتخذت قرارًا بالاستسلام له، ولأني قلت أن أبادر أنا أحسن من أن يبادر هو، كنت أنا من انقضضت عليه.

حللت الزرار الأعلى من قميصي. ولكنه أشار بوجه جامد وبإصبعه ألا داعي لهذا. وبإصبع ثانٍ أشار إلى زرار بنطلوني. فككته وخلعت الكيلوت، فأدخل بتاعه، وفي نصف دقيقة كان بصق جميع محتوياته

فيَّ. قمت ولبست الكيلوت والبنطلون وعيني في الأرض. وهو بوجهه العابس لم يمش إلا بعد أن أشار إشارة رابعة لقطعة الحشيش. أعطيتها له فدسها في جيبه وانصرف.

شيئان استفدتهما من هذه التجربة، أولهما أني عرفت أنه لم يعد نافعًا أن أجلس وحدي في المقطم. وثانيها أني لاحظت، وأنا أعيد محتويات الشنطة إلى مكانها، ورقة صفراء مسجلًا عليها رقم تلفون مرفقًا باسم الرائد أحمد بدر، قوات خاصة. تذكرت الضابط الذي زارني في بيت الدقي عقب موت الست اللي تحت. وحمدت الله على وجود الرقم في الشنطة.

في طريق عودتي إلى البيت أخذت أجادل نفسي، أقول نعم ينفع، ثم لا، لا ينفع. وحمدت الله أن محمود ليس معي، حتى لا تزيد حيرتي حيرتين وربكتي ربكتين. ثم عدت إلى نفسي، نعم ينفع، ولا ينفع. ونظرت خلفي كأني أردت أن أمد يديَّ لأستعيد جميع الأوراق المكتوب فيها اسم حسين عبد الرحيم شحاتة والتي طيرها الهواء سابقًا. حتى حسمت أمري وكلمت الرائد أحمد بدر في التلفون.

أتاني صوته ودودًا فابتهجت وتشجعت وذكرته بنفسي فتذكر. قلت إني أريد أن أشكو له من موضوع صغير، فقال من عينيَّ. وعزمني على الغداء في اليوم التالي في المقطم.

حساب صغير سأخلصه يا هند ثم أعود إليك يا حبيبتي، قلت في البيت وأنا أمسك بالريشة وأمسح التراب عن أركان لوحة المرأة التي ترفع قبضتها عاليًا أمام الرجال.

٢٤

في مطعم بشارع ٩ قابلت حرنكش الرائد أحمد بدر. أخرجت له كرة عملها لها عاطف من الورق، وقالت له تفضل، أنا عملتها لك. أرته كيف تنتفخ، فطبَّقها ووضعها في جيبه الخلفي وهو يشكرها بدمائة شديدة. تكلما في كثير من الكلام الفارغ، ثم دخلت في الموضوع وسألته إن كان يسمع عن لواء في الجيش اسمه اللواء سمير عجة. قال بسرعة وبلا تفكير، أسمع عنه آه، إنسان عظيم. خسارة إن مافيش حاجة أكبر من العظيم عشان نقولها عليه.

حكت له عن قصة حب قديمة مع شخص من بني سويف. شخص تعود معرفتها به لأكثر من ثلاثين عامًا مضت. ولكنها فوجئت به في القاهرة مؤخرًا، رأته في فيديو في مظاهرات الاتحادية يعذب المتظاهرين. أصبح إخوانًا حضرتك، قالتها بابتسامة. سعت إليه لتقابله فأخبرها أنهم يخططون لاغتيال اللواء سمير عجة. يبدو لحرنكش، هكذا قالت، أن مرسي، رئيس الجمهورية الإخواني، يريد عزل هذا اللواء، ولكنه لا يستطيع لسمعته الطيبة في الجيش. ولذلك فالحل الوحيد أمام الإخوان هو الاغتيال. أنا والله يا أفندم ما كنت اعرف إنه كدا. أنا لما حبيته ماكانش كدا. غسلوله دماغه في مكتب الإرشاد. هو إيه اللي ممكن يغير الناس كدا يا سيادة الرائد؟

لم يملك سيادة الرائد إجابة جاهزة عن سؤالها الأخير. فكر لدقيقتين، ثم قال، يمكن التكالب على حب الدنيا؟ فسألته، حتى عندما يدعي الشخص أنه شيخ ويربي ذقنه؟ فقال لها أيوه، ولكن

سؤالك مهم، لأنه إذا ادعى الإنسان أنه شيخ وربى ذقنه، وفي ذات الوقت كان حقيرًا لهذه الدرجة، فهذا يعني أنه كذاب. يكذب على الله قبل أي شيء، وربنا قد يسامح الإنسان الذي يكذب على أخيه الإنسان، ولكنه أبدًا لا يسامح من يكذب عليه. وقالت أيوه. وأضافت أنها فقط لم تكن تتصور أن الأمور يمكن أن تكون بهذا السوء.

لم يعقب عليها الرائد. كان مشغولًا بفكرة في دماغه. صاغها جيدًا وضبط زواياها ثم نطق. إحنا أحيانًا بنكذب يا مدام حورية. ماحدش معصوم من الكذب غير الأنبياء وأولو العزم من الرسل والأنبياء والصديقين. ولكن الشيء اللي بيشغلني، أنا كإنسان خطاء، إني لما بكذب على إنسان خطاء... أو بلاش المثال دا، خلينا ف مثال تاني، أنا لو قتلت حد، هل أنا قاتل؟ طيب ما المقتول ممكن يبقى قاتل برضه، طيب ما هو الشارع مليء بالقتلة. طيب هل فيه حد يضمنلي إن الويتر اللي جا دا مش قاتل، بلاش، هل فيه حد يضمنلي إن إنتي ممكن ماتبقيش قاتلة؟ فهمتيني؟

لم تفهم، وقالت إنها لم تفهم. هي متفقة معه، ولكنْ هناك شيء ناقص في كلامه ولا تستطيع وضع يدها عليه، فأجاب أن معها حق، ولكنه أحيانًا كثيرة يلمِّح لأن اللبيب بالإشارة يفهم، ولكنه من أجل خاطرها فقط سيكمل الجملة. لو كذب أحدهم على إنسان فإن الله غفور رحيم، ولو قتل أحدهم إنسانًا فشرحه، الله أيضًا غفور رحيم، ولكن ماذا لو كذب إنسان على الله، أو لو قتل إنسان الله؟ ونظر إليها بانتصار وهو ينقر بإصبعه على الطاولة، لأنه تيقن أن حجته أصبحت لا تقاوم الآن. ولكنها لم تفهم. ضحكت وقالت إنه أيضًا هذه المرة

قال «لو» ولم يكمل، ماذا سيحدث لو حدث هذا، الغموض ليس مفيدًا في جميع الأحوال يا سيادة الرائد. لم يضحك هو. غاب في فكرة أخرى استغرقت ربع دقيقة، ثم نطق، لو دا حصل يبقى في الحالة دي لا بد من تطبيق القانون بكل حزم.

أومأت برأسها بفهم أخيرًا. اكتملت جملته في رأسها دائرة محكمة منطقية لا تخر الماء.

وفي طريق العودة إلى البيت قالت لنفسها، أبدًا، مهما حدث، لا تكذبي على الله يا حورية. اكذبي على الرائد كما تشائين، ولكن لا تكذبي على الله أبدًا.

٢٥

ذات يوم، وحرنكش طفلة عندها عشر سنوات، حلمت أمها بالشيخ الشعراوي. كانت تركب معه في سيارة يسوقها فوق جبل عال، وفي وسط الرحلة أوقف السيارة وأهدى الأم مصحفًا صغيرًا بغلاف ذهبي، ونتيجة للعام الجديد، وعندما سألته عن السر وراء النتيجة، قال لها، عشان تحدديلي يوم تخلَّصي ذنبك فيه. صحت الأم وحكت لحرنكش عن هذا الحلم، ولما سألتها البنت أي ذنب هذا الذي يتكلم عنه الشيخ الشعراوي لم ترد الأم.

كانت الأم تحجبت وقتها، وامتلأ البيت بكتب الشيخ الشعراوي والدكتور مصطفى محمود، وكانت تقرأ وتبكي وتقول الله يغفر لنا.

وعندما شرحت الأم لحرنكش موضوع الجنس والأعضاء الذكرية والأنثوية، هددتها أنها لو سمعتها تقول هذا الكلام مرة ثانية ستقطع لسانها، لأن، وهذه كلماتها، الكلام دا بيودّي في حتة وحشة أوي. وارتعشت الأم وهي تقول هذا. كانت ترتعش وكانت تريد التطهر من ذنب لا تستطيع الاعتراف به، هذا ما فهمته حرنكش الآن.

التطهر من ذنب لا يمكن الاعتراف به؟

تعرف حرنكش شعور أمها من واقعة أخرى. أرسلت امرأة سؤالًا لمقدم برنامج للفتاوى في التلفزيون. قالت له فيه إنها أخطأت في حياتها ولا تعرف كيف سيغفر لها الله، ولا تستطيع العيش مع هذا الذنب ولا تستطيع الاعتراف به. قال لها الشيخ، برعونة شديدة، هذا ما فكرت فيه البنت ساعتها، إن عليها الاعتراف بذنبها أمام المتضررين منه، ولو أدى هذا إلى دمار كل شيء، لأن رضا الله أهم من رضا عبيده. قال الشيخ هذا وضرب بعرض الحائط كل تراث التوسط الإسلامي الذي يبثه برنامج الفتاوى، قالها ودهس حياة أسرتين على الأقل في طريقه.

وقتها قامت الأم وأغلقت التلفزيون بغضب. قالت إن الشيخ لا يفهم، لأنه لو كان يفهم كان ليعرف أن ما ستره الله لا يفضحه إنسان. أغلقت التلفزيون وذهبت إلى المطبخ لعمل سندوتشات للعشاء، ودخلت عليها حرنكش فزعقت فيها الأم، كانت غاضبة جدًّا لسبب غير مفهوم.

بعدها بخمس سنوات ستعقد الأم العزم وتعترف بذنبها، ستستجمع كل قواها وتهمس، صاحبك بيعاكسني، وعندما لا تجدي الهمسة

نفعًا، عندما يصم الجميع آذانهم عن سماعها، ستعلِّي صوتها أكثر وتصرخ، انتي كان لازم يسموكي حورية ناجي.

انتهت قصة الأم بموتها قبل ٢٢ عامًا، والآن دورك أنت، يا حرنكش المسكينة، يا أغلب نساء الأرض، لتسألي نفسك، ماذا تفعلين لتتحرري، مرة واحدة وللأبد، من ذنبك الذي يطبق على أنفاسك؟

٢٦

كلمت محمود وأخبرته أني أريده في أمر شديد الخطورة، وجاء بعدها بربع ساعة.

كان يلبس نظارة شمس، فأدركت أن عينيه لا تزالان مسودتين من أثر الأرق. اتخذ وضعه على كرسي البامبو في الفراندة، واتخذت أنا وضعي مقابله على الفوتيه الأحمر. قلت إني بصدد نشر بوست على الفيس، بوست كتبته بالأمس وأريد أن أقرأه عليك قبل نشره. رفع إبهامه محييًا. سألني، وقلتِ فيه؟ قلت إني قلت. أقرا؟ اقري.

شوفوا يا جماعة. أنا فكرت كتير قبل ما أكتب. لأن الموضوع صعب وماحدش هايفهمني صح. استرقت نظرة إلى محمود وهمست له، دي المقدمة، أكمِّل؟ فقال كمِّلي.

شوفوا يا جماعة. أنا قلعت الحجاب من فترة عشان حسيت اني مش أنا لما لبسته. حسيت بدا فعملته ببساطة. أنا مش أحسن من حد ولا أوحش من حد. أنا عادية، عادية جدًّا، لما بشوف مكان عادي

ومكان مش عادي أنا من نفسي باروح اقعد في المكان العادي. أنا مجرد باعمل اللي باحسه. من غير تنظير كثير، أنا عاوزة احكي عن مشكلة كبيرة في الثورة. مشكلة أنا عانيت منها وكلنا بنعاني منها.

كان محمود يجلس على الكرسي مشدودًا وأنا أقرأ. عند هذه النقطة مدَّ ساقه اليمنى على الترابيزة أمامه وخلع النظارة فبانت عيناه، بئرين سوداوين بلا قرار. خُفت، ولكني أبعدت بصري سريعًا وركزت على شاشة اللاب.

أنا آمنت بالثورة من أول يوم. قضيت التمنتاشر يوم معتصمة في الميدان. وحاربت كتير عشان الثورة تنجح. ابني مات في الثورة، وغمزتُ لمحمود، جوزي مات، جارتي ماتت، وصاحبتي ماتت.

الثورة كانت مشروع حياتي. مش مبالغة والله. ولكن الثورة أنقذتني من بلاعة مظلمة كنت مدفونة فيها وعرفتني على ناس ودنيا وعالم بلا حدود.

أقول هذا حتى لا يسيء أحد فهمي. أنا بنت الثورة. أنا اخترت أن أكون بنت الثورة.

أريد أن أحكي لكم عن الكذب. بصراحة وبدون لف ودوران، وقولوا عليا ما شئتم، هل انتصرت معركة بالكذب قط؟ لم يحدث. من رأى منكم محاربًا انتصر بالكذب فليخبرني. أنا لم أرَ. قد يكون موجودًا ولكني لم أره. أنا لا أعرف كل شيء.

لماذا يكذب الإنسان؟ بدافع الخوف، الغيرة، تجميل النفس؟ هذا كله وارد، وأنا أغفر هذا كله، ولكن من يكذب بدافع الكذب فما عذره؟

أقول إن الثورة، رغم كل مميزاتها، استوطنتها جرثومة كبيرة. جرثومة نخرت فيها وأكلتها من الداخل، جرثومة الكذب. وستظل الجرثومة تكبر وتكبر، وإن لم نقتلها من الآن بكل ما أوتينا من مبيدات، فستأكلنا أيضًا. من منكم يحب أن تأكله الجرثومة؟

أوكي. هند سعودي كانت أختي. عشنا سوا في بيت واحد. كنت أحبها وأموت فيها رغم كل شيء، مع أنها كانت أحيانًا تتكلم وتتكلم فلا تترك لي فرصة للكلام، مع أنها كانت أحيانًا أخرى تقلب وشها مثل فردة الشراب في وجهي وتجلس بالأيام ولا تتكلم، وأنا ألوم نفسي وأضرب نفسي بالجزمة وأتعطف عليها لتكلمني كلمة. خلاص، هذه هي هند، مُودية وتمشي بمزاجها، هانعمل إيه، كنت أسامحها، لكن الشيء الذي وجع لي قلبي أنها كانت كذابة.

لم أكن من الأول واعية بهذا. لم تترك لي فرصة لكي أظن أنها كذابة، كانت كتلة متحركة من النشاط والحيوية وخفة الدم. يحبها المرء فور أن يراها. أنتم تعرفون.

ولكن بعد موتها، بدأت الحقائق تتضح لي رويدًا رويدًا. وسأحكي موقفين.

الموقف الأول، حكت لي هند حكاية عن واحدة صاحبتها، وصاحبتها أكيد بتقرا البوست دا دلوقتي، حكتلي عن مشكلة مرت بيها صاحبتها دي، وحكتلي إنها وقفت جنب صاحبتها ودعمتها وكلام كبير جدًّا. أنا قلت لنفسي حلوة هند، جدعة هند وبتقدَّر صحابها هند. وتشاء الظروف اني أتعرف على صاحبتها دي بعدين، وألاقيها بتحكيلي عكس الكلام دا بالظبط. صاحبتها قالتلي بالحرف

إن الكل دعموها ووقفوا معاها ما عدا هند، هي الوحيدة اللي طعنتها في ضهرها.

يا خبر يا هند؟ ليه كدا يا ماما؟ ليه تطعني صحابك ف الضهر، وليه تكذبي على صحابك؟ علشان تباني حلوة؟ والله انتي حلوة من غير أي حاجة والله.

الموقف دا مش مهم أوي، دي مش قضيتي، وعمومًا أنا مش ضد ان الناس تكذب عشان تبين نفسها أحلى.

المهم بقى، الموقف التاني بقى واللي قضى عليا تمامًا، إني كنت باشتكي لهند من شيء ما، واللي يعرفني هيعرف قد إيه أنا باحب الدراما وباحب اشتكي للناس، دي طبيعتي، ومش عارفة أعمل في نفسي إيه والله، وهي كانت متعاطفة معايا لدرجة إنها حكت لي حكاية عن إنها مابتخلفش، إن عندها عقم، وكانت حزينة جدًّا، وكانت حزينة أكتر من أي مرة شفتها فيها، وأنا قدّرت جدًّا إنها بتحكي عن حاجة هي مش عاوزة تحكيها علشان تواسيني، إنها خصتني بسر كبير يعني، رغم إن اللي قالته دا ماكانش له علاقة أصلًا باللي انا باحكيه، بس المهم إن أنا حبيتها يومها جدًّا. قلت لنفسي هذه بنت طيبة وتحبني ولا يجب أن أخاف منها.

نظرتُ إلى محمود، كانت ساقه اليسرى قد التحقت باليمنى لتتمدد على الترابيزة. وكان يغمض عينيه بين الحين والآخر، يثقل رأسه فيسقط في الهواء فينفضه ويفتح عينيه ثم يعود ليعلق رأسه بالفراغ. خفضتُ صوتي وعدت إلى القراءة.

ماذا حدث بعدين؟ اكتشفت ببساطة أن هند كان عندها ولد،

ولد مات زمان، الله يرحمه طبعًا. طيب ليه خبت عني حاجة زي دي؟ طيب ليه اخترعت القصة دي؟ مكسوفة ان ابنها مات؟ طيب الأعمار بيد الله. طيب مكسوفة انه مات ومش مكسوفة تقول انها مبتخلفش؟ ليه اخترعت كذبة طويلة عريضة، اللهم إلا أنها تكون بتحب تكذب؟

كنت أدمع وأنا أقرأ، ونظرت إلى محمود ووجدته نزل بجسمه قليلًا. غاص ظهره أكثر في كرسي البامبو حتى وازى رأسه ظهر الكرسي، وأغلق عينيه. نظرت إليه ورأيت ابتسامة تطفو على وجهه، فابتسمت وسط الدموع وعاودت القراءة لنفسي هامسة:

كلكم هنا عارفين إن هند كان عندها ابن. صح؟ طيب ليه أنا مااعرفش؟ ليه هي ما اعتبرتنيش واحدة منكم؟ وأصلًا أصلًا، بسأل نفسي، يا ترى كانت حاسة بإيه وهي بتكذب الكذبة دي؟ هل كانت مستمتعة؟ هل مثلًا كانت بتراهن نفسها إن لو حرنكش، حرنكش المسكينة الغلبانة اللي قدامها دي، صدقتها وصدقت الاشتغالة اللي هي عملتها، فيبقى كدا هي كسبت الرهان؟ هل مثلًا عينيها برقت من الفرحة إني مصدقاها؟ بالعكس خالص، كنت شايفة عينيها مطفية، أول مرة في حياتي أشوف عينيها مطفية، وشها كئيب وعينيها مطفية. للدرجة دي الإنسان يعرف يكذب يا هند؟

ليه عملتِ كدا يا أختي؟ كنتي عاوزة تثبتي لنفسك إيه؟ إنك شاطرة؟ والله انتي شاطرة من غير أي حاجة. لو الكذب هو الشطارة يبقى كسبتي الجايزة الأولى. برافو والله. تصفيق حاد.

ونزل محمود خطوة أخرى، ارتكن رأسه على ذراع الكرسي،

وتقلب على جنبه الأيمن حتى انكشف جانب من مؤخرته لبرد الشارع. وترددت في رأسي أغنية قديمة كنت أغنيها له لينام.

لم أعد أقرأ بصوت عال، ولا حتى خافت. صرت أتمتم فقط داخل رأسي:

أنا عاوزة أضيف إن عندي لوحة هند كانت راسماها، هي حكتلي، دلوقتي أنا ازاي أعرف إن اللوحة بتاعتها فعلًا؟ هند أفقدتني الثقة فيها. أنا آسفة جدًّا، الله يرحمها ألف مرة. ستلاف مرة. لكن مفيش حاجة خلتني أقول دا غير إني خايفة على الثورة، خايفة واحنا بننزل نواجه الإخوان نكون كلنا شبه هند. بكل أمانة، خايفة على الثورة من هند وأمثالها. خايفة جدًّا.

ونظرت إلى محمود الغارق في النوم، وتمتمت داخل رأسي، خلاص يا محمود. أنشر؟ وخيل لي أن ابتسامته تتسع. واتسعت ابتسامتي أنا الأخرى، ابتسامة دامعة.

ودست على زر بوست، دست دوسة لا رجعة فيها، وركنت بظهري أنا أيضًا على الفوتيه، جففت دموعي وأنا أعيد قراءة الستاتوس المنشور. جاءتني بعض اللايكات، فقمت لأجلب بطانية لأغطي بها محمود. تململ جسمه قليلًا وأنا أغطيه ثم عاد واستقر.

عندما عدت للابتوب كان الهجوم بدأ. تعليق يتساءل: الكلام دا هايفيد مين دلوقتي؟ وتعليقان على شاكلته، ثم رابع يقول: بصراحة وماتزعليش مني، مش هقول لك أكتر من إنك كدا قتلتِ هند سعودي مرة تانية.

أنار بصيرتي التعليق الأخير. فجأة أحسست كمن تخلص لتوه من

عبء ثقيل، كأن الخطة التي في رأسي قد تحققت بالمللي. فلتت مني ضحكة خافتة.

أخذت سكرين شوت للتعليق، وحفظت الصورة على هيئة خلفية لشاشة اللابتوب، حتى تلازمني كلما شككت في نفسي وفي قوتي، وهمست لمحمود النائم أمامي في الفراندة، شفت؟ قلت إني أستطيع. وكان فمه ينغلق ووجهه يرتاح. أخذت عيناه تكتملان أمامي، تبهت الحلقات السوداء حولها، يتورد جفناه بالتدريج، ويتضح لون العسل الصافي في حدقتيه، العسل الذي في عيني، ويأخذ فمه ينفتح ويصدر صوت تنفس ثابت، سرعان ما يتحول لشخير مرتاح، من زفير وشهيق منتظمين، وتعبق أنفي رائحته في شهوره الأولى، رائحة البيبيهات التي ملأت بيتي عندما ولد وملأت نفسي بالبهجة والامتنان.

محمود حبوبي وعصفوري الأثير، سيظل الحب ليلًا يظلل جناحه علينا فلا تقلق. أمك جدعة يا محمود، جدعة وقوية وصلبة وقادرة على الاعتراف لو أرادت الاعتراف.

الفصل السادس

تكّة العلبة الصفيح

«لا شيء في العالم ينطبق عليه اسم «العادي»»
عاطف

١

كان كمال في الإعدادية عندما ضرب زميلًا له في المدرسة اتهمه بأنه مسيحي متخفٍّ. هاج كمال وضربه بقوة بين عينيه.

الاسم الكامل لكمال كان كمال ذهني رامز. ودرجت العادة في مصر على أن الأسماء المحايدة، أي الأسماء غير المسيحية وغير الإسلامية بالضرورة، الأسماء التي هي ليست جون ولا جورج ولا كيرلس، ولا هي على الصعيد الآخر أحمد أو محمد أو مصطفى، هي أسماء يستأثر بها المسيحيون. خاصة لو كان الاسم الثلاثي على هذه الشاكلة، أي لو لم يقدم الاسم، خلال أجياله المتعاقبة، دليلًا يثبت أنه مسلم، فهذا يعني أنه مسيحي. عرف المدرِّسون هذا وعرفه تلاميذ المدرسة.

انجرحت جبهة الطفل، ضحية كمال، ونُقل إلى المستشفى. ولولا ستر الله لفقد عينه إلى الأبد. واستدعت إدارة المدرسة الأم، والأم التي تتحرك على كرسي بعجل أرسلت الأخ الأكبر، عاطف ذهني رامز.

هناك أسمعت الناظرة عاطف وصلة تأنيب طويلة ضد أخيه الأصغر، وسألته أين التربية وأين التقويم وأين دور البيت، تريدون فتنة طائفية في المدرسة؟ وكان عاطف يبتسم طول القعدة ويعتذر عن سلوك أخيه. يعتذر بشكل مذلول، هكذا رآه الأخ الأصغر.

وعاد الاثنان معًا إلى البيت. لم يفتح كمال فمه بكلمة طول الطريق، وعندما وصل البيت تخانقت معه أمه وقالت له إنه زبالة، فانفجر فيها، أنا مش زبالة وهذا ليس بيتًا وهذا ليس أخًا وأنت لست أمًّا، وفي نصف الكلام أشار إلى أخيه وسماه بالعرص. وكانت أول مرة تتردد هذه الكلمة في البيت، ونُبذ في البيت لأسبوع. لا أمه تكلمه ولا عاطف. كان ثائرًا ضد العالم والظلم.

كمال كان عصبيًّا، يضيف عاطف تعليقه المعتاد.

ولكن عاطف كان مدانًا أكثر. حقيقة أن كمال في مراهقته بدأ يتجه للبس التيشيرتات والبنطلونات الجينز، وأنه كون شللًا في المدرسة والجامعة واندمج في المجتمع، وأنه عندما تزوج أطلق ذقنًا خفيفة، وأن عاطف في مقابله، لم يتخلَّ أبدًا عن وجهه المتورد بلا شعرة واحدة، بالإضافة إلى القمصان المحشورة داخل البنطلونات القماشية، ونظارته وخجله وأدبه الزائد وانطوائيته وروب الدكاترة الذي يرتديه، كل هذا جعل وصمة المسيحية تبتعد بالتدريج عن

كمال وتلزق في عاطف، ولكن عاطف، المتسامح الأبدي الذي أدمن قول الكلام الصح، لم يبد ضدها أي شيء. قال بابتسامة، كلنا واحد.

لأسباب عديدة وطويلة، لم يُعرف المسيحيون في القاهرة، إلا بوصفهم أبناء الطبقة الوسطى المتعلمة، الدكاترة الذين يضعون قمصانهم داخل البنطلون. لأسباب عديدة لم تر الثقافة المهيمنة مسيحيين آخرين.

وحتى عندما قامت الثورة، ومع أن الأخ كان قد مات قبل أيام، نزل عاطف إلى التحرير مع طفليه، سما وتمر، وابن أخيه هيثم. يومها اقترب منه أحد المتظاهرين وسأله إن كان مسيحيًّا، لأنهم يريدون أن يرفع كفه بالصليب الذي عليه ويصوروه بجانب الشيخ. وابتسم عاطف بخجل وقال إنه في الحقيقة مسلم، وكدليل لا يقبل التشكيك، أشار لابنته سما. سما كانت طفلة محجبة.

كل الناس بيفتكروني مسيحي لغاية ما اوريهم بنتي، قال لي عاطف، اقولهم هو فيه مسيحي تبقى بنته محجبة؟ ويضحك. مش عشان حاجة، كل واحد من حقه يبقى مع الدين اللي بيحبه، بس لما يبقى مش معروف انتي مسلمة ولا مسيحية، فدي مش حاجة كويسة. عشان كدا قبل ما سما تدخل الحضانة قلت لمامتها لازم تتحجب. مامتها محجبة طبعًا، بس البنت عمومًا بتبقى إثبات أقوى.

نزل عاطف التحرير أيام الثورة، وآمن بها لأيام ثم سرعان ما انفض عنها عندما وجد هؤلاء الشباب لا يعجبهم العجب. عرف ساعتها أن المشكلة في الشعب، وأنه طالما الشعب مشغول بالكلام ولا يعمل

فلا شيء سينجح. وخاض جدالات طويلة حول هذه النقطة مع هيثم ابن أخيه، حتى الولد الصغير ملوله دماغه بالكلام دا. الواحد مبقاش عارف يقول إيه. إذا كان ناس انتي عارفاهم وعارفة بيفكروا ازاي، فجأة كإنهم اتسحروا. كإنهم كلهم، فردًا فردًا، حد عمل لهم سحر.

أنا مش ضد السحر، يواصل عاطف، لإن دا مذكور في القرآن، لكن كمان مذكور في القرآن إن المَلَكين هاروت وماروت، لما نزلوا الأرض وعلموا الناس السحر، كانوا بيقولولهم، إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ. وهو دا المقصود من الكلام. مش غلط الواحد يعمل سحر، ويعلِّم الناس السحر. لكن لما ماتقولش ان دا سحر، وماتحذرش الناس منه، فدا اسمه غش وتدليس. عشان كدا مثلًا من حق شركات الدخان إنها تبيع سجاير، بس لازم تكتب عليها ان التدخين مضر بالصحة. يبقى أنا قدمتلك المنتج بتاعي، لكن كمان ماضحكتش عليكي وعاملتك بأمانة...

لم يكن أكمل جملته عندما رن تلفونه، فقال بقية الجملة بسرعة كأنه يتفها، عشان كدا أنا بعتبر إن دم هيثم في رقبة الجماعة بتوع الثورة وستة أبريل والحاجات دي. ثم قام ليرد على التلفون، أزاح الملاءة وأسرع ليقبض عليه قبل انتهاء الرنة، ارتجت مؤخرته السمينة وهو ينط باتجاه التسريحة. نظر إلى الشاشة وهمس، شاهندة، ووضع إصبعه السبابة على شفتيه إشارة لي كي لا أصدر صوتًا. ورد على زوجته بصوته الجهوري، أيوه يا ماما، آه، لا اتعشي انتي مع الولاد النهارده، أنا هرجع بكرة. آه اتزنقت ف العيادة ومش هاقدر اروَّح دلوقتي، بس بكرة من سبعة الصبح بكرة هتلاقيني في البيت. هقضي

اليوم كله معاكو. ياللا بوسيلي الولاد. في رعاية الله. وأغلق التلفون وعاد لحضني.

حياة زوجية رتيبة، قالها وهو يتغطى بالملاءة مرة أخرى، ولم يستفض. عاد من فوره إلى نقطة هيثم. نزل هيثم اعتصام ماسبيرو، نزل ولم يعد، قال عاطف ضاحكًا بمرارة، كأنه خُطف هناك. قضى يومين في الاعتصام وهم في البيت لا يعرفون عنه شيئًا. هذا الولد تركه كمال لعاطف، وهو الآن أمانة في رقبة الأخير. ولكِ أن تتخيلي بقى، لفينا وسألنا عليه قد إيه واحنا مانعرفش عنه حاجة، وبعدين جالنا قالنا انه كان بايت في الاعتصام! كداهو والله! كإن ملهوش أهل يسألوا عليه!

مش كدا وبس، دا ابتدا يتريق على حجاب سما بنتي. انا معرفش بصراحة هما عملوله إيه في اعتصام ماسبيرو. مش ممكن يكونوا خدوه الكنيسة ونصروه هناك؟ إيه اللي يمنع؟ أنا قعدت أفكر في الموضوع دا كتير جدًّا، ووصلت إنه لو الولد حصل له سحر أو حاجة زي كدا، فدا هيبقى حصل في اليومين دول.

- زعلت عليه أوي لما مات؟

- زعلت عليه. زعلت عليه أوي. زعلت طبعًا. ربنا اللي عالم. لكن أنا من عادتي أقرا سورة الكهف كل يوم جمعة. في الجمعة اللي بعديها قريتها، وحسيت كإن ربنا ألهمني. قعدت افكر في قصة الولد اللي سيدنا الخضر قتله، سيدنا موسى قاله، أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قام الخضر قاله إيه؟ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وكُفْرًا. حسيت ساعتها كإن

كل اللي حصل دا حصل بالمشيئة الإلهية، وكإن الداخلية هنا أرادت إنها تمنع عني مشكلة كبيرة عن طريق إنها تعمل مشكلة صغيرة، كإنها أرادت إنها تزعلني يومين مقابل إنها تريحني العمر كله. الكافر هيشتكي بس المؤمن هيفهم.

أُخذت برده ولم أنطق. فقط لعبت في الشعرات السوداء في كتفه. لأول مرة يكون صوته صافيًا ورقيقًا هكذا، كأنه تحوَّل.

بعد قليل نظر إليَّ بعينين ملتمعتين، وسألني، تفتكري ممكن يكونوا نصروا هيثم في الكنيسة فعلًا؟

٢

بشكل عام، لم يكن محمود ينام بصعوبة.

أذكر أيامه الأولى كأنها كانت بالأمس. عكس معظم الناس الذين لا يتذكرون أيام أطفالهم الأولى، أذكر أنا إحساسي بالحوسة والقلق والرعب من الكائن الجديد الوافد إلى بيتنا. صبحي كان محتاسًا مثلي وأكثر، ولكني الأم. لم نعرف ماذا نفعل بقطعة اللحم الحمراء هذه، ولا كيف سنواصل حياتنا معها. تساءلنا معًا عن كل شيء، ولكني أنا فقط من كان يتحتم عليَّ إعطاء إجابات.

كنت أستعجل حتى أنتهي من كل شيء، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه قبل وصول البيبي، وهذا يعني أنني كنت أضعه على سريره السادسة والنصف مساء، كنت أريده أن ينام لأطول فترة ممكنة،

وحينها أعود إلى حدود ما قبل ولادته، وكان هو مستجيبًا لي بشكل لا يصدق. من أول أيامه، وعلى خلاف جميع الرضع في جميع أنحاء العالم، كان محمود ينام الليل متواصلًا.

لشهرين ظلت الساعات من السادسة والنصف مساء حتى السابعة صباحًا، هي الساعات التي أخلو فيها إلى نفسي، أما الساعات من السابعة صباحًا إلى السادسة والنصف مساء فكانت ساعات الربكة والجري وراء الرضعات والغيار والمناغاة والهدهدة بهدف إيقافه عن البكاء.

عندما تدق الساعة السادسة، كنت أجري لأحمّيه، ثم أضعه على سريره الهزاز، وأظل أمرجحه وأغني له حتى ينام. تعلمت أيامها أغاني كثيرة، لعفاف راضي ونيللي وغيرهما، هدهدات أطفال، وأغاني لعبد الحليم حافظ وفيروز ونجاة وفايزة أحمد لا تندرج تحت اسم هدهدات الأطفال. حفظت الأغاني عن ظهر قلب. وتمكنت من تنغيمها بحيث تعطي ذلك الإحساس بالرتابة المحبب للأطفال، كنت أبطئ إيقاع الكلمات، وبالتدريج أكرر المقطع مرة تلو الآخر، حتى أرى أن عينيه المفتوحتين لا تميزان شيئًا مما حولهما، ويفتر ثغره عن الابتسامة التي تسبق النوم، وتنغلق عيناه رويدًا رويدًا. أحببت تنييم محمود، وانتصاري فيه كان يعلي من روحي المعنوية بشكل عام، لأنه كان يشكل إثباتًا أمام صبحي أن لديَّ ما أنا ناجحة في فعله.

كان نوم الطفل بالنسبة إليَّ عملية بناء. يروح في النوم وأخرج إلى الصالة وأتفرج على التلفزيون، ثم يخطر لي أن أثبّت نومه قليلًا.

أقول لصبحي، هاروح أدق مسمار في النوم. وكان هذا يعني أن أذهب لأمرجحه قليلًا وهو نائم، هكذا يتدعم النوم ويصبح أكثر متانة، وأضمن ألا يصحو قبل السابعة صباحًا.

بعدها سيخطر على بالي تشبيه جديد. سأقول لصبحي، هاروح اشحن نومه. أضع نومه في الشاحن حتى بينما هو مشحون. هكذا فهمت آلية عمل الشواحن، وكان الموبايل وقتها لا يزال اختراعًا جديدًا في بيتنا.

كان محمود يحس بي وأنا أشحن نومه، وبينما عيناه مغمضتان كانت شفتاه تبتسمان بخفة، كأنه يعبر لي من داخل نومه عن امتنانه. شكرًا يا مامي لأنك لم تكتفي بأن تنيِّميني، شكرًا لأنك قدمت لي شيئًا لم أطلب منك تقديمه، شكرًا على لمسة الرقة الزائدة التي لا تبغين بها مصلحة.

على أي حال، فأنا لم أصل لخبرتي هذه من أول يوم. بنيتها شيئًا فشيئًا. في الأول، في أول أسبوع، عندما كان يكتشف العالم، حرفيًّا يكتشفه، كان يعند قليلًا. يبكي ويبكي وأنا أنظر إلى عينيه بثبات ولا أتوقف عن المرجحة والهدهدة، ويتوقف عن البكاء لثوان يختبر فيها ثباتي، وعندما يتأكد منه يعود إلى البكاء، ولكن باقتناع أقل هذه المرة، حتى يرتخي وجهه تمامًا ويروح في النوم. من أول أسبوع حسمت الصراع بيني وبينه. يمكن القول إني كنت موهوبة بالفطرة.

ولكن لن أنسى أبدًا تلك المرة التي عند فيها محمود معي لخمس ساعات متواصلة رافضًا النوم. في الأول راح في النوم، وظللت واقفة أتملى في وجهه لخمس دقائق، إلى أن فتح عينيه فجأة على

اتساعهما، مرة واحدة فتحهما بلا تنبيه، وارتبكت وقمت بحركة عصبية ما، فنظر إليَّ واندفع في البكاء، كأنه كان ينتقم من كل انتصاراتي السابقة عليه في تنييمه، كأنه مسك عليَّ غلطة أخيرًا. وانفتحت ماسورة الدموع والجعير والبرابير. استرجعت ثباتي بعد دقائق. شلته من السرير ومرجحته بين ذراعيَّ، وبدأت أغني له، امشي امشي عنه، روح للدبة نانو، لما الصبح بيفرش نوره، يصحوا ولاد الأرض يدوروا. وظل يصرخ مغلقًا عينيه ومظهرًا بلعومه المتأرجح، كأن روحًا شريرة تلبسته، ما إن تراه يكاد يصل إلى أرض السلام، حتى تقنعه أنه مخدوع وتحاول سحبه إلى أرض الأنواء والأعاصير والشرور، وأنا لا أملُّ، أحركه الحركة البطيئة نفسها، يمينًا وشمالًا، أنظر في عينيه بثبات، لا أحيد عنهما، وعندما يفتح عينيه بين وصلة بكاء وأخرى ويجد عينيَّ معلقتين به، يجعر بقوة أشد، ويدخل صبحي الأودة عليَّ، يتلصص لثانية ثم يلوي شفتيه يأسًا من قدرتي على تنييم الولد، أو استهزاء بطموحي في تنييمه، ولا أرتبك وأواصل الهدهدة بالنبرة الرتيبة نفسها.

لخمس ساعات كاملة كان جعير الولد يعلو ويهزمني، ولكن فجأة كأني اهتديت لأمر ما، فجأة كأن الإيقاع انضبط أخيرًا. نقلته من بين ذراعيَّ الاثنتين لأحمله على ذراعي اليسرى وحدها، مع تحميل فكه على كتفي، بالتحديد على تجويف عظمة الترقوة بكتفي؛ أذني منطبقة على رأسه، ورأسي مثقل يريد أن يرتاح، فينزلق انزلاقات خفيفة تنطبق معها أذني على رأسه أكثر، يتوحدان كأنهما جسد واحد، ويبدو لي كأني أسمع إشارات مخه بالداخل، أقرأ أفكاره وأسمع

قراراته، يشل الأمر قدرته على المفاجأة، فيؤجل أي صرخة مخنوقة في حلقه مستسلمًا لإيقاعي غير المنضبط، والذي لا يتحكم به أحد سواي، وبصرخة محبَطة وراء صرخة محبَطة، تخفت بالتدريج حدة صرخاته، لتصبح في النهاية مجرد غمغمات غير مقنعة ولا مقتنعة، حتى يبدأ جفناه في التثاقل والسقوط، ويروح في النوم ثانية على ذراعي المخدَّرة من أثر ثقله عليها.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء. وضعته على السرير مرة أخرى، ملست على جسمه بخفة وخرجت إلى صبحي وقلت له، على فكرة انت لازم تباركلي. أنا دلوقتي حالًا أقدر اقول اني انتصرت على الشيطان.

٣

كنا في الإسكندرية عندما حكيت لصبحي، خطيبي وقتها وزوجي لاحقًا، عن العلاقة التي أقمتها مع زميل قديم في الجامعة. زرنا الإسكندرية ليوم واحد، وكنا نتغدى ونناقش ترتيبات الشقة والزواج الذي تحدد موعده بعد شهرين. انقطع الكلام لدقيقتين فجأة ووسوست لي نفسي أن الوقت قد حان للاعتراف.

- أنا كان فيه واحد كنت باحبه أيام الكلية وحصلت بيننا حاجات مش صح.

- حاجات مش صح يعني إيه؟

ـ يعني حاجات مش صح يا صبحي.

رجعنا معًا في العربية إلى القاهرة. وطوال الطريق من الإسكندرية إلى بيتي في البحر الأعظم لم يتكلم. وكنت أريد أن أنطق وأطلب منه ألا يزعل مني ولكن لم أجد في نفسي الجرأة على فعل هذا. ورأيته يرتعش، يرتعش فعلًا وهو سايق، وسرح واقترب من عربية أخرى أمامه وكاد يخبطها، وداخل القاهرة سرح ثانية عند إحدى الإشارات وظل واقفًا حتى بعد أن انفتحت الإشارة. كان متوترًا فعلًا. وطلعت إلى البيت متكدرة. ولم أسلم على أبي ولا على طنط سميحة، وإنما دخلت الغرفة من فوري. في منتصف الليل أردت الاتصال به لأعرف إن كان وصل بسلام إلى بيته ولكن لم أجد في نفسي القدرة أيضًا. ولم نتكلم لمدة أسبوع، حتى جاءني هو نفسه تحت البيت وقال المسامح كريم وكلنا بنغلط وكلنا لازم نسامح.

وتزوجنا، ولم يشر بعدها بالكلام إلى هذا الموضوع، سوى في مرة واحدة يتيمة، ولكن الموضوع كان يحزُّ في نفسي أنا. غفرانه لي جعلني أحس أني أقل منه قليلًا. انكسر شيء بداخلي وبدأت أعترف لنفسي أني أتوتر عندما أراه.

مثلًا، كان يتحتم عليَّ أن أعطي رأيي في كل شيء، وأعني بالتحديد في الرومانسيات والعواطف. كنت أرى معه مشهد الحب في المسلسل من هنا، وأشعر بنظراته تخترقني من هنا، كأنه يطلب مني إيضاحًا حول موقفي من الحب، كيف أراه وما نظريتي تجاهه. وأنا لم تكن عندي أي نظرية، وهو لم يكن ينظر إليَّ. كنت فقط أتخيل هذا.

تبدلَ هذا عندما حملت. عاملني كأميرة لأول مرة، وبدأ يكنس

ويمسح ويطبخ معي، بل وكان يكنس ويمسح بمفرده أحيانًا، ويقول لي اذهبي أنتِ لتستريحي.

كان محمود استثماري وقتها، كنزي الصغير، وحافظت عليه ككنز صغير. في النهاية، أنا واحدة تزوجت متأخرة، وبعد أن انعدمت فرص الزواج أمامي، أو هكذا بدا لي. الولد كان فرصتي لضمان بقاء صبحي.

اهتممت بأدق تفاصيل محمود. ليس فقط تنييمه، ولكن كل شيء. أحسست بنفسي منتصرة أخيرًا. وتعاظم زهوي بداخلي، لولا أن صبحي بدأ يمل.

لا حل للملل الزوجي، ومن يقولون حافظي على زوجك وأثيريه ولا تتركي له الفرصة ليهرب كاذبون. يبقى الملل الزوجي قائمًا، لا ينصرف إلى أي مكان، حتى تظهر امرأة جديدة، وحينها يجد المنفذ ليعبر عن نفسه أخيرًا، بعنف وبجاحة.

المرأة الجديدة كانت زميلته في العمل، وكان اسمها جيهان، وسمعته مرة في التلفون يقول لها يا جيجي. ولم أواجهه. عادت نفسي إلى ما قبل ولادة محمود، منكسرة وضعيفة. قلت طيب، سيطير الرجل ولكنك على الأقل كسبتِ ابنًا.

كان صبحي شاطرًا في التكنولوجيا، كان يعمل في شركة اتصالات، وامتلك حسابًا على الفيس قبل أن أعرف أنا أي شيء عنه. وعلى ما يبدو لي الآن، على ما خمنته من طراطيش كلام هنا وهناك، أنه وجيجي كانا يعاكسان بعضهما على الفيس. لا يهم. كنت، ومن قبل انتحاره بشهور طويلة، قد اعتبرته راح مني. لم أبذل جهدًا للإبقاء عليه بين يديَّ.

رسمت في ذهني تصورات كثيرة لرحيله. سنتعشى معًا ويخبرني أنه قرر الزواج بأخرى، سيفتعل خناقة معي ويطلقني ويطردني من الشقة ويتزوج جيجي. سيقول إني امرأة ذات علاقات عاطفية متعددة وإني غير أمينة على الولد، وسيأخذه مني لتربيه جيجي. كل شيء ما عدا أن أعود من البلد وأجد جثته منتفخة أمامي وبجانبها علبة مهدئات فارغة.

كان كل شيء ليمضي جيدًا. كنا لنستمر في حياتنا يا صبحي. كنا سننجب آخرين وآخرين، أدهم وسلمى وجنى، كما خططنا أيام المزاج الرايق. لماذا إذن مضيت بعيدًا هكذا؟ هكذا رددت وأنا أقف على قبره، بينما أؤمِّن على كلام المرتل الذي يدعو له بالثبات عند السؤال في القبر.

٤

بعد انتهاء حورية من كتابة بوستها الأخير، البوست الذي اعتبرته اعترافها بقتل هند، غاصت في الفوتيه الأحمر وراحت في النوم. كان الهجوم قد بدأ عليها قبل نومها، ولكنها لم تتخيل أن تصحو لتجده وقد أغرق كل التايم لاين. أصبحتِ عدوة الشعب رقم واحد يا حرنكش. برافو.

كان هناك خمسة آلاف شير لبوستها عن هند، خمسة آلاف شخص يهاجمونها ويصفونها بكل شيء، اللبوة والشرموطة والوسخة،

زبالة الزبالة ورمة الرمم، وجوَّد عفاريت الفيسبوك واخترعوا شتائم لم تقرأها من قبل، كان محورها الدلدولة التي عطفت عليها القديسة هند سعودي وسمحت لها أن تكون صاحبتها، ولما ماتت القديسة استغلت الدلدولة هذا وشتمتها وحاولت تشويه سمعتها، شتمت ستها وست من خلفوها.

كيف تدافع حرنكش عن نفسها؟ كيف تقول إنها لم تراعِ شيئًا فيما كتبت سوى أن تكون صادقة لأكبر قدر ممكن؟ كيف تَشرح أنها تعرف أن ما كتبته سيئ، وأن ما كتبته غير حساس، وغير لذيذ، ولكنه حقيقي؟

هجوم متواصل استمر عليها لمدة أسبوعين. كانت تفتح صفحة الفيس عندها وتجد اسمها في عشرات البوستات، خاليًا من أي إشارة أو توضيح، كأنها مغنية أو نجمة مشهورة، رمزًا للانحطاط غنيًّا عن التعريف، وفي هذه الآونة كان المصريون بدأوا يسمون هذا النوع من الانحطاط «تعريصًا»، وهذا النوع من الهجوم على التعريص «تحفيلًا»، أي إقامة حفل يشارك فيه كل من الحضور بما يقدر عليه لتدمير المعرِّص وقتله معنويًّا.

ولكن حرنكش لم تمت. حتى في خضم اشتعال الحملة ضدها، لم تكن حزينة. أولًا، كانت صادقة وتعرف أنها صادقة. ثانيًا، هي اعترفت وهي تعرف أن الاعتراف له ثمن، وها هي تدفع الثمن. وثالثًا، من هؤلاء ليشتموها؟ هي التي تدربت على الشتيمة أيامًا وليالي طويلة، هي التي قتلت امرأة بشتائمها من قبل. تظنون أنفسكم شطارًا يا كتاكيتي؟

توالت عليها الاتصالات والرسائل، حورية طمنيني إيه اللي حصل، ايه اللي زعل الناس منك يا حبيبتي؟ ولم تجد في نفسها القدرة للرد على كل هذا. بعد أسبوعين، وبعد أن أخذت العلقة كاملة، بدأت حدة الهجوم تهدأ.

واشتكت لقمر، وميزت قليلًا من الزهو في صوتها هي نفسها وهي تشتكي، الزهو بنفسها كامرأة قادرة على إثارة الفيسبوك كله، وعلى جعل البلد كله يتكلم عنها لو أرادت. وضحكت قمر كثيرًا. وقالت لها معلش يا حبيبتي كله هيعدي، بس إيه الجمودية دي بس يا حرنكوشة؟

ضحكت حرنكش معها، وإن لم تغفل ملاحظة أن قمر، قمر تلك التي تضحك معها الآن وتواسيها، لم تدعمها في معركتها هذه بأي شيء، لا بشير ولا بكومنت، ولا حتى بلايك يتيم. وأحست لأول مرة أنها أقوى من قمر، أو على الأقل أقدر منها على قول الحقيقة.

لكن الأيام تعدي، وسرعان ما ينسى الناس التحفيل، وحرنكش من جانبها انحنت للعاصفة. لم تدافع عن نفسها ولم ترد شتيمتها. قرأت وكتمت في نفسها ابتسامة الزهو بنفسها وبقوتها.

وكما لم تنسَ الإساءة لم تنسَ الإحسان. كانت تجلس مع عاطف في عربيته على كورنيش المقطم عندما اعترفت له بامتنانها له، لأنه لم يبخل عليها باللايك ولا بالشير، ولأنه حياها في الشير، ولأنه فعل كل هذا بعد ساعات طويلة من نشرها البوست، أي بعد أن كانت تحولت لعدوة الشعب فعلًا.

٥

في ٢٠١٠ أنشأت حرنكش حسابًا على الفيسبوك باسم «Haran Kash»، وفي ٢٠١٣ أصبحت عدوة الشعب، وفي ٢٠١٣ أغلقت حسابها.

الفيسبوك أعطاها احتمالات كبيرة، كوَّنت عليه صداقات وسمعت فيه الحجة ونقيضها وفهمت شيئًا عن العالم، كان يسلي وحدتها في الأيام التي لا ترى فيها عاطف، وكان يتيح لها بين الوقت والثاني التلصص على ما يكتبه الناس، أن تعرف كيف يفكر الناس.

ولكن بعد الهجوم المتواصل عليها، وبعد أن امتلأت رئتاها بهواء المقطم النقي، وبعد أن قررت أنها عبرت عتبة كبيرة للغاية بكتابتها عن هند، فكرت أنها ربما زهقت من الفيسبوك ولم تعد تحتاجه. عملت ديأكتيفيشن مؤقتًا لحسابها ولم تعرف أنها تغادره هكذا إلى الأبد.

ولكن قبل أن تدوس زرار الديأكتيفيشن، كان الفيسبوك قد أهداها هدية غالية، سيقدَّر لها أن تكون آخر هداياه إليها. أرسل إليها الرائد أحمد بدر رسالة على الخاص من كلمة واحدة، مبروك. وأرفق بالرسالة خبرًا عن إحباط عملية اغتيال قيادات في الجيش.

كان الخبر يتكلم عن تبادل لإطلاق النار حدث على الكوبري الدائري، بين ضباط الشرطة ومجموعة من الجهاديين الذين تمت تصفيتهم تمامًا، ثم تبين أنهم مطلوبون على ذمة قضايا سابقة، كما عثر في سياراتهم على مخطط لاغتيال قيادات عسكرية في البلد. بحثت في الأسماء المرفقة بالخبر وكان من بينها حسين عبد الرحيم شحاتة.

أغلقت الخبر وصدرها يقفز من الإثارة. نزلت من البيت ومضت تتمشى في الشارع لتهدئ نبضات قلبها، وعندما وجدت مظاهرات كبيرة تحتشد هناك، وراء شارعها بشارعين، عادت إلى بيتها وفراندتها الحبيبة، وأخذت الذكريات تهاجمها وهي تحاول منعها فلا تمتنع.

٦

الآن أذكر هذا جيدًا، الآن تخطر على بالي الصور ويوضح بعضها بعضًا: حسين في قاعة المحاضرات بالكلية يعطيني كشكولًا، أو أنا أعطيه كشكولًا، ويقترب أكثر ليبوسني على رقبتي.

أذكر دخولي معه للمدينة الجامعية، في إجازة ما، وكل الطلبة في قراهم وبلدانهم البعيدة يعيِّدون، ونحن نعبر بابًا خلفيًّا لنصل إلى غرفته. أذكر ملاءة منشورة على سور بلكونة غرفته، وفيها آثار من بقع دم البراغيث. وأذكر أني هتفت فيه، هكذا تغسلون ملاءاتكم؟

أذكر أني كنت خائفة، وأني كنت أريد الانتهاء من كل هذا بسرعة. وأني فور ما انتهيت سألته، خلاص كدا؟

أذكر خيانته لي ومحاولاته الدؤوبة لتجاهلي، وأذكر اكتئابًا طويلًا وحادًا عانيته عندما تبين لي أنه ليس الشاب الرقيق الذي أحببته، وأذكر أني كدت أسقط في مادة لعدم قدرتي على مراجعتها قبل

الامتحان، وأذكر طفلًا جميلًا ادعيت وجوده في بطني ليرق قلبه عليَّ ولو قليلًا، ولم يرقّ.

كان يمكنني أن أسامحه رغم كل هذا. كان يمكنني أن أسامحه لولا أنني رأيته سمن هكذا، واتسخت ذقنه بالشعر هكذا، ويعذب المتظاهرين هكذا. كان يمكنني أن أسامحه لولا أنني أدركت أن وساخته لم تكن عارضة، وإنما ظل معجونًا بها حتى الآن، حتى موته وهو يخطط لاغتيال ضباط في الجيش.

كنت أجلس في الفراندة أشرب الجوينت وكوب الشاي وأنا أوجه بصري خلف شارعين من البيت، حيث يستمر الإخوان في إطلاق النار والحجارة على متظاهرين احتشدوا لمحاصرة مقرهم.

الثورة التي هربت منها سابقًا إلى جبل المقطم لحقتني هناك. مدت ذراعًا لها في اتجاه مصر الجديدة وقصر الرئاسة، وذراعًا أخرى حولي في المقطم ومكتب الإرشاد. وأنا لم أكن أريد إلا قليلًا من الهدوء. أريد الفرار من الثورة والتخلص من علاقتي بها، وهي غبية وغير حساسة ولا تفهم وتلاحقني أينما كنت. كان الناس على صفحتي على الفيسبوك يكتبون عن وقائع المعركة الدائرة خلف بيتي. الثورة كانت أمامي على شاشة الفيس، وخلفي في الشارع.

كفاية بقى، هتفتُ بصوت عال وأنا أمد يدي إلى زرار الديأكتيفيشن وأعطل حسابي على الفيسبوك، الناس كانوا يعيشون قبل الثورة وقبل الفيسبوك، وسيظلون يعيشون بعدهما. وعلى العموم، يومان ونرى.

من الأول خالص، كنت خائفة أن أقتل عاطف. كان هذا شيئًا مثل التوقع.

أردت أن أحذره ولم تطاوعني الكلمات، أنا واثقة أني أتعلم وأني أمشي على الطريق الصح. ولكني لست واثقة أني لن أخطئ ثانية.

أردت أن أقول له إن كل من أحبوني، كلهم جميعًا، بدءًا من تاريخ معين في حياتي، قد ماتوا، ماتوا جميعًا، إلا أنت يا عاطف. هذا سينتهي، في يوم ما والله العظيم أنا أثق أنه سينتهي، ولكن لا أضمن لك أنك لن تكون ضحية.

كنت أخلو إلى نفسي قبل النوم وأقول، يا حورية عاطف لم يؤذك. ابتعدي عنه. يا حورية أنت تعرفين جيدًا من المخطئون ومن الأشرار، وهو ليس واحدًا منهم. أنت قادرة على الابتعاد إذا أردتِ. وكنت أقرر أن أحكي لعاطف قصتي كلها ويصدق أو لا يصدق. ولا أحكي.

كنت أجلس مع محمود وأسأله، ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ فيهز كتفه ويقول، لا وعود ولا ضمانات. تقبلي قدرك.

كنت أقول، أخاف أن أخطئ التصويب. أنا أتشنج أحيانًا، أنا لا أطفو. فيقول، يكفي أنك واعية بهذا. فأصرخ، يا حبيبي أنت لا تفهم. المشكلة أني واعية بهذا.

لم يكن محمود يفهمني. أقول له إني أريد أن أترك عاطف، إني لا بد أن أترك عاطف، فيقول الصبر حلو.

في هذه اللحظة رأيت محمود عديم الجدوى، شخصًا ينصحني

بالصبر في كل موقف. أنا كنت أريد أن أفعل شيئًا، وهو يحرق دمي ببروده. سألته، بقيت حكيم يا ولا؟ فابتسم ابتسامة خفيفة، مش هو دا الصح؟

لا يا محمود، مش هو دا الصح. وركبت رأسي وقررت منع نفسي عن الكلام مع عاطف، يومًا واثنين وثلاثة. هو دا الصح.

كنت أتقطع ولكني صمدت، بطلي جشع يا حورية، كنت أقول لنفسي.

ولكني صمدت. اتصل بي عاطف ستين مرة ولم أرد عليه، وأرسل لي رسائل ولم أرد، كنت أريد الاختفاء عن عينيه تمامًا. كأني كنت أتحدى محمود. كأني أردت أن أثبت له أني، مثلما قدرت على الاعتراف من قبل، فأنا أيضًا قادرة على الهجر.

في الأول لم أكن واثقة من إمكانية صمودي، ولكن مرور الأيام وإحساس القوة لديَّ وأنا ألمح اسمه على التلفون وأتجاهله، شجعاني على المواصلة. في الأول قلت لن أكلمه لأسبوع، ثم قلت لأسبوعين، ثم لشهر. ثم، وجدت نفسي أكمل الشهرين بدون كلمة معه. وكان محمود يسألني، وأنكل عاطف يا مامي؟ فأجيبه، خلاص، مفيش أنكل عاطف خلاص.

حاول عاطف زيارتي مرتين، رن الباب ورأيته من العين السحرية ولم أفتح. ومشى بعدها على طول. عاطف محترم، لن يقف أمام باب واحدة ست أكثر من دقيقة. وكتب إليَّ يعاتبني، ورأيت رسالته ولم أرد.

شهران مضيا بدون عاطف في حياتي. شهران استرجعت فيهما

نفسي، عدت إلى المشي مطولًا في شوارع المقطم في الصباح، وخرجت مع صديقات قديمات من المدرسة، وتفرجت على التلفزيون، وبالليل كنت أرغي مع محمود أو أقرأ قرآنًا. وظننت أني وصلت إلى الراحة النفسية أخيرًا. ولكن كل هذا انهدم برنة تلفون واحدة.

كنت أمشي في شارع المقطم في العاشرة صباحًا، عندما ظهر رقم غريب على الشاشة. رددت فجاءني صوت أنثوي عميق، إزيك يا حورية، مش فاكراني؟

لم أتذكرها من الأول، وإن لم يكن صوتها غريبًا عليَّ. وفي دقيقة واحدة استعرضت في ذهني قائمة صاحبات مثل هذا الصوت وخطر لي كل شيء: امرأة بجسد ضخم ورائحة بيرفيوم نفاذة وطرحة محكمة وملونة. هتفت، ازاي مش فاكراكي بقى؟ ازيك يا مدام شاهندة؟

كل الاحتمالات نبتت في ذهني لحظة واحدة. بعد تبادل التحيات والعتاب على عدم السؤال، سألتها بنبرة حذرة، خير؟ فقالت إنه كل خير. لقيتك مش بتسألي فقلت اسأل انا. بصي يا ستي. احنا عاملين حمام بالفريك وملوخية ومحشي بعد بكرة. وقررنا ان انتي لازم تيجي تتغدي معانا يوميها. معاكو؟ انتو مين؟ أنا وعاطف والأولاد، ولا نسيتينا؟

لم أفهم هذا الحب المفاجئ، كأنه فخ يطبق عليَّ. أردت السؤال عن سبب العزومة ولكن الست كانت ودودة ودافئة معي بشكل لا يصدق. نظرت إلى محمود فوجدته يرفع كفه أمام وجهه، يحركها بشكل أفقي ويصعد بها بالتدريج، بمعنى طيري وطوفي وعومي مع

التيار. صحيح أن كفه تعثرت قليلًا في محاولتها الطيران، دلالة على بعض التردد وعلى أنه كان يفكر أثناء ما كان يفعل، إلا أنني قررت قبول الدعوة.

لم أعرف ساعتها أن هذا سيتبين لاحقًا باعتباره خطأ محمود الأساسي والقاتل، الخطأ الذي سيكشف لي أنه، حتى هو، يسيء التقدير، ويعمل ضد ما يتصور أنه مصلحته. حتى هو لا يعرف كل شيء ولا يفعل الأمور الصحيحة دائمًا.

٨

عند دخولها البيت استقبلها عاطف استقبالًا محايدًا، سلم عليها وخاطبها بـ«مدام حورية»، كذلك استقبلها ابناه، سما وتمر بشكل محايد، وناداياها بـ«طنط». وحدها مدام شاهندة من فتحت لها ذراعيها العريضتين للأحضان والقبلات.

كانت مدام شاهندة متخصصة في عمل الخير. منذ عشر سنوات أقامت دارًا للأيتام في الدقي، وصارت تزورها مرتين في الأسبوع وتتابع كل تفاصيلها، وكانت لديها ألبومات وألبومات من صورها مع الأطفال. كانت الدار حياتها ومجال تحققها.

بالتأكيد كانت هذه المرأة، بميلها القوي للعدل والخير، هي السبب وراء دفاع عاطف عن حقها في الورث، هذا ما قالته حرنكش في نفسها، بينما شاهندة تأتي لتجلس بجانبها على الكنبة وتفتح لها

الألبومات. دا سعيد، ودا أحمد، ودا طارق، ودا حذيفة، ودا كيرلس، وتشغل لها الفيديوهات من تلفونها، دا لما رئيس الحي جا زارنا، والأولاد اللي بيغنوا دول بقالهم بس سنة في الدار.

لم تكن الدار للبنات، فقط للأولاد الذكور. تقول مدام شاهندة، خفنا يحصل اختلاط، فأي بنت بتجيلنا، بنحولها على الدور اللي حوالينا في المنطقة وبنسعى جدًّا في اتجاه ان هما ياخدوها.

وأشارت إلى زوجها، عاطف كمان ساعدنا كتير أول ما بدأنا. كان بيرابط في الدار، وعمل لنا وحدة طبية خاصة بينا شغالة لغاية دلوقتي. واتعلم هناك هوايات جميلة جدًّا. وريها شغلك يا عاطف. وقام عاطف ليجلب بعض أشكاله الورقية، وعاد وعرضها عليها، دي بجعة، ودي سمكة، ودا دبدوب.

منذ عشر سنوات أقام عاطف في الدار، جاء بأكله ولبسه وبطاطينه، وعسكر هناك. أراد التعرف على الأطفال عن قرب. وبرر هذا باحتياجات عملية، دا مفيد في شغلي أوي. كان هذا قبل مجيء سما وتمر، ووقت لم تكن علاقته بالأطفال إلا علاقة دكتور بحالة مرضية. هناك تعلم اللعب بالورق، من بيبي سيتر، بس كانت عبقرية، يقول. وتعلق مدام شاهندة، أنا مادفعتوش خالص، دا هو من تلقاء نفسه كدا.

تعلم اللعب بالورق وأجاده وأضاف إليه، قبل أن يعرف أن اسمه «أوريجامي»، وقبل أن يعرف عن أصوله اليابانية. يقول، اليابانيون عباقرة بكل تأكيد، إحنا بنسخر منهم عشان أجسامهم صغيرة لكن هما عباقرة بكل تأكيد.

كان يعرض ألعابه عليها، بينما مدام شاهندة تحكي لها عن شقاوة الأطفال في الدار ولذاذتهم. وسما وتمر يتخانقان على التلفزيون. كل منهما يريد مسلسل كارتون مختلفًا عما يريده الآخر. وللحظة بدا لحرنكش أن هذه هي الجنة. حياة بسيطة مليئة بالألعاب وبالأطفال والحكايات عنهم والشكوى منهم.

أكثر من هذا، لم تشعر حورية بعاطف، هنا وعلى هذه الكنبة، إلا كأخ لها. كانت مبسوطة وتضحك بحضرته وكأنه ليس حبيبها، وكأن لا وجود لسر خطير مدفون تحت الكلام المعلن في الصالة، سر يوشك إذا انكشف أن يدمر حياة الجميع. نسيت حرنكش تعقيدات اللحظة واستسلمت لبهجتها، وكانت ليلة سعيدة بالنسبة إليها.

٩

أنا لا أحب أن أقول كلامًا فلسفيًا كبيرًا. ولكن كثيرًا ما يبدو لي أننا نبذل جهدًا خرافيًا من أجل دفع باب معين بهدف فتحه، ونعرق ونلهث ونيأس، ونتصور أن الباب ليس إلا حائطًا مصمتًا وأنه لن ينفتح في سنته، ثم نسمع التكَّة. ينفتح الباب، ونفرح كأننا لم نعرق ولم نلهث.

التكة لا تكون مفاجئة تمامًا، تسبقها أحيانًا مرحلة من الإحساس باقترابها منا. في هذه المرحلة يفارقنا اليأس لسبب غير مفهوم، نبذل جهدًا أكبر، نشتعل بالنشاط، وعندما نسمع التكَّة نشرب ونرقص وننبسط.

هذا شيء يشبه تنييم الأطفال. في البدء يكون الطفل صاخبًا، بكاءً أو ضحكًا، يبدو بعيدًا عن النعاس بمئات الكيلومترات، ولكننا نقاوم، نقول لنجرب، ثم نيأس، ولكن نظل نجرب، نحاول ونفشل، ولكن تبقى التجربة خطًّا مستمرًّا وممتدًّا، حتى يبدأ شعور يخامرنا باقتراب التكة. يتخدر جسم الطفل، ويتنَّح بعينين مفتوحتين على مصراعيهما كأنه أصيب بالعمى، نسمع التكة عندما يرتخي جفناه أخيرًا. يغلق عينيه وينفتح أمامه الباب الذي يقوده إلى عالم الأحلام الملون.

يبدو لي أيضًا أن الكون يصدر في كل دقيقة عشرات التكَّات، لا تسمعها الأغلبية لأنها مشغولة بالمظاهرات والهموم اليومية والجري وراء لقمة العيش. قليلون منا فقط من يسمعونها، وأقل من يحسون باقترابها. تُردن دليلًا؟ نحن نقول «على تكة»، أي موشك على الحدوث. نحن نسمع صوت التكة قبل أن تحدث.

إن كان ثمة شعور يسيطر عليَّ في هذه الفترة فهو الإحساس بأن التكَّة موشكة ولا تبعد سوى مقدار فركة كعب. خلاص يا حرنكش، الباب سينفتح وستنكشف خلفه سناجب وعصافير وأنهار وغزلان وجو رائع، لا حار ولا بارد.

أحيانًا تأتينا لحظة إلهام محددة باقتراب صوت التكَّة منا، وأحيانًا يكون هذا شعورًا ينمو بالتدريج، وليس في لحظة محددة.

أنا كنت الحالة الأولى. في لحظة إلهام مفاجئة عرفت أن التكة موشكة. عرفت أن التكة على تكة.

كان هذا عندما مالت عليَّ مدام شاهندة وأنا جالسة عندهم في الصالة وسألتني عن قابليتي للعمل في دار الأيتام بتاعتها.

كانت سألتني عن شغلي، فأجبتها بأني مدرسة رياضيات مفصولة.

سألتني لماذا فُصلت، فأجبت بأنه بسبب الحادثة القديمة، عندما مات ابني وكمال، أنتِ تعرفين، تعبت نفسيًا فقررت عدم الذهاب ففصلوني.

سألتني كيف أقضي يومي، فأجبت أني أتفرج على التلفزيون، وأني اكتأبت لأني لا أفعل شيئًا في حياتي.

شرحت لي أنها تفكر في نظام جديد للدار، وأنها تحتاج إلى جليسات أطفال، يأتين ليجالسن العيال، ولكنها تريدهن مثقفات. القعاد مع الأطفال مش مجرد تسلية، إحنا عاوزينها تسلية وتعلم واستفادة في الوقت نفسه.

سألتني إن كنت أعرف، بجانب الرياضيات التي تثق أني خبيرة بها، بعض مبادئ في الإنجليزية؟ فأجبت بأيوه. أنا أريد هذا يا مدام. أنا سأستقتل من أجل الحصول على هذه الوظيفة. وضحكت المدام عاليًا.

ستبدأ مدام شاهندة في تطبيق هذا النظام بعد ستة أشهر، في سبتمبر القادم، تزامنًا مع بدء العام الدراسي. وسيُطبَّق أولًا على الأطفال الذين يبلغون ثلاث سنوات، تمهيدًا لهم لدخول الكي جي وان، ولكن في الأعوام القادمة، وإذا أثبت هذا النظام نجاحه، سيطبَّق على العيال اللي عندهم سنتين، ثم سنة واحدة، ثم أشهر. تخيلي معايا يا حبيبتي لو ابتدينا، والعيل عنده ست اشهر بس، نكلمه بالإنجلش، ونحكيله عن الماثيماتيكس والساينس. أكيد هيطلع طفل عبقري. أنا مؤمنة أن أصعب نظرية ممكن نشرحها للعيل وهو عنده يوم واحد.

ضحك عاطف، يوم واحد؟ فنظرت إليه بصرامة، أكيد مش يوم واحد يا عاطف، دي مبالغة!

انحزت لشاهندة في هذا الجدال، وأمَّنت على كلامها لعاطف. كنت أحس في قرارة نفسي أنني أسمع التكَّة أخيرًا. أسمع دبيب أقدامها وهي تتمشى في الكون مقتربة مني، وأردت الإمساك بها وعدم تركها تضيع من يدي.

١٠

بعدها عرفتُ أن العزومة كانت تخطيطًا من عاطف. قالت شاهندة، جت سيرتك من يومين وعاطف هو اللي طلَّعها في دماغي إن لازم أعزمك تيجي عندنا.

استغربتُ بعض الشيء، أدهشني أن أرى عاطف عاشقًا يخطط لرؤية حبيبته. بعدها بيومين سألته عن هذا، فرد بالإيجاب. قلت إني لم أتوقع هذا منه، فقال، أنا ماحدش يتوقعني على فكرة. قلت، لاء على فكرة بقى، إنت متوقَّع جدًّا.

يمكن القول إن الشهرين اللذين قضيتهما بدون عاطف، الشهرين اللذين مرنت نفسي فيهما على الحياة من غيره، قد أفاداني جدًّا، جعلاني ألمس عيوبه ومهدا لانفصالي عنه.

حتى مع تخطيطه لأن يراني، مع أنه كشف عن نفسه كعاشق حقيقي، ولهان ومعذَّب، لم يعد الشيء الذي انكسر بداخلي إلى

سابق عهده. أو ربما كان هذا بسبب ذاك، نحن نحب من نخطط لرؤيتهم، لا من يخططون لرؤيتنا.

فتور، فتور، فتور. كنت أزور عاطف في عيادته ويزورني في شقة المقطم، بل وعملنا سكس هناك مرتين ربما، ولكنني بدأت أحس بالفتور تجاهه. أهداني مرة كرة معمولة من ورق ملون ومقوى فقلت له، ما تبطل شغل العيال دا يا أخي! ومرة صارحته أني لا أحب لون كيلوتاته الرمادية فاقترح أن ننزل معًا لشراء كيلوتات جديدة، فلويت شفتيَّ وسألته، وانت متعرفش تنقي كيلوتات لوحدك؟ دا انت حتى فنان كبير يعني. كان الشيء الذي أعجبني فيه سابقًا هو ما جعلني أتذمر منه لاحقًا. وهذا لا يعني سوى الفتور.

هذا الشعور أخذ وقتًا طويلًا حتى يتبلور. بين شد وجذب وجذب وشد، كان ينمو بداخلي شعور بالزهق من عاطف، في مقابل التعلق بزوجته بالتحديد، مدام شاهندة التي ستفتح لي الأبواب المغلقة والمستعصية.

أصلًا، بدا لي أني بقبولي اقتراحها بأن آتي للعمل في دار الأيتام، سأتمكن من مرافقتها لوقت أطول، ومن تعلم شيء أكبر عن الحياة، الحياة الطبيعية والخيرة التي كانت تعرفها أفضل من أي أحد.

في تلك الآونة كانت نفسي انفتحت على المشي في شوارع المقطم. كنت أقطع شارع تسعة ذهابًا وإيابًا كأنني في ماراثون، في أذني السماعات وبيدي زجاجة الماء الساقعة. لم أتوقف عن المشي حتى في ظل الخطر، بينما المتظاهرون يرشقون مكتب إرشاد الإخوان المسلمين بالحجارة والمولوتوف ويُرد عليهم بالحجارة والمولوتوف. فقط

أخرجت المسدس الصغير الذي أعطاني إياه عم ناجي من الشكمجية، لأضعه في شنطتي. هكذا انتصرت على الخوف وأحسست بالأمان.

في واحد من لقاءاتي مع عاطف في هذه الفترة وصل تحت البيت بعربيته. كنا اتفقنا على شرب قهوة في ميدان النافورة. نزلت وفتح لي باب العربية فقلت إن مزاجي أن نذهب مشيًا. لم يفهم، فتكلمت بتوتر، الجو حلو والمسافة مش بعيدة. فأومأ برأسه وكأنه يوافقني، طب تعالي اركبي ونتكلم في الموضوع دا. وركبت، وكنت مغتاظة، وقلت له إن المفروض العربية لا تُستعمل إلا في المشاوير الاستثنائية، وإني أزهق من القعدة في البيت وأحب الخروج، وإني أحب المشي في الشارع حتى لو لم يكن الجو حلوًا، فما بالك ونحن في الربيع والأزهار مورقة والشمس طالعة. فجاوبني، معاكي حق، وسكَتَ، واغتظت أكثر.

لم يشعر عاطف في هذه الفترة بنفوري منه. كان متبلدًا ثقيل الظل كعادته. وأحيانًا كنت أتلذذ بإهانته، إهانات خفية كجرح الموس، كنت أفعل هذا مرتاحة الضمير لأنه لم يكن يحس بها.

كانت لديَّ كثير من الأسباب لترك عاطف، أولًا كونه متزوجًا، ثانيًا كوني أخاف عليه من نفسي، وثالثًا الفتور، وهذا أهم شيء. رغم كل هذا لم أتركه، لأن الاعتياد يأتي ليسيطر علينا ويمنعنا من تنفيذ القرارات. تأتي القرارات لتحاول وضع حدود أمام العادات، فتفاجئها العادات بتلامتها وصلابة جدرانها. تعرف القرارات وقتها، وظاهريًّا فقط، أن الله حق، تنحني قليلًا وتنسحب إلى الخلف قليلًا، ولكن في الحقيقة، فهذا لا يحدث إلا بعد أن تكون أحدثت جرحًا صغيرًا في جدار العادات. هذا الجرح هو ما أسميه «الفتور». وهكذا تعمل الأمور على ما يبدو لي.

كانت حرنكش تحوم حول سن اليأس. صحيح أن البيريود لم تنقطع، ولكن كان أمامها بعض الشواهد؛ متشرد قذف فيها أيام الثورة وهي ماشية في الشوارع، وأمين شرطة قذف فيها قبل شهور على جبل المقطم، وعدَّى كل شيء بسلام، لم ينتفخ بطنها ولم يخرج للوجود أطفال جدد.

ذات مرة، وهي تحاول تسويق فكرة زواجها بكمال أمام ابنها الصغير، سألته، مش عاوز بيبي جديد يا محمود؟ ورد عليها هذا بحسم، لا، مش عاوز بيبي جديد. هي نفسها لم تكن واثقة أنها عاوزة بيبي جديد، ولكن المشكلة أن الموضوع لم يكن عدم رغبتها، وإنما عدم قدرتها بالأحرى. هذا ما استشعرته مع مرور الوقت، وإن رفض عقلها الاعتراف به.

لو أن كل نيكة بطفل، لكان لديَّ ابن من حسين عبد الرحيم شحاتة. هناك صدف في العالم، أحيانًا نعمل سكس وننجب أطفالًا، وأحيانًا نعمل ولا ننجب، كانت تقول، ثم ترد على نفسها، ولكن احتمالات الصدف ضئيلة بطبيعتها. وقلبت الأمر في عقلها وقالت لا وقالت نعم وقالت ربما وقالت لا، مش معقول.

على العموم، فحورية لم تعمل قط سكس مع عاطف إلا وطلبت منه قبلها تركيب الكوندوم، وكانت تصر على هذا بعناد صبياني، يوازي عنادها وهي تنظر إلى نفسها في المرأة كل يوم وتخفي الشعرات البيضاء تحت الشعرات السوداء.

بعد أن التقيا في بيت شاهندة، عملا سكس مرتين، وفي المرتين دفعتها قوة غامضة لإهانته، وكان الكوندوم هو الموضوع. استهبل قبل أول مرة وتظاهر بنسيان الكوندوم فشخطت فيه، إيه دا، انت اتجننت؟ وبعد المرة الثانية طلبت منه رمي الكوندوم في الكبانيه لأنها لا تريد أن تحمل كل مرة هذا القرف بيديها وترميه له. وأخذ الكوندوم ورماه في الكبانيه، وعندما عاد قالت إنها لم تسمع صوت السيفون وهو يُشد، فراح وشده. وكانت على السرير مغطاة بالملاءة.

بدا أنه انقمص منها يومها، فخففت من لهجتها وقالت له إن المفروض هذا لمصلحته أيضًا، هل يريد مثلًا أخًا ثالثًا لسما وتمر؟ ارتبك ثم قال لا عنيفة. فطبطبت على كتفه وقالت، عشان تعرف إني بفكر في مصلحتك.

وأصلًا، لم يكن الرعب من أن تنجب ابنًا من نصيب عاطف وحده، ولا من نصيبها هي وحدها، وإنما كان من نصيب محمود أيضًا، هو الذي كان يأتي ويوشوشها، في تلك المرحلة الدقيقة بين بداية الهيجان وفتح الرجلين، يا مامي فكَّريه بالكوندوم والنبي، ماتنسيش والنبي.

١٢

كنت أمشي في الشوارع وأرى الباصات تنفتح وينزل منها التلاميذ إلى مدارسهم، وكنت أحن إلى مدرستي أنا الأخرى.

بعد فصلي من المدرسة، حاولت العودة. قدمت طلبًا تلو الطلب. وقلت إنه كانت عندي ظروف استثنائية، وزرت الناظرة في مكتبها، ومدير المنطقة التعليمية في مكتبه، وخاطبت فيهما الرحمة وخاطبت فيهما العدل. ولكن الجميع أفادوا بأن هذا لا ينفع. لا توجد وظيفة شاغرة لمدرِّسة رياضيات. وإذا وُجدت، قدمي طلبك وسننظر فيه. وظل مشهد التلاميذ النازلين من باصاتهم يقشعرني.

بتفكري تشتغلي مع شاهندة؟ سألني محمود. فقلت آه.

- أنا مابحبش المدرسة.

- دي مش مدرسة يا حبيبي، دي دار أيتام.

- برضه مابحبهاش.

عن نفسي، كان التعليم أوحشني بشدة، ستقلن عليَّ مجنونة، ولكن بين وقت وآخر كنت أفتح منهج الرياضيات، أراجعه وأضيف ملحوظات عليه، وأقول ياه لو كنت في المدرسة، كنت سأشرحها هكذا.

أنا تعلمت كثيرًا في الفترة الماضية، كبرت كثيرًا، كبرت في السن طبعًا ولكني كبرت في الحكمة أيضًا، تركت السيدة زينب وطلعت المقطم، لم أعد أكن لقمر احترامًا كبيرًا بهذا القدر، تخليت عن الحب وزهدت فيه. كل هذا كان يقطع أن لديَّ كثيرًا من الحكايات لأحكيها. فقط أردت فرصتي، أن يسمعني أكبر عدد ممكن من الناس، لأحكي لهم عما حدث معي. كانت الحكاية تخنقني، ويخنقني كوني غير قادرة على حكيها.

- بتحبي سما وتمر يا ماما؟

التفتُّ إليه وقلت:

- أيوه، ولاد لذاذ يا محمود.

- لذاذ زيي ولا أكتر؟

كنت أفكر في تبني طفل، عوضًا عن الطفل الذي أخذ يتضح لي بالتدريج أني غير قادرة على إنجابه. قلت لنفسي إنه عندما تأخذني شاهندة إلى الدار، سأتبنى طفلًا من أطفال الدار، وسيأتي هنا في المقطم ليلعب معي. وسأربيه وسأعلمه، وسأمشي معه في الشارع وأعرِّفه تاريخ بلدنا وجغرافيته، سيكون عندي طفلي وتلاميذي.

سأزور شاهندة في البيت أيضًا. سأزورها مع الطفل الذي سأتبناه وسأرى عاطف والأولاد ونلعب كلنا مع بعض.

الأطفال وحشوكي؟ سأل محمود. فقلت آه.

وانا ماوحشتكيش؟ غمز كأنه يحاول إغاظتي.

تركت اللابتوب. الآن يبدو لي أن كتابتي الستاتوس عن هند، وعرض شاهندة عليَّ، قد جرآني قليلًا، شجعاني على قول ما لم أستطع قوله سابقًا. مع ذلك كلمته بكل أدب، قلت إن آخر شيء كنت أتوقعه هو أن يكون هدفه من البداية هو جرجرتي إلى معركة شخصية، وقلت له إن أفكاره مش كويسة، وإنه زنَّان، وإنه غيَّار، وقلت له انضج قليلًا يا أخي.

لم يرد، وكنت عصبية جدًّا. لففت في أنحاء البيت كالمجنونة وأخذت أقلب الحلل على ظهورها ثم أعيدها على وجوهها، وأعلق مشابك الغسيل بحبل الغسيل ثم أفكها. يا محمود، أنا فقط أحاول أن أنضف، أحاول أن أطلع درجة وأن أطلِّعك معي درجة، وأنت

من قلت لي طوفي، وأنت من قلت لي لا تتوقفي وامشي بمحاذاة الأشياء. وعدت إلى الصالة، فتحت اللابتوب، وحاولت التقليب في أي شيء ولكني كنت مشتتة جدًّا. حتى قطع الصمت قائلًا، انتي عارفة مشكلتك إيه يا ماما؟ إنك بتفكري إن يمكن أحسن لو كنتي ماخلفتينيش.

بادر بها من تلقاء نفسه، بدون أن أطلب رأيه حول مشكلتي، بادر بها وكأنها حقيقة لا تقبل التشكيك، وكانت عيناه قاسيتين.

نظرت إليه دقيقة. كان الموضوع الذي أفكر فيه من شهور طويلة، وأنكره وأستبعده، ثم يعود ليخطر على بالي، قد وصل إلى طرف حنجرتي الآن، وكان لا بد من بصقه. وجهت نظري إليه. قلت في نبرة حاولت أن تبدو هزارًا، عارف يالا، لو فيه عدل في البلد، كان حقهم يسموك محمود حسين عبد الرحيم شحاتة.

كانت أول مرة أنطق فيها الاسم الطويل مركبًا على بعضه.

ران صمت ثقيل. سكت ولم يرد، وكنت أعرف أنه لن يرد. نظر إليَّ كأنه يطلب توضيحًا، أي كلمة أو همسة تشرح ما قلته توًّا، وأنا في هذه اللحظة أدركت أني تورطت كثيرًا، وأن الهزار سار بعيدًا. وعندما أيقن ألا كلام آخر عندي لأضيفه، قام وبدأ يلم أشياءه، ثم التفت إليَّ، أنا ماشي، وموش عاوز اشوفك تاني يا ماما.

فكرت في استبقائه، التوسل إليه ليبقى، ولكن شيئًا في نفسي همس، مش مهم خلاص.

ومشى محمود وصفق الباب وراءه، وأنا انصفق قلبي وراء الباب.

١٣

كان الغمام يجري بسرعة، غمامة وراء الأخرى، وكان بعضه ينفصل عن بعض ويلتحق بآخر، وبعضه يظل غير منتمٍ إلى الغمامة السابقة أو اللاحقة، تائهًا في السماء. كان كثيفًا رغم الصيف الموشك، يخفي النجوم والقمر الوليد، وكانت هناك لسعة برد لذيذة في البلكونة، وإن لم أستلذها أنا بشكل شخصي.

قضيت السهرة في الفراندة. قلت لن أحشش الليلة، ولن أشرب، سأبقى هكذا صاحية أفكر في حياتي وأحسب الصح فيها من الغلط. وشغَّلت «نبتدي منين الحكاية». وفكرت في عنوان الأغنية وأزمة مطربها الذي يبحث عن بداية مناسبة لحكايته، وضحكت من التشابه.

ذكرتني الأغنية بكمال أيضًا، وذكرتني بمحمود، ابني الصغير الذي مات منذ ما يقارب الثلاث سنوات. أو أنني شغلت الأغنية بهدف أن أتذكرهما. لا أعرف.

في الآونة الأخيرة، كان محمود بدأ يثقل عليَّ. أعني أني منذ سهرتي معه التي كتبت فيها الستاتوس عن هند سعودي، لم أتمتع معه بجلسة رايقة مثل جلسات زمان. كان الكلام دائمًا محمَّلًا بكثير من القفش والتلميحات المسممة، سواء من جانبه أو من جانبي. لم أحتمل دور الأستاذ الذي يمارسه عليَّ، وهو أيضًا كأنه بدأ يدرك أنني لست مجرد مامي الجميلة، كأنه منذ ستاتوس هند بدأ يدرك أنني دخلت في مستوى جديد. كان يحس كأن خيوط اللعبة تفلت من يده، وأني أكبر وأطير ولا أعود بحاجة له.

هو كان يغار، مني أو من شاهندة أو من سما وتمر، الله أعلم، ولكن الأكيد أنه كان يغار. وربما كان، مثلي تمامًا، يسمع صوت التكة وهي تقترب، وغار لأنها تقترب مني وليس منه. في كل الأحوال، على آخر الليل، وبينما صوت أذان الفجر يدوي في الأنحاء، وبعد استرجاعي للحظة من كل زواياها، كنت أخذت قرارًا بأنه هو من افتعل المعركة معي. أنا لم أكن مخطئة وهو من بدأ باستفزازي.

ولكن مع هذا، ورغم إحساسي بالتحرر والتخفف من أثقال الحياة في هذه اللحظة في الفراندة، كنت تعبانة أيضًا. التوتر النفسي كان أكبر من قدرتي على الاحتمال، وأصعب شيء كان عدم قدرتي على حكي هذا لأحد. كأنه كُتب عليَّ أن أخوض المعركة وحدي.

مع طلوع أول شعاع لشمس الجمعة عليَّ وأنا جالسة في نفس المكان، قررت أن أكلم عاطف، أقابله وأحكي له كل شيء. أخبره بكل ما مر بي في السنوات الماضية، أحكي له عن حقيقة مشاعري ناحيته الآن، أحكي له عن الخوف الذي أعانيه، وأتوسل إليه ليأخذني من يدي الآن ويضعني في سيارته ويرميني داخل الدار مع الأطفال، لأعلمهم الإنجلش والماثيماتيكس.

وكان في الشارع أسفل مني رجلان عائدان من صلاة الفجر بجلبابين أبيضين، ومن فوقي فراشة تحوم قريبًا من رأسي ولكن لا تلمسني. كانت تبتعد فأصفر لها فتقترب ثم ترفرف بعيدًا. وتخيلت للحظة أنها روح محمود التي لم ترضَ بمغادرتي إلى الأبد، وإنما قررت المجيء لتصالحني وتخبرني أنها سامحتني.

قرب النهار فكرت أن، بخصوص محمود، ربما كان العكس هو

الصحيح، ربما سمع التكة فآثر الاختفاء من المسرح ليدعني أستقبلها وحدي وأقوم بدور البطولة وأحقق القدر المرسوم، في تصرف نبيل وفروسي يليق به. قررت قبول الصلح الذي جاءت الفراشة لتعرضه عليَّ، وابتسمت.

نظرت إليها وهي ترفرف بعيدًا ولوحت لها وهمست، حاضر يا فراشة، هاكلم عاطف وهاحكيله على كل حاجة، هاحكيله على الخوف وهاحكيله على كل حاجة.

١٤

تحت شمس الظهيرة، وعلى صوت خطبة الجمعة، مشيت حتى عيادة عاطف. رننت عليه تحت فقال لي اطلعي. قلت لا انزل انت. لا أريد أن أطلع.

لم يكن لديه مرضى في العيادة، فنزل بعد عشر دقائق. سألني أين نذهب هذا الصباح، فقلت إلى اللاشيء، خلينا نتمشى شوية. نتمشى إيه، انتي مجنونة؟ بعد قليل ستنتهي صلاة الجمعة وسيهجم المتظاهرون على مكتب الإرشاد، ونحن سنضيع بين الرجلين. اركبي معي العربية وسنذهب إلى أي مكان.

زرجنتُ وثبتُّ رجليَّ في الأرض، وقلت بدلع، حرنكش مش تركب عربية. فضحك عاليًا وقال، طيب ياللا اركبي. وشدني من يدي وأجلسني على الكرسي.

وطرنا بعيدًا بلا هدف، نزلنا من المقطم إلى الأوتوستراد. وهناك، على يميننا كانت هناك المقابر، ترب الغفير المدفون فيها محمود. فقلت لعاطف خذ أول يوتيرن وتعال لنزور محمود. اليوم الجمعة وأنا أريد أن أقرأ قرآنًا على ابني يوم الجمعة.

منذ مات ابني لم أزره في قبره أبدًا، قلت لعاطف، فشخط، ازاي كدا، ومايئفعش كدا أبدًا، وأشياء من هذا القبيل. قلت إنه لن يصدق، ولكن ربما كان السبب أن محمود لم يبعد عني أبدًا بعد موته.

طار بالعربية حتى وصلنا الترب. ترجلنا ونزلنا وسألنا التربية فدلونا على المكان. ورششت ماء وورداً على القبر. وجلست أنا وعاطف صامتين على الدكة. لم يجرؤ أي منا على الكلام. كان قلبي يدق بعنف وكان يقدر هذا. ولكن يبدو أنه أحس بثقل الصمت وأحس بضرورة كسره. وفيما بدا وكأنه دعابة، وإن كان بنبرة الشخط المعتادة لديه، سخر من تصوري عن نفسي بأني قوية كل هذا الحد. كنتِ عاوزة تمشي في قلب المظاهرة لوحدك قال؟ وضحك صوت عال انتهك الصمت المحيط بنا. وأنا حاولت مجاراته في الضحك ثم بدأت أغتاظ. في النهاية قلت له، على فكرة يا عاطف، أنا مشيت في مظاهرات كتير قبل كدا. أخرجت المسدس من الشنطة وأريته له، على فكرة يا عاطف، أنا قوية فعلًا. واسترقت النظر نحو القبر، ورأيت فراشة ترفرف حوله.

التعبير الذي ظهر على وجه عاطف يستحق أن يُروى. قال، إيه البتاع دا، انتي مصدقة ان دا مسدس؟ وواصل الضحك، وإن كان بنبرة أقل ثقة، واحتفاظ يدي بالمسدس أطفأ ضحكته بالتدريج حتى

أجهز عليها تمامًا، دا بجد؟ هززت رأسي أن أيوه. وحكيت له عن عم ناجي وعن شعوري بالخوف في أيام معارك محمد محمود وعن أنه لم يكن هناك بديل أمامي سوى التسلح.

تغيرت نظرته إليَّ لحظتها. يبدو أنه احترمني، أو خاف مني، الله أعلم. تواصل الصمت بعدها حتى قلت له ياللا بينا، وركبنا العربية عائدين.

في العربية قلت إني من ساعة موت ابني وأنا مش على بعضي، أكتئب كثيرًا وأخاف كثيرًا وأغلق الباب بكل الترابيس قبل النوم، والناس تظنني امرأة قوية ولكني في الحقيقة امرأة خائفة. وأردت أن أخبره أني أخاف عليه أيضًا من نفسي، ولكني قررت إيقاف الجملة عند هذا الحد.

لم يعقب على كلامي حتى وصلنا المقطم. هناك أوقف العربية على الكورنيش ونظر إليَّ:

- معاكي حشيش يا حورية؟

صوَّبت له:

- يا حرنكش.

ابتسم:

- معاكي حشيش يا حرنكش؟

قلت:

- لا.

فسكت دقيقتين ثم تكلم، كأنه قرر الكلام حتى في غياب الحشيش، كأنه كان قد قرر الكلام من الأول أصلًا:

- على فكرة أنا كمان خايف جدًّا. خايف لإن الوضع مابقاش

مستحمل. لإن من ساعة الثورة وكل حاجة في النازل. أنا حلمت من يومين إني في عمارة والناس عمالة تنط منها وتموت. شفت ابنك في الحلم، وشفت ابن اخويا، ماشفتش كمال، لكن شفت، وسكت للحظة، شفت سما وتمر بينطوا من العمارة كمان. أنا بقيت حاسس إني كل الناس اللي حبيتهم في حياتي بيموتوا. أنا بقيت بتشائم مني أنا نفسي.

- أيوه يا عاطف إنت حكيتلي دا قبل كدا.
- ازاي؟ أنا لسه شايف الحلم أول امبارح.
- لا مش الحلم. حكيتلي انك مش مبسوط عمومًا.

صحيح أنه انكبس قليلًا وبانت الكبسة على وجهه، لكن بيني وبين نفسي أربكني كلامه. فهمت لحظتها كم أنه ساذج، وكم أن زوجته ساذجة، وكم أنهما طيبان لدرجة أنهما لا ينتبهان للحقائق البسيطة في الحياة، الحقائق البسيطة من نوعية أن الشمس تشرق من الشرق وأن امرأة تمشي حاملة مسدسها قد تكون امرأة خطرة.

١٥

ولدت حرنكش في عام ١٩٧٠. لا تذكر كثيرًا من سنواتها الأولى بالطبع. لا تذكر سوى أنها كان تتمنى دخول عالم الكبار الذين كانت تنظر إليهم كآلهة، ولكنها تذكر أن أحدًا في الشارع، وكانت تبلغ السبعة وعشرين عامًا، ناداها بـ«يا مدام»، وعرفت لحظتها أنها دخلت في

عالم الكبار، ولكن من بابه التعيس. الطفلة التي كانت تتمنى أن تكبر اكتأبت لأنها كبرت.

أول شعرة بيضاء لاحظتها كانت أثناء فترة خطوبتها. نزعتها بإصبعها وقتها، ولكن النتيجة كانت انتشار الشعر الأبيض في هذه المنطقة في رأسها. انهوست كثيرًا بالشعر الأبيض، وعانت لحظات اكتئاب بسبب هذا، وعندما طلب منها صبحي زوجها ارتداء الحجاب، لم يلاقِ صعوبة كبيرة في إقناعها. لبست الحجاب ثم عادت وخلعته مع كمال.

دخلت حرنكش السجن في صيف ٢٠١٣، وكانت تبلغ وقتها ثلاثة وأربعين عامًا. لم تكن كبيرة جدًّا، وإن كانت استطاعت منذ أيامها الأولى هناك السيطرة على سائر السجينات، وبعض السجانات ربما. ما نفعها أكثر من أي شيء، ما شكل نقطة قوتها وتفوقها على الباقين، كان حكايتها، وكانت تعي هذا.

حُكم عليها بخمسة وعشرين عامًا، حسبتها حرنكش فوجدت أنها ستطلع من السجن وهي على مشارف السبعين، وإذا كان القدر رحيمًا معها فستخرج بعد انقضاء ثلاثة أرباع المدة، في أول الستين. هذا ليس سيئًا جدًّا، ولكنه أيضًا ليس رائعًا جدًّا. لا بد أن تفعل شيئًا تفيد به نفسها والعالم في الزنزانة، وكان هذا الشيء هو حكي حكايتها. ولأن حكايتها كانت أغرب من أي شيء سمعته السجينات من قبل، فقد ضمنت لها جمهورًا ثابتًا.

كانت تحكي أحيانًا لمجموعة من خمس نساء، وأحيانًا اثنتين، وأحيانًا تحكي لواحدة فقط. كل الحكي المحبوس بداخلها طلع

في السجن. عرفت كيف تشد آذان المستمعات، وكيف تضمن لهن عدم نسيان ما تحكيه.

السجينات كن يقضين عقوبتهن ويخرجن، وكن يحكين لمن يقابلنه بعد خروجهن عن ماما حرنكش. أغرب امرأة صادفنها في حياتهن. كانت الحكايات تخرج من سجن القناطر إلى العالم الواسع، ويسمعها من هب ودب، من دون أن تُكتب في كتاب أو تُعد عنها رسالة أكاديمية.

بعد إحدى الزيارات التي لم يزرها فيها أحد، عادت سجينة إلى زنزانتها وأخبرتها أنها قابلت أخاها وحكت له عنها، فرد عليها أخوها بأنه يعرف حرنكش، سمع قصتها من أحدهم، نقلًا عن إحداهن. ابتسمت حرنكش وردت، ربنا يصلح الحال يا بنتي.

كانت حرنكش تبلغ وقتها خمسين عامًا، ولم يكن الفرق العمري بينها وبين السجينة الأخرى يزيد عن خمسة أعوام، ولكن الأمر لم يتعلق بالسن. في السجن بدأت حرنكش تشعر أنها تملك شيئًا يزيد عما تملكه أي سجينة أخرى. وكل حكايات السجينات عن جرائم القتل والسرقة التي ارتكبنها لم تبهرها. صحيح أنها كانت تسمعها بتفهم كبير وتطبطب على قائلتها، ولكنها كانت تعي ببساطة أن قصتها تتحرك في منطقة أخرى، في منطقة لم تجرؤ أي سجينة من قبل على الاقتراب منها. وأحست السجينات بهذا، أحسسن أنهن بصدد امرأة غير عادية، فبدأن في الإلحاح عليها لتحكي. وصحيح أنها قاومت الفكرة في البداية، لكن ذات ليلة صيفية من العام ٢٠١٦، فكرت أن وماله، سأحكي وستخرج السجينات وسيحكين، وسيعرف العالم

شيئًا جديدًا، سيعلّم الناس بعضهم بعضًا أمرًا بخصوصي وبخصوص العالم. ثم إنك يا بت كنت ستموتين على الحكي من قبل، ولم يكن ينقصك سوى الشخص الناضج الذي سيفهم حكايتك، والآن عندما تأتي مجموعة نساء رائعات كتلك تستكبرين؟

وبدأت حرنكش الحكي من حسين عبد الرحيم شحاتة، ثم عادت بالزمن إلى الخلف، وتقدمت إلى الأمام، وكررت حكايات بعينها، وتلخبطت في تفاصيل بعينها ثم عادت ودققتها. كانت كأنها تعيد اكتشاف نفسها أثناء الحكي. ترتاح نفسيًّا وتدرك كيف أنها فعلت ما لم يفعله أحد من قبل قط.

المفارقة القدرية، أنه منذ بداية حكيها عن موت ابنها، نادتها إحداهن بـ«ماما حرنكش»، وعلى مدار تقدمها في الحكي، وانبهار النساء بحكايتها، كان اللقب يأخذ في التوطد، ماما حرنكش جاءت، ماما حرنكش راحت، ماما حرنكش ستحكي الآن فالتزمن الصمت.

بدا اللقب بحد ذاته كأنه إعلان انتصار الله لها في مواجهة الأشرار.

١٦

في الاعتراف الذي اعترفه لها عاطف، ذلك الذي وصفته حرنكش بالتكرار، لم يربكها سوى قوله ببساطة إنه يتشاءم من نفسه.

صعَّب هذا الأمرَ عليها للغاية. كانت تريد أن تتركه وتنهي كل القصة العالقة بينهما. ولكن لم تقل هذا.

وما إن عادت إلى بلكونتها الحبيبة حتى بدأت في إعداد رد على كلامه. أيوه يا عاطف، إنت صح، إنت إنسان وحش وانا كمان بقيت خايفة على نفسي منك، إحنا لازم نسيب بعض بقى يا حبيبي، باي ومع السلامة ونراكم على خير.

ولكن لم يكن هذا كالعادة سوى جدل يحدث في رأسها، لم تقوَ على إعلانه أمامه، لأنها في اليوم التالي فوجئت به يرسل إليها رسالة يقول فيها إن قلبه لم ينفتح لأحد قط مثلما حدث بالأمس، وإن لها تأثيرًا هائلًا عليه، وإنها لا تعرف مقدار السحر الذي في شخصيتها. وبدا في رسالته أثر من بكاء، لأنه شفعها باعترافات قاسية، قال إنه منذ تزوج شاهندة ولم يفكر في أي امرأة، حتى ظهرت هي، وأنا من غيرك ممكن أموت أو يحصلي حاجة، إلى آخره.

بدأت تحس أنه يلاحقها كالذباب، حتى عندما حاولت الابتعاد، ودربت نفسها شهرين على تركه، جاء هو ورتب لقاء يجمعهما معًا في بيت زوجته نفسها.

ورطة أزلية اسمها عاطف، قالت.

في هذه الأزمة نهجت حرنكش نهج العلوقية. لم تحاول مصارحته برغبتها في إنهاء العلاقة، وإن لم يمنعها هذا من استمرارها في السخرية منه بين وقت وآخر، مع استخدام كلمة «الملل» كثيرًا. ولأنها كانت تعرف أنها في يوم من الأيام ستخرج عن نهج العلوقية، فقد رأت أن أفضل شيء تفعله هو تمهيد الطريق حتى تحين لحظة المصارحة الشريرة.

لم يكن نهج العلوقية عقيدة تتبناها، وإنما مجرد طريق جيد تخوضه

لتصل إلى مبتغاها. وتعرف أنها في لحظة معينة، سيكون عليها تغيير هذا الطريق. كان أبوها يفتح علب السردين بالمسمار، يظل يدق مسمارًا حول جدار العلبة من كل نواحيها، ثم حين تحين اللحظة المناسبة، حين يكون جدار العلبة قد اهترأ من كل جوانبه، يخلخله مرتين لينهار. قال أبوها، وحدي التَّكنيك، ولكن في لحظة معينة، سيتوجب عليك تغييره، مرة واحدة ووحيدة، لأنها ستكون المرة الأخيرة.

كانت ترى عاطف مرتين في الأسبوع، ثم أصبحت تراه مرة واحدة في الأسبوع. وكان يسألها، لسه بتحبيني؟ فلا تقول أيوه صريحة، وإنما شيئًا مثل، شوف انت بقى، أو ازاي بتسأل السؤال دا، ومرة صرحت له بأنها أخذت حاجتها من الحب، ولم تعد تريده الآن، وإن كل ما تريده في هذه الأيام هو تصفية قلبها من كل شوائب الدنيا.

حرنكش درويشة، تتخلص من ممتلكاتها أولًا بأول لتتحرر وتصفو نفسها، لكن بهدوء وتعقل، أصابع أبيها التي تنقر بالمسامير على الصفيح ترشدها.

ومناورتها التي وصلت إليها بعد عناء طويل كانت تتلخص في الكلام مع شاهندة ومصاحبتها، تمهيدًا للعمل معها في الخريف القادم. فكرت أن هذا وحده ما سيستعيد تلك اللحظة الذهبية التي جلست فيها مع عاطف على الكنبة نفسها كأنهما أخان. يتعطل الكون فجأة وتهدأ الأرواح ويشرب الجميع الشاي بالنعناع.

إذا أردتِ التخلص من علاقة برجل متزوج، صاحبي زوجته، آمنت حرنكش بهذا وسعت إلى تطبيقه.

١٧

ـ ألو، مساء الخير يا مدام شاهندة.

ـ وعليكم السلام يا حورية. أخبارك ايه وازي صحتك؟

ـ الحمد لله. أنا محتاجة أتكلم معاكي شوية.

ـ وماله يا حبيبتي؟ تعالي نورينا في البيت. إحنا قاعدين اهو.

في التاكسي الذي ركبته إلى الدقي بدأت حرنكش في التفكير في قصة حياتها وفي الافتتان بها، وهو الافتتان الذي سيؤدي لاحقًا إلى نمو الحكاية التي ستحفظها وترويها للجميع. وبينما التاكسي يقف في طابور طويل لتموينه بالبنزين، بدأت تسترجع كل الكلمات والإشارات وتعيد ترتيبها مع بعضها. وعندما تصل إلى نقطة لا تريد تذكرها تقول لنفسها معلش، استحملي شوية، وتدرب نفسها على تذكرها بكل بشاعتها وبكل ما تحمله من أذى. وكانت الحرارة تنهشها ورائحة البنزين تصيبها بالغثيان، ولكنها قالت معلش، كله يهون من أجل تركيب الحكاية.

وصلت عند مدام شاهندة، وحضنتها هذه وضايفتها بالشاي والبسكويت. وعندما جاء دور الحكاية التي تريد أن تحكيها، رجعت إلى الوراء خطوة ونسيت كل ما دربت نفسها على حكيه في التاكسي. انحشرت الكلمات في زورها وعندما خرجت لم تكن إلا خمس كلمات، أنا محمود ابني وحشني أوي. لم تخبرها أنها زارت ابنها مع عاطف. خافت أن تجر معلومة صغيرة معلومة أكبر فينهدم كل شيء.

طبطبت عليها شاهندة، يا حبيبتي يا حورية. وتمتمت بصوت خفيض، ربنا يرحمهم كلهم، وسمعتها حورية.

وجاء الابن تمر، جاء ساكتًا ولم يرحب بالضيفة. وجلس وحده في ركن الصالة واضعًا السماعات في أذنه، وصرفته أمه، سيبنا دلوقتي شوية يا تمر. ولم يسمع بسبب السماعات، فشخطت فيه الأم، فنظر إليهما ثم مشى، وقبل أن يمشي صاحت الأم، مش هتسلم على طنط حورية؟ فشال السماعات وسلم عليها بيده بدون كلمة ثم دخل غرفته. وعندما انصرف قالت، مشكلة السماعات اللي بيحطوها دي!

قالت حورية إن هذا لا يقتصر على الجيل الجديد، وإنها هي نفسها أدمنت وضع هذه السماعات منذ فترة طويلة، وأن هذا يؤثر على قدرتها على السمع أحيانًا، ولكن ماذا نفعل، الضوضاء في الشارع لا تطاق، العربيات كلها كلاكسات والناس يصرخون والأخلاق أصبحت زفت، ولذلك لا بد للواحد من خلق موسيقاه الخاصة. نصحتها شاهندة، طيب يا حورية، إذا كان ضروريًّا وضع السماعات، فلتشغلي القرآن على طول، لأنه يهدئ النفس ويريحها من مشاكل الدنيا والشارع.

وتوقفت حورية للحظة للتفكير في كم أنها بعدت عن ربنا في الفترة الأخيرة، ولكنها أكملت:

- محمود وحشني أوي من ساعة ما مشي، وطول الوقت بسأل نفسي، هل يا ترى أنا كنت أم كويسة؟

- أيوه يا حبيبتي، أكيد أم كويسة طبعًا.

- لا. أقصد هل أنا كنت مهتمة بيه كفاية؟

- أومال إيه بس يا حورية؟ طبعًا يا حبيبتي. هو فيه أم مش مهتمة بولادها؟

- لا يا مدام شاهندة، أنا وصلت لاقتناع إنه مشي عشان ماكنتش مهتمة بيه كفاية.

ارتبك الحوار للحظة، وبدا أن هناك انشقاقًا فيه يحدث الآن. من وجهة نظر شاهندة فمحمود مشى لأن كمال قتله، ومن وجهة نظر حورية، فمحمود مشى لأنها، وهذا اتهامه الحرفي لها، كانت غير مهتمة به.

ولكن كيف يمكن لها أن تحكي هذا، وهي اختارت ألا تحكي إلا مشهدًا واحدًا في قصتها؟ هناك حلان، إما أن تقرر حكي قصتها كلها، ما سيستهلك ساعات وساعات من الكلام، وإما أن تعتبر ما قيل كأن لم يُقل، ويقضيان القعدة في بوسات وأحضان وطبطبة.

وهي راجعة بالتاكسي، قالت أيوه، لن يفهم أحد ما أقوله إلا لو قلته كاملًا، لا مشاهد مقطوعة ولا اقتباسات. إما أن أكون على قدر المسؤولية أو لا أكون. الحكاية لا تُحكى إلا من الأول.

١٨

لم يكن أول مشهد اختارت حورية أن تبدأ به حكايتها أمام زميلاتها في السجن متعلقًا بالبرد الذي أصابها ليلة تعرفها على كمال في يوم من أيام خريف ٢٠١٠، وإنما كان مشهدًا آخر، دار في زمان موغل في القدم، في يوم عيد ميلاد حسين عبد الرحيم شحاتة.

كنت حوَّشت من مصروفي الكثير حتى أشتري لحسين ووكمان

يومها كهدية عيد ميلاد، بعد أن انصدمت عندما رأيته يمشي في باحة الكلية مع أصدقائه وبيده كاسيت كبير يضعه على أذنه.

قدمت له الووكمان وقلت له، عشان ماتضايقش حد وماحدش يضايقك. جربت الووكمان أمامه ووضعت له السماعات في أذنه، وهو لم يصدق معجزة أن تتردد في أذنه موسيقى لا يرى أحد مبعثها. وفي لحظة نشوة قال لي، يا سلام لو البشرية كلها تجيب ووكمانات. قالها بصوت عال فضحكت وأنا أضع إصبعي على شفتي ليخفض صوته. يبقى كل واحد يسمع حاجة غير اللي بيسمعها زميله، أضاف.

كنت طائرة من الفرحة بسعادته. بدا لي وقتها أني لا أحتاج في العالم إلى ما هو أكثر من هذا. ولكني احتجت.

بعد انتهاء المحاضرات طلبت منه أن نتمشى قليلًا، ووافق بحماس. تمشينا يومها من الجامعة في الجيزة حتى وسط البلد، دخلنا سينما هناك، وبوسنا بعض بوسة طويلة في القاعة المظلمة. وخرجنا وعدنا إلى الجيزة ممسكين بيد بعض طول الطريق.

الطريق من الجامعة إلى وسط البلد، ومثله من وسط البلد إلى الجامعة، كان طويلًا، وكان اليوم حارًّا، وامتلأت ملابسنا بالعرق، ولكننا كنا نحس بأنفسنا طائرين. في منتصف الطريق، على كوبري عباس، جلس حسين على الأرض وربَّع وضحك وقال، مش قادر خلاص، وضحكت وأنا أشده من يديه وأقول، هانت خلاص ماتبقاش خرع. ولكنه شدني وجلسنا معًا على الأرض وضحكنا. كل التفاصيل كانت مبهجة في هذه التمشية.

لسببين بدأت حورية قصتها بهذا المشهد، أولهما، أن اليوم لم ينته بالتمشية، وإنما انتهى بهما واقفين أمام باب المدينة الجامعية وهي تسأله

كيف يمكنها الدخول، ثم يدخلان من باب خلفي وينامان مع بعض. تذكرت هذا اليوم أمام السجينات لأنه باختصار شهد أول نيكة في حياتها.

والسبب الثاني، لأنها استعادته بعدها بما يزيد عن عشر سنوات، مع صبحي، قبل موت الأخير بشهرين.

كنا في العربية، أنا وصبحي والبيبي، قبل كوبري عباس بقليل، والأسفلت مغسول تحتنا بالمطر، والشمس تطلع من جديد ببطء فتلوِّن الأشياء بالقوس قزح، والجو جميل بشكل لا يُصدق. صبحي يسوق في المقعد الأمامي وأنا أجلس في الخلفي حاملة محمود الرضيع على حجري، مبسوطة جدًّا وأرغب في فعل شيء مجنون، طلبت منه أن يركن هنا ونكمل الطريق إلى السيدة على رجلنا. وماذا سنفعل في البيبي؟ قلت إني سأشيله. تشكك في الفكرة، وقال إن المسافة بعيدة ولن يمكننا قطعها، فقلت له إني قطعتها من قبل وإنها قصيرة جدًّا، بس ننزل بس والنبي!

ونزلنا، وعند النقطة التي سبق أن جلست فيها مع حسين على الأرض، وقفت وحكيت له الموقف، ويبدو أنني حكيته بشيء من الرومانسية، لأنه وجم قليلًا، ثم مشينا حتى قطعنا الكوبري وتوقف وقال أنا مش عاوز اكمِّل. ورجعنا وأخذنا العربية عائدين، ولم نتكلم. ولكن انتقامه الذي أتى بعد ساعات كان عاصفًا.

في الليل، وأثناء نوم محمود، رفع صبحي رأسه وسألني متى كانت آخر مرة رأيت فيها حسين. حاولت أن أحسب في رأسي آخر مرة رأيته، حتى قاطعني بتلويحة يد ضجرة، أقصد إمتى آخر مرة شفتيه فيها قبل ما تولدي محمود؟

سؤاله الثاني هذا، مع نظرته المحتقِرة، عرَّفاني أنه لا يسأل، وإنما يتهم. فقلت بابتسامة ساخرة إن آخر مرة كانت قبل ولادة محمود بأكثر بكثير من تسعة أشهر، إذا كان هذا ما يسأل عنه. ولكنه ظل محدقًا في عينيَّ بثبات.

أربكتني نظرة عينه، وقلت لا طبعًا، اللي بتفكر فيه غلط من الألف للياء، دا كان من عشر سنين، أكتر بكتير أصلًا، والله غلط، دا كان زمان أوي، كل تفكيرك دا غلط يا صبحي.

لم يكن صوتنا عاليًا. كنا نهمس حرصًا على عدم إيقاظ محمود، ولكن رغم احتياطاتنا، فقد استيقظ محمود فعلًا في تلك اللحظة. هرعت باتجاهه وشلته وأخذت أهزَّه وأنا أواصل الهمس لصبحي، لا طبعًا. وحتى بعد مغادرته الغرفة، ظللت أرددها بشكل رتيب كأنني أهدهد الرضيع، لا طبعًا يا صبحي، لا طبعًا يا محمود. اختفت أغاني الهدهدة من رأسي ولم يتبقَّ إلا لا طبعًا وطبعًا لا. وكنت أحدق في عينيٍّ محمود في انتظار أن تعاودا الإغماض لينتهي كل هذا الكابوس.

١٩

عرف عاطف أني زرت شاهندة مراته في بيتها. كلمني في التلفون في اليوم التالي وسألني عن سبب الزيارة، فقلت له، عادي. كنت عاوزة اشوف سما وتمر.

بين الوقت والآخر كان عاطف يريني صور ولديه على تلفونه،

وكنت أتصنع الاهتمام، الله! كتاكيت خالص. يا بختك بيهم. وكان يفرح باهتمامي بهما، ولكنه لم يفرح هذه المرة. قال إنه يحتاج إلى الكلام معي قليلًا، فقلت له اتفضل.

كنت أجلس في الفراندة عندما رنَّ جرس الباب. دعوته ليجلس معي في الفراندة فرفض لأنه يفضل الجلوس بالداخل. وجلسنا بالداخل. قال إنه لا يريدني أن أحتك بمراته أكثر من هذا، لأنه يخاف جدًّا أن تعرف مراته ولو شيئًا بسيطًا عن علاقتنا، وإن هذا كفيل بالقضاء عليه تمامًا. خلاص. أنت زرتينا مرة في البيت وخلاص، عملتِ الواجب وخلاص، تعرفتِ على الأولاد وخلاص، ابعدي عن البيت بقى يا حورية من فضلك.

كان يتكلم بشكل جاف. اختفى عاطف المنكسر، العاشق الذي يخاف أن أتركه، وحل محله عاطف الذي يلقي الأوامر. ولم يكن هذا أفضل شيء يفعله في هذه اللحظة. تنرفزت جدًّا، قلت إنه لا يعرف شيئًا. بالأخص لا يعرف القديسة التي تعيش معه في بيته. شاهندة لأنها قديسة حقيقية فلم تشك ولو للحظة خاطفة في علاقتي بزوجها، وهذا يسبب لي آلامًا رهيبة في ضميري. ومع هذا، فلم أقل شيئًا يا عاطف ولن أقول شيئًا، لأني أجبن من أن أقول وأخسر القديسة التي وثقت بي كل هذه الثقة.

استعملت لفظ «قديسة» ثلاث مرات. استعملته كأني أتف عليه، كأني أذكره بكم أنه جاموسة ولا يفهم المرأة التي تعيش معه ولا يقدرها. وفاجأني هذا، كم الغضب الذي أحسست به تجاهه في تلك اللحظة لم يكن مفهومًا حتى بالنسبة إليَّ.

أمام هجومي انسحب عاطف الذي يلقي الأوامر وعاد عاطف المنكسر، عشان خاطري يا حورية، أرجوكي ابعدي عن البيت. وسكت لحظة ثم ألقى اعترافًا خطيرًا، أنا مش عاوز اكمِّل في العلاقة دي على فكرة، وأنا كمان ضميري بيأنبني، بس أنا مش قادر، ماتسيبينيش يا حورية عشان خاطري. أنا باحبك أوي ومش قادر اتخيل هاعيش ازاي من غيرك.

على ما أذكر كانت هذه أول مرة يخبرني فيها أنه يحبني، أول مرة ينطقها. فخفضت بصري وتمتمت بكلمات لا معنى لها، وقام هو وأخرج من شنطته مركبًا ورقيًّا وأعطاني إياه، كان صغيرًا جدًّا وملونًا. فأخذت ألعب به بين أصابعي، وأنا أحرك شفتيَّ كمن تريد أن تقول شيئًا ولا تحضرها الكلمات. رقَّ قلبي له قليلًا. بعد قليل قلت، مش عارفة اقولك إيه يا عاطف. حاضر، بس والنبي خلينا نبقى نتكلم في الموضوع دا.

- حاضر، بس مش دلوقتي. كمان شوية.
- حاضر، مش دلوقتي. كمان شوية.

وابتسم وابتسمت، وأجلنا كل المواضيع الصعبة.

٢٠

وفقًا لقرارنا، كنت قد نويت مواصلة السير في نهج العلوقية مع عاطف، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، إذا كان هذا ما أتمناه فعلًا.

ولأن العلوقية هي الشيء ونقيضه في الوقت نفسه، فوعدي لعاطف بألا نترك بعضنا الآن لم يكن بمقدوره أن يردعني عن الاستهزاء به.

كلمني بعد يومين وأخبرني أنه اشترى حشيشًا لأول مرة في حياته وعرض عليَّ أن أنزل معه لنشرب الآن جوينت من ماله الخاص ومن صنع يديه. كنت أريد وقتًا لأرتاح منه، ولكن حماسه ولهفته صعبا عليَّ المقاومة، فنزلت. انتظرته أمام البيت واضعة السماعات. ووصل بالعربية. ركبت ولم أنزع السماعات. ربما كان هذا هو ما بدأ كل شيء، أو أنهاه.

جرى بالعربية ووقفنا في أحد الشوارع الجانبية. كان ممتلئًا بالحماس ويهز ساقه كطفل صغير ويحكي لي كيف قابل طلبة الديلر في جراج مظلم، وكيف أخذ منه الحشيش بيد وأعطاه الفلوس بيد. لم يكن يصدق نفسه. وأنا من ناحيتي رأيت كل هذا تافهًا. كنت أسمع عاطف ولكن صوت ميادة الحناوي في أذني كان أعلى منه. ولم أفكر للحظة في نزع السماعات. وردودي عليه كانت في الغالب مجرد همهمات أو ابتسامات مجاملة.

أخرج جوينت معتبرًا، ناولني إياه فشربت منه نفسًا ثم ناولته إياه مرة ثانية، لم أرغب في المزيد. كنت زاهدة. وبشكل عام، فقد تصورت أنه ما دام طلب مني أن أخرج معه، فمطلوب مني فقط أن أخرج معه، لا أن أكون لطيفة معه. قلت في نفسي، ليس من حقه أن يطلب مني أن أكون لطيفة.

سرحت وراء الموسيقى، بينما كانت يده تمتد إليَّ بالجوينت مرة ثانية. لم أنتبه له أو تصنعت عدم الاهتمام له، بينما يده ممتدة. وسمعته من وراء الموسيقى يقول:

- هافضل مادد إيدي كدا كتير؟

مثلت أني لم أسمعه، حتى كررها بصوت عال:

- باقول هافضل مادد إيدي كدا كتير؟

نزعت السماعات ونظرت إلى عينيه وأنا أرد على سؤاله بحسم:

- للأبد.

أحيانًا نقول أشياء نتخيل أنها مليئة بالحكمة بينما هي لا تعني شيئًا. أكيد أني لم أقصد أنه سيظل مادًّا إليَّ يده للأبد. لكن الغريب أن هذا النوع من الحكمة المتوهمة أحيانًا ما يكون له نفس تأثير الحكمة الحقيقية.

- يعني إيه؟

- إيه اللي يعني إيه؟

- يعني إيه للأبد؟

- مافيش. عادي.

- مافيش حاجة اسمها عادي. أنا بسألك هافضل مادد إيدي كتير؟ فبتقولي للأبد، فأنا بسألك يعني إيه للأبد؟

كان عاطف الذي يلقي الأوامر مسيطرًا على المشهد أمامي كاملًا، حاضرًا بجسمه الضخم يسد الأفق، وعاطف المنكسر بنظارته كان منسحبًا ومتواريًا ولا يقوى على تصويب نظره. شعرت للحظة بالانسحاق. توسلت إليه من أجل شيء لا أعرفه.

- كنت باهزر يا عاطف. عادي.

- مفيش حاجة اسمها عادي.

كررها بقرف.

بدأت أضجر منه. تراجعت لحظة الانسحاق وأتت لحظة المواجهة. وضعت السماعات في أذني مرة أخرى، ولكنه كان أسرع.

ـ انزلي من العربية دلوقتي من فضلك.

كان هذا تصعيدًا سريعًا. لم أعرف كيف أتصرف.

ـ دلوقتي؟

ـ آه دلوقتي. مش عاوز اشوفك تاني.

بهتُّ للحظة ثم لممت أشيائي ووضعتها في شنطتي. كان المغرب قد حل. عدت وحدي في الطرق الآخذة في الإظلام، ممتلئة بالغضب والشعور بالمهانة، رأسي مدووش وتتعاقب عليه الصور والأصوات فلا أميز أيًّا منها، وعجلات الدنيا كلها تتسارع في عقلي. لدرجة أني كدت أدوخ وأقع، فجلست على الرصيف قليلًا، وأغمضت عينيَّ، وصرت أردد لنفسي، لا يا حرنكش، امسكي نفسك يا حرنكش، ابعدي عنه ولا تنتقمي منه، الانتقام للضعفاء يا حرنكش. خلصي قلبك من شوائب الدنيا وارتفعي درجة فوق الناس.

وكلمت مدام شاهندة في التلفون. قلت لها إن بخصوص العرض الذي عرضته عليَّ من قبل، عرض التدريس في دار الأيتام، فأنا موافقة. وأحب أن آتي للعمل معها بكرة قبل بعد بكرة، دلوقتي إذا أحبت. وأجابت بأنها تفكر في البدء من سبتمبر القادم، أي بعد أربعة أشهر تقريبًا، ولكن ممكن جدًّا أن أزورهم في الدار وأتعرف على العيال وأبني علاقة معهم. قلت لها، اعتبريني جيت خلاص.

نمت نومًا متقطعًا. غصبًا عني كنت أنهض من نومي كل نصف ساعة لأنظر إلى الموبايل، لأرى إن كان عاطف أرسل لي أي شيء. وكرهت نفسي وكرهت انفعالي وكرهت انسحاقي وقلت يا رب عجِّل بالخلاص.

في صباح اليوم التالي أرسلت لشاهندة أسألها إن كان يناسبها أن أزورها بعد ثلاثة أيام، يوم الأربعاء القادم، فقالت أيوه، فاطمأن قلبي وأغلقت التلفون تمامًا. أخرجت البطارية منه ووضعتها فوق الدولاب، أما جسم التلفون نفسه فقد أخفيته في الدرفة تحت الحوض، كل هذا لكي أصعب على نفسي مهمة تفقد التلفون كل خمس دقائق. ثم فتحت التلفزيون.

بمسلسل وراء مسلسل، بسيجارة حشيش وراء سيجارة حشيش، بطلب دليفري وراء طلب دليفري، حاولت تجاوز الوقت حتى الأربعاء التالي.

وبكيت طبعًا، وراودتني الرغبة مليون مرة أن أقوم وأوصل التلفون ببطاريته لأرى إن كان عاطف أرسل لي أم لا، ولكني كنت أستسلم إلى الخمود على الكنبة أمام التلفزيون والريموت في يدي، ثم أبكي.

طبعًا بكيت، ولكن ما أريد قوله أن طاقة نور كانت تنفتح أمام عيني طول الوقت وكان اسمها «يوم الأربع الجاي». سأذهب إلى دار الأيتام وألعب مع العيال وأعلمهم كلمات جديدة، كانت طاقة النور مثل فراشة تطير فوقي وتلوح من بعيد ثم تختفي.

رأيت أبي في الحلم بملابسه الميري. كنا نجلس فيما يبدو وكأنه أوتوبيس قديم مركون، يقع فيما يبدو وكأنه وحدة عسكرية، في انتظار تصريح له بالإجازة. كل ما كان يشغل باله هو الإجازة المرتقبة، وكل ما يشغل بالي كان أن أحكي له ما حدث معي منذ موته. صبحي وكمال ومحمود وعاطف وما إلى ذلك، ولم يكن يدع لي فرصة. كنت أبدأ في الحكي فيثنيني شروده عن المواصلة. حاولت الحكي أكثر من مرة وفشلت، ثم صحت فجأة كأني عثرت على الحل السحري الذي سيجبره على الانتباه، طب عاوز تعرف ايه اللي حصل مع عم ناجي؟ وصحيح أنه لوَّح بيده كأنه يقول إنه يعرف، ولكن سؤالي شغل باله للحظات معدودة. علق بعد قليل قائلًا، أنا مش عارف الناس دي بتفكر ازاي. لم يقل «بتفكر في إيه»، وإنما «بتفكر ازاي». ولفت هذا انتباهي.

بداخل الأوتوبيس قتلني الظلام ورائحة بنزين. كنت أرمي نظري إلى الخارج فلا أرى إلا عربيات ومدرعات راكنة، وأرهف أذني فلا أسمع إلا صوت العساكر وهم يزقون عربية منها. ولكن في لحظة ما جاء تصريح الإجازة. لم أره ولا بابا أشار له، ولكني رأيت نفسي أخرج معه من الأوتوبيس القديم باتجاه الإجازة. وكانت الدنيا نهارًا، ولسعت قدمي الرمال الساخنة للوحدة العسكرية، ولم أكن أرتدي حذاء ولا كان هو يرتدي حذاء. وكنا نخوض داخل عمق الإجازة، حتى وصلنا إلى منتصفها بالضبط، فاختفى بابا وظهرت بدلًا منه قمر، ممددة على شيزلونج على رمال الشاطئ أمام البحر، ومرتدية

مايوهًا أزرق من قطعة واحدة، كما ظهرت بالضبط في آخر صورة لها رفعتها على الفيسبوك. رفعت قمر كأس بيرة عاليًا في وجهي وسألتني، عرفتي توصلي بسهولة للأربع الجاي؟ أجبتها بابتسامة، تهت شوية بس وصلت اهو.

كان المكان كأنه مدينة. من ورائها لاحت بيوت منخفضة وملونة كبيوت النوبة، وبينها يسير ترام قديم ومتهالك، متلويًا ليتفادى البيوت التي تبدو على وشك السقوط من أثر ضوضاء الترام. وتساءلت أنا، هما الناس في البيوت دي مابينزلوش البحر ليه؟ فقالت قمر، أنا بصراحة مش فاهمة خالص هما بيفكروا ازاي.

في الغالب تتعطل ذاكرتنا في الحلم. تكون الذاكرة هي الحلقة الأكثر هشاشة، بين الحلم والواقع طبعًا، ولكن بالأساس بين فقرات الحلم وبعضها البعض. مع هذا، تذكرت أن بابا قال لي نفس الجملة ونحن في الأوتوبيس المظلم محاطَيْن برائحة البنزين الخانقة. ودفعني هذا إلى التفكير أنه ربما أكون أنا من لا أعرف كيف يفكر الناس، كيف تتطور الأفكار في أدمغتهم لتدفعهم إلى قرارات ومصائر معينة. التفتُّ إلى قمر وقلت إن هذا لا يحدث بشكل متطابق بين كل الناس، والدليل على هذا نحن أنفسنا، أنت تلبسين مايوهًا وأنا ألبس جينزًا وتيشيرتًا، ومع هذا فنحن نجلس هنا في نفس المكان بجوار بعضنا ونتكلم ونضحك.

ودليل آخر تذكرته ولم أنطق به، فمع أنني أكتب أشياء كثيرة وجميلة جدًّا على الفيسبوك، وأنني متأكدة أنها تقرأ ما أكتبه ساعة كتابته، إلا أنها لا تضع لي أي لايك. لم أقل هذا علانية، ورغم هذا

أحست قمر بما أريد قوله، فأشاحت بوجهها بعيدًا ثم نظرت إليَّ وقالت، إنتي صح.

ويبدو أن دمعة لاحت في عين قمر، أو أن الدمعة كانت إضافة وضَعها عقلي على الحلم عندما صحوت.

٢٣

رن جرس الباب يوم الثلاثاء. أطلت حرنكش من العين السحرية ورأت عاطف. لم تفتح الباب ولكنه رن مرة ثانية وثالثة. لم يعد هناك عاطف الجنتلمان الذي لا يطيق الوقوف أمام باب امرأة لأكثر من دقيقتين، وإنما كان مقابله عاطف آخر، زنانٌ ولحوح. وفتحت الباب. كانت ذقنه طويلة وقميصه مكرمشًا، وفور ما رآها قال، أنا تعبان أوي يا حورية.

أدخلته وأجلسته على الفوتيه الأحمر، هذا الذي أصبح مقعدها المفضل منذ انتقالها إلى المقطم. أشفقت عليه قليلًا، سألته، عاوز ايه يا عاطف؟ فقال عاوز اتكلم معاكي.

اعتذر اعتذارات لا نهائية عن طرده لها من عربيته. بدا منهارًا ويهرش في شعر ذقنه لعدم اعتياده عليه، ويقول بين الحين والآخر، إحنا لازم نقعد نتكلم.

ـ ما احنا بنتكلم اهو يا عاطف.

ـ لا. نتكلم بره. البيت هنا مكتوم أوي.

وبالإضافة إلى كتمة الجو، يبدو أنه لاحظ أيضًا اتساخ الشقة، فقد لاحت منه التفاتة نحو كراتين البيتزا المرمية في كل مكان في البيت. سألها، كل أكلك دليفري كدا؟ وعرض أن يعزمها على الغداء الآن.

كان كل موضوع نقعد ونتكلم منتهيًا بالنسبة إليها خلاص، ولكنها مع هذا كانت تريد الخروج من البيت بعد يومين لم تخرج فيهما. قالت لتخرج وتأكل وتتكلم وتنهي هذا الموضوع. اقترح مطعمًا يطل على كورنيش المقطم. فاستحمت ولبست ووضعت ميك أب، ونزلا معًا.

تمشيا معًا نحو المطعم. تمكنت من إقناعه أخيرًا بالمشي حتى هناك.

في المطعم أطلا على القاهرة كلها. طلب باستا ومحشي ورق عنب وهي اختارت لحمة مشوية. الفراخ هنا كويسة خدي بالك. الفراخ لا تؤكل في الخارج خد بالك، ومدت إصبعًا باتجاهه كأنها تقول حكمة مرحة.

ضحك وراقت أعصابه. ولما راقت أعصابه فجر في وجهها القنبلة، أنا بافكر أطلق شاهندة.

هو لا يريد أن يقول كلام إنشاء، ولكنه يحبها فعلًا - حورية - وهي فتحت له طاقة أمل في الحياة فعلًا، وهو فوق هذا غير سعيد في حياته ويشعر بالملل ويتساءل ما فائدة أن نحيا حياة لا نحبها لنرضي أشخاصًا لا نحبهم.

أوه يا عاطف! أنا لا أريد أن أصدمك، ولكن رجاء رجاء رجاء، لا تجعلني أخرب لك بيتك. أنا لا أريد هذا وأنت تدفعني إليه وأنا لا أريدك أن تدفعني إليه.

أشارت إلى تحت، إلى غرب القاهرة وقالت، انظر يا عاطف، هنا المفترض أن يقع حي السيدة، وأنا عشت هناك طويلًا. احتككت بالسيدة نفسها. كنت دائمة الصلاة في جامعها، كنت أسألها وأستشيرها بخصوص كل شيء. كانت مثل معلمة بالنسبة إليَّ، مثل أم ثانية، واخترق إصبعها الشجر والهواء والعمارات والمآذن وطار في خط متجه إلى أسفل وإلى الغرب، وصولًا إلى شقة السيدة، كان عاطف يلتقط بالشوكة قطعة محشي ورق العنب عندما توقفت الشوكة في طريقها إلى شفتيه. نظر خلفه حيث تشير وقال، أيوه، السيدة هناك.

في شقة السيدة رأيتك للمرة الأولى، لن أنسى هذا. ولكني سرعان ما تركتها. لم أعد للصلاة هناك منذ زمن طويل. وتعرفت على واحدة أخرى، لا أذكر أني كلمتك عنها سابقًا، اسمها قمر. أحببت قمر ووثقت بها، كانت هي أيضًا مثل معلمة لي، تخبرني بالصح وتخبرني بالغلط. وكانت هي من نصحتني بأن أقترب منك. استشرتها ونصحتني. الآن أفكر كم أن هذا الذي بيني وبينك كان شيئًا كبيرًا وحقيقيًّا. وأنا أؤمن بالأشياء الحقيقية يا عاطف. هل تؤمن بها مثلي؟

وقال آه، وكان قلبه يدق، وكادت حرنكش تسمع نبضاته في أذنها.

لا تتسرع بالإجابة يا عاطف. السؤال فخ. أنا أسألك لأني سرعان ما تركت قمر هي الأخرى. ماذا أقول؟ لم أعد أؤمن بها. بانت لي على حقيقتها، وحقيقتها لم تكن وحشة ولكن، ماذا أقول؟ ليست جميلة جدًّا أيضًا. تخلت عني قمر في أكثر وقت احتجتها فيه، استهبلت أو

جبنت، بخلت عليَّ حتى باللايك. أنا خسرت كل أصحابي وهي جبنت عن أن تخسر أحدًا. عرفت ساعتها أني أقوى منها وأحسن منها.

يا عاطف أنا أقول لك كل هذا لأخبرك أني الآن أؤمن بامرأة ثالثة.

وسكتت قليلًا ثم نطقت اسمها، مدام شاهندة مراتك. أنا الآن أؤمن بمدام شاهندة مراتك.

شوف، هذه امرأة حاربت حماتها حتى تعطيني حقي في ميراث زوجي، هذه امرأة لم أرها إلا مرتين وعرضت عليَّ العمل عندها. أن أعود إلى ما كنت عليه وأودع كل هذه اللخبطة في حياتي. هذه امرأة وجدَت عندها بعض المال فقررت التبرع به كله لتؤوي الأيتام في منطقتها. هذه امرأة قديسة يا عاطف وأنت لا تعرف هذا أو تعرف وتتجاهل. هذه امرأة لا يمكن لك أن تتركها، وأكثر من هذا، لا يمكن لي أن أتسبب بأي أذى ضدها، من قريب أو بعيد. أرجوك اصرف النظر عن الفكرة.

أنا كلمت مراتك من يومين على فكرة عشان أروح الدار واشتغل مع الولاد. هاشتغل هناك من شهر تسعة اللي جاي. بس بكرة الصبح هاروح ابص بصة عالدار. اتفقت على كدا معاها. الأطفال كانوا أجمل حاجة في حياتي، وهيفضلوا أجمل حاجة. ومراتك بتعلمني كتير وعندي إحساس إنها هتعلمني أكتر.

اختصارًا لكل الكلام، تقول، بقى عندي ملل من حياتي ورغبة إني أبدأ حياة جديدة ونضيفة.

- ملل من حياتك ولا مني؟

- من الاتنين، بس يمكن كمان منَّك أكتر.

أنا آسفة إني باقولك دا، بس أرجوك يا عاطف، إحنا كنا اخوات في الأول، أرجوك خلينا نرجع اخوات زي ما كنا. وفي نفس الوقت أنا هافضل اقدرك واعزك وكل حاجة.

كان ساكتًا تمامًا، وظل ساكتًا حتى بعد أن أنهت كلامها.

نادته، عاطف، فنظر إليها وقال، أيوه، مافيش.

كانت تعبث بحبات الترمس على الطاولة وهي تكرر اعتذارها بخفوت، أنا آسفة جدًّا، عندما رفع رأسه إليها وقال لأ.

ـ لأ إيه؟

ـ لأ أنا مش موافق اننا نسيب بعض.

نظرت إلى الأرض. انبعج وجهها باعتذار ولكن بحسم فظهرت غمازتاها واضحتين، أنا آسفة بس أنا قراري نهائي.

معلش، قالها وطرف شفتيه يبتسم بسخرية، ثم فكر في شيء معين، رأته حرنكش وهو يتشكل في عقله، ثم وهو يصاغ على هيئة كلمات:

ـ ممكن اطلب منك طلب؟

ـ أيوه.

ـ ممكن توريني شنطتك؟

بعينها اليسرى رأت العاطفين ينطبقان على بعضهما، عاطف الفنان المنكسر وعاطف الآمر الناهي، كأنهما وجه ينطبق على قناعه أو قناع ينطبق على وجهه، بهدوء وبلا افتعال. وبعينها اليمنى رأت الشر يتسرب إلى المكان من تحت أعقاب الأبواب، يجري في تيارات متعددة على الأرض، ثم تنضم تياراته إلى بعضها فيرتفع منسوبه حتى يغرق الطاولات ويفيض منها.

كانت جهزت نفسها لهذا. تدربت أيامًا وليالي على مصارعته عندما يأتي. لم تكن خائفة.

مدت إليه شنطتها، فنبش في محتوياتها بسرعة وأخرج المسدس. ارتعش جفناها لثانية ثم واصلت تصويب نظرها إليه. أنا هانتحر يا حورية. مش هاتقدر يا عاطف، قالتها بلا تردد.

ظل ناظرًا إليها بلا حركة، ثم أومأ برأسه بمعنى ماشي، ثم بمرارة تشبه الاعتذار، أنا بس مش عاوز اضايق الناس هنا.

قام من على الطاولة مخفيًا المسدس بين كفيه. اقترب من سور المطعم المشرف على الكورنيش، وعندما لامس جسمه السور الحجري شد الأجزاء. لم ير أحد الحركة باستثنائها، وضاع صوت الأجزاء في هواء الجبل. قامت لتلحق به. رآها أمامه فابتسم بتحدٍّ ووضع المسدس في فمه، وهي وضعت ذراعيها أمام صدرها، وريني نفسك.

بدا كأن لحظة وقوع فوهة المسدس داخل فمه قد جرت في فترة شديدة الطول. رأت حرنكش أحداث حياتها الماضية، رأت وجه كمال، مثل وجه عاطف بالضبط لكنه بلحية وأكثر نحولًا. نشطت عيناها وذاكرتها أكثر من المعتاد فرأت الصورة أكبر وأوضح. وجه محمود، بنظارته الطبية ثم بنظارته الشمسية ثم بدون نظارته، ووجه طنط عدالة، جالسة على الكرسي المتحرك تأمر الكائنات فتأتيها طوعًا، ووجه عم ناجي يبوس المسدس ثم يعطيها إياه، ووجه أبيها يطلب منها توحيد التكنيك ولكن عدم الاستسلام له، اركبي التكنيك يا حرنكش.

كانت ماسورة المسدس ملامسة لحلق عاطف عندما قالت لنفسها ياللا، أمامك فرصة حياتك الآن فاقتنصيها.

انقضت على المسدس واختطفته في حضنها. وبدأت عيناها تحمران من فرط الإثارة. كان نجاحها في الإمساك بالمسدس يسكرها، كأنه أهم نجاح في حياتها كلها. تراجع عاطف خطوتين إلى الوراء خوفًا من احمرار عينيها، فصوبت نحوه المسدس بذراعين مشدودتين على آخرهما لتحذيره من التراجع. تجمد في مكانه لثانية فأطلقت النار على رأسه، طلقة واحدة، بلا ثرثرة، بلا دهون، نتج عنها أن تدلى جسمه على سور المطعم خامدًا بلا حراك، كعِجل مذبوح في محل جزارة. بدأت عموم الناس تصرخ وتجري. وبدأ رجال أقوياء يتأهبون للفتك بها. حتى صرخت بصوت مدوٍّ أنا قتلته.

صرخت بصوت عظيم ارتجت له أحياء القاهرة بالأسفل، تصدعت مآذن السيدة وتساقطت الأبراج السكنية داخل مياه النيل ودوت أبراج الكنائس وتردد صدى الصرخة على جدار برج القاهرة. حفظتها العصافير النائمة في أشجارها واستعدت كل منها لترديدها على الأخرى عندما يطلع صباح اليوم التالي.

سمع الجميع صرختها، ومن لم يسمع سرعان ما أبلغه من سمع.

لم تكن تنظر إليه وهي تصرخ أنا قتلته، ولا حتى أشارت أصابعها إليه. كانت تصرخ بها في المطلق. في وجوه حراس أمن المكان ربما، كأنها تهديد لهم هم أنفسهم. كانت تصرخ بها وكأنها لبؤة تتأهب للانقضاض عليهم. وبدأ من يتأهبون للفتك بالتراجع وبتوسيع قُطر دائرتهم حولها. خافوا قليلًا.

وبدأ صوتها يخفت شيئًا فشيئًا، وبدأ جسمها يرتخي، حتى انتهى بها الأمر جالسة على الأرض ومستندة للجدار، وتتمتم، أنا قتلته أخيرًا،

أنا قتلته. ثم ترفع رأسها ببطء وتشير إلى الرجال المشدوهين أمام معجزتها بأن ياللا، تعالوا يا أبنائي. اقبضوا عليّ وضعوا الكلابشات في يدي، فقط برفق حتى لا أتألم يا أحبابي.

وكان طوفان الشر الذي اجتاح المطعم منذ قليل ينسحب بذعر وهرجلة منصرفًا إلى بلاعات متفرقة على الأرض، سميكًا وثخينًا يركب بعضه فوق بعض في محاولاته المتعثرة للهروب، وحرنكش تقوم مستندة إلى رجلين ضخمين يضعان في يديها الكلابشات، وتنظر إليه، ثم إلى الحضور، بانتصار. تمشي مرفوعة الرأس، لا تتعثر خطواتها ولا ترتعش.

٢٤

في زنزانة قسم المقطم طلعت عليها شمس الأربعاء القادم.

لم تكن شمسًا استثنائية. لم تختلف عن غيرها من الشموس سوى في أمرين بسيطين، أولهما أن حرنكش لم ترها، وكان كل ما أدركته من حلول الصبح هو تغير إضاءة الزنزانة من العتمة الداكنة إلى الإنارة الداكنة، وثانيهما أنها، هي التي لم تنم ليلتها لحظة واحدة، لاحظت هذا بالتدريج، ثانية بثانية.

طول الليل كانت صاحية وتهلوس، ولم يفهم أحد هلوساتها. كانت تردد كلمات مختلفة من الشرق ومن الغرب، بلا رابط بينها، سوى أنها كانت تعود لتكرر أنا قتلته، كانت تكررها كلازمة أغنية، وعندما يعود أحدهم ليسألها لماذا قتلتِه تعود إلى الهلوسة.

ولكن مع انتصاف نهار الأربعاء القادم، وبعد أن أخذت الهستيريا تغادرها شيئًا فشيئًا، وبعد أن حاولت مجددًا استرجاع حكايتها من أولها، الذي لم تثق في مكانه، حتى آخرها، الذي كان منذ ساعات، وبعد تمكنها من وضع مشهد موت عاطف في سياقه، لا تضخم من أهميته ولا تبخسه حقه من الحكاية، وبعد تمكنها من ضمه إلى مشاهد سابقة عليه، وبعد انسحاب أعراض الصدمة العصبية وحلول الهدوء النفسي محلها، كانت حرنكش قد تحولت إلى ما أصبحت عليه على مدار السنوات التالية؛ امرأة قوية.

في رحلة عربة الترحيلات من قسم الشرطة إلى السجن، رأى العساكر امرأة بوجه أسمر صاف وعينين فاتحتين تنظر إلى الأرض بثبات، طول الطريق تنظر إلى الأرض، ليس أنها تتحاشى النظر إليهم، ولكنها مستغرقة في التأمل. تلامزوا بينهم عن المرأة التي تتابع صرصارًا شاردًا بكل هذا الاهتمام. فجأة رفعت المرأة رأسها للعساكر، فأحنى هؤلاء رؤوسهم سريعًا.

وكانت هذه نواة القصة التي ترددت لاحقًا عن المرأة التي وجهها كله نور على نور يبهر العيون.

٢٥

قلائل من انتبهوا لقصتها. شيَّر أحدهم خبر المرأة التي قتلت رجلًا، وتساءل إن لم تكن هذه المرأة هي بنفسها حرنكش التي كانت

صديقة هند سعودي ثم انقلبت عليها بعد موتها. ورجع أصدقاؤها لحسابها على الفيسبوك ولكنهم وجدوا الحساب غير مُفعَّل، فانطوى الأمر في النسيان.

بالمقارنة بسيول الأخبار المتتالية عن الحشود الثائرة ضد الإخوان المسلمين، لم يكن خبر المرأة التي قتلت رجلًا في مطعم بالقاهرة خبرًا مهمًّا، ولم يأخذ إلا مساحة صغيرة في صفحة داخلية من إحدى الجرائد.

ولكن هل كانت حرنكش تريد حقًّا أن تأخذ قصتها مساحة كبيرة في الجرائد؟ بالطبع لا. لم تهتم إلا بأن تأخذ قصتها مساحة كبيرة لدى من يحبونها.

في جزء من عقلها، كانت تعي أن بعض قصصها قابل للتصديق، وبعضها غير قابل. وفي جلساتها مع المحامي الذي عينه لها أحد عمَّيها، وفي تحقيقات النيابة، كما في حياتها العادية، كما في حياة كلٍّ منا العادية، كانت حريصة على ترديد القصص القابلة للتصديق فحسب.

حرنكش مثل الجميع، تقتنع بأشياء تعرف أنها غير مقنعة، ولا ترددها إلا على مسامع من تثق أنهم سيقتنعون، حبًّا لها أو ثقة فيها. هؤلاء وجدتهن في زنزانة السجن. لم تجدهن في القسم ولا بين السجانات ولا بين الأمناء ولا العساكر ولا الضباط. وجدتهن في قلب الزنزانة ورددت عليهن أجزاء من الحكاية، في طوابير التمام وفي ساعات التريض. حكت قصة فالتفت حولها اثنتان، ثم ثلاث، ثم عرفت السجينات أن لدى هذه المرأة ما تحكيه.

الأخبار كانت تتوالى عن مصر التي تنتفض ضد حكم الإخوان، وعن الجيش الذي يعزل الرئيس ويدير شؤون البلاد، والسجينات الجنائيات كن في حاجة إلى من يشرح لهن، ولم يكن هناك أفضل من حرنكش التي تعرف عن الثورة أكثر مما يعرفه الجميع، حكت عن القنبلة التي دخلت بيتها وقتلت جارتها، عن اعتصامها في ميدان التحرير وضربها الضابط، حتى حبيبها الإسلامي الذي وشت به حكت قصته.

كانت الثورة مدخلها إلى الحكاية. في البدء كانت تحكي بدون أسماء، كأنها تحكي عن أحداث عامة مر بها البلد، بعد قليل بدأ خيط الحكايات ينتظم حول نفسها. بدأت تكثر من قول كلمة «أنا»، حتى انطلقت الحكاية على لسانها بهدوء وثقة.

كانت تعرف أن حكايتها طويلة، ولذلك لم تتوقف عن حكيها.

في بعض الأحيان كانت تحكي القصة الواحدة مرتين وثلاثًا، بتغييرات طفيفة، حسب ما تسمح به ذاكرتها. وكان واحد من أهدافها الأساسية أن تصل الحكاية إلى مدام شاهندة. بين الحين والآخر، كانت تستعطف كل سجينة أوشكت على قضاء مدتها، أن تسلِّم لها على شاهندة. كانت تريد تحيتها وإبلاغها بحبها الكبير والاطمئنان لكونها مش زعلانة منها.

لا أحد يعرف حتى الآن إن كانت الحكاية وصلت لشاهندة أم لا، ولكن لا شيء مستبعدًا، خاصة مع توسع قصة حرنكش، من حدود قصة المرأة التي قتلت الرجل، والمخبأة في إحدى الصفحات الداخلية بالجريدة، إلى قصة المرأة التي روَّضت الصدفة

وأحيت الموتى، المرأة التي نشنت صح وقتلت الشيطان وكسرت سلسلة الشر الثقيلة المطبقة على رقبتها. ومع توالي وصول الهدايا لحرنكش من مريديها بالخارج، مريديها الذين لا يجمع بينهم شيء، فإن احتمال وصول الحكاية لشاهندة كان يأخذ في التزايد طول الوقت.

تصلي حرنكش بالليل وتخاطب ملائكة الله، سلمولي على شاهندة.

٢٦

في أيامها الأولى هناك، لاحظت حرنكش شجرتي توت في باحة السجن. لاحظتهما وصاحبتهما وحرصت على أن تستظل بظلهما في أيام الحر.

وبعد أشهر بدأت الفكرة تخامرها. أتت بعلبة حلاوة طحينية فارغة، ثقبت غطاءها ثقوبًا متعددة. كدست فيها أوراق التوت وعادت بها إلى زنزانتها.

صارت تتابع نمو ديدان القز بشغف بالغ. تفتح العلبة بين الوقت والآخر وتوجه الديدان الصفراء إلى مسارات تقترحها أصابعها. ضحكت السجينات كثيرًا على هوايتها الجديدة تلك، ولم تلقِ إليهن بالًا، بل ردت في مرة على استهزاء إحداهن بقولها، دول ولادي دول! قالتها بابتسامة صافية وغير راغبة في رد الاعتداء.

لم يزرها أحد حتى لحظة كتابة هذه السطور. كانت تسمع حكايات زميلاتها عن أولادهن الذين يزورونهن، وتبتسم بمحبة. ولا مرة ضُبطت حرنكش متلبسة بالغيرة.

العكس هو الصحيح، ولم يتبين هذا بموقف أو اثنين وإنما بمرور السنوات. كانت تستمع إلى شكاوى الأمهات السجينات من جفاء الأبناء غالبًا، ولكن حتى من أشياء أكثر هامشية، كزواج الابن من امرأة لا تحبها الأم مكبلة اليدين في السجن، أو بيعه شقة لم تكن تريد منه بيعها. كانت حرنكش تنصحهن نصائح سرعان ما تثبت فعاليتها. بالتدريج بدأن يهمسن من حولها، أكيد مش صدفة.

يومًا بعد يوم وثقت بها السجينات. وإن كانت لا تذكر أول مرة بالتحديد نوديت فيها بـ«ماما حرنكش».

كان هذا نداء عابرًا، ولكنه سرعان ما تأكد بعدها في مرة ثانية وثالثة. في المرات الأولى كانت تقول ربما خطأ غير مقصود. وربما كان بالفعل خطأ غير مقصود، ولكن السجينة التي تسمع هذا الخطأ غير المقصود كانت سرعان ما تردده باعتباره حقيقة مثبتة. الأكيد أنه على قدر ما كانت حكايتها تنمو كان اللقب يتوطد.

هي من جانبها أحبت اللقب، كان شعرها يأخذ في الابيضاض بوتيرة شديدة السرعة، وتدريجيًا تعلمت الكلام بنبرة أهدأ ومناداة كل زميلاتها بـ«يا بنتي».

ولم تتخلَّ في الوقت نفسه عن هواية تربية ديدان القز.

في أول مرة ماتت الديدان جميعًا. ولكنها لم تيأس، جلبت غيرها وماتت أيضًا. ولكن مع الوقت بدأت تلاحظ لعاب الديدان وهو ينسج

شرانق حريرية زاهية اللون حول أجسادها. وعرفت أن جهدها لن يضيع هباء.

ستصير هذه حرفة حرنكش الأثيرة داخل السجن. ستقترح على الإدارة إقامة مشغل للحرير، وستتعلم كيف تغلي الشرانق في الماء الساخن وكيف تلف الحرير على بكرات. ستصير خبيرة في حرفة الحرير. وفي المشغل، بالتوازي مع مشيب رأسها، ستتوطد أمومتها أكثر.

هناك، في عمق الزنزانة، بينما تحكي لزميلاتها من السجينات قصة موت محمود، وهن يفتحن أفواههن رعبًا مما تحكيه هذه المرأة، لم تكن حرنكش متأثرة بشكل استثنائي، لأنها كانت تحكي وعين من عينيها على فراشة تجاهد للخروج من الشرنقة. تتابع محاولاتها المتعثرة وتشجعها في سرها وهي تواصل الحكي.

في عتمة الزنزانة خرجت أول فراشة من تحت يديها، خرجت وحومت فوق رؤوس النساء وخايلتهن، وهي تبتسم وتتابعها بنظراتها وتتمتم في سرها، سلميلي على شاهندة.

رفرفت الفراشة فوق رؤوس النساء المشغولات بتفاصيل حكاية حرنكش، التي كانت هي وحدها من تتابعها بطرف عينها. رأتها ترفرف مرتبكة لا تعرف ماذا تفعل في الحياة التي وجدت نفسها تُرمى إليها، ثم تنضج ويصبح طيرانها أكثر ثقة وهي ترتفع حتى لا تعود اليد قادرة على الوصول لها، تحوم حول الشباك العالي، ثم تأخذ قرارها الصعب بالخروج إلى الفضاء.

الآن سمعت الفراشة طرفًا من قصة أمها. الآن ستطير في سماء

القاهرة، ستغطي جميع الأحياء بجناحيها وتصل الشمال بالجنوب والنهر بالجبل والكباري بمترو الأنفاق، تلحم الفقرات ببعضها، تضبط حواف الكلام وتحكي لكل من تقابلهم القصة الحزينة والسعيدة لماما حرنكش.

«ما يمكنني قوله إن قصتي بدأت هنا، في هذه الأيام بالتحديد، قصتي التي لن يصدقها أحد ممن يرون بعيونهم وليس بقلوبهم، قصتي التي أنضجتني على نار هادئة ورمت بي رغيفًا طازجًا أمام الدنيا، أتحدى عفانة العالم وحشراته ونفاقه، أتحدى البشر الجالسين في البلاعة ولا يريدون مغادرتها، وأوهب الجمال للدنيا، أيوه، أوهب الجمال للدنيا. فكروا في كلمتي هذه واحكموا فيها بنفسكم وأنا راضية بحكم الجميع».

يعود نائل الطوخي، أحد أهم كُتابنا اليوم، برواية غاية في الإمتاع والذكاء تحكي لنا حكاية «حورية إسماعيل عبد المولى» الأسطورية مع أهلها وعشاقها وأزواجها وابنها وما حدث لها في ثورة يناير وما بعدها.

إنها قصة المرأة التي ركبت الصدفة وأحيت الموتى... المرأة التي نشّنت صح وقتلت الشيطان وكسرت سلسلة الشر الثقيلة المطبقة على رقبتها.

ISBN 978-977-6467-77-4

9 789776 467774 >

الكرمة